

صَحِيحُ الْمُرِيدِ

الْجَامِعُ لِشُرُوحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّهْمَنِ

« ١١١٥ - ١٢٠٦ هـ »

تَأَلَّفَ

عَبْدُ الْمُنْعِمِ الْأَبْرَاهِيمِيُّ

المجلد الأول

النَّاشِرُ

مَكْتَبَةُ نَزَارِطُوفِي الْبَزَّازِ

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

جميع الحقوق محفوظة للنشر

مكتبة
نزار مصطفى الباز



المملكة العربية السعودية

مكة المكرمة: الشامية- المكتبة ٢٢-٥٧٤٩٠٤٤/٥٧٤٥٠٤٤

المنوع: ٥٣٧٢٣٧٤ ص. ب: ٣٠٩

الرياض: شارع السويدى العام للمقاطع مع شارع

كعب بن زهير- خلف أسواق الراجحي ص. ب: ٦٦٩٣

المكتبة: ٤٢٤٠٣٥٣ المنوع: (٢٤٢١٩١١) الرضا البريدي: ١١٥٨٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدُّلِّ وما كان معه من إله، إذاً لذهب كلُّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض لا إله إلا هو ولا خالق غيره ولا ربَّ سواه، المستحق لجميع أنواع العبادة ولذا قضى ألا يعبد إلا إياه ﴿ذَلِكَ بَأْنُ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (١).

الحمد لله الذى رضى الإسلام للمؤمنين ديناً، ونصب الأدلة على صحته وبينها تبيناً: وغرس التوحيد فى قلوبهم فأثمرت بإخلاصها فنوناً، وأعانهم على طاعته هداية منه وكفى بربك هادياً ومعيناً.

الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدُّلِّ وكبره تكبيراً.

الحمد لله العلى العظيم، الحليم، الكريم، السميع، البصير، اللطيف، الخبير، ذى النعم السوابغ، والفضل الواسع، والحجج البوالغ، تعالى ربنا عن صفات المحدودين وتقدس عن شبه المخلوقين، وتنزه عن مقالة المعطلين، علا ربنا فكان فوق سبع سماواته عالياً، ثم على عرشه استوى، يعلم السر وأخفى، ويسمع الكلام والنجوى، لا يخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، ولا فى لجج البحار ولا فى الهواء.

الحمد لله الذى أنزل القرآن بعلمه وأنشأ خلق الإنسان من تراب بيده، ثم كونه بكلمته، واصطفى رسوله إبراهيم - عليه السلام - بخلته، ونادى كلمته موسى صلوات الله عليه فقربه نجياً وكلمه تكليماً، وأمر نبيه نوحاً - صلوات الله عليه - بصنعة الفلك على عينه، وخبرنا أن أنثى لاتحمل ولا تضع إلا بعلمه كما أعلمنا أن كلَّ شىء هالك إلا وجهه، وحذر عباده نفسه التى لا تشبه أنفس المخلوقين.

الحمد لله الذى نصب الكائنات على ربوبيته ووحدانيته حججاً، وحجب العقول والأبصار أن تجرد إلى تكيفه منهجاً.

(١) الحج الآيه (٦٢).

وأشهد أن لا إله إلا الله إلهاً واحداً فرداً صمداً قاهراً قادراً رؤفاً رحيماً لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، ولا شريكاً في ملكه، ولا سميَّ له ولا كفؤَ له، العدل في قضائه، الحليم في فعّاله، القائم بين خلقه بالقسط، الممتن على المؤمنين بفضله، بذل لهم الإحسان، وزين في قلوبهم الإيمان، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وأنزل على نبيِّه الفرقان، علم القرآن، فتمت نعماء ربنا - جل وعلا - وعظمت آلاؤه على المطيعين له فربنا - جل ثناؤه - المعبود موجوداً والمحمود ممجداً ولا يحصى أحدٌ ثناءً عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما أثنى عليه خلقه، شهادة من أصبح قلبه بالإيمان بالله، وأسمائه وصفاته مبتهجاً، ولم يدع إلى شبه الجاحدين المعطلين معرجاً.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ المصطفى ونبيُّه المرتضى، اختاره الله لرسالته، ومستودع أمانته، وجعله خاتم النبيين، وخير خلق ربِّ العالمين، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على كلِّ دين، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل وفرض على العباد طاعته ومحبته وتعزيره وتوقيره والقيام بحقوقه، وسدَّ إلى جنته جميع الطرق فلم يُفتح لأحدٍ إلا من طريقه فشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، بعثه بالكتاب المسطور في اللوح المحفوظ فبلغ عن الله - عز وجل - حقائق الرسالة، وأنقذ به أمته من الردى والضلالة، ففتح برسالته أعيناً عمياً وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، حيث دعا إلى الله على بصيرة، وسار في الأمة - بالعدل والإحسان والخلق العظيم - أحسن سيرة، إلى أن أشرقت الأرض برسالته بعد ظلماتها، وتألقت القلوب بها بعد شتاتها، وسارت دعوته سير الشمس في الأقطار، وبلغ دينه القيم ما بلغ الليل والنهار، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة وكشف الغمة وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى قبضه إلى كرامته، ومنزلة أهل ولايته، الذين رضى أعمالهم، حميداً رضى سعيها، سبق له منه السعادة في اللوح المحفوظ، والإمام المبين قبل أن ينشئ الله نسمة فعلية صلوات الله وسلامه حياً محموداً وميتاً مفقوداً أفضل صلاة وأتمهاها وأزكاها وأطيبها صلاة تملأ أقطار الأرض والسماء وجزاء الله عن أمته أفضل الجزاء وأبقى في العالمين محبته، وفي المقربين مودته، وجعل في أعلى عليين

درجته، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين، أبى بكر وعمر وعثمان وعلي
ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين .
أما بعد

فإن الله سبحانه غرس شجرة محبته ومعرفته وتوحيده في قلوب من
اختارهم لربوبيته واختصهم بنعمته وفضلهم على سائر خليقته فهي ﴿كشجرة
طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ (٢٤) تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴿(١)﴾ فكذلك
شجرة الإيمان أصلها ثابت في القلب وفروعها الكلم الطيب والعمل الصالح
في السماء فلاتزال هذه الشجرة تخرج ثمرها كل وقت بإذن ربها من طيب
القول وصالح العمل، من ذلك:

هذا الكتاب، للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، أحسن الله له
المآب، وأجزل له الثواب، وفتح لدعوته الأبواب. فهو قرة عيون دعاة التوحيد،
الذين سلكوا النهج السديد. فهدوا إلى القول المفيد. والعمل الرشيد. حيث
أرشدهم الكتاب إلى أول واجب من الله على عبده، وهو معرفته - عز وجل -
بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وتوحيده بذلك، ومعرفة ما يناقضه أو بعضه
من الشرك والتعطيل والتشبيه واجتناب ذلك، والإيمان بالقدر خيره وشره
وتوحيد الطريق إلى الله - عز وجل - بمتابعة كتابه وسنة خير خلقه، ومعرفة ما
يناقض ذلك من البدع المضلة، والأهواء المذلة، فلذا خلق الله الخلق وأخذ
عليهم الميثاق، وخلق الدنيا والآخرة والجنة والنار، وبه حقت الحاقة ووقعت
الواقعة وفي شأنه تنصب الموازين.

لذلك ولغيره كان «كتاب التوحيد» من الكتب التي أقبل عليها العلماء
مشمرين عن سواعد الجد، مجتهدين في إخراجه في صورة أجد. فكم من
باسط له ومختصر، ومنافع عنه ومنتصر، حتى كثر بحمد الله شروحه، وعمت
بفضل الله فتوحه. فاشتاقت الطلبة والإخوان إلى جمع لهذه الشروح على
شرح واحد، يفى بجميع المقاصد. ذلك لأن أغلبهم أصبح أمام هذه الشروح
مشتت وشارد، فأحيت أن أسعفهم بمراهم على حسب طاقتي وقلة بضاعتي،
وعدم أهليتي، يدفني إلى ذلك ما دفع سلفي وقدمتي، وهو قوله ﷺ:
«والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» (٢)، فسلكت في الشرح

(١) إبراهيم: ٢٤، ٢٥

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (١٧/٢١ ٢٢ النوى) وأحمد (٢/٢٥٢)، وأبو داود
(٤٩٤٦)، والترمذي (٢٩٤٥)، والنسائي في «الكبرى» (٧٢٨٨)، وابن ماجه (٢٢٥).

من حديث أبى هريرة رضى الله عنه
وأنظر «جامع العلوم والحكم» (٣٦ بتخریجنا).

مسلكهم واتبعت طريقتهم في التنبيه على بعض ما تضمنه الكتاب من بعض أنواع التوحيد وهو المقصود بالأصالة هنا ولم أخله أيضاً من التنبيه على بعض ما يتمضنه من غير ذلك .

إلا أن الأولى بنا هو بيان ما وضع لأجله، الكتاب لعموم الضرر والفساد الواقع لمخالفة ما فيه من العباد، كذا قال الشيخ سليمان، وتبعه الشيخ عبدالرحمن. وكذلك من المعاصرين، الشيخ ابن عثيمين، فتجدهم في مسائل التوحيد مطوّلين، وعن غيره من المسائل غير معرضين، سواء كان من الفروع أو من أصول الدين.. فبدأت بما بدأوا به من شرح الترجمة والتبويب، وعلاقة ذلك بالتوحيد وبالباب البعيد أو القريب، مراعيًا في ذلك البدء بالكبير منهم ثم الذي يليه على الترتيب، وقد أذكر كلامهم على طوله وأختصر وأقرب إذا لزم الاختصار والتقريب، ثم أختتم بكلامي إن كان لي في الكلام نصيب .

وميزت بين كلامي وكلام أهل العلم بقولي: [قال الفقير] هذا إذا كان الكلام على رأس مسألة أو فائدة أما إذا كان تعليقاً أو استدراكاً في وسط الكلام ويتعذر كتابة [قال الفقير] فأكتب [قلت] فإن كان (قلت) لغيري ذكرت بعده [أي فلان] اسم العالم أو الشيخ الذي قال هذا الكلام حتى لا يخلط القارئ بين قلت المنسوب إلى العلماء والمنسوبة إلى. هذا إذا تسنى التمييز بـ [قلت] أو [قال الفقير] أما إذا لم يتسن فيتميز كلامي بعدم نسبه لأحد من أهل العلم .

ثم أكرُّ على شرح الأدلة التي أوردتها المصنف من الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة فإن كان الدليل من القرآن التزمت في تفسيري الطرق الحسان كما قررها مشايخ الإسلام بأن نبدأ التفسير بالقرآن ثم بالسنة ثم بفهم سلف الأمة حتى يتبين المطلوب خير بيان، مستعيناً في ذلك بأمهات التفسير .

من لدن «الطبري» «وابن أبي حاتم» إلى «ابن كثير»، حتى «أضواء البيان» وبين ذلك من كتب تفسير القرآن الكثير. ولم أنس أن أذكر ما أوردته شراح كتاب التوحيد، من لدن «تيسير العزيز الحميد»، إلى آخر ما وقفت عليه من شروح. ككتاب «الجديد». وإن كان الدليل من السنة جمعت شروحه من الكتب التي عنت بشرح الأمهات، وكذلك ما تقدم ذكره من كتب شراح الكتاب الثقات، على الترتيب الذي فات، أو غيرهم ممن أفردوا لبعض مسائل الكتاب بحوثاً ومصنفات. كالشيخ ابن باز والألباني ومقبل بن هادي، وغيرهم ممن كان عليهم في هذا المجموع - بعد الله - اعتماد. هذا وقد أكرر شرح الحديث الواحد

من كلام العلماء جميعاً وإن كان متقارباً، أو متشابهاً أحياناً أو غالباً. ضماناً للفهم الصحيح السلفي المسلسل إلى علماء اليوم من التحريف، أو التبديل أو غير ذلك وفي نهاية كل باب، نأتى بشرح مسائل الباب. من كلام الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، إلا ما كان من قولى فى شرح بعض هذه المسائل فأصدره بقولى: [قلت] وإني إن جردت ذكرهم - أي الشراح - من شريف ما لهم من الألقاب طلباً للاختصار، ومعلوم: أن الأصل إنزال كل منزلة، فلهم ما لزمهم من شريف ما لهم من الألقاب العلمية والرتب العلية، لكن لم ألتزم ذكرها - غالباً - للإختصار ومقامهم فى قلوبنا يُجلى عن الوصف وهذه حقيقة إنزالهم منزلتهم.

وقد التزمتُ - جهدي - ما هو أنفع لنا ولهم، وهو: الدعاء لهم رَقْمًا أو نطقًا، فيما أسوقه من كلامي أما في حال النقل لكلام غيري فاتبع الأصل المنقول منه، فإن كان فيه ذلك كتبته، وإلا اكتفيت بالنطق به محافظة على الأصل.

فجزاهم الله عن الأمة والدين أحسن الجزاء وأوفاه ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين.

وكذلك فعلت فى تلك الفوائد والمسائل التى يستنبطها المصنّف مما أورده من حجج ودلائل ليقرب للطالب الثمرة، وقدمت بين يديّ ذلك كله بالتعريف بمبادئ هذا العلم العشرة، وجعلت لكل مبدأ فقرة، لتأصل عند القارئ الفكرة. ولم يفوتنى التعريف بصاحب الكتاب وبعض شراحه، وبالكتاب على الجملة. ولما كان هذا المجموع مغنياً لكلّ مريد، لشرح أيّ مسألة فى كتاب التوحيد، سميته: -

مغنى المريد، شرح كتاب التوحيد.

وهو لهذا ولغيره روحي ومن مشاريع عمري.

وجملته (تقييدات كما تقدم) ليس لي فيها من عمل سوى: الجمع، ثم الترتيب، ثم التعبير ثم التلخيص والتذييل وهي أدنى مراتب التأليف، أما أن تكون تأليفاً على نفس المتقدمين، بالإبداع، فهذا لطرّاز شغَرَ منهم الزمان، وطوي بساطه عنا منذ أزمان، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العزيز الحكيم^(١)، وعلى العلات فآمل أن يكون محتواها مشوقاً معلماً يجلو عوارض الظلم،

(١) التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل ص ١١ وما بين القوسين زيادة.

ويكسِفُ العصبية على السنن، لما هنا من نُقولٍ مستخرجة من معدنها موثقة على أصولها، عن أهل الفضل والفضيلة، والرتب الرفيعة، نجوم الهدى، رجوم العدى، أمناء الله على حفظ دينه وسنة نبيه، الذين هم عمُد في هذا الفن، من مؤلفاتهم الجامعة في «التوحيد» وعلومه، مما أغنوا به الناظر وشرحوا به الخواطر، وعقدوا للعلم الأواصر، فجزاهم الله عن حسن صنيعهم جزاء شاكر^(١).

جَمالُ ذي الأرض كانوا في الحياة وهم بعد الممات جمالُ الكُتبِ والسِّيرِ
فيا أيها القارئ له والناظر فيه، هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك، وهذا فهمه وعقله معروض عليك، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه ولك ثمرته وعليه عائدته، فإن عدم منك حمداً وشكراً، فلا يعدم منك مغفرة وعذراً وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح. وقد:

استأثر الله بالثناء وبالحمد وولى الملامة الرجلا
وإن تجد عيباً فسُدَّ الخلالاً فجلَّ من لا عيب فيه وعلا^(٢)

والله المسئول أن يجعله لوجهه خالصاً، وينفع به مؤلفه وقارئه، وكتابه وينفع به في الدنيا والآخرة، إنه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل^(*).

عبد المنعم إبراهيم

(١) انظر النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح للطاهر بن عاشور: ص ٥ نقلاً عن كتاب التأصيل بكر أبو زيد ص ٢٠ مع حذف كلمة الحديث ووضع مكانها التوحيد.

(٢) الطب للذهبي: ص ٣٧ بتخريجنا.

(*) وقد استفدنا في مقدمتنا هذه من مقدمات الكتب الآتية [شفاء العليل / لابن القيم، وطريق المهجرتين له، وتيسير العزيز الحميد، ومعارج القبول، وكتاب التوحيد لابن خزيمة].

خطة عملنا في / مغنى المريده شرح كتاب التوحيد

- أولاً: وضعنا مقدمة عامة للكتاب.
- ثانياً: المبادئ العشرة لعلم التوحيد.
- ثالثاً: أهمية كتاب التوحيد - لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وذكر منهجه في تصنيف الكتاب.
- رابعاً: ترجمة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.
- خامساً: ذكر شروح كتاب التوحيد.
- سادساً: تراجم مشاهير شراح كتاب التوحيد.
- سابعاً: وضع متن كتاب التوحيد كاملاً قبل الشرح ليسهل حفظه على الطلاب وليكون كالفهرس المساعد على الوصول إلى أى مسألة من مسائل الكتاب.

ثامناً نظام الشرح في الكتاب كما يلي: -

- (أ) مستوى أول، وفيه متن الكتاب.
- (ب) مستوى ثانى، وفيه الشرح الجامع.
- (ج) مستوى ثالث، وفيه تخريجات المتن والشرح.
- تاسعاً: الشرح، جاء بالترتيب الآتى:
 - (١) مناسبة الباب لما قبله، أو بالنسبة للأبواب السابقة له (خاصة).
 - (٢) مناسبة الباب لكتاب التوحيد (عامه). وربما قدمنا بعض هذه العناصر الثلاثة على بعض لمصلحة شرح الباب.
 - (٣) شرح الترجمة والتبويب وماذا أراد المصنف بهذا الباب.
 - (٤) إذا كان الباب مُصَدِّراً بآية قرآنية، أو جاءت يعد ذلك فإنه يأتي تفسيرها على الصفة الآتية:-
 - أ - علاقة الآية بالباب - وعلاقتها بكتاب التوحيد عامة.
 - ب - إعراب الآية.

ج - تفسير الآية، على منهج المفسرين المعروف (بالقرآن - ثم السنة - ثم الصحابة - ثم أقوال التابعين).

د - تفسير الآية بأقوال أهل التفسير، ثم شرح كتاب التوحيد.

هـ - ترتيب أقوال أهل التفسير، حسب الأقدم، فيكون الترتيب كالآتي:
- ابن جرير - الجصاص - البغوى - الزمخشري مع الاحتراز من بدعته ومخالفته لأهل السنة واعتزاله - ابن الجوزى مع التحذير من تفويضه وإضطرره به فى الأسماء والصفات - الفخر الرازى مع التحذير أيضاً من تأويله وأشعريته - القرطبى مع التنبيه على أشعريته - ابن كثير - الشوكانى - ناصر السعدى - الشنقيطى - ظلال القرآن(*) مع التنبيه على ما يفهم منه التأويل أو الخطأ فى الدليل لا المدلول أحياناً - الإعراب المعاصر لمحيى الدين درويش مع ملاحظة تقديم قوله فى الإعراب على كل المفسرين معتبرين فى ذلك والتدرج فى فهم الآية فبمعرفة الإعراب نعلم ما علمه الصحابة أول وهلة من الآية ثم علموه بما معهم من قرآن وبما نزل بعد ذلك ثم علموه بقول النبى ﷺ.

وربما أجمع أقوال المفسرين فى قول، فإن زاد أحدهم أضفنا الزيادة.

عاشراً: شرح أحاديث المتن:

(١) النظر فى الأحاديث من حيث الصحة والضعف وجمع الطرق لذلك وغالباً من نضعه من كلام سليمان آل الشيخ وإلا فمن كلامنا إن لم يكن له كلام.

(٢) مناسبة الحديث للباب والكتاب.

(٣) وضعنا شرحنا للحديث من كلام أهل العلم والشرح كالآتى:
النووى - ابن حجر - تحفة الأحوذى - عون المعبود - ومعالم السنن - سليمان آل الشيخ / «تيسير العزيز» - حامد بن محمد بن حسن / «فتح الله الحميد المجيد» - عبد الرحمن آل الشيخ / «فتح المجيد» - «وقرة عيون الموحدين» - ناصر السعدى / «القول السديد» - ابن باز / «التعليق المفيد» - ابن عثيمين / «القول المفيد» - عبد الله

(*) راجع مقدمة كتابنا (فتح ذى الحلال فى تخريج أحاديث الظلال) وخاصة فصل (هل فى ظلال القرآن

كتاب تفسير؟).

ابن جبار الله / «الجامع الفريد» - محمد القرعاوى / «الجديد» -
ياسر برهامى / «فضل الله الغنى الحميد».

(٤) فوائد الحديث إن وجد للشرح قوائد.

الحادى عشر: وضع مسائل الباب وشرحها فى نهاية كل باب، وغالباً ما تكون
من القول المفيد، ثم تعليقى عليه.

الثانى عشر: قد يحدث تقديم وتأخير فى هذا الترتيب السابق؛ وذلك لما
تقتضيه مصلحة الشرح، فعند ذلك أراعى تقديم الأهم فالهم، والأنسب
فالأنسب.

الثالث عشر: التخرىج:

أ - قمنا بتخرىج أحاديث متن كتاب التوحيد وعزوناها لمصادرنا.

ب - غالباً ما نحكم على أحاديث المتن، ونظهر ما فيها من كلام أهل
العلم من جرح أو تعديل.

ج - خرجنا أحاديث الشرح تخرىج مختصر، وحكمنا على بعضها
بالصحة أو الضعف.

د - خرجنا آيات المتن والشرح.

هـ - خرجنا أو عزونا كلام أهل العلم من الشراح إلى مصادرنا فى
كتبهم.

و - وربما استفدنا من بعض حواشى شروح كتاب التوحيد.

تنبيه: وضعنا ترقيم «تفسير ابن أبى حاتم» معتمدين على النسخة
المطبوعة، وما لم نرقمه وعزونا لتفسير ابن أبى حاتم فإنه من نسختنا
المحققة الجارى طبعها - إن شاء الله تعالى -.

الرابع عشر: مصادر ومراجع الكتاب.

الخامس عشر: فهارس الكتاب

فهارس موضوعات الكتاب

مقدمات لكتاب «مغني المريدي» شرح كتاب التوحيد» وفيها:

- * مبادئ علم التوحيد
- * أهمية كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ومنهجه في الكتاب.
- * ترجمة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.
- * شروح كتاب التوحيد.
- * بعض تراجم الشراح.

* مبادئ علم التوحيد

باعتبار «علم التوحيد» فناً مستقلاً ، فلا بد من معرفة مبادئه العشرة التي ينبغي لفاصل كلِّ فنٍّ أن يعرفها ، لتصوّر ذلك الفنِّ قبل الشروع فيه .
وقد جمعها الصِّبان نظماً بقوله (١) :

إِنَّ مَبَادِيَّ كُلِّ عِلْمٍ عَشْرَةٌ الحَدِّ والمَوْضُوعِ ثُمَّ الثَّمَرَةُ
وَنَسْبِهِ وَفَضْلَهُ وَالوَّاضِعَ وَالاسْمَ الِاسْتِمْدَادَ حَكْمَ الشَّارِعِ
مَسَائِلَ وَالْبَعْضَ بِالْبَعْضِ اكْتَفَى وَمَنْ دَرَى الْجَمِيعَ حَازَ الشَّرْفَا

زاد بعضهم: المبدأ الحادى عشر وهو: شرفه وعليه فهذه مبادئ «علم التوحيد» هى :

المبدأ الأول من مبادئ علم التوحيد

حده: أى تعريفه أو معناه

علم التوحيد له معنيان.

(١) معنى إضافى: فعلم مضاف والتوحيد مضاف إليه .

والعلم: هو إدراك الشيء على ما هو عليه فى الواقع إدراكاً جازماً وهو بخلاف الجهل (٢).

أما التوحيد: مصدر وحد يوحد توحيداً، ومعنى وحدت الله أى اعتقدته واحداً وسيأتى مزيد تفصيل عند شرح قول المصنف (كتاب التوحيد).

(٢) علم التوحيد اللقى: وهو علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية من الأدلة الثابتة المرضية (صريح المعقول) (وصحيح المنقول).

وسيأتى الكلام على هذه العقائد فى المبدأ الثانى .
مسئلة

هل الإيمان هو التوحيد:

قال ابن عثيمين (٣):

(١) نقلاً عن كتاب التأصيل للشيخ بكر أبو زيد ص ٣٧ .

(٢) نقلاً من كتابنا «حاشية على شرح الورقات» .

(٣) «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ابن عثيمين» ٢٦/١ .

التوحيد: إفراد الله - عزوجل - بما يختص به ويجب له، والإيمان: هو «التصديق المتضمن للقبول والإذعان».

وبينهما عموم وخصوص فكل موحد مؤمن، وكل مؤمن موحد بالمعنى العام.

ولكن أحياناً يكون التوحيد أخص من الإيمان، والإيمان أخص من التوحيد، والله أعلم.

المبدأ الثاني من مبادئ علم التوحيد:

موضوعه

الكلام على ذات الله من حيث ما يتصف به وما يتنزه عنه ومن حيث ما يجب له.

والكلام على ذات الرسول ﷺ من حيث ما يتصف به وما يتنزه عنه ومن حيث ما يجب له.

والسمعيات وهى الأخبار التى لا نعرفها إلا عن طريق السمع كذكر الملائكة والجنة والنار.

المبدأ الثالث من مبادئ علم التوحيد «ثمرته».

أهمية علم التوحيد والهدف من تعلمه وشرحه

* وستكلم بين يدي هذا المبدأ الثالث - ثمرته - عن أهمية هذا العلم، والهدف من تعلمه؛ ذلك لأننا وجدنا أن هذا أنسب المواضع لهذا الفصل الذى هو بمثابة تجديد النية، أو تصحيح النية حتى نستمر فى هذا العمل ونثاب عليه^(١) فلانستمر إلا بنية خالصة لله ولانصبر على هذا العمل إلا بنية، ولانؤجر ونثاب ولايصح منا هذا العمل إلا بنية، وهذا ما فهمه العلماء من قول النبى ﷺ الثابت فى الصحيح «إنما الأعمال بالنيات»^(٢) فوجود العمل بنية، فلا يوجد صبر على عمل ولاصبر على علم إلا بنية، ولايصح ولا يقبل إلا بنية صحيحة، ولايستمر إلا بنية طيبة، ولايأتى هذا العمل ثماره إلا بنية طيبة كما تقدم فى شجرة التوحيد: أنها تؤتى ثمارها كل حين بإذن ربها.

(١) كان هذا الكلام فى أول المحاضرات فى شرح الكتاب.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩١)، ومسلم (٥٣/٣ - الإمارة) وانظر «رياض الصالحين» (١).

بتخريجنا).

- ولأن قضية التوحيد قضية دائمة في حياة البشرية

فقضية لا إله إلا الله قضية دائمة في حياة البشرية. . لا يدعى إليها الكفار وحدهم لكي يؤمنوا، ولا المشركون وحدهم ليصححوا اعتقادهم، ولكن يدعى إليها المؤمنون بها كذلك ويذكرون بها، لكي تظل حية في قلوبهم، راسخة في ضمائرهم، عاملة في واقع حياتهم لا يفترون عنها، ولا يغفلون عن مقتضياتها: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾^(١).

ومن ثم جاء ﷺ وأرسل إلينا بشرع مجيد يحقق هذا التوحيد، ويجدد لنا في كل وقت وفي كل حين في قلوبنا هذا الإيمان، فمثلاً:

نجد أن الواجب الأوّل على ولي الأمر تجاه ولده الذي قارب النطق أن يلتفت إلى الله إلا الله. قال ابن القيم^(٢): فإذا كان وقت نطقهم فليقلنوا لا إله إلا الله وليكن أوّل ما يقرع مسامعهم معرفة الله سبحانه وتوحيده وإنه سبحانه فوق عرشه ينظر إليهم ويسمع كلامهم وهو معهم أينما كانوا.

ونجد أن اليوم يبدأ بأذان الفجر والآذان كله توحيد وأخرج الطبراني عن عكرمة في قوله - عز وجل - ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾^(٣). قال المؤذن: حين يقول لا إله إلا الله^(٤).

وأيضاً بعد صلاة الفجر تُعلن كلمة التوحيد من قال دبر صلاة الصبح وهو ثان رجله قبل أن يتكلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير، عشر مرات كُتب له عشر حسنات، ومُحى عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، وكان يومه ذلك في حرز من كل مكروه وحرس من الشيطان ولم ينبغ لذنب أن يدركه في ذلك اليوم إلا الشرك بالله تعالى»^(٥).

(١) النساء: الآية (١٣٦) وانظر «مفاهيم ينبغي أن تصحح» (١٨، ١٩).

(٢) تحفة المودود (١٦٤).

(٣) فصلت: الآية (٣٣).

(٤) «الدعاء للطبراني» (١٥٤٩).

(٥) [ضعيف] أخرجه الترمذى، والنسائي (٩٩٥٥) وقال الترمذى: حسن صحيح غريب قلت: وفيه

شهر بن حوشب وهو ضعيف.

وانظر «الأذكار» (١٨٢) - بتخريننا).

وأيضاً دبر كل صلاة لما أخرجه مسلم عن ابن الزبير - رضى الله عنهما - أنه كان يقول دبر كل صلاة حين يُسَلِّمُ «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لاحول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين وله كره الكافرون»^(١).

وأيضاً فى أذكار الصباح والمساء، ومنها «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت..»^(٢). وهو فى الصحيح وغيرها من الأذكار وأيضاً عند الوضوء - يعنى بعد الوضوء - فلقد روى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»^(٣).

وأيضاً عند افتتاح الصلاة لما ثبت فى الصحيح «... اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسى واعترفت بذنبى» الحديث^(٤).

وأيضاً فى أذكار الركوع والسجود لما روى مسلم عن عائشة قالت: تفقدت النبى ﷺ ذات ليلة فتجست فإذا هو راعع أو ساجد يقول «سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت»^(٥).

وفى التشهد الثانى لما فى الصحيحين من حديث ابن مسعود فى التشهد وفيه «... أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله»^(٦).

وفى الدعاء بعد التشهد الأخير لما رواه مسلم كان رسول الله ﷺ يقول بين التشهد والتسليم: «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٩١/٥ - المساجد). وانظر «الأذكار» (١٦٧ - بتخریجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٣٠٦) عن شداد بن أوس به.

وانظر «الأذكار للنوى» (١٨٦ - بتخریجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم (١١٨/٣ - الطهارة).

وانظر «الأذكار» (٧٤ - بتخریجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (٣٠٩/٣ - صلاة المسافرين).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم (٢٠٣/٤ - الصلاة).

وانظر «الأذكار للنوى» (١٣٨ - بتخریجنا).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٨٣١)، ومسلم (١١٥/٤ - الصلاة).

وانظر «الأذكار للنوى» (١٤٨ - بتخریجنا).

أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منى، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت» (١).

وأيضاً ما يقال فى صبيحة يوم الجمعة

من قال صبيحة يوم الجمعة قبل صلاة الغداة استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر» (٢).

ما يقوله بعد صلاة المغرب فعن أنس وأيضاً عن عمارة بن شبيب قال: قال رسول الله ﷺ من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير على أثر المغرب، بعث الله مسلحة يتكفلونه من الشيطان حتى يصبح وكتب الله له بها عشر حسنات موجبات، ومحا عنه عشر سيئات موبقات، وكانت له بعدل عشر رقاب مؤمنات (٣) رواه الترمذى (ومسلحة) هم الحرس.

وأيضاً فيما يقول إذا أراد النوم اضطجع على فراشه «من قال حين يأوى إلى فراشه: استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله تعالى له ذنبه وإن كانت مثل زبد البحر، وإن كانت عدد رمل عالج وإن كانت عدد أيام الدنيا» (٤) رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى.

وفى الباب أيضاً «اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٦٠/٦ - صلاة المسافرين) عن على - رضى الله عنه - .

وانظر «الأذكار للنوى» (١٥٩ - بتخریجنا).

(٢) [ضعيف] أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ص: ٤٦) عن أنس - رضى الله عنه - بإسناد

فيه ضعف.

وانظر «الأذكار للنوى» (١٠٩ - بتخریجنا).

(٣) [مرسل ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٥٣٤)، والنسائى (١٠٤٣).

قال الترمذى: حسن غريب ولا تعرف لعمارة سماعاً من النبى ﷺ.

وانظر «الأذكار للنوى» (٢٣٠ - بتخریجنا).

(٤) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٣٩٧) عن أبى سعيد رضى الله عنه - بإسناد ضعيف قلت: فيه

الوصافى عبيدالله بن الوليد، وعطية العوفى وكلاهما ضعيف (التقريب).

وانظر «الأذكار للنوى» (٢٥٠ - بتخریجنا).

كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفس وشر الشيطان
وشركه، قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا اضطجعت»^(١) أبو داود والترمذى
بإسناد صحيح عن أبي هريرة .

وأيضاً ما يقول إذا استيقظ فى الليل وأراد النوم بعده
عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ «من تعار من الليل فقال: لا إله الله
وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ...» الحديث
البخارى^(٢) .

وعن عائشة مرفوعاً (إذا تعار من الليل قال: لا إله إلا الله الواحد القهار رب
السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار)^(٣) ابن السنى .
وأيضاً هناك أذكار تقال فى أوقات الشدة وعند الأمور المهمة (من الهم)
لتربيننا على التوحيد لله عزوجل .

فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب «لا إله إلا الله
العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات
 ورب الأرض ورب العرش الكريم»^(٤) رواه البخارى ومسلم .

وعن على قال «لَقِنَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَوْلَاءَ الْكَلِمَاتِ، وَأَمَرَنِي إِنْ نَزَلَ بِي
كَرْبٌ أَوْ شِدَّةٌ أَنْ أَقُولَهَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْكَرِيمَ الْعَظِيمَ...»^(٥) رواه ابن السنى .
وفيما يقول إذا خاف سلطاناً .

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذى (٣٣٩٢) .

قال الترمذى: حسن صحيح .

وانظر «الأذكار» (١٩٣ - بتخريجنا) .

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١١٥٤) .

وانظر «الأذكار للنوى» (٢٦٤ - بتخريجنا) .

(٣) أخرجه النسائى (١٠٧٠٠)، وابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» (٧٦٢) وابن حبان فى «صحيحه»

(٤٢٤/٧) .

وانظر «الأذكار» (٢٦٦ - بتخريجنا) .

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٣٤٥، ٦٣٤٦)، ومسلم (٤٧/١٧ - الذكر والدعاء) .

وانظر «الأذكار» (٣١٥ - بتخريجنا) .

(٥) [صحيح] أخرجه النسائى (١٠٤٦٥، ١٠٤٦٧)، وابن السنى (٣٤٣) .

وانظر «الأذكار» (٣١٩ - بتخريجنا) .

ثبت عن ابن عمر وقال رسول الله ﷺ «إذا خفت سلطاناً أو غيره فقل: لا إله إلا الله الحليم الحكيم سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم، لا إله إلا أنت، عز جارك وجل ثناؤك»^(١) ابن السنن.

وهناك أذكار المرض والموت وما يتعلق بهما أيضاً فعن أبي سعيد وأبي هريرة عن الرسول ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله والله أكبر صدقته ربه فقال: لا إله إلا أنا وأنا أكبر، وإذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال: لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد قال: لا إله إلا أنا لى الملك لى الحمد، وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله قال لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوة إلى بى» وكان يقول «من قالها فى مرضه ثم مات لم تطعمه النار»^(٢).

وفى الباب من حديث معاذ مرفوعاً «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٣).

رواه أبو داود والحاكم وقال: صحيح الإسناد

وعن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»^(٤) مسلم والنسائى.

وهكذا نجد أن الشرع الحنيف ما جاء إلا مذكراً معلناً مريئاً عباده من أول خروجهم إلى هذه الدنيا إلى أن يخرجوا على هذه الكلمة، فكان لا بد من تعلمها وما تقتضيه والعمل بها، فالكلمة وحدها لا تربي ولا تزكى ولا تدخل الجنة

(١) [ضعيف] أخرجه ابن السنن فى «عمل اليوم والليلة» (٣٤٧) بإسناد ضعيف قلت: والحديث فيه محمد بن عبدالرحمن البيهقي، وأبو عبدالرحمن البيهقي كلاهما ضعيف «التقريب».

وانظر «الأذكار» (٣٢٩ - بتخريننا).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٤٣٠)، وابن ماجه (٣٧٩٤).

قال الترمذى: حسن غريب.

(٣) [إسناده ضعيف] أخرجه أبو داود (٣١١٦)، والحاكم (٣٥١) قلت: فيه صالح بن أبى غريب جهله

ابن القطان وله شواهد بصححه منته.

وانظر «الأذكار للنووى» (٣٨٦ - بتخريننا) وانظر أيضاً كتابنا بغية الفائز الجامع لأحكام الجنائز.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (٢١٩/٦ - الجنائز).

وانظر «الأذكار للنووى» (٣٨٧ - بتخريننا) وانظر كتابنا بغية الفائز الجامع لأحكام الجنائز.

ولكنها من المعاني ما يجعل صاحبها من أهل الجنة وهذه المعاني والمقتضيات لأبد من تعلمها حتى نعمل بها ونكون من أهلها بهذا وغيره يظهر أهمية علم التوحيد.

ومن أهمية هذا العلم وثمراته لتجديد الإيمان في قلوبنا

لتجديد الإيمان في قلوبنا ولكي لا يَخْلُقَ ويقسو القلب ويغتر بطول الأمد. روى الطبراني والحاكم بأسانيد صححها البعض أن النبي ﷺ قال: «إن الإيمان ليخلقُ في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فجددوا إيمانكم»^(١).

وهذا الحديث يجيب على إشكال يدور في ذهن البعض، هل ندرس التوحيد لأننا كفرة، فتعلمه حتى ندخل في الدين؟

هذا الإشكال أجاب عنه النبي ﷺ: «إن الإيمان ليخلق يعني ليبيلى كما يبلى الثوب»^(٢).

فربما يطول الأمد ويقسو القلب كما حدث في بنى إسرائيل يحصل في هذه الأمة، كما أخبر النبي ﷺ في الصحيح «التركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر»^(٣) والله - عز وجل - حذرنا من ذلك فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(٤).

فكما أن الإيمان يخلق في جوف أحدنا والله يحيى الأرض بعد موتها، فكذلك يحيى الإيمان في قلوبنا بعد أن طالت مدة الإلترام وأصبحت أمور الإلترام بالنسبة لنا أمور روتينية ليست عبادية.

فنحن نعتقد بأننا جميعاً مسلمون، ولكن هذا الإيمان يبلى ويخلق فلا بد من تجديده فلهذا ندرس التوحيد.

وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٥) الآية يدعوهم لزيادة وترسيخ وتثبيت الإيمان.

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤/١) وصححه

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥٢/١) ونسبه للطبراني في «الكبير» وحسن إسناده.

(٢) تقدم فيما قبله.

(٣) سيأتي تخريجه في «شرح الكتاب».

(٥) النساء: الآية (١٣٦).

(٤) الحديد: الآية (١٦، ١٧).

ومن عوامل تجديد الإيمان بعد المواظبة على دروس الرحمن هو أن نسأل الرحمن سبحانه وتعالى أن يجدد لنا هذا الإيمان .

لذلك صدق من قال: «أن دروس الإيمان أو دروس التوحيد لاتقطع»، أى ينبغى على الموحّد ألا يقطعها إن كان موحّداً .

لذلك لما قال النبي ﷺ «فجددوا إيمانكم»^(١) سأله الصحابة قالوا «وكيف تجدد إيماننا؟» فى رواية أخرى فى المسند، قال: «أكثرُوا من قول لا إله إلا الله»^(٢) وهو يوجه هذا الكلام لخير الناس وهم أعلم بمعناها ومقتضياتها وقاموا بها ووفوا بشروط هذه الكلمة، ومع ذلك لما علم الرسول ﷺ أثر هذه الكلمة على نفسوهم ونفوس كل من علم حقيقة الكلمة، ومقتضياتها، أمرهم بتجديد الإيمان بقول لا إله إلا الله على النحو المتقدم فى المبدأ الماضى فكأن هذه الكلمة بمجرد ذكرها ممثلين ستشعل فىنا الإيمان، أو ربما تُجدد فىنا ذكريات هذه الكلمة، ومعناها .

- ولأن السلف حرصوا على تعلم التوحيد

ومن عظيم ما يبين أهميته حرص السلف على تعلم التوحيد وتعليمه يحدوهم فى ذلك الأسوة الحسنة فى أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام حيث قال الله تعالى فى حقه ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴿٣﴾ وها هو لقمان الحكيم ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾^(٤) .

وحديث ابن عباس فى المسند وغيره .

«يا غلام إنى أعلمك كلمات إحفظ الله يحفظك إحفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٥) .

(١) تقدم تخريجه قريباً .

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٥٩/٢) عن أبى هريرة .

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥٢/١) وجود إسناده .

(٣) البقرة: الآية (١٣٣) .

(٤) لقمان: الآية (١٣) .

(٥) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٩٣/١)، والترمذى (٢٥١٦) .

وعن عبادة بن الصامت كان يعلم ابنه فيقول في مسائل القدر: «إنك لن تذوق حلاوة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطئك لم يكن ليصيبك»^(١).

والناظر في كتبهم يرى ذلك جلياً .

قال البيهقي^(٢): (الستون من شعب الإيمان)

وهو باب في حقوق الأولاد والأهلين . . فإذا بلغ أحدهم حدَّ العقل عرّف البارئ جلّ جلاله إليه بالدلائل التي توصله إلى معرفته من غير أن يسمعه من مقالات الملحدّين شيئاً ويذكرهم له في الجملة أحياناً ويحذره إياهم وينفره عنهم ويبغضهم إليه ما استطاع ويبدأ من الدلائل بالأقرب الأجلّي ثم ما يليه وكذلك يفعل بالدلائل الدالة على نبوة نبينا ﷺ بهدية فيها إلى الأقرب الأوضح ثم الذى يليه وبسط الخليمى الكلام فى كلّ فصل من فصول هذا الباب من أراد الوقوف عليه رجع إليه إن شاء الله تعالى أ. هـ.

قال الغزالي^(٣):

فصل فى وجه التدرّيج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

اعلم أن ما ذكرناه فى ترجمة العقيدة ينبغى أن يقدم إلى الصبى فى أول نشوه ليحفظه حفظاً ثم لا يزال ينكشف له معناه فى كبره شيئاً فشيئاً، فابتدأه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به، وذلك مما يحصل فى الصبى بغير برهان.

فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه فى أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مبادئها التلقين المحض، نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع

= قال الترمذى: حسن صحيح.

وانظر «رياض الصالحين» (٦٣ - بتخریجنا) وانظر «جامع العلوم والحكم» بتخریجنا أيضاً

(١) الشريعة للأجرى ص ٢١١.

(٢) «الشعب» (٣٩٧/٦).

(٣) «الإحياء» (١٢٣/١، ١٢٤).

من الضعف فى الإبتداء، على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه، فلا بد من تقويته وإثباته فى نفس الصبى والعامى حتى يترسخ ولا يتزلزل، وليس الطريق فى تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام، بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره، وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم، وسيماهم وسماعهم وهيأتهم فى الخضوع لله عزوجل والخوف منه والإستكانة له، فيكون أول التلقين كاللقاء بذر فى الصدر، وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها فى السماء.

ثم قال:

ثم الصبى إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم يفتح له غيرها، ولكنه يسلم فى الآخرة باعتقاد أهل الحق، إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلاً.

وإن أراد أن يكون من سالكى طريق الآخرة، وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل، ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى، واشتغل بالرياضة والمجاهدة، انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهى يقذف فى قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده. عزوجل، إذ قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١). وهو الجوهر النفيس الذى هو غاية إيمان الصديقين والمقربين، وإليه الإشارة بالسرى الذى وقر فى صدر أبى بكر الصديق رضى الله عنه حيث فضل به الخلق وانكشف ذلك السرى بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن، فى النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى، وفى الاستضاءة بنور اليقين، وذلك كتفاوت الخلق فى أسرار الطب والفقه وسائر العلوم، إذ يختلف ذلك باختلاف

(١) العنكبوت: الآية (٦٩).

الاجتهاد واختلاف الفطرة في الذكاء والفطنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه.

- ولأنه معقد النجاة في الدنيا والآخرة

لأنه بالإقرار بالتوحيد والرسالة يثبت عقد الإسلام. وتعصم الدماء والأموال إلا بحقه. قال ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»^(١) رواه البخارى.

وقال ابن حجر^(٢): أما بالنظر إلى ما عندنا فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقرّ أجريت عليه أحكام الدنيا، ولم يحكم عليه بالكفر إلا إن اقترن به فعل ما يدل على كفره كالسجود لصنم.

فكل من أقرّ بالتوحيد والرسالة إقراراً إلزامياً، قاصداً به الإجابة إلى الإيمان. فقد ثبت له عقد الإسلام، ووجب له بمقتضاه عصمة دمه وماله إلا بحق الإسلام، من ردة بعد الإسلام، أو زنا بعد إحصان، أو قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ونحوه. اهـ.

وأما أنه معقد النجاة في الآخرة، فلقلوه ﷺ وقد سُئل: ما الموجبتان؟ فقال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»^(٣) وقوله ﷺ «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٤) رواه مسلم وقوله ﷺ لمعاذ: «يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم قال: «فإن حق الله على العباد، أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله - عز وجل - ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً» قال: قلت: يارسول الله، أفلا أبشرُ الناس؟ قال: «لا تبشروهم فيتكلموا»^(٥) رواه مسلم.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٥)، ومسلم (٢١١/١ - الإيمان).

وانظر منار السبيل، «والسبيل»، و«جامع العلوم والحكم» بتخریجاتنا.
(٢) «الفتح» (٤٦/١).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم (٩٢/٢ - الإيمان).

وانظر «رياض الصالحين» (٤١٥ - بتخریجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (٢٤٩/١ - الإيمان) عن عثمان - رضی الله عنه - .

(٥) سیأتی تخریجه.

قال النووي رحمه الله^(١): [إنَّ مذهب أهل السنَّة بأجمعهم، من السلف الصالح، وأهل الحديث والفقهاء؟ والمتكلمين علي مذهبهم من الأشعريين، أنَّ أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى، وأنَّ كلَّ من مات على الإيمان وتشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين فإنَّه يدخل الجنة، فإن كان تائباً أو سليماً من المعاصي دخل الجنة برحمة ربه، وحرَّم على النار بالجملة، وإن كان هذا من المخلطين، بتضييع ما أوجب الله تعالى عليه، أو بفعل ما حرَّم عليه، فهو في المشيئة، لا يقطع في أمره بتحريمه على النار، ولا باستحقاقه الجنة لأوّل وهلة، بل يقطع بأنَّه لا بد من دخوله الجنة آخرأ، وحاله قبل ذلك في خطر المشيئة، إن شاء الله تعالى عدَّبه بذنبه، وإن شاء عفا عنه بفضله] ١. هـ.

- ولأن التوحيد هو دعوة الرسل أجمعين

لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٣).

وقوله: ﴿وَأَذْكَرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾^(٤).

وقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٥).

وقوله: ﴿الأنبياء إخوة لعلات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد﴾^(٦).

(١) النووي شرح مسلم ١/١٩٦.

(٢) الأنبياء: الآية (٢٥).

(٣) النحل: الآية (٣٦).

(٤) الأحقاف: الآية (٢١).

(٥) آل عمران: الآية (٦٤).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٤٤٣)، ومسلم (١٣٠/٨ - الغضائيل) عن أبى هريرة

فالدِّينَ واحدٌ وهو التوحيد، والشرائع متفاوتة، لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾^(١)، وقد انعقد على هذا المعنى إجماع المسلمين.

قال ابن تيمية:^(٢) وعبادة الله وحده هي أصل الدين، وهو التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب، فقال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٥).

باقية من الثمرات والوعود الطيبات

إن الله وعد عباده المؤمنين بباقة من الوعود الطيبة في الدنيا: كالحياة الطيبة والهداية والعزة والتمكين والنجاة، وولايته لهم ودفاعه عنهم ونصرهم على أعدائهم وعدم تسليط الكافرين عليهم، وهي وعود لاتزال مبدولة لكل من بقى على عهد الله وميثاقه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وأنسى لأدعوكم - إخواني - إلى تأمل هذه المعاني من خلال هذه الآيات:-

- لَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فَقَالَ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾^(٦).

- ووعدهم بالهداية فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾^(٧).

- ووعدهم بالعزة والتمكين فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨).

(١) المائدة: الآية (٤٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/٣٩٧) وذلك نقلاً من كتاب الثوابت والمتغيرات للدكتور صلاح

الصاوي.

(٣) الزخرف: الآية (٤٥).

(٤) النحل: الآية (٣٦).

(٥) الأنبياء: الآية (٢٥).

(٦) النحل: الآية (٩٧).

(٧) الحج: الآية (٥٤).

(٨) المنافقون: الآية (٨).

وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (١).

— ووعدهم بنصرهم والدفاع عنهم وألا يجعل للكافرين سبيلا عليهم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (٥).

هذا بعض ما وعد الله به عبادة المؤمنين في الدنيا، أما ما وعدوا به في الآخرة فحسبهم قول الله. جل وعلا. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ (٧).

هذا بالاضافة إلى ما ذكرناه من ثمرات التوحيد في باب: من حقق التوحيد دخل الجنة - بغير الحساب وباب فضل التوحيد.

وإذا كان واقع المسلمين في هذه الأيام لم تتحقق فيه هذه الوعود فإن مرد ذلك إلى ما أصاب إيمانهم من الضعف. وما شاب اعتقاد كثير منهم من الخلل، وإن استمرار هذا الضعف ينذر بكارثة مروعة وقد يخسر أصحابه ما وعد به

(٢) الحج: الآية (٣٨).

(٤) يونس: الآية (١٠٣).

(٦) يونس: (الآية) (٩).

(١) النور: الآية (٥٥).

(٣) الروم: الآية (٤٧).

(٥) النساء: الآية (١٤١).

(٧) الكهف: الآية (١٠٧، ١٠٨).

المؤمنون في الآخرة كما خسروا ما وعدوا به في الدنيا! ومن هنا كانت أهمية دراسة هذه المادة، والتحقق بها علماً وعملاً واستفاضة البلاغ بها بين الناس قاطبة، فإن هذا هو الطريق لإستعادة السهوية، والخروج من شعاب التسيه التي منيت بها الأمة تحت خيمة التغريب والعلمانية ا.هـ^(١).

المبدأ الرابع من مبادئ علم التوحيد

نسبته إلى غيره

هو من العلوم الشرعية بمشابهة الرأس من الجسد فلا تنفع العلوم الشرعية صاحبها إلا إذا علم وعمل بعلم التوحيد.

المبدأ الخامس من مبادئ علم التوحيد

فضله:

وسياتى مفصلاً في شرح باب: «فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب» وهو على الإجمال.

١- أنه أكبر دعامة للرغبة في الطاعة، قال بعض السلف: «إني لأود أن أتقرب إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو».

٢- أن الموحدين لهم الأمن وهم مهتدون؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٢).

٣- كثرة ثواب التوحيد عند الله لقوله ﷺ في حديث البطاقة «مالت بهن لا إلا إلا الله»^(٣).

٤- تكفيره للذنوب لقوله تعالى في الحديث القدس «لأنتيك بقربها مغفرة»^(٤).

وسياتى مزيداً من ذلك في شرح الباب.

(١) «أصول الإيمان» للدكتور صلاح الصاوى.

(٢) الأنعام: الآية (٨٢).

(٣) سياتى تخريجه في موضعه في شرح الكتاب.

(٤) [حسن بشواهد] أخرجه الترمذى (٣٥٤٠) عن أنس - رضى الله عنه - .

وانظر «رياض الصالحين» (٤٤٣ - بتخريجنا).

المبدأ السادس من مبادئ علم التوحيد

واضعه:

علماء التوحيد.

المبدأ السابع من مبادئ علم التوحيد (اسمه):

علم التوحيد وتقدم في الحد والتعريف شرحه.

المبدأ الثامن من مبادئ علم التوحيد (استمداده):

الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة وهو ما تقدم التعبير عنه بلفظ صحيح المنقول وصريح المعقول.

المبدأ التاسع من مبادئ علم التوحيد (حكمه):

فرض عين كما جاء في حديث البراء في المسند وغيره وفيه «إنَّ العبد أوَّل ما يستل في قبره من ربك وما دينك ومن الرجل الذي بعث فيكم»^(١).

- ولأنه أوَّل ما بدأ به النبي ﷺ وأوَّل ما يخاطب به الناس من أمور الدين.

قال البخارى: باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

وقول الله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٢).

وأُسند عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دُنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(٣).

قال ابن حجر^(٤): ونقل ابن بطلال عن أبي عبد الله بن النجار قال: التوبوب يتعلّق بالآية والحديث معاً، لأن الله تعالى أوحى إلى الأنبياء ثم إلى محمد ﷺ أن الأعمال بالنيات لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٥).

(١) أخرجه أبو داود (٣٢١٢)، وابن ماجه (١٥٤٨).

وانظر كتابنا «بغية الفائز الجامع لأحكام الجنائز».

(٢) النساء: الآية (١٦٣) وانظر البخارى في بدء الوحي (١٣/١ - الفتح).

(٣) تقدم تخريجه في الحديث السابق.

(٤) الفتح (١٧، ١٦/١).

(٥) البينة: الآية (٥).

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ (١). قال وصاهم بالإخلاص في عبادته.

وعن أبي عبد الملك اليموني قال: مناسبة الحديث للترجمة أن بدء الوحي كان بالنية، لأن الله تعالى فطر محمد على التوحيد وبغض إليه الأوثان ووهب له أول أسباب النبوة وهي الرؤيا الصالحة، فلما رأى ذلك أخلص إليه في ذلك فكان يتعبد بغار حراء فقبل الله عمله وأتم له النعمة.

وقال المهلب ما محصله: قصد البخارى الإخبار عن حال النبي ﷺ في حال منشئه وأن الله بغض إليه الأوثان وحبب إليه خلال الخير ولزوم الوحدة فراراً من قرناء السوء، فلما لزم ذلك أعطاه الله على قدر نيته ووهب له النبوة كما يقال الفواتح عنوان الخواتم. أه ولخصه بنحو من هذا القاضى أبو بكر ابن العربى.

وأما كونه أول ما يخاطب به الناس من واجبات الدين.

فلصنيع البخارى أيضاً:

في باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أتمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٢).

حيث أسند عن ابن عباس يقول: لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى نحو أهل اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى إن يوحدوا الله تعالى فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله إفترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقرؤا بذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس» أ. هـ (٣).

وقال حافظ حكيمى (٤):

أول واجب على العبيد معرفة الله بالتوحيد
إذ هو من كل الأوامر أعظم وهو نوعان أيامن تفهم

- ولأنه حق الله علينا -

(٢) البخارى (١٣/٣٥٩ - الفتح).

(١) الشورى: الآية (١٣).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٣٧١، ٧٣٧٢)، ومسلم (١/٩٦ - الإيمان) وسيأتى تخريجه عنه شرح

الكتاب.

(٤) «معارج القبول» (١/٥٣).

أسند البخارى عن معاذ بن جبل قال: قال النبي ﷺ: يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدرى ما حقهم عليه؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أن لا يعذبهم (١).
- ولأننا سنسأل عنه

لما رواه الطبرانى بسنده عن أنس بن مالك وابن عمر ومجاهد فى قوله - عزوجل - ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢). قالوا: عن لاله إلا الله (٣).

المبدأ العاشر من مبادئ علم التوحيد (مسألة):

القضايا المتعلقة بحق الله ورسوله وحق العبد والسمعيات.

المبدأ الحادى عشر من مبادئ علم التوحيد:

(شرفه)

أنه إذا كان شرف العلم بشرف المعلوم فلا يخفى أن علم التوحيد هو أشرف العلوم على الإطلاق بل ولا يراد بكلمة علم إذا أطلقت إلا علم التوحيد والعقيدة فهو أشرف العلوم على الإطلاق لتعلقه بمعرفة الله تعالى وإفراجه بالعبادة، والكفر بكل ما يعبد من دونه مع ما يقتضيه ذلك من فعل الخيرات وترك المنكرات.

وإذا كانت أهمية العلم تتناسب مع ما يجلبه، للإنسان من خير أو يدفعه عنه من شر، فإن علم توحيد هو أهم العلوم على الإطلاق لما يترتب عليه من تحقق الحياة الطيبة فى الأرض والفوز بنعيم الخلد وجنة الأبد فى الآخرة، ولما يدفعه عن الإنسان من ضنك المعيشة فى الأرض وعذاب الأبد فى الآخرة قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي

(١) سيأتي تخريجه أيضاً.

(٢) الحجر: الآية (٩٢).

(٣) «الدعاء للطبرانى» (١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٤٩٤، ١٤٩٢، ١٤٩٦، ١٤٩٧) بأسانيد فيها ضعف.

(٤) النحل: الآية (٩٧).

أعمى وقد كنتُ بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴿١﴾
ا.هـ (٢).

عظيم لشرف موضوعه، النابع من النبوة ومعدن الرسالة كما تقدّم مجملاً
وكما سيأتى تفصيلاً.

أهمية كتاب التوحيد - لشيخ الإسلام - محمد بن عبد الوهاب وذكر منهجه في الكتاب

قال الوليد عبدالرحمن بن محمد الفريان (٣)

كان لكتاب التوحيد وقعاً بعيد في نفوس العلماء الذين عاصروه؛ لما اشتمل
عليه من بيان ما بعث الله به رسوله من أنواع التوحيد، بالأدلة من كلام الله
وكلام رسوله وكلام سلف الأمة. مع الإيجاز والسلامة من التعقيد والتكلف،
الذي سيطر على معظم كتابات ذلك العصر. إلى جانب ما اصطبح به من
الصدق والإخلاص والجاذبية والتأثير. واستطاع بفضل الله، أن يضع يده على
كثير مما كان فاشياً في وقته، من الأمراض العقدية الوييلة.

وقد أعتبر هذا الكتاب بمثابة الوثيقة أو البيان العام، الذي أعلن فيه مبادئ
دعوته، ورسم فيه المنهج الذي سار عليه وطبقه.

قلتُ: وأيضاً تبرز أهمية الكتاب من كثرة الشروح عليه فلقد نقل الوليد لهذا
الكتاب تسعة عشر شرحاً وستأتي ومن الشروحات التي لم يذكرها القول المفيد
لفضيلة الشيخ ابن عثيمين ويجمع كل هذه الشروح هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

قال الزركشي: (٤) ... أن كلَّ من وضع من البشر كتاباً فإنما وضعه ليفهم
بذاته من غير شرح، وإنما احتيج إلى الشروح لأمر ثلاثة:

أحدها: كمال فضيلة المصنّف، فإنه لقوته العلمية يجمع المعاني الدقيقة في

(١) طه: الآية (١٢٣).

(٢) «أصول الإيمان» للدكتور صلاح الصاوي.

(٣) فتح المجيد ٣/١٢، ١٣ ط دار الصميعي

(٤) نقلاً عن كتاب «النكت المتممة لمقدمة ابن تيمية» بتأليفنا

اللفظ الوجيز، فربما عسر فهم مراده، فقُصِد بالشرح ظهور تلك المعاني الخفية، ومن هنا كان شرح بعض الأئمة تصنيفه أدلَّ على المراد من شرح غيره له. اهـ.

قال: سليمان بن عبدالله في وصف كتاب التوحيد: هو كتاب فرد في معناه لم يسبقه إليه سابق، ولا لحقه فيه لاحق.

قال: عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ صاحب «فتح المجيد»: فإن كتاب التوحيد الذي ألفه الإمام شيخ الإسلام (محمد بن عبدالوهاب) أجزل الله له الثواب، وغفر له لمن وأجاب دعوته إلى يوم الحساب قد جاء بديعاً في معناه: من بيان التوحيد وبراهينه، وجمع جملاً من أدلته لإيضاحه وبينه فصار علماً للموحدين وحجة على المسلمين، فانتفع به الخلق الكثير، والجمل الغفير.

قال: محمد حامد الفقى: ولقد خلف شيخ الإسلام محمد ابن عبدالوهاب - رحمه الله - تركة قيمة من المؤلفات العلمية النافعة، التى أضاءت للناس طريق الهداية، وأنقذ الله بها كثيراً من الضلالة، وهدى بها إلى الدين الخالص وأجمعها وأنفعها «كتاب التوحيد» فإنه جمع فأوعى؟ بين توحيد الإلهية والعبادة، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات أتم بيان وأجلاه، وبين نواقض كل منهما كذلك أعظم بيان.

قال د: الوليد الفريان^(١): اجتهد المؤلف فى أن يستوعب فى كتابه أهم مسائل العقيدة التى يحتاج الناس إليها مع الإستدلال لها من الكتاب والسنة وأقوال السلف باختصار وعقد لذلك ستة وستين باباً، ترجم بها ما نقل من الآيات والأحاديث والآثار بأسلوب واضح وعبارة مشرقة وربما اتخذ بعض النصوص الخالصة، عناوين لأبوابه. ولم يذكر من الأحاديث والآثار، إلا ما كان ثابتاً فى نفسه أو كان مما ثبت معناه من أدلة كثيرة مع الإشارة إلى من خرَّجه، وذكر فى حدود ما يسمح به المختصر. ثم يختم كل باب بجملته من المسائل المستنبطة من هذه الأدلة. التى تؤكد فقه هذا الإمام، وعمق فهمه، وقدرته الفائقة على تلمس مقاصد النصوص. اهـ.

(١) كتاب التوحيد - فيما نعلم - فى مجلدين.

التحريف بالكتاب وأبوابه

وبعد تعريف العلماء للكتاب على الإجمال بقى أن نعرفه على التفصيل المختصر لأبوابه لنعطى صورة أكثر وضوحاً لهذا السفر النفيس الذى يجمع بين طياته دعوة شاملة لكل أنواع التوحيد وليس فقط كما يتوهم البعض أنه للقبورين فنقول وبالله التوفيق: بدء الشيخ محمد بتعريف التوحيد على طريقته قال: «كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد» وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ليوضح أن التوحيد المقصود هو توحيد العبادة وهو حق الله على العبيد كما وضحه الرسول ﷺ في حديث معاذ (١) الذى أورده المصنف فى آخر هذا الباب ثم ثنى بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ليبين أيضا أن التوحيد المقصود هو الكفر بالطاغوت مهما كان نوعه بعد إفراد الله عزوجل بالعبادة هذا وقد بين الشيخ هذا البيان المعرف بالتوحيد حتى إذا ما بين فضله وما يكفر من الذنوب لا يتطرق إلى أذهان المتبدعين من المرجئة وغيرهم ممن فرطوا في فهم التوحيد أنه يقصد بالتوحيد ما فهموا من فهم خاطيء مغاير لفهم السلف لهذا قدم بين يدي بيان فضيلة التوحيد بتعريفه أولاً حتى يعلم من يستحق هذه الفضيلة وهو فى ذلك قد خالف بعض السلف - من الفقهاء وغيرهم - فى تصانيفهم حيث كانوا يبدأون بفضل العمل والترغيب فيه ثم بالعمل نفسه لكنه خالف لهذه الفائدة التى أسلفناها. ثم بعد أن بين فضل التوحيد ورغب فيه بما أورده من آيات وأحاديث فى هذا الشأن. بين فى الباب التالى كمال التوحيد وفضل من حققه وهو فى ذلك يبين تفاوت الناس فى هذا الأمر ثم بعد هذا الترغيب بدأ بالترهيب فى باب سماه «باب الخوف من الشرك» حتى تعتدل النظرة لقضية التوحيد ولايستهان بها لاسيما من قول الخليل إبراهيم عليه السلام ﴿وَاجْتَنِبِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٢) فيسير العبد إلى ربه بالرغبة والرهبه والخوف والرجاء إمتثالاً لقوله تعالى ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ فبدأ لذلك بيان الفضل والترغيب ثم شنى بيان الترهيب بعد أن عرف التوحيد وفضله ودرجاته وفضل

(١) سيأتى تخريجه

(٢) إبراهيم: الآية (٣٥).

من كمل توحيده والترهيب من الشرك والتخويف منه انتقل إلى مرحلة حتمية بعد هذه المراحل لمن علمها وأيقنها وهى مرحلة الدعوة هذه المرحلة وفيها ما فيها من الفوائد للداعى إلى هذا الأمر فهى تجعله أكثر ثباتاً ورسوخاً على قضية التوحيد هذه المرحلة هى مرحلة «الدعاء إلى لا إله إلا الله» وفيه قوله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ (١) الآية ولما كان الداعى إلى الله دائماً على بصيرة فكان لا بد أن يفسر له التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله لذلك بوب المصنف هذا الباب «باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله» والتفسير للتوحيد غير بيان معناه ففى هذا الأخير بيان لمجمل معنى التوحيد وفى التفسير بيان تفصيلى للتوحيد لذلك تعرض فيه لعبادة الأحرار والرهبان والموالاة الكفار وتبرؤ إبراهيم منهم، ولأنناد التى تحب كحب الله ولهذا أيضاً تلا هذا الباب أبواباً كثيرة، جداً تفسر التوحيد ببيان ضده من الشرك. فجاء ذلك فى «باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما» لرفع البلاء أو دفعه» و«باب ما جاء فى الرقى والتائم» و«باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما» و«باب الذبح لغير الله» و«باب من الشرك النذر لغير الله» وكذلك «باب من الشرك الاستعاذة بغير الله» وكذلك باب «من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره» كل هذه الأبواب بينت أنواعاً من الشرك يبين المصنف من خلالها أن التوحيد خلاف هذه الأمور الشركية، وأن مقتضاه أن لا يأتى العبدُ بمثل هذه الأمور المغايرة للتوحيد. بعد ذلك وقف وقفة المتعجب من هؤلاء المشركين وقفت المنكر عليهم حيث قال «باب قوله تعالى ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾» (٢) يتعجب من هؤلاء القوم حيث عبدوا من لا يخلق وهو مخلوق ولا يرزق وهو مرزوق وليس له من الأمر شىء قليل أو كثير حيث قال الله تعالى لأعظم البشر ﷺ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٣).

فهم من باب أولى لا يملكون من قطمير فياللعجب ممن استبدل الذى هو أدنى

(١) يوسف: الآية (١٠٨).

(٢) الأعراف: الآية (١٩١).

(٣) آل عمران: الآية (١٢٨).

بالذى هو خير. ثم ثنى هذا الباب بباين عظيمين «باب حتى» إذا فزع عن قلوبهم» «وباب الشفاعة» بين فيهما للمشركين الذين تعلقوا بالمخلوقين أنكم إذا كنتم تعلقتم من أجل غيب يعلمونه فهذا باطل فلا يعلم الغيب إلا الله حتى الرسول عليه الصلاة والسلام قال ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾^(١) أما هؤلاء الطواغيت إخوان الجان الذين يسترقون السمع فيذهبون بالكلمة إليهم فيضيفون عليها مائة كذبة فهم لا يعلمون الغيب بل هم كاذبون أفاكون كل ذلك بينه المصنف فى «باب حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير»^(٢) وفى «باب الشفاعة نفى عن هؤلاء الأنداد الشفاعة وأثبتها لرب العالمين ولن أذن له بالحق وهم يعلمون. حتى الرسول ﷺ نهى فى الدنيا عن الإستغفار لعمة الذى وقف بماله بجوار النبى ﷺ؛ لأنه مات على الشرك فلم يؤذن له بالاستغفار له فى الدنيا وكذلك لن يؤذن له بالشفاعة فيه فى الآخرة وهذا بينه المصنف فى باب «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ»^(٣) فلو كان سبب العبادة غيب فهو منفى إلا عن الله أو طمع فى شفاعته كذلك فهى منفية إلا عن الموحدين الذين لم يتخذوا الأنداد، وإذا كانت طمعاً فى هداية، فهم مفتقدون لها كذلك؛ لأن النبى ﷺ لا يهدى، فهم أولى وأولى، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٤).

وأرى أن الأبواب التى تلى هذا الباب يصح أن تأتى تحت عنوان ما جاء فى حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك» فهذا واضح فى باب «إن سبب كفر بنى وتركهم دينهم هو الغلو فى الصالحين» وفى نهى الله عن ذلك بقوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾^(٥) وقول الرسول ﷺ «إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»^(٦) وكذلك باب ما جاء «فى التغليظ فى من عبده عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده» وكذلك فى باب

(٢) سبأ: الآية (٢٣).

(٤) يونس: الآية (٣٥).

(٦) سياتى تخريجه.

(١) الأعراف: الآية (١٨٨).

(٣) القصص: الآية (٥٦).

(٥) المائدة: الآية (٧٧).

«أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله» فينبى الرسول ﷺ كل ذلك حماية لجناب التوحيد وحذر أمتة من أنه سيأتى عليهم زمان يعبدون فيه الأوثان اتباعاً لسنن من كان قبلهم حذو القذة بالقذة وبهذا المعنى بوب المصنف ثم تلا ذلك بأبواب أيضاً تؤكد حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد من ذلك «باب ما جاء فى السحر» «باب بيان شىء من أنواع السحر»، باب «ما جاء فى الكهان ونحوهم»، «باب ما جاء فى النشرة»، «باب ما جاء فى التطير»، باب «ما جاء فى التنجيم»، والقاسم المشترك بين هذه الأبواب أن هذه الأنواع كلها فيها ما هو شرك أكبر وما هو شرك أصغر وفيها ما هو مباح على ما سيأتى تفصيله إن شاء الله وأيضاً لأن ورائها جميعا الطاغوت الاكبر رأس كل ضلاله إبليس هذا وقد بين أيضاً الأمام بعد ذلك فى فصوله بعض أنواع الشرك كشرك التحليل والتحریم «الحاكمية» وذلك فى باب من «أطاع العلماء والأمرء فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم به فقد اتخذهم أرباباً» وباب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ (١). الآية.

أيضاً والناظر إلى كتاب التوحيد يجد أن الشيخ لم ينس أن يذكر شيئاً من توحيد الأسماء والصفات وذلك فى «باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات» وإن كان قد ضمن مسأله توحيد الأسماء والصفات بعض أبوابه ولكن لم يكتف بهذا بل أفرد لها أبواباً مستقلة، وليكون الكتاب أكثر شمولاً لمسائل التوحيد فقد تعرض لمسألة القدر والإيمان به فى أبواب كثيرة منها باب «ما جاء فى منكرى القدر» وباب «ما جاء فى اللو» وغير ذلك ثم بعد ذلك بين الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى أبواب كتابه بعض الألفاظ التى تجرى على السنة العامة بسبب تخلفهم عن التوحيد وتجرعهم الشرك بطريقة أو بأخرى فمن ذلك باب قول «ما شاء الله وشئت» وباب «من سب الدهر فقد أذى الله» وباب «التسمى بقاضى القضاة» وباب «لا يقال السلام على الله» وباب قول الله «اللهم اغفر لى إن شئت» وباب «لا يقول عبدى وأمتى» وباب «ما جاء فى اللو» وباب «النهى عن سب الريح» وكل هذه الأبواب يبين فيها الشيخ كما ذكرنا ما ينبغى على الناس أن يحترزوا عنه من الكلام الذى يجرى على ألسنتهم وهو يتنافى مع مطلق التوحيد أو التوحيد المطلق ثم ختم كتابه رحمه الله بقوله باب «ما جاء فى قول الله وما قدروا الله حق قدره» وفيه بيان عظمة الله وعظيم قدرته وعظمة

(١) النساء: الآية (٦٠).

ملكه وخلقه فهو سبحانه الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً
أحداً لانحصى ثناء عليه بل كما أثنى هو على نفسه فله الحمد فى الأولى وفى
الآخرة وله الحكم وإليه المرجع والمآب.

ملاح أخرى من منهج المصنف فى الكتاب.

ومما يجدر الذكر به فى هذا المقام أن الإمام اقتفى أثر السلف من المصنفين
مثل الإمام البخارى فى تبريئه ذلك لأنه يقطع بالحكم فى التبريب إذا كان الأمر
ليس فيه خلاف كقوله «باب من الشرك النذر لغير الله» وتارة يترك المسئلة دون
جزم بالحكم لوجود الخلاف فى المسئلة أو التفصيل كقوله «باب ما جاء فى
الرقى والتمائم».

وتارة يوب بالآية كقوله: باب قول الله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ
اللَّهِ أُنْدَادًا ﴾ (١). الآية.

ثم يأتى بأدلة التبريب من القرآن والسنة ثم يأتى بأقوال السلف وفهمهم
للآية والحديث، وهو منهج قيم لمن وعاه وقد أشار إلى بعضه الدكتور الوليد -
فيما تقدم.

وأيضاً يظهر لكل دارس لهذا الكتاب أن كتاب التوحيد كتاب وعظى دعوى
أكثر منه علمى ومما يدل على ذلك أنه جمع فيه بين مسائل العقيدة كالإيمان بالله
وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومسائل التوحيد وهو ما يختص بأسماء
الله وصفاته وأفعاله، وهذا مما لم يفعله السلف فى كتب العلم، فإنهم أفردوا
مسائل الايمان فى كتب بمفردها ككتاب الإيمان فى صحيح البخارى ومسائل
التوحيد فى كتب بمفردها ككتاب التوحيد أيضاً فى صحيح البخارى والتوحيد
لابن خزيمة ولعل مقصد الإمام محمد بن عبد الوهاب فى ذلك جمع المسائل
التي ينبغى أن يعتقدها الدعاة وأهل التوحيد وأن يبين لهم المسلك الصحيح فى
طريقهم إلى الله ودعوتهم إليه.

ومن ثم فإنه يصح أن يقال: يقصد بقوله «كتاب التوحيد» أى كتاب مسلك
أهل التوحيد أو كتاب دعاة التوحيد. والله تعالى أعلم ومما يدل على أن الكتاب
وعظى ودعوى أكثر منه علمى.

(١) البقرة: الآية (١٦٥).

أنَّ الإمام - رحمه الله - قد يستدل ببعض أحاديث في الإسلام الحقيقي «مناطق الانتفاع» على الإسلام الحكيم «مناطق الحكم» ولا يفصل ولا يكون ذلك إلا في مقام الوعظ والترهيب والترغيب، وهو محق في ذلك لاشك لأن أدلة الإسلام الحقيقي تشمل الحكيم وزيادة مثل استدلالهم بأدلة الكفر الأكبر على الأصغر لأنها تشمله. وسيأتي في الشرح أدلة أخرى على ذلك والله الموفق.

ويدل على ذلك أيضاً تفرقه لأبواب متشابهه، وكان الأنسب الجمع بينها على نسق وترتيب واحد، مثل باب ماجاء في السحر والذي بعده باب بيان شيء من أنواع السحر ثم ما جاء في الكهان، ثم النشره ثم والتطير، وكان الأولى أن يقدم النشره على ما جاء في الكهان لأنها إلى أبواب السحر أقرب وبها الصق والتطير بالكهانه أنسب، وكذلك؛ الأبواب التي تكلم فيها عن الأسماء الحسنی لم يأت بها على الترتيب.

وكذلك الأبواب التي تكلم فيها عن حماية المصطفى لجباب التوحيد جاءت في بابين متباعدين جداً، وكان الأنسب والأقرب أن يأتي بكل باب خلف الآخر كما فعل في باب ماجاء في الرياء والذي يليه العمل للدنيا، وهذا في كتابه غير قليل، ولكن الأمر كما قال بعض الدعاة والمشايخ، أن هذا الكتاب إلى الترتيب الدعوى والوعظي أقرب منه إلى الترتيب العلمی.

• ترجمة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (١).

- نسبه وميلاده:

هو العلامة المجدد، الإمام شيخ الإسلام أبو الحسين، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مشرف آل معضاد الوهبي، من بني حنظلة بن مالة التيمي. ولد في العيينة من بلاد عارض اليمامة، في وسط الجزيرة العربية، سنة ١١١٥ هـ.

- أسرته ونشأته:

نشأ في أحضان أسرة فاضلة وبيت علم وبين أبوين كريمين، فوالده الأدنى، الشيخ عبد الوهاب بن سليمان (ت ١١٥٣) من علماء نجد المعروفين، وقضاة العيينة فإنه تولى القضاء في عدة جهات.

(١) بتصرف من كتيب من مشاهير المجددين للدكتور صالح بن فوزان ومقدمة الدكتور/

وليد آل فريان.

وجده الشيخ سليمان بن علي (ت ١٠٧٩ هـ) كان عالماً جليلاً وإماماً في الفقه وهو المفتى في البلاد في وقته وقد تخرج على يديه عدد كبير من العلماء وطلبة العلم. وعمه الشيخ إبراهيم بن سليمان كان من أجلة العلماء، فنشأ الشيخ محمد في هذا الجو العلمي وكان حاد الذهن متوقد الذكاء سريع الحفظ، حفظ القرآن الكريم قبل سن العاشرة ودرس على والده كتب الفقه الحنبلي وكان كثير المطالعة والقراءة للكتب إلى جانب قراءته على والده، فقرأ في كتب التفسير والحديث والأصول، وعني عناية خاصة بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وكتب العلامة ابن القيم، وكان لكتب هذين الإمامين أكبر الأثر في تكوين شخصيته العلمية المتميزة والأخذ بيده إلى مصادر العلم الصحيحة فتكون لديه الاتجاه السليم منذ صغره وتركزت في قلبه العقيدة الصحيحة، وتخرج على كتب هذين الإمامين المحققين.

- شيوخه:

أخذ عن كثير من العلماء في بلده، وفي رحلاته المتعددة إلى الحجاز والبصرة والأحساء، ومنهم:

- ١- والده الشيخ، عبد الوهاب بن سليمان.
- ٢- الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن سيف.
- ٣- الشيخ محمد حياة السندی (ت ١١٦٥ هـ).
- ٤- الشيخ محمد المجموعى البصري.
- ٥- الشيخ المسند، عبدالله بن سالم البصرى [ت ١١٣٤ هـ].
- ٦- الشيخ عبداللطيف العفالقى، الأحسائى.

- رحلاته العلمية:

ولما استوعب ما يدرس في بلدته من علوم الفقه والعربية والحديث والتفسير تطلع إلى الزيادة وعزم على الرحلة إلى علماء البلاد المجاورة للاستفادة من علومهم فرحل إلى البصرة وإلى الأحساء وإلى مكة والمدينة والتقى بعلماء تلك البلدان وأخذ عنهم واستحصل على الكتب والمراجع، ولترك المجال لحفيده الشيخ عبدالرحمن بن حسن ليحدثنا عن تلك الرحلات المباركة، قال:

إنه نشأ في طلب العلم وتخرج على أهله في سن الصبا، ثم رحل لطلب العلم للبصرة مراراً ولالأحساء ثم إلى المدينة. ثم قال في تفصيل ذلك: فظهر

شيخنا بين لبيه وعمه فحفظ القرآن وهو صغير، وقرأ في فنون العلم وصار له فهم قوي وهمة عالية في طلب العلم فصار يناظر أباه وعمه في بعض المسائل بالدليل على بعض الروايات عن الإمام أحمد والوجه عن الأصحاب، فخرج عليهما في الفقه وناظرهما في مسائل قرأها في الشرح الكبير والمغني والإنصاف لما فيهما من مخالفة ما في متن المنتهى والإقناع، وعلت همته إلى طلب التفسير والحديث فسافر إلى البصرة غير مرة، كل مرة يقيم بين من كان بها من العلماء، فأظهر الله له أصول الدين ما خفي على غيره وكذلك ما كان عليه أهل السنة في توحيد الأسماء والصفات والإيمان... إلى أن قال: فصنف في البصرة كتاب التوحيد الذي شهد له بفضلته بتصنيفه القريب والبعيد، أخذه من الكتب التي في مدارس البصرة من كتب الحديث... إلى أن قال: ثم إن شيخنا رحمه الله تعالى بعد رحلته إلى البصرة وتحصيل ما حصل بنجد وهناك رحل إلى الأحساء وفيها فحول العلماء منهم عبدالله بن فيروز أبو محمد الكفيف، ووجد عنده من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ما سر به، وأثنى على عبدالله هذا بمعرفته بعقيدة الإمام أحمد، وحضر مشايخ الأحساء ومن أعظمهم عبدالله بن عبداللطيف القاضي فطلب منه أن يحضر الأول من فتح السباري على البخاري ويبين له ما غلط فيه الحافظ في مسألة الإيمان، وبين أن الأشاعرة خالفوا ما صدر به البخاري كتابه من الأحاديث والآثار، وبحث معهم في مسائل وناظر، وهذا أمر مشهور يعرفه أهل الأحساء وغيرهم من أهل نجد... إلى أن قال: ثم إن شيخنا رحمه الله رجع من الأحساء إلى البصرة وخرج منها إلى نجد قاصداً الحج فحج رحمه الله تعالى، وقد تبين له بما فتح الله تعالى عليه ضلال من ضل باتخاذ الأنداد وعبادتها من دون الله في كل قطر وقرية إلا ما شاء الله، فلما قضى الحج وقف في الملتزم وسأل الله تعالى أن يظهر هذا الدين بدعوته وأن يرزقه القبول من الناس، فخرج قاصداً المدينة مع الحاج يريد الشام فتعرض له بعض سراق الحجيج فضربوه وسلبوه وأخذوا ما معه وشجوا رأسه، وعاقه ذلك عن مسيره مع الحجاج فقدم المدينة بعد أن خرج الحاج منها فأقام بها وحضر عند العلماء إذ ذاك منهم محمد حياة السندی وأخذ عنه كتب الحديث إجازة في جميعها وقراءة لبعضها ووجد فيها بعض الحنابلة، فكتب كتاب الهدي لابن القيم بيده وكتب متن البخاري وحضر في النحو وحفظ ألفية ابن مالك - حدثني بذلك حماد بن حمد عنه رحمهما الله ثم رجع إلى نجد وهم على الحالة التي لا يحبها الله، انتهى المقصود^(١).

(١) الدرر السنية (٩/٢١٥ - ٢١٦) نقلاً عن الصدر السابق.

فأنت ترى أيها القارئ في هذا السياق قوة الأسباب التي بذلها الشيخ لتحقيق العلم: كثرة الحفظ وكثرة القراءة والاطلاع وكثرة الرحلات في طلب العلم للتلقي عن العلماء مع شدة الذكاء والنية الصالحة، إن هذه الأسباب مع توفيق الله تعالى كفيلة بتوفر التحصيل وهذا ما حصل.

- حال المسلمين عند ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

لقد ذكر المؤرخون كابن غنم وابن بشر وغيرهما عن حالة أهل نجد خصوصا والعالم الإسلامي عموما الشيء الكثير من ظهور البدع والخرافات والشركيات والجهل بحقيقة الدين الصحيح، ففي نجد كانت القبور والأشجار والأحجار والمغارات تعبد من دون الله بأنواع من القربيات، وفي الحجاز واليمن وغيرهما من البلاد من ذلك الشيء الكثير، يقول العلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني في قصيدة له يصف المظاهر الشركية في البلاد الإسلامية وهو معاصر للشيخ محمد وقد وصف مايفعل ويمارس حول القبور من الشرك الأكبر فيثني على دعوة الشيخ:

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه	ويعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي
وينشر جهرا ما طوى كل جاهل	ومبتدع منه فوافق ما عندي
ويعمر أركان الشريعة هادما	مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله	يغوث وود بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها	كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سوحها من عقيرة	أهلت لغير الله جهرا على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل	ومستلم الأركان منهن باليد

ويقول الإمام الشوكاني وهو من المعاصرين لدعوة الشيخ أيضا، يقول في وصف مايفعل عند القبور من الشرك: وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر، فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا، وبالجملة إنهم لم يدعوا شيئا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لانجد من يغضب الله ويغار

حمية للدين الخيف لا عالماً ولا متعلماً ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكاً، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبورين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف بالله فاجرا، فإذا قيل له بعد ذلك: إحلّف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق، وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: إنه تعالى ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة، فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين أي درء للإسلام أشد من الكفر، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله، وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة، وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجبا.

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو ناراً نفخت بها أضواء ولكن أنت تنفخ في رماد^(١)

وقد ألف كل من هذين الإمامين رسالة في التحذير من هذا الشرك الذي فشا في البلدان في عصرهما فألف الصنعاني رسالة اسمها «تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد»، وألف الشوكاني رسالة اسمها «شفاء الصدور بتحريم البناء على القبور» وكلتا الرسالتين مطبوعة ومتداولة.

وإليك ما قاله فاضلان من أهل العلم معاصران للشيخ محمد ودعوته، قالوا رحمهما الله:

من محمد بن غيهب ومحمد بن عيدان إلى عبدالله المويس، الباعث للكتاب إخبارك عن ديننا قبل أن يجعل هذا الشيخ لهذا القرن يدعوهم إلى الله وينصح لهم ويأمرهم وينهاهم حتى أطلع الله به شمس الوحي وأظهر به الدين وفرق به أهل الباطل من السادة والكهان والمرتشين فهو غريب في علماء هذا الزمان هو في شأن وهم في شأن آخر، رفع الله له علم الجهاد فشمروا إليه فأمر ونهى ودعا إلى الله تعالى ونصح ووفى العهد لما نقضوه وشمروا عن ساعد الجد لما تركوه وتمسك بالكتاب المنزل لما نبذوه فبدعوه وكفروه، فديننا قبل هذا الشيخ المجدد لم يبق منه إلا الدعوى والإسم فوقعنا في الشرك فقد ذبحنا للشياطين ودعونا الصالحين ونأتي الكهان ولا نفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ولا بين توحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب وتوحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا نفرق بين السنة والبدعة فنجتمع ليلية النصف من شعبان

(١) «نيل الأوطار» (٤/ ٩٠) نقلاً عن المصدر السابق.

لصلاتها الباطلة التي لم ينزل بها من سلطان ونضيع الفريضة، ونقدم قبل الصلاة الوسطى - صلاة العصر - من الهديان ما يفوتها عن وقت الاختيار إلى وقت الضرورة، هذا وأضعافه من البدع لم ينهنا عنه علماؤنا بل أقرونا عليه وفعلوه معنا فلا يأمرهم بمعروف ولا ينهون عن منكر ولا ينصحون جاهلاً ولا يهدون ضالاً والكلام من جهتهم طويل عصمنا الله وإياك من الاقتداء بهم واتباع طريقتهم فكن منهم على حذر إلا القليل منهم وكيفيك عن التطويل أن الشرك بالله يخطب به على منابرهم ومن ذلك قول الكهمري: اللهم صل على سيدنا ووليننا ملجانا منجانا معاذنا ملاذنا. وكذلك تعطيل الصفات في خطب الطيبي فيشهد أن الله لا جسم ولا عرض ولا قوة.

فقبل هذا الشيخ لا تؤدى أركان الإسلام كالصلاة والزكاة فلم يكن في بلدنا من يزكي الخارج من الأرض حتى جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

- عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

قال رحمه الله جواباً لمن سأله عن عقيدته^(١):

بسم الله الرحمن الرحيم

أشهد الله ومن حضرني من الملائكة وأشهدكم أنني اعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره، ومن الإيمان بالله بما وصف به نفسه في كتابه على لسان رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، بل أعتقد أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثل شيء وهو السميع البصير، فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه، ولا أحرف الكلم عن مواضعه ولا ألحد في أسمائه وآياته، ولا أكيف ولا أمثل صفاته تعالى بصفات خلقه؛ لأنه تعالى لا سمي له ولا كفؤ له ولا ند له ولا يقاس بخلقه، فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيباً وأحسن حديثاً، فتره نفسه عما وصفه به المخالفون من أهل التكيف والتمثيل وعمما نفاه عنه النافون من أهل التحريف والتعطيل فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) والفرقة الناجية وسط في باب أفعاله تعالى بين القدرية والجبرية، وهم وسط في باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية، وهم وسط في باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية، وهم وسط في باب أصحاب رسول الله بين الرافضة

(١) «الدرر السنية» (١/ ٢٨ - ٣٠) نقلاً عن المصدر السابق. (٢) الصفات: الآية (١٨٠ - ١٨٢).

والخوارج، وأعتقد أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، وأنه تكلم به حقيقة وأنزله على عبده ورسوله وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده نبينا محمد ﷺ، وأؤمن بأن الله فعال لما يريد ولا يكون في ملكه شيء إلا بإرادته ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس شيء في العالم يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا محيد لأحد عن القدر المحدود، ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المسطور، وأعتقد الإيمان بكل.

بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت فأؤمن بفتنة القبر ونعيمه وبإعادة الأرواح إلى الأجساد، فيقول للناس لرب العالمين حفاة عراة غرلاً، تدنو منهم الشمس وتنصب الموازين وتوزن بها أعمال العباد: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١﴾ وتشر الدواوين فأخذ كتابه شماله، وأؤمن؟؟؟ نبينا محمد ﷺ بحرصه القيامة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، أنيته عدد نجوم السماء، من شرب منه شربه لن يظماً بعدها أبداً وأؤمن بأن الصراط منصوب على سفير جهنم يمر به الناس على قدر أعمالهم الناس على قدر أعمالهم وأؤمن بشفاعة النبي ﷺ وأنه أول شافع وأول مشفع، ولا ينكر شفاعة النبي إلى أهل البدع والضلال ولكنها لا تكون إلا بعد الإذن والصرى كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ ﴿٢﴾ وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ﴿٣﴾ وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ﴿٤﴾ إلا التوحيد ولا بأذن إلا لأهله، وأما المشركون فليس لهم من الشفاعة نصيب كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ ﴿٥﴾ وأؤمن بأن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما اليوم موجودتان، وأنهما لا يفنيان وأن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة كما يرون القمر ليلة

(١) المؤمنون : ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) الأنبياء ٢٨ .

(٣) البقرة ٢٥٥ .

(٤) النجم ٢٦ .

(٥) المدثر ٤٨ .

البدر لا يضامون في رؤيته وأؤمن بأن نبينا محمداً ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، ولا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته، وأن أفضل أمته أبو بكر ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذو النورين، ثم علي المرتضى، ثم بقية العشرة، ثم أهل بدر، ثم أهل الشجرة أهل بيعة الرضوان، ثم سائر الصحابة رضي الله عنهم.

وأتولى أصحاب رسول الله ﷺ وأذكر محاسنهم وأترضى عنهم وأستغفر لهم وأكف عن مساوئهم وأسكت عما شجر بينهم وأعتقد فضلهم عملاً بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١) وأترضى عن أمهات المؤمنين المطهرات من كل سوء، وأقر بكرامات الأولياء وما لهم من المكاشفات إلا أنهم لا يستحقون من حق الله تعالى شيئاً، ولا يطلب منهم مالا يقدر عليه إلا الله، ولا أشهد لأحد من المسلمين بجنة ولا نار إلا من شهد له رسول الله ﷺ، ولكني أرجو للمحسن وأخاف للمسيء، ولا أكفر أحداً من المسلمين بذنوب ولا أخرجه من دائرة الإسلام، وأرى الجهاد ماضياً مع كل إمام برأ كان أو فاجراً، وصلاة الجماعة خلفهم جائزة. والجهاد ماض منذ بعث الله محمداً ﷺ إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم مالم يأمروا بمعصية الله، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به وغلّبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته وحرم الخروج عليه، وأرى هجر أهل البدع ومبايئتهم حتى يتوبوا، وأحكم عليهم بالظاهر وأكل سرائرهم إلى الله، وأعتقد أن كل محدثة في الدين بدعة، وأعتقد أن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهو بضع وسبعون شعبة. أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، وأرى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما توجبه الشريعة المحمدية الطاهرة، فهذه عقيدة وجيزة حررتها وأنا مشتغل البال لتطلعوا على ما عندي، والله على ما نقول وكيل. انتهى.

(١) الخثر: الآية (١٠).

بدء دعوة الشيخ محمد رحمه الله:

في وسط هذا الجو المظلم الذي سبق وصفه سطعت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ورفع صوته منكرًا لهذا الشرك داعيًا الناس إلى التوحيد الذي بعث الله به رسوله محمدًا ﷺ فلقي من الناس ما يلقاه أمثاله من الدعاة إلى الله من الأذى وأطاعه من وفقه الله لقبول الحق، يقول حفيده الشيخ عبدالرحمن بن حسن رحمه الله: ثم رجع إلى نجد وهم على الحالة التي لا يحبها الله ولا يرضاها من الشرك بعبادة الأموات والأشجار والأحجار والجن، فقام فيهم يدعوهم إلى التوحيد وأن يخلصوا العبادة بجميع أنواعها لله، وأن يتركوا ما كانوا يعبدونه من قبر أو طاغوت أو شجر أو حجر، والناس يتبعن الواحد منهم والإثنان فصاح به الأكثرون وحذروا منه الملوك وأغروهم بعدواته^(١).

وهذا لا يعني أنه لا يوجد علماء في هذا العصر، بل يوجد منهم الكثير، ولكنهم ما بين مستحسن لهذا الوضع السيء، أو غير مستحسن لكنه لا يملك الشجاعة لمقاومته.

أصول دعوة الشيخ رحمه الله:

لقد أوضح أصول دعوته في إحدى رسائله حيث قال^(٢):

- ١- أما ما نحن عليه من الدين فعلى دين الإسلام الذي قال الله فيه: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣).
- ٢- وأما ما دعونا الناس إليه فندعوهم إلى التوحيد الذي قال الله فيه خطاباً لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٥).
- ٣- وأما ما نهينا الناس عنه فنهيناهم عن الشرك الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّهُ مِنْ

(١) «الدرر السنية» (٢١٦/٩) نقلاً عن المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (١٢ - ٦٤).

(٣) آل عمران: الآية (٨٥).

(٤) يوسف: الآية (١٠٨).

(٥) الجن: الآية (١٨).

يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴿١﴾ وقوله تعالى لنبية ﷺ على سبيل التغليظ، وإلا فهو منزّه هو وإخوانه عن الشرك: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فَاعِبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢) وغير ذلك من الآيات، ونقاتلهم عليه كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ (٣) أي شرك، ثم ساق الأدلة على ذلك إلى أن قال:

٤- وأما ما ذكرتم من حقيقة الاجتهاد فنحن مقلدون الكتاب والسنة وصالح سلف الأمة وما عليه الاعتماد من أقوال الأئمة الأربعة أبي حنيفة النعمان بن ثابت ومالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل رحمهم الله.

٥- وما جئنا بشيء يخالف النقل ولا ينكره العقل. . نقاتل عباد الأوثان (٤) كما قاتلهم ﷺ ونقاتلهم على ترك الصلاة وعلى منع الزكاة كما قاتل مانعها صديق هذه الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، انتهى.
وقال في رسالة أخرى من رسائله (٥):

٦- وأما التكفير فإنما أكفر من عرف دين الرسول ثم بعدما عرفه سبه ونهى الناس عنه وعادى من فعله فهذا الذي أكفره، وأكثر الأمة والله الحمد ليسوا كذلك.

٧- وأما القتال فلم نقاتل أحدا إلا دون النفس والحرمة، فإنما نقاتل على سبيل

(١) المائدة: الآية (٧٢).

(٢) الزمر: الآية (٦٥، ٦٦).

(٣) الأنفال: الآية (٣٩).

(٤) وقال في بعض أجوبته: نقاتلهم بعدما نقيم الحجة عليهم من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح من الأئمة ممثلين قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ انتهى. الدرر السنية (٥٨/١) نقلاً عن المصدر السابق.

(٥) «الدرر السنية» (٥٦/١) نقلاً عن المصدر السابق.

المقابلة: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾^(١) وكذلك من جاهر بسبب دين الرسول بعد ما عرفه.
وقال أيضا^(٢).

٨ - وأيضاً ألزمت من تحت يدي بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من فرائض الله، ونهيتهم عن الربا وشرب المسكر وأنواع المنكرات.

المراحل التي مرت بها دعوة الشيخ محمد رحمه الله:

بدأ الشيخ دعوته في بلدة حريملا لوجود والده فيها، ولكن لما كانت الظروف غير مواتية ترك هذه البلدة بحثاً عن غيرها فاتجه إلى العيينة واتصل بأmirها عثمان بن معمر فساعدته في أول الأمر واجتمع حوله طلبة وبدأ بتنفيذ الأحكام الشرعية فهدم بعض القباب الشركية ورجم في الزنا، ثم إن ابن معمر تخلى عنه خوفاً من تهديد بعض الرؤساء، فترك الشيخ العيينة وبحث عن غيرها فاتجه إلى الدرعية واتصل بأmirها محمد بن سعود وعرض عليه دعوته فقبلها وبايعه على مناصرته وصدق في ذلك، وهنا استقر الشيخ رحمه الله وانعقدت حوله حلق الدروس ووفد إليه الطلاب من مختلف الجهات وتكونت في هذه البلدة ولاية إسلامية أميرها الإمام محمد بن سعود وموجهها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وامتدت الدعوة إلى البلاد المجاورة ونشأ الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة التوحيد وقمع الشرك، وما هي إلا فترة وجيزة حتى انتشرت الدعوة وتوحدت جميع البلدان النجدية تحت رايته، وامتدت فيما بعد ذلك إلى الحجاز وعسير وشمال الجزيرة، وكان ذلك بفضل الله وحده ثم بمؤازرة آل سعود لهذه الدعوة المباركة، وصدق الله وعده: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٣) ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٤) ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾^(٥).

(١) الشورى: الآية (٤٠).

(٢) «الدرر السنية» (١/٥٤) نقلاً عن المصدر السابق.

(٣) محمد: الآية (٧).

(٤) الصافات: الآية (١٧٣).

(٥) الحج: الآية (٤٠).

- ثمرات دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وآثارها:

إن كل دعوة من الدعوات وكل عمل من الأعمال إنما تعرف قيمته من ثمراته المترتبة عليه ومن أثره الذي يتركه، وإن دعوة الشيخ والله الحمد لما كانت دعوة خالصة لله مترسمة منهج رسول الله ﷺ مستمدة علمها من الكتاب والسنة صار لها أطيّب الأثر واستمر نفعها وبقي أثرها وأنتجت للأمة خيرات كثيرة منها:

١- قيام دولة إسلامية هي دولة آل سعود الذين آزرُوا هذه الدعوة وجاهدوا في سبيلها، ولا تزال هذه الدولة والله الحمد تحكم بشريعة الله وتخدم الحرمين الشريفين وتشد أزر المسلمين في كل مكان من بقاع العالم بعمارة المساجد والمراكز الإسلامية والتعليمية.

٢- تصحيح العقيدة الإسلامية مما علق بها من الشراكيات والبدع والخرافات وإرجاعها إلى منبعها الصافي من كتاب الله وسنة رسوله، وقد طهر الله كل البلاد التي صار لهذه الدعوة المباركة فيها نفوذ وسلطة من جميع مظاهر الشرك والبدع والخرافات.

٣- امتداد أثر هذه الدعوة المباركة خارج بلادها حتى انتفع بها من هدفه الحق في مختلف بلدان العالم الإسلامي في الشام ومصر والمغرب العربي وأفريقيا والسودان واليمن والعراق والهند والباكستان وأندونيسيا وغيرها.

٤- وجود حركة علمية واعية متحررة من التقليد الأعمى، فانتشر التعليم في المساجد في مختلف مناطق البلاد حتى تخرج فيه علماء أفذاذ في حياة الشيخ وبعدها قاموا بنشر هذه الدعوة ورعايتها إلى يومنا هذا، ثم أسست لهذا التعليم جامعات إسلامية تخرج الأفواج تلو الأفواج من مختلف العالم الإسلامي مسلحين بالعقيدة الصحيحة والفكر السليم ينتشرون في العالم الإسلامي وغيره للدعوة إلى الله.

٥- نشاط حركة التأليف والنشر، فقد قدم علماء هذه الدعوة للأمة الإسلامية رصيда من الكتب النافعة في الأصول والفروع ومن ذلك:

١- مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب إمام الدعوة ويتكون مجموعها من اثني عشر مجلدا في الفقه والعقائد والتفسير والحديث والسيرة.

- ٢- مجموع الفتاوى والرسائل لعلماء الدعوة ويتكون من أحد عشر مجلداً.
- ٣- كتب ألفها أئمة الدعوة في مختلف العصور للرد على خصوم الدعوة تبلغ العديد من المجلدات وهي مطبوعة ومتداولة.
- ٤- نشر كتب السلف وتوزيعها على المسلمين في موسم الحج وغيره.
- ٥- نشر كل مفيد من المؤلفات العصرية وتوزيعها مجاناً.

- الشبه التي أثرت حول دعوة الشيخ:

تعرضت دعوة الشيخ كغيرها من دعوات المصلحين للنقد من قبل خصومها وأثيرت حولها شبهات ربما تروج على من لم يعرف حقيقتها، وقد أثير كثير من هذه الشبهات في حياة الشيخ ورد عليها بنفسه، وأثير البعض الآخر أو بالأصح أعيدت إثارة نفس تلك الشبه بعد وفاته فرد عليها تلامذته وغيرهم من محققي علماء المسلمين الذين لا يروج عليهم البهرج والكذب ولا تأخذهم في الله لومة لائم ومن هذه الشبه:

- ١- أنه يبطل كتب المذاهب الأربعة وأن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء.
- ٢- أنه يدعي الاجتهاد وأنه خارج عن التقليد وأنه يقول اختلاف العلماء نقمة.
- ٣- أنه يحرم زيارة قبر الرسول ﷺ وزيارة قبر الوالدين وغيرهما.
- ٤- أنه يكفر من حلف بغير الله.

وقد أجاب الشيخ عن هذه بقوله: جوابي عن هذه المسائل أني أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، وقبله من بهت النبي ﷺ أنه يسب ابن مريم ويسب الصالحين فتشابهت قلوبهم بافتراء الكذب وقول الزور قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (١) الآية بهتوه ﷺ بأنه يقول إن الملائكة وعيسى وعزيراً في النار فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (٢) الآية (٣).

٥- قالوا إنه ينهى عن الصلاة على النبي ﷺ وأنه يقول لو أن لي أمراً هدمت

(٢) الأنبياء: الآية (١٠١).

(١) النحل: الآية (١٠٥).

(٣) «الدرر السنية» (١/٣٠، ٣١).

قبة النبي ﷺ وأنه يتكلم في الصالحين وينهى عن محبتهم . . وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: هذا كذب وبهتان افتراه علي الشياطين الذين يريدون أن يأكلوا أموال الناس بالباطل^(١).

٦- قالوا: إنه يكفر جميع الناس إلا من اتبعه وأن أنكحتهم غير صحيحة . . وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: يا عجبا كيف يدخل هذا في عقل عاقل وهل يقول هذا مسلم، إني أبرأ إلى الله من هذا القول الذي ما يصدر إلا من مختل العقل فاقد الإدراك، فقاتل الله أهل الأغراض الباطلة^(٢).

٧- قالوا إنه يكفر بالعموم ويوجب الهجرة إليه على من قدر على إظهار دينه . . وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: كل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله، وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبر عبدالقادر والصنم الذي علي قبر أحمد البدوي وأمثالهما لأجل جهلهم وعدم من ينيهم فكيف نكفر من لم يشرك بالله ولم يهاجر إلينا أو لم يكفر ويقاقل؟ سبحانك هذا بهتان عظيم^(٣).

٨- قالوا إنه ينكر الشفاعة، فرد الشيخ على ذلك بقوله: ثم بعد هذا يذكر لنا أن أعداء الإسلام الذين ينفرون الناس عنه يزعمون أننا ننكر شفاعة الرسول ﷺ، فنقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، بل نشهد أن رسول الله ﷺ الشافع المشفع صاحب المقام المحمود نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يشفعه فينا، وأن يحشرنا تحت لوائه، هذا اعتقادنا وهذا الذي مشى عليه السلف الصالح من المهاجرين والأنصار والتابعين وتابع التابعين والأئمة الأربعة رضي الله عنهم أجمعين وهم أحب الناس لنيهم وأعظمهم في اتباعه وشرعه، فإن كانوا يأتون عند قبره يطلبونه الشفاعة فإن اجتماعهم حجة، والقائل إنه يطلب الشفاعة بعد موته يورد علينا الدليل من كتاب الله أو من سنة رسول الله أو من إجماع الأمة والحق أحق أن يتبع^(٤).

٩- وأما اتهام الشيخ أنه يكفر بالعموم ويقاقل المسلمين، فقد أجاب عنه الشيخ

(١) «الدرر السنية» (٥٢/١) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

(٢) «الدرر» (٥٥/١) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

(٣) «الدرر» (٦٦/١) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

(٤) «الدرر» (٤٦/١) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

بقوله: وأما التكفير فأنا أكفر من عرف دين الرسول ثم بعد ما عرفه سبه ونهى عنه وعادى من فعله فهذا هو الذي أكفر، وأكثر الأمة والله الحمد ليسوا كذلك، وأما القتال فلم نقاتل أحداً إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة وهم الذين أتونا في ديارنا ولا أبقوا ممكننا، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾^(١)، وكذلك من جاهر بسبب دين الرسول بعد ما عرف فإننا نبين لكم أن هذا هو الحق الذي لا ريب فيه وأن الواجب إشاعته في الناس وتعليمه الرجال والنساء^(٢). انتهى.

وقال أيضاً: لما بين بطلان الذي يفعله القبوريون: فهذا الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر إلى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرونا بهم، وهو الذي ندعو الناس إليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح من الأئمة ممثلين لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾^(٣) فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٤) انتهى^(٥).

وقال ابنه الشيخ عبدالله بن محمد مجملاً هذه الشبه مع الرد عليها: وأما ما يكذب علينا ستراً للحق وتليساً على الخلق بأننا نفسر القرآن برأينا ونأخذ من الحديث ما وافق فهمنا من دون مراجعة شرح ولا معول على شيخ وأنا نضع من رتبة نبينا محمد ﷺ بقولنا: النبي رمة في قبره وعصا أحدنا أنفع له منه وليس له شفاعة، وأن زيارته غير مندوبة وأنه كان لا يعرف معنى لا إله إلا الله

(١) الشورى: الآية (٤٠).

(٢) «الدرر» (٥١/١) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

(٣) الأنفال: الآية (٣٩).

(٤) الحديد: الآية (٢٥).

(٥) «الدرر» (٥٨/١) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

حتى أنزل الله عليه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١) مع كون الآية مدنية وأنا لانعتمد على أقوال العلماء وتلف مؤلفات أهل المذاهب لكون فيها الحق والباطل، وأنا مجسمة، ومن فروع ذلك أننا لانقبل بيعة أحد إلا بعد التقرير عليه بأنه كان مشركاً وأن أبويه ماتا على الإشراك بالله وأنا ننهى عن الصلاة على النبي ﷺ، ونحرم زيارة القبور المشروعة مطلقاً، وأن من دان بما نحن عليه سقطت عنه جميع التبعات حتى الديون، وأنا لانرى حقاً لأهل البيت رضوان الله عليهم وأنا نجبرهم على تزويج غير الكفاء لهم، وأنا نجبر بعض الشيوخ على فراق زوجته الشاببة لتتكح شابا إذا ترافعوا إلينا، فلا وجه لذلك فجميع هذه الخرافات وأشباهاها لما استفتهمنا عنها من ذكر أولاً (يعنى علماء مكة) كان جوابنا في كل مسألة من ذلك: سبحانك هذا بهتان عظيم، فمن روى عنا شيئاً من ذلك أو نسبه إلينا فقد كذب علينا ومن شاهد حالنا وحضر مجالسنا وتحقق ما عندنا علم قطعاً أن جميع ذلك وضعه وافتراه علينا أعداء الدين وإخوان الشياطين تنفيراً للناس عن الإذعان بإخلاص التوحيد لله تعالى بالعبادة وترك أنواع الشرك الذي نص الله عليه بأن الله لا يغفره: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾^(٢) فإننا نعتقد أن من فعل أنواعاً من الكبائر كقتل المسلم بغير حق والزنا وشرب الخمر وتكرر منه ذلك أنه لا يخرج بفعله ذلك عن دائرة الإسلام ولا يخلد به في دار الانتقام إذا مات موحدًا بجميع أنواع العبادة، والذي نعتقد أن رتبة نبينا محمد ﷺ أعلى مراتب المخلوقين علي الإطلاق وأنه حي في قبره حياة برزخية أبلغ من حياة الشهداء المنصوص عليها في التنزيل، إذ هو أفضل منهم بلاريب، وأنه يسمع سلام المسلم عليه وتسب زيارته إلا أنه لا يشد الرحل إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه وإذا قصد مع ذلك الزيارة فلا بأس، ومن أنفق نفيس أوقاته بالاشتغال بالصلاة عليه الصلاة والسلام الواردة عنه فقد فاز بسعادة الدارين وكفى همه وغمه كما جاء في الحديث عنه، ولا ننكر كرامات الأولياء ونعترف لهم بالحق وأنهم على هدى من ربهم مهما ساروا على الطريقة الشرعية والقوانين المرعية، إلا أنهم لا يستحقون شيئاً من أنواع العبادات

(١) محمد: الآية (١٩).

(٢) النساء: الآية (١١٦).

لا حال الحياة ولا بعد الممات، بل يطلب من أحدهم الدعاء في حال حياته بل ومن كل مسلم فقد جاء في الحديث: «دعاء المسلم مستجاب لأخيه»^(١) الحديث، وأمر ﷺ عمر وعلياً بسؤال الاستغفار من أويس ففعلاً^(٢).

ونثبت الشفاعة لنبينا محمد ﷺ يوم القيامة حسب ما ورد، وكذلك نثبتها لسائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حسب ما ورد أيضاً، ونسألها من المالك لها والأذن فيها لمن يشاء من الموحدين الذين هم أسعد الناس بها كما ورد بأن يقول أحدنا متضرعاً: (اللهم شفّع نبينا محمداً ﷺ فينا يوم القيامة) اللهم شفّع فينا عبادك الصالحين أو ملائكتك أو نحو ذلك مما يطلب من الله لا منهم، فلا يقال يا رسول الله أو يا ولي الله أسألك الشفاعة أو غيرها كأدركني أو أغثني أو اشفني أو انصرني على عدوي ونحو ذلك مما ذكر في أيام البرزخ كان من أقسام الشرك، إذ لم يرد بذلك نص من كتاب أو سنة ولا أثر من السلف الصالح في ذلك، بل ورد الكتاب والسنة وإجماع السلف أن ذلك شرك أكبر قاتل عليه رسول الله ﷺ. انتهى^(٣).

هذا وقد انبرى كثير من العلماء بعد وفاة الشيخ رحمه الله للإجابة عن هذه الشبهات وألقوا في ذلك مؤلفات ضخمة أشهرها:

- ١- (مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام وتسب إليه تكفير أهل الإسلام) في مجلد وهو للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن من آل الشيخ رحمهم الله.
- ٢- (معارج القبول)، للشيخ الحسين بن مهدي النعمي من علماء اليمن في مجلد.
- ٣- (غاية الأمان في الرد على النبهاني) للشيخ محمود شكري الألوسي من علماء العراق وهو في مجلدين.
- ٤- (صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان) للشيخ محمد بشير السهسواني

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٥٨/٩ - الذكر والدعاء).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم (٣٣٤/٨ - فضائل الصحابة).

(٣) «الدرر السنية» (١٢٧/١ - ١٢٩) نقلاً عن المصدرين المشار إليها في أول الترجمة.

الهندي في مجلد، وغير ذلك من الكتب التي ألفت في الذب على دعوة الشيخ حتى من غير المسلمين.

وهكذا يقبض الله سبحانه للحق أنصاراً في كل زمان تقوم بهم حجة الله على خلقه، فله الحمد والمنة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

- طلابه ومصنفاته -

أخذ عنه جموعاً كثيرة من الطلاب، تولوا من بعده مهمة الدعوة ورعاية الدولة، ومنهم:

- ١- الإمامُ المُجاهد، عبدالعزيز بن محمد بن سعود (ت ١٢١٨هـ).
- ٢- الأمير، سعود بن عبدالعزيز بن محمد (ت ١٢٢٩هـ).
- ٣- أنجأه: الشيخ حسين (ت ١٢٢٤هـ)، والشيخ علي (ت ١٢٤٥هـ)، والشيخ عبدالله (ت ١٢٤٣هـ)، والشيخ إبراهيم.
- ٤- حفيده الشيخ، عبدالرحمن بن حسن، مؤلف فتح المجيد.
- ٥- الشيخ، حمد بن ناصر بن مُعمر (ت ١٢٢٥هـ).
- ٦- الشيخ، عبدالعزيز بن عبدالله الحُصين (ت ١٢٣٧هـ).
- ٧- الشيخ، حسين بن غنّام (ت ١٢٢٥هـ).

أما مؤلفاته:

فكان له مشاركةٌ في فُنون كثيرة: في التفسير، والحديث، والعقيدة، والفقه، والوعظ. مع ما كان فيه من انشغال بأعباء الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمشاركة في الجهاد كما هو دأب علماء الدعوة، ومن هذه المؤلفات:

- ١- كتابُ التوحيد، مطبوع.
- ٢- أصولُ الإيمان، مطبوع.
- ٣- مفيدُ المُستفيد في كفر تارك التوحيد، أو شرح حديث عمر بن عبسة مطبوع.

- ٤- كشف الشبهات، مطبوع.
- ٥- ثلاثة الأصول، مطبوع.
- ٦- مُختصر السيرة، مطبوع.
- ٧- مختصر فتح الباري، مخطوط.
- ٨- مختصر زاد المعاد، مطبوع.
- ٩- مسائل الجاهلية، مطبوع.
- ١٠- فضائل الصلاة، مطبوع.
- ١١- كتاب الاستنباط، مطبوع.
- ١٢- آداب المشي إلى الصلاة، مطبوع.
- ١٣- مجموعة الحديث، مطبوع.

- وفاته:

مات رحمه الله تعالى في أواخر سنة ١٢٠٦ هـ عن إحدى وتسعين سنة، قضاها في ميدان العلم، والجهاد والدعوة، ودُفن بمقبرة الدرعية شمال البلدة القديمة، وقد كُتِب في رثائه قصائد كثيرة تنضح بالوفاء والحب.

شروح كتاب التوحيد

اهتم العلماء بهذا الكتاب، واحتفلوا به في بلاد مختلفة قديماً وحديثاً، فدرّسوه في حلّقتهم، وكتبوا عليه الشروح والحواشي والإيضاحات المفيدة، التي أسهمت في تبيين مقاصده، وحل ألفاظه وبسط معانيه، كما تُرجم إلى لغات متعددة، ومن هذه المؤلفات، ما يلي:

١- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد.

تأليف الشيخ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٣٣هـ) ومات قبل تمامه، والموجود منه، ينتهي عند باب ما جاء في المصورين. طُبِع سنة ١٣٨٢هـ عن ثلاث نُسخ، كما يقول الناشر، وله نسخ خطية أخرى في بعض مكاتب الرياض، منها في مكتبة الرياض السعودية برقم ٨٣، ٣٦٥ عملنا على طبعة عام ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٢- حاشيةُ كتاب التوحيد.

للشيخ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب المتقدّم.

٣- شرحُ كتاب التوحيد.

للشيخ، علي بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٣٤هـ) وهو مفقود منذ زمن طويل، يقول ابنُ بشر: ذكر لي أنه علّق شرحاً على كتاب التوحيد، تأليف جده محمد بن عبد الوهاب.

٤- فتح الحميد في شرح كتاب التوحيد.

لعثمان بن منصور الناصري التميمي (ت ١٢٨٢ هـ) في مجلّدين، وفيه من الدواهي والمنكرات ما لا يُحصيه إلاّ الله.

٥- شرحُ كتاب التوحيد.

للشيخ، عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين العائذي (ت ١٢٨٢هـ).

٦- فتحُ المجيد لشرح كتاب التوحيد.

للشيخ، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب وكان عملنا على طبعة مؤسسة قرطبة عام ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٧- قُرّة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين.

للشيخ، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب المتقدّم، مطبوعة سنة ١٣٤٦ هـ، ولها نسخٌ جيدة في بعض مكاتب الرياض، منها في مكتبة الرياض السعودية برقم ٣٢٠.

٨- إيظال التنديد باختصار شرح التوحيد.

للشيخ، حمد بن عتيق (ت ١٣٠١هـ)، أخذه من شرح الشيخ سليمان بن عبد الله، طبع سنة ١٣٨٩هـ.

٩- تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد.

تأليف الشيخ، عبد الهادي بن محمد بن عبد الهادي البكري العجيلي. مختصر، وربما كتبه لصغار الطلاب، ولم يُطبع بعد.

١٠- حاشية في كتاب التوحيد.

للشيخ إسحاق بن محمد بن عتيق (ت ١٣٤٣ هـ) مختصر، ولا يزال مخطوطاً.

١١- الدر النضيد شرح كتاب التوحيد.

للشيخ، أحمد بن حسن النجدي، مطبوع سنة ١٣١١ هـ في دهلي.

١٢- فتحُ الله الحميد المجيد شرح كتاب التوحيد.

للشيخ، حامد بن محمد بن حسن، مطبوع سنة ١٣١٧ هـ في امرتسار، وقد طبع طبعة حديثه بتحقيق فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد - عام ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م.

١٣- القولُ السديد في مقاصد التوحيد.

للشيخ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦ هـ)، مطبوع سنة ١٣٨٢ هـ.

١٤- حاشيةُ كتاب التوحيد.

للشيخ، عبد الرحمن بن قاسم (ت ١٣٩٢ هـ)، مطبوع سنة ١٣٩٦ هـ.

١٥- الدر النضيد على أبواب التوحيد.

للشيخ، سليمان بن عبد الرحمن الحمدان (ت ١٣٩٧ هـ)، مطبوع سنة ١٣٩٦ هـ.

١٦- الدر النضيد علي كتاب التوحيد

للشيخ، سعيد الجندول، مطبوع سنة ١٣٩٨ هـ.

١٧- إفادة المستفيد بشرح كتاب التوحيد.

للشيخ، عبد الرحمن الجطيلي (ت ١٤٠٦ هـ) مطبوع سنة ١٤٠٣ هـ.

١٨- الجديد في شرح كتاب التوحيد.

للشيخ، محمد القرعاوي، مطبوع سنة ١٤٠٤ هـ.

وكان عملنا على الطبعة الثانية عام ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ هـ.

١٩ - التوضيح المفيد لمسائل كتاب التوحيد

للشيخ ، عبد الله الدويش (ت ١٤٠٨) ، مطبوع سنة ١٤١١هـ.

٢٠ - التعليق المفيد لفضيلة الشيخ ابن باز ت ١٤٢٠هـ.

٢١ - القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ بن عثيمين. مطبوع سنة (١٤١٨هـ)

٢٢ - فضل الله الغنى الحميد: لياسر برهاس.

٢٣ - الجامع الفريد: لعبد الله بن جار الله مطبوع سنة (١٤٠٨هـ) ط.

٢٤ - معنى المرید شرح كتاب التوحيد وهو الذي بين أيدينا.

بعض تراجم مشاهير الشراح

- ترجمة الشيخ سليمان آل الشيخ^(١):

نسبه ونشأته:

هو الحافظ المحدث الفقيه المجتهد الثقة أرحم الحفاظ تاج عصره وجمال زمانه: الشيخ سليمان بن الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولد سنة ١٢٠٠ هـ كان آية في العلم والحلم، والحفظ والذكاء، له المعرفة التامة في الحديث، ورجاله وصحيحه، وحسنه، وضعيفه، والفقه والتفسير، والنحو، وكان في معرفة رجال الحديث يسامي أكابر الحفاظ، وضرب به المثل في زمنه بالذكاء والزكاء، وكان حسن الحظ، ليس في زمنه من يكتب بالقلم مثله.

شيوخه:

أخذ العلم عن أبيه، والشيخ حمد بن معمر، وعن عميه: الشيخ حسين، والشيخ علي، والشيخ حسين بن غنام، والشيخ عبد الله بن فاضل، والشيخ عبد الرحمن بن خميس، والشيخ عبد الله الغريب، وغيرهم، وأجازته الشيخ محمد بن علي الشوكاني.

أعماله ومصنفاته:

برع في الفنون، وكانت له اليد الطولى في الحديث ورجاله، يروى عنه أنه

(١) كتبها الشيخ إبراهيم بن محمد إبراهيم الشيخ نقلاً عن «تيسير العزيز الحميد».

كان يقول : أنا برجال الحديث أعرف مني برجال الدرعية ، لم ير شخص في زمنه حصل له من الكمال والعلوم والصفات الحميدة سواء على صغر سنه .
صنّف شرح «كتاب التوحيد» لجدّه ، فمن بعده عيال عليه فيه ، لكنه لم يكمله . وله حاشية على شرحه والدلائل في حكم موالاته أهل الإشراك» كان طلبة العلم يحفظونها عن ظهر قلب ، ورسالة في عدد الجمعة لم ينسخ على منوالها .

وله فتاوي كثيرة طبعت ضمن مجموع فتاوي أئمة الدعوة رحمهم الله ، ومن وقف على كلامه شهد له بالشهامة والجودة والذكاء ، والحفظ وحسن الفهم ، أخذ عنه العلم عدد كثير من أهل الدرعية وغيرهم ، ومنهم الشيخ محمد بن سلطان وغيره .

وفاته:

وكان رحمه الله أمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فلا يتعاطم رئيساً في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولا يتصاغر ضعيفاً أتى إليه بطلب فائدة . وقد أكرمه الله تعالى بالشهادة سنة ١٢٣٣ هـ ، وذلك عندما وشي به بعض المنافقين إلى إبراهيم باشا بن محمد علي باشا بعد دخول الدرعية واستيلائه عليها فأحضره إبراهيم باشا وأظهر بين يديه الات للهو والمنكر إغاظته له ، ثم أخرجته إلى المقبرة وأمر الجند أن يطلقوا عليه الرصاص فمزقوا جسمه ، وفاضت روحه إلى ربه ، رحمه الله ، وأجزل مثوبته ، وأسكنه فسيح جناته .

ترجمة الشيخ: عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (١)

نسبه وميلاده:

هو العلامة المُجدِّد الثاني ، الشيخ أبو الحسن ، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، ولد في الدرعية ، الواقعة إلى الشمال ، من مدينة الرياض سنة ١١٩٣ هـ ، قبل وفاة جده الإمام محمد بن عبد الوهاب بثلاث عشرة سنة .

(١) من مصادر ترجمته: المؤلف ، ومجموعة الرسائل والمسائل « (٢/ ٢٠-٢٤) . وابن بشر «عنوان المجد في تاريخ نجد» (١/ ١٩١ ، ٤٦٠) ، وابن عيسى «عقد الدرر» (٥٤-٦٢) وإسماعيل باشا ، «إيضاح المكنون» (٢/ ١٧٢) و«هدية العارفين» (١/ ٥٥٨) وابن قاسم ، «الدرر السنية» (٦٠) ، والزركلي «الأعلام» (٣/ ٣٠٤) ، وكحالة ، «معجم المؤلفين» (٥/ ١٣٥) ، وعبد الرحمن بن عبد اللطيف ، «مشاهير علماء نجد» (٧٨) . نقلاً عن كتاب الدكتور الوليد الفرياني .

نشأته:

مات والده وهو صغير، فتولَّى رعايته والعناية به جدُّه الإمام محمد بن عبد الوهاب، ثم وجهه إلى طلب العلم في وقت مبكر، فحفظ القرآن في التاسعة، وأخذ عنه بعض (كتاب التوحيد) إلى أبواب السحر، وجملة من كتاب (آداب المشى إلى الصلاة) وحضر القراءة عليه في كُتب التفسير والحديث والأحكام، ولم يزل يتقلب في تلك الأفياء الوارفة الظليلة، حتى أدرك علماً غزيراً في مدة قصيرة، لما حباه الله من الذكاء وجودة الفهم، والصبر على المطالعة.

أخذ العلم عن طائفة من علماء عصره، في نجد ومصر، ومنهم:

- ١- جدُّه الإمام، محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ).
- ٢- العلامة الشيخ، عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٤٣هـ).
- ٣- الشيخ الجليل، حمد بن ناصر بن معمر (ت ١٢٢٥هـ).
- ٤- المؤرخ الشيخ، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي (ت ١٢٤٠هـ).
- ٥- النحوى المؤرخ، حسين بن غنام (ت ١٢٢٥هـ).
- ٦- الشيخ، إبراهيم الباجورى (شيخ الأزهر) (ت ١٢٧٧هـ).

أعماله:

عينه الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد (ت ١٢٢٩هـ) في قضاء الدرعية عاصمة الدولة آنذاك، ثم نقله الأمير عبد الله بن سعود (ت ١٢٣٤هـ) إلى مكة.

ولما اجتاحت جيوش محمد على (باشا) الدرعية سنة ١٢٣٣هـ انتقل إلى مصر مع أفراد أسرته، واستقروا هناك.

وفى سنة ١٢٤١هـ تمكَّن من العودة إلى نجد، بعد استعادة الإمام تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود (ت ١٢٤٩هـ) الحكم، فأعادته إلى القضاء، واتخذ منه مستشاراً فيما يعرض له من الأمور الخاصة والعمامة، وساهم معه في إحياء الدعوة وتطهير البلاد مما أصابها من الشرور والفتن، واشترك في معظم الغزوات التي خاضها الإمام تركى تحت راية التوحيد.

وما برح كذلك فى ولاية الإمام فيصل (ت ١٢٨٢ هـ) وعهد الأمير عبد الله
(ت ١٣٠٦ هـ) حتى فارق الدنيا.

مصنفاته:

ألف رحمه الله مجموعة من الكتب، التى تشهد بطول باعه فى التفسير
والحديث والفقہ، مع أنه كان مشغولاً بالقضاء، والتدريس والدعوة، وغير
ذلك.

وقد ذكر له ما يلي:

- ١- فتحُ المجيد.
- ٢- قُرَّةُ عيون الموحدين.
- ٣- القول الفصل النفيس.
- ٤- المقامات فى تاريخ الدعوة.
- ٥- المحجَّة.
- ٦- بيان كلمة التوحيد.
- ٧- مختصر العقل والنقل.
- ٨- مختصر تفسير سورة الإخلاص.
- ٩- حجة التحذير فى المنع من لبس الحرير.
- ١٠- تفسير سورة الفاتحة.
- ١١- الرد والردع.
- ١٢- المورد العذب الزُّلال.
- ١٣- ملخص منهاج السنة.
- ١٤- إرشاد طالب الهدى.
- ١٥- مجموعة كبيرة من الرسائل والفتاوى.

أبناء ووظابه.

أنجب خمسة أولاد محمد وإسماعيل، وعبد اللطيف، وإسحاق، وعبد الله

ولهؤلاء الثلاثة عقب، وقد أخذوا عنه، وأخذ عنه أعدادٌ كبيرة من الطلاب في الدرعية يوم أن كانت عاصمة الدولة، وفي الرياض لما انتقل إليها، وتوافدوا عليه من كل مكان.

يقول ابنُ بشر: أخذ عنه العلم خلقٌ كثير، لا يُحصى، فنفع الله الطالب بعلمه، بحيث لا يلبث عنده إلا يسيراً حتى يكون فائقاً بفهمه، وضربت إليه آباط الإبل من جميع نواحي نجد والأحساء، وظهرت أثر البركات في تعليمه. فتخرج في حلقاته الجامعة، الكثير من العلماء والقضاة وأهل الفضل والسابقة منهم:

- ١- نجله العلامة الكبير، عبد اللطيف بن عبد الرحمن (ت ١٢٩٣ هـ).
- ٢- القاضي الجليل، حسن بن حسين بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٤٥ هـ).
- ٣- الشيخ، حمد بن علي بن عتيق (ت ١٢٨٥ هـ).
- ٤- الشيخ، عبد الرحمن بن عدوان (ت ١٢٨٥ هـ).
- ٥- الشيخ، سليمان بن سحمان (ت ١٣٤٩ هـ).
- ٦- الشيخ، محمد بن إبراهيم بن عجلان (ت ١٢٩٣ هـ).
- ٧- الشيخ، محمد بن إبراهيم بن محمود (ت ١٣٣٣ هـ).

أخلاقه وسجاياه:

كان رحمه الله معروفاً بصدقه وإخلاصه، وعزيمته التي لا تلين، شهماً كريماً حازماً، حليماً متواضعاً عطوفاً ناصحاً، متعففاً يكتسب من الزراعة، شديد الغيرة على حرمة الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، متنبهاً لدسائس أهل البدع، منافحاً عن العقيدة، بلسانه وقلمه، شجاعاً، وقف مع رجال الدرعية وفتات مشهودة، في وجه عدوان إبراهيم (باشا) الغاشم.

يقول ابنُ عيسى: وكان رحمه الله تعالى: ورعاً تقياً صالحاً، ملازماً للتدريس، مرغباً للعلم، معيماً عليه، كثير الإحسان للطلبة، لين الجانب كريماً سخياً ساكناً، وقوراً كثير العبادة، ويقول أحدُ تلاميذه، في قصيدة رثائية طويلة:

فلا يبعدنك الله من شيخ طاعة
 قوى بأمر الله شهم مهذب
 ولما طغى عِلجُ العراقُ بجهله
 رماه كما يرمى الرجيم بثاقب
 لقد بان فينا النقصُ من بعد موته
 بعيد عن الأنداس عن الكبير
 أشد على هتك الحدود من النهر
 وغرره مالفقوه من الهذر
 فراح ابن جرجيس على الذل والصغر
 وموت أهيل العلم قاصمة الظهر

وفاته:

امتد به العمر ممتعاً بكامل حواسه، إلى أن أدركه الأجلُ عشية يوم السبت
 حادى عشر ذى القعدة، من عام ١٢٨٥ هـ فى مدينة الرياض، وصلى عليه
 بجامعها الكبير، ودفن فى مقبرة العُود.

فأصيب الناس بفقدته، وبكاه العلماء والعامّة، وأسفوا عليه، وكُتبت فى
 رثائه القصائد، رحمه الله رحمة واسعة، وجمعنا به فى مستقر رحمته.

ثناء العلماء عليه:

نال الشيخ عبد الرحمن بن حسن فى حياته الثناء والتقدير البالغ، من صفوة
 أهل عصره، فمدحوه، وأشادوا بمواقفه ومواهبه، وأظهروا له التبجيل
 والاحترام.

يقول ابن بشر: الشيخُ العالم النحرير، والبحر الزاخر الغزير، مُفيد الطالبين
 ومرجع الفقهاء والمتكلمين، المحفوف بعناية رب العالمين. جامعُ العلوم الشرعية
 ومحقق العلوم الدينية، والأحاديث النبوية والآثار السلفية، وارث العلم، كابرًا
 عن كابر، الذى قصرت عن استنباطه العلماء والأكابر، وصارت الأصاغر
 بإفاداته شيوخًا أكابر، ورجع العلم به غضًا، بعد ما كان دابر، ناصر شرعية
 سيد المرسلين، الموفق للصواب فى الجواب، الحافظ المتقن.

وقال فى موضع آخر: الشيخُ العالم الفاضل، وعين الأمائل، الذى أحيا
 مدارس العلم بعد ما عطلت المحابر، وردَّ عصره فى الشباب بعد ما كان داب،
 الذى تزيّنت بدروسه المساجد والمجالس، واحتاج إلى تفرغ منطوقه كل مذاكر

ومدارس، مجد الفضلاء والمدرسين، من قارنه فى أقواله وأفعاله السداد والصواب.

وقال الشيخُ عبد اللطيف بن عبد الرحمن: نصب نفسه بحمد الله ومنته لحماية هذا الدين، والذب عنه ومراغمة أعدائه، وقام فى وجوه أهل البدع.

وقد منَّ عليه بنشر العلم، وانتفع الناس به بعد ما كاد يعدم فى البلاد النجدية، بعد المحنة المصرية، فجَدَّدَ اللهُ به آثار سلفه الصالح.

وجمهورٌ من له معرفة بالعلم وما جاءت به الرسل، من أهل هذه البلاد النجدية إنما تخرج عليه، وسمع منه وتربى بين يديه، وقد عرف العامةُ والخاصة مناصحته لولاة الأمور، وحثهم على تحكيم كتاب الله والجهاد لإعلاء كلمته، ونصحهم عن الإصغاء إلى أهل الريب، وهو قائم على قضاة تلك البلاد، وقد أنطق اللهُ ألسن المسلمين بالثناء والدعاء لهذا الشيخ.

ويقول ابن عيسى: الشيخُ الإمام العالم الفاضل القُدوة، رئيس الموحدين، وقامع المُلحدِين، كان إمامًا بارعًا، محدثًا فقيهاً، له اليد الطُولِي، فى جميع العلوم الدينية.

كما كان محلَّ حفاوة زُعماء نجد، فى وقته، وهو المتصدَّرُ للدروس، التى كانت تُعقد فى مجالس الإمام تركى والإمام فيصل، فى الحل والترحال.

ترجمة الشيخ ابن باز^(١)؛

تفضل سماحة الشيخ عبد العزيز بإملاء نبذة عن حياته وقرئت عليه بعد كتابتها فأقرها.

أنا عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز. ولدت بمدينة الرياض فى ذى الحجة سنة ١٣٣٠ هـ، وكنت بصيراً فى أول الدراسة ثم أصابنى المرض فى عينيَّ عام ١٣٤٦ هـ، فضعف بصرى بسبب ذلك.. ثم ذهب بالكلية فى مستهل محرم من عام ١٣٥٠ هـ والحمد لله على ذلك، وأسأل الله جل وعلا أن يعوضنى عنه بالبصيرة فى الدين والجزاء الحسن

(١) نقلًا عن كتابه: «التعليق المفيد».

في الآخرة، كما وعد بذلك سبحانه على لسان نبيه محمد ﷺ، كما أسأله سبحانه أن يجعل العاقبة حميدة في الدنيا والآخرة.

وقد بدأت الدراسة منذ الصغر وحفظت القرآن الكريم قبل البلوغ ثم بدأت في تلقي العلوم الشرعية، والعربية على أيدي كثير من علماء الرياض من أعلامهم:

١- الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله.

٢- الشيخ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قاضي الرياض رحمهم الله.

٣- الشيخ سعد بن حمد بن عتيق . قاضي الرياض).

٤- الشيخ حمد بن فارس (وكيل بيت المال بالرياض).

٥- الشيخ سعد وقاص البخاري (من علماء مكة المكرمة) أخذت عنه علم التجويد في عام ١٣٥٥ هـ.

٦- سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، وقد لازمت حلقاته نحواً من عشر سنوات وتلقيت عنه جميع العلوم الشرعية ابتداء من سنة ١٣٤٧ هـ إلى سنة ١٣٥٧ هـ حيث رشحت للقضاء من قبل سماحته. جزى الله الجميع أفضل الجزاء وأحسنه، وتغمدهم جميعاً برحمته ورضوانه.

وقد توليت عدة أعمال هي:

١- القضاء في منطقة الخرج مدة طويلة استمرت أربعة عشر عاماً وأشهرُ وامتدت بين سنتي ١٣٥٧ هـ إلى عام ١٣٧١ هـ، وقد كان التعيين في جمادى الآخرة من عام ١٣٥٧ هـ، وبقيت إلى نهاية عام ١٣٧١ هـ.

٢- التدريس في المعهد العلمي بالرياض سنة ١٣٧٢ هـ. وكلية الشريعة بالرياض بعد إنشائها سنة ١٣٧٣ هـ. في علوم الفقه والتوحيد والحديث واستمر عملي على ذلك تسع سنوات انتهت في عام ١٣٨٠ هـ.

٣- عينت في عام ١٣٨١ هـ. نائباً لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وبقيت في هذا المنصب إلى عام ١٣٩٠ هـ.

٤- توليت رئاسة الجامعة الإسلامية في سنة ١٣٩٠ هـ بعد وفاة رئيسها شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله في رمضان عام ١٣٨٩ هـ وبقيت في هذا المنصب إلى سنة ١٣٩٥ هـ.

٥- وفي ١٤/١٠/١٣٩٥ هـ صدر الأمر الملكي بتعييني في منصب الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد برتبة «وزير» .
أسأل الله العون والتوفيق والسداد.

ولي إلى جانب هذا العمل في الوقت الحاضر عضوية في كثير من المجالس العلمية والإسلامية من ذلك:

- ١- عضوية هيئة كبار العلماء بالملكة.
 - ٢- رئاسة اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في الهيئة المذكورة.
 - ٣- عضوية ورئاسة المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي.
 - ٤- رئاسة المجلس الأعلى العالمي للمساجد.
 - ٥- رئاسة المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة التابع لرابطة العالم الإسلامي.
 - ٦- عضوية المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.
 - ٧- عضوية الهيئة العليا للدعوة الإسلامية في المملكة.
- أما مؤلفاتي فمنها:

- ١- الفوائد الجلية في المباحث الفرضية.
- ٢- التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة «توضيح المناسك».
- ٣- التحذير من البدع، ويشتمل على أربع مقالات مفيدة «حكم الاحتفال بالمولد النبوي وليلة الإسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان وتكذيب الرؤيا المزعومة من خادم الحجرة النبوية المسمى الشيخ أحمد».
- ٤- رسالتان موجزتان في الزكاة والصيام.
- ٥- العقيدة الصحيحة وما يضادها.
- ٦- وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفر من أنكرها.
- ٧- الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة.

- ٨- وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه.
- ٩- حكم السفور والحجاب ونكاح الشغار.
- ١٠- نقد القومية العربية.
- ١١- الجواب المفيد فى حكم التصوير.
- ١٢- الشيخ محمد بن عبد الوهاب «دعوته وسيرته».
- ١٣- ثلاث رسائل فى الصلاة:
الأولى : كيفية صلاة النبى ﷺ.
الثانية: وجوب أداء الصلاة فى جماعة.
الثالثة: أين يضع المصلى يديه حين الرفع من الركوع.
- ١٤- حكم الإسلام فىمن طعن فى القرآن أو فى رسول الله ﷺ.
- ١٥- حاشية مفيدة على فتح الباري.
- ١٦- رسالة الأدلة الثقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب.
- ١٧- إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين.
- ١٨- الجهاد فى سبيل الله.
- ١٩- الدروس المهمة لعامة الأمة.
- ٢٠- فتاوى تتعلق بأحكام الحج والعمرة والزيارة.
- ٢١- وجوب لزوم السنة والحذر من البدعة(*).

ترجمة الشيخ محمد بن صالح العثيمين^(١)؛

اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله، محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين المقلب الوهيبى التميمي.

(*) توفى سماحة الشيخ بعد انتهائنا من جمع الكتاب وخلال مراجعته ٢٤ محرم ١٤٢٠هـ.
(١) نقلاً عن كتاب شرح العقيدة الواسطية بقلم تلميذه وليد بن أحمد الحسين أبو عبد الله الزبيرى رئيس تحرير مجلة الحكمة.

ولد الشيخ أبو عبد الله في مدينة عنيزة، إحدى مدن القصيم، عام ١٣٤٧هـ، في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك، في عائلة معروفة بالدين والاستقامة، بل تتلمذ على بعض أفراد عائلته، أمثال جدّه من جهة أمه، الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ، رحمه الله، فقد قرأ عليه القرآن، فحفظه، ثم اتجه إلى طلب العلم، فتعلم الخط والحساب، وبعض فنون الآداب.

وكان الشيخ قد رزق ذكاء وزكاء، وهمة عالية، وحرصاً على التحصيل العلمي في مزاحمته الركب لمجالس العلماء، وفي مقدمتهم الشيخ العلامة المفسر الفقيه عبد الرحمن بن ناصر السعدي وكان الشيخ عبد الرحمن قد أقام اثنين من طلابه لتعليم الصغار، وهما الشيخ علي الصالحي، والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، فقرأ الشيخ محمد بن صالح العثيمين عليهما «مختصر العقيدة الواسطية» للشيخ عبد الرحمن السعدي، و«منهاج السالكين في الفقه» للشيخ السعدي أيضاً، و«الآجرومية»، و«الألفية» في النحو والصرف، وهكذا كانت نشأة الشيخ بين أحضان العلماء.

ولم يرحل الشيخ لطلب العلم إلا إلى الرياض، حيث فتحت المعاهد العلمية عام ١٣٧٢ هـ فالتحق بها.

وبعد وفاة شيخه عبد الرحمن السعدي، الذي توفي في عنيزة عام ١٣٧٦ هـ، عن عمر يناهز التاسعة والستين، رشح بعض المشايخ لإمامة الجامع الكبير، إلا أنهم لم يستمروا على ذلك إلا مدة قصيرة جداً، فرشح الشيخ محمد بن صالح العثيمين لإمامة الجامع الكبير، عندها تصدى للتدريس مكان شيخه، ولم يتصدّ للتأليف إلا عام ١٣٨٢ هـ، حين ألف أول كتاب له، وهو «فتح رب البرية بتلخيص الحموية»، وهو تلخيص لكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية «الحموية في العقيدة».

واستغل الشيخ وجوده في الرياض بالدراسة على الشيخ عبد العزيز بن باز، فقرأ عليه من «صحيح البخاري» وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وبعض الكتب الفقهية.

وقد عرض على الشيخ تولى القضاء من قبل مفتى المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، رحمه الله، الذى أُلح على فضيلته بتولى القضاء، بل أصدر قراره بتعيينه رئيساً للمحكمة الشرعية بالأحساء، فطلب منه الإعفاء، وبعد مراجعات واتصالات سمح بإعفائه من منصب القضاء.

مشايخه:

استفاد الشيخ أبو عبد الله فى طلبه للعلم من عدة شيوخ منهم.

١- الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المتوفى عام ١٣٧٦ هـ، المفسر المشهور، صاحب التفسير المعروف بـ «تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان» فى ثمان مجلدات.

٢- الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، المفتى العام للمملكة العربية السعودية، ورئيس هيئة كبار العلماء.

٣- الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكنى الشنقيطي، المتوفى عام ١٣٩٣ هـ، المفسر واللغوي، صاحب التفسير المشهور والمعروف بـ «أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن».

٤- الشيخ على بن حمد الصالحى، ولا يزال على قيد الحياة، أطال الله عمره، وأحسن عمله.

٥- الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، رحمه الله.

٦- الشيخ عبد الرحمن بن على بن عودان، رحمه الله.

٧- الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ رحمه الله. جد الشيخ من جهة أمه.

تلاميذه:

لا يمكن حصر جميع من تتلمذ على الشيخ، لأنهم ازدحموا فى مجلسه - لا سيما فى السنوات الأخيرة - بما يزيد على الخمسمائة طالب فى بعض الدروس، على اختلاف مستوياتهم، وقد ذكرت مجموعة من طلابه البارزين فى ترجمته المفصلة فى «مجلة الحكمة» العدد الثانى لا على سبيل الحصر فارجع إليها.

منهجه العلمي:

لقد أوضح الشيخ حفظه الله منهجه، وصرح به مرات عديدة، أنه يسير على الطريقة التي انتهجها شيخه العلامة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي، يقول شيخنا أبو عبد الله: «لقد تأثرت كثيراً بشيخي عبد الرحمن السعدي في طريقة التدريس، وعرض العلم، وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني».

والمنهج الذي سلكه الشيخ عبد الرحمن السعدي هو منهج خرج به عن المنهج الذي يسير عليه علماء الجزيرة - علماء نجد - عامتهم أو غالبتهم، حيث اعتماد المذهب الحنبلي في الفروع من مسائل الأحكام الفقهية، والاعتماد على كتاب «زاد المستقنع» في فقه الإمام أحمد بن حنبل، فكان الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي معروفاً بخروجه عن المذهب الحنبلي، وعدم التقيد به في مسائل كثيرة.

ومنهج الشيخ السعدي هو أنه كثيراً ما يتبنى آراء شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ويرجحها على المذهب الحنبلي، فلم يكن عنده الجمود تجاه مذهب معين، بل كان متجرداً للحق، وقد انطبعت فيه هذه الصفة وانتقلت إلى تلميذه محمد الصالح العثيمين.

ولا بأس في أن نذكر أمثلة لبعض المسائل التي خالف شيخنا أبو عبد الله العثيمين فيها شيخ الإسلام ابن تيمية منها:

١- يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن الجماعة شرط لصحة الصلاة، ويرى شيخنا أنها واجبة.

٢- يرى شيخ الإسلام أن المتمتع في الحج يكفيه سعي العمرة عن سعي الحج، ويرى شيخنا أن سعي العمرة لا يكفي عن سعي الحج.

٣- يرى شيخ الإسلام جواز سفر المرأة بلا محرم مع الأمن، ويرى شيخنا عدم جواز سفر المرأة بلا محرم مطلقاً.

٤- يرى شيخ الإسلام جواز الجمع بين الأختين من الرضاع، ويرى شيخنا التحريم لعموم حديث: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

٥- يرى شيخ الإسلام جواز دفع الزكاة في قضاء دين الميت الذي لم يخلف وفاء، ويرى شيخنا عدم الجواز.

٦- يرى شيخ الإسلام جواز تعفير الوجه بالتراب تذليلاً لله تعالى - ذكرها في الاختيارات- ويرى شيخنا ضعف هذا القول ، لأن الأصل في العبادات المنع والحظر، حتى يقوم دليل على المشروعية.

٧- يرى شيخ الإسلام أن للأُم الثلث مع الإخوة المحجوبين بالأب، ويرى شيخنا أن للأُم السدس، أى إن الأخوة، وإن كانوا محجوبين بالأب، لكن تأثيرهم على الأُم يظل باقياً، فيحجبونها حجب نقصان من الثلث إلى السدس، وهو قول الجمهور.

٨- يرى شيخ الإسلام جواز الزيادة بين الربويين من جنس واحد فى مقابل الصنعة، ويرى شيخنا عدم الجواز للعمومات الدالة على أن الذهب بالذهب لا بد فيه من التساوى وزناً وبوزن، سواء بسواء، يداً بيد.

٩- يرى شيخ الإسلام أن المأموم تكفيه قراءة إمامه فى الصلاة الجهرية ، وهو المذهب ويرى شيخنا وجوب قراءة الفاتحة على المأموم فى الجهرية.

طبيعة الدرس عند الشيخ:

إن طبيعة الدرس التى التزمها الشيخ، وسار عليها، واتخذها منهجاً له منذ توليه التدريس فى الجامع الكبير خلقاً لشيخه منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة تكمن فى نمط معين، ذلك أن الشيخ يركز كثيراً على حفظ المتون، ويطلب التلميذ ويتابعه على الحفظ فى كل درس. بل إن الشيخ ينكر على من يحضر درسه ولا يلتزم الحفظ، وقد حفظنا على الشيخ كثيراً من المتون المثورة والمنظومة.

ومن آثاره العلمية:

ذكرت من آثاره العلمية خمسة وخمسين مؤلفاً، وأكثرها عبارة عن رسائل صغيرة، فارجع إلى التفصيل فى ذكرها إلى مجلتنا «مجلة الحكمة» فى عددها الثانى، فى ترجمة الشيخ حفظه الله. فقد أطلنا فى ترجمته إلى ثلاثين صفحة فارجع إليها.

هذا ما تيسر كتابته وتدوينه باختصار عن ترجمة المؤلف، والله أسأل أن يمدد فى عمره، ويحسن عمله، وينفع به الأمة إنه سميع قريب مجيب والحمد لله رب العالمين.

متن.

كتاب التوحيد

تأليف المصلح المجدد شيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

المتوفي سنة ١٢٠٦ هـ

قال شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

كتاب التَّوْحِيدِ

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الآية. [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية. [الإسراء: ٢٣].

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية. [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآيات: [الأنعام:

١٥١-١٥٣].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيَّ وَصِيَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾.. الآية.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ لِي: يَا مُعَاذُ؟ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَكَلَّبُوا» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ.

الثانية: أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ، لِأَنَّ الْخُصُومَةَ فِيهِ.

الثالثة: أَنَّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣].

الرابعة: الْحِكْمَةُ فِي إِرْسَالِ الرُّسُلِ.

الخامسة: أَنَّ الرِّسَالََةَ عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ.

السادسة: أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ.

السابعة: الْمَسْأَلَةُ الْكَبِيرَةُ: أَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْكَفْرِ بِالطَّاغُوتِ. فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾. الْآيَةُ: [البقرة: ٢٥٦].

الثامنة: أَنَّ الطَّاغُوتَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

التاسعة: عَظْمُ شَأْنِ الثَّلَاثِ آيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ السَّلْفِ، وَفِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ. أُولَاهَا: النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ.

والعاشرة: الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ.

وَفِيهَا ثَمَانِيَةَ عَشْرَ مَسْأَلَةٍ بَدَأَهَا اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُومًا﴾ [الإسراء: ٢٢]. وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩] وَنَبَّهَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى عَظْمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].

الحادية عشرة: آيَةُ سُورَةِ النَّسَاءِ الَّتِي تُسَمَّى آيَةَ الْحُقُوقِ الْعَشْرَةِ بَدَأَهَا اللَّهُ

تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

الثانية عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة.

الثالثة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة.

الرابعة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل.

١. باب

فصل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الآية [الأنعام: ٨٢]

عن عبادة بن الصامت (رضي الله عنه)؛ قال: قال رسول الله ﷺ (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. والجنة حق والنار حق: أدخله الله الجنة على ما كان من العمل. أخرجه).

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: (فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُبْتِغِي
بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَى
عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبِّ عَلَّمَنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.
قَالَ يَا رَبِّ. كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا؟ قَالَ: يَا مُوسَى لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ
وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كَفَّةٍ وَ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فِي كَفَّةٍ: مَالَتْ بِهِنَّ
لِإِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ» رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

وللتِّرْمِذِيِّ وَحَسَنُهُ عَنْ أَنَسٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ
آدَمَ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقَرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لَأَتَيْتُكَ بِقَرَابِهَا
مَغْفِرَةً.

فِيهِ مَسَائِلُ

الاولى: سَعَةُ فَضْلِ اللَّهِ.

الثانية: كَثْرَةُ ثَوَابِ التَّوْحِيدِ عِنْدَ اللَّهِ.

الثالثة: تَكْفِيرُهُ مَعَ ذَلِكَ لِلذُّنُوبِ.

الرابعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

الخامسة: تَأْمُلُ الْخَمْسَ اللَّوَاتِي فِي حَدِيثِ عِبَادَةِ.

السادسة: أَنَّكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ عِتْبَانَ وَمَا بَعْدَهُ تَبَيَّنَ لَكَ مَعْنَى
قَوْلِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَتَبَيَّنَ لَكَ خَطَأُ الْمَغْرُورِينَ.

السابعة: التَّنْبِيهُ لِلشَّرْطِ الَّذِي فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ.

الثامنة: كَوْنُ الْأَنْبِيَاءِ يَحْتَاجُونَ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

التاسعة: التَّنْبِيهُ لِرُجْحَانِهَا بِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَقُولُهَا يَخْفُ مِيزَانُهُ.

العاشرة: النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ كَالسَّمَوَاتِ.

الحادية عشرة: أَنَّ لَهُنَّ عَمَّارًا.

الثانية عشرة: إِبْطَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ.

الثالثة عشرة: أَنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ حَدِيثَ أَنَسٍ، عَرَفْتَ أَنَّ قَوْلَهُ فِي حَدِيثِ

عَبَّانَ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» أَنَّ

تَرَكَ الشِّرْكَ، لَيْسَ قَوْلُهَا بِاللِّسَانِ.

الرابعة عشرة: تَأْمَلُ الْجَمْعَ بَيْنَ كَوْنِ عَيْسَى وَمُحَمَّدٍ عَبْدِي اللَّهِ وَرَسُولِيهِ.

الخامسة عشرة: مَعْرِفَةُ اخْتِصَاصِ عَيْسَى بِكَوْنِهِ كَلِمَةَ اللَّهِ.

السادسة عشرة: مَعْرِفَةُ كَوْنِهِ رُوحًا مِنْهُ.

السابعة عشرة: مَعْرِفَةُ فَضْلِ الْإِيمَانِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

الثامنة عشرة: مَعْرِفَةُ قَوْلِهِ «عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»

التاسعة عشرة: مَعْرِفَةُ أَنَّ الْمِيزَانَ لَهُ كِفْتَانِ.

العشرون: مَعْرِفَةُ ذِكْرِ الْوَجْهِ.

٢. بَابُ

مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[النحل: ١٢٠].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

وعن حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ: وَلَكِنِّي لُدِغْتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثُ حَدِيثَانِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: «لَا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنِ أَوْحَمَةَ» قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَّمِ، فَرَأَيْتِ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سِوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ فَظَنَنْتُ فَإِذَا سِوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ.. ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلَاتِكَ - فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا.. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ. وَلَا يَتَطَيَّرُونَ. وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فَقَامَ عَكَاشَةُ بْنُ مَحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرٌ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: مَعْرِفَةُ مَرَاتِبِ النَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ.

الثانية: مَا مَعْنَى تَحْقِيقِهِ.

الثالثة: ثَنَاؤُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بِكَوْنِهِ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

الرابعة: ثَنَاؤُهُ عَلَى سَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ بِسَلَامَتِهِمْ مِنَ الشَّرِكِ.
الخامسة: كَوْنُ تَرْكِ الرُّقِيَّةِ وَالْكَيِّ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ.
السادسة: كَوْنُ الْجَامِعِ لِتِلْكَ الْخِصَالِ هُوَ التَّوَكُّلُ.
السابعة: عُمُقُ عِلْمِ الصَّحَابَةِ بِمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا ذَلِكَ إِلَّا بِعَمَلٍ.
الثامنة: حِرْصُهُمْ عَلَى الْخَيْرِ.
التاسعة: فَضِيلَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْكَمِّيَّةِ وَالْكَفِيَّةِ.
العاشر: فَضِيلَةُ أَصْحَابِ مُوسَى.
الحادية عشرة: عَرْضُ الْأَمَمِ عَلَيْهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -.
الثانية عشرة: أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تُخْشَرُ وَحَدَهَا مَعَ نَبِيِّهَا.
الثالثة عشرة: قِلَّةُ مَنْ اسْتَجَابَ لِلْأَنْبِيَاءِ.
الرابعة عشرة: أَنَّ مَنْ لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ يَأْتِي وَحَدَهُ.
الخامسة عشرة: ثَمَرَةُ هَذَا الْعِلْمِ، وَهُوَ عَدَمُ الْإِعْتِرَارِ بِالْكَثْرَةِ، وَعَدَمُ الزُّهْدِ فِي الْقِلَّةِ.

السادسة عشرة: الرُّخْصَةُ فِي الرُّقِيَّةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ.
السابعة عشرة: عُمُقُ عِلْمِ السَّلَفِ؛ لِقَوْلِهِ: «قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ،
وَلَكِنْ كَذَا كَذَا»؛ فَعُلِمَ أَنَّ الْحَدِيثَ الْأَوَّلَ لَا يَخَالِفُ الثَّانِي.
الثامنة عشرة: بُعْدُ السَّلَفِ عَنِ مَدْحِ الْإِنْسَانِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ.
التاسعة عشرة: قَوْلُهُ (أَنْتَ مِنْهُمْ) عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النَّبَوَّةِ.
العشرون: فَضِيلَةُ عُكَّاشَةَ.

الحادية والعشرون: استعمال المعارض.

الثانية عشرة: حُسْنُ خُلُقِهِ ﷺ

٣. بَابُ

الْخَوْفُ مِنَ الشَّرْكِ

وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

[النساء: ١١٦]

وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْتَنِبِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]

وَفِي الْحَدِيثِ: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ» فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ:
«الرِّيَاءُ»

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو
مِنْ دُونَ اللَّهِ نَدَاءً دَخَلَ النَّارَ). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ دَخَلَ
الْجَنَّةَ. وَمَنْ لَقِيَهِ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ دَخَلَ النَّارَ).

فِيهِ مَسَائِلُ

الاولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أن الرياء من الشرك.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر.

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين.

الخامسة: قرب الجنة والنار.

السادسة: الجَمْعُ بَيْنَ قَرْنَيْهِمَا فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ.

السابعة: أَنَّهُ مَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ.

الثامنة: الْمَسْأَلَةُ الْعَظِيمَةُ سُؤَالَ الْخَلِيلِ لَهُ وَلَيْتَنِي وَقَايَةَ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

التاسعة: اعْتِبَارُهُ بِحَالِ الْأَكْثَرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ﴾

[إبراهيم: ٣٥]

العاشرة: فِيهِ تَفْسِيرٌ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ.

الحادية عشرة: فَضِيلَةٌ مِنْ سَلَمٍ مِنَ الشُّرْكَ.

٤. بَابُ

الدُّعَاءُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما)؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ؛ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. (وفي رواية: إِلَى أَنْ يُوحِدُوا اللَّهَ)، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَيَاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُو كُونَ لَيْلَتِهِمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا، غَدُوا عَلَى

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا. فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ « فَقِيلَ: هُوَ
يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَاتَى بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ ...

فَبِرًّا كَانَ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّأْيَةَ، فَقَالَ: (انْفُذْ عَلَيَّ رِسْلَكَ، حَتَّى تَنْزِلَ
بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى
فِيهِ، فَوَاللَّهِ، لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ) (يُدْكُونُ)،
أَيُّ: يَخَوْضُونَ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ طَرِيقٌ مِنْ اتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

الثانية: التَّنْبِيهِ عَلَى الْإِخْلَاصِ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَوْ دَعَا إِلَى الْحَقِّ، فَهُوَ
يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ.

الثالثة: أَنَّ الْبَصِيرَةَ مِنَ الْفَرَائِضِ.

الرابعة: مِنْ دَلَائِلِ حُسْنِ التَّوْحِيدِ كَوْنُهُ تَنْزِيهًا لِلَّهِ تَعَالَى عَنِ الْمَسْبَةِ.

الخامسة: أَنَّ مِنْ قُبْحِ الشَّرْكِ كَوْنُهُ مَسْبَةٌ لِلَّهِ

السادسة: وَهِيَ مِنْ أَهْمَمِهَا: إِبْعَادُ الْمُسْلِمِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، لِثَلَاثِ بَصِيرٍ مِنْهُمْ وَلَوْ
لَمْ يُشْرِكْ.

السابعة: كَوْنُ التَّوْحِيدِ أَوَّلَ وَاجِبٍ.

الثامنة: أَنَّهُ يَبْدَأُ بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى الصَّلَاةِ.

التاسعة: أَنَّ مَعْنَى «أَنْ يُوحَدُوا لِلَّهِ» مَعْنَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

العاشرة: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهَا أَوْ يَعْرِفُهَا وَلَا
يَعْمَلُ بِهَا.

الحادية عشرة: التَّيْبَةُ عَلَى التَّعْلِيمِ بِالتَّذْرِيجِ.

الثانية عشرة: البَدَاءَةُ بِالأَهَمِّ فَالأَهَمُّ.

الثالثة عشرة: مَصْرَفُ الزَّكَاةِ.

الرابعة عشرة: كَشْفُ العَالَمِ الشَّبْهَةِ عَنِ المُتَعَلِّمِ.

الخامسة عشرة: النَّهْيُ عَنِ كَرَائِمِ الأَمْوَالِ.

السادسة عشرة: اتِّقَاءُ دَعْوَةِ المَظْلُومِ.

السابعة عشرة: الإِخْبَارُ بِأَنَّهَا لَا تُحْجَبُ.

الثامنة عشرة: مِنْ أَدَلَّةِ التَّوْحِيدِ مَا جَرَى عَلَى سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَسَادَاتِ الأَوْلِيَاءِ مِنْ المَشَقَّةِ وَالجُوعِ وَالمَوْبَاءِ.

التاسعة عشرة: قَوْلُهُ: «لأَعْطِينَ الرَّايَةَ...» إلخ: عَلِمَ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ.

العشرون: تَقَلُّهُ فِي عَيْنِهِ عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِهَا أَيْضاً.

الحادية والعشرون: فَضِيلَةُ عَلَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الثانية والعشرون: فَضْلُ الصَّحَابَةِ فِي دَوْكِهِمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَشُغْلِهِمْ عَنِ

بِشَارَةِ الفَتْحِ.

الثالثة والعشرون: الإِيْمَانُ بِالقَدْرِ لِحُصُولِهَا لِمَنْ لَمْ يَسْعَ لَهَا وَمَنْعُهَا عَمَّنْ

سَعَى.

الرابعة والعشرون: الأَدَبُ فِي قَوْلِهِ: «عَلَى رِسْلِكَ»

الخامسة والعشرون: الدَّعْوَةُ إِلَى الإِسْلَامِ قَبْلَ القِتَالِ.

السادسة والعشرون: أَنَّهُ مَشْرُوعٌ لِمَنْ دَعُوا قَبْلَ ذَلِكَ وَقَوْلُوا.

السابعة والعشرون: الدَّعْوَةُ بِالْحِكْمَةِ لِقَوْلِهِ: «أَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ».

الثامنة والعشرون: المعرفة بِحَقِّ اللَّهِ فِي الْإِسْلَامِ.

التاسعة والعشرون: ثَوَابُ مَنْ اهْتَدَى عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ وَاحِدٌ.

الثلاثون: الْحَلْفُ عَلَى الْفُتْيَا.

٥. بَابُ

تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾
الآية. [الزخرف: ٢٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ حَرَّمَ مَا لَهُ وَدَمَهُ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ).

وَشَرَحَ هَذِهِ التَّرْجَمَةَ مَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَبْوَابِ.

فِيهِ مَسَائِلُ

فِيهِ أَكْبَرُ الْمَسَائِلِ وَأَهْمُهَا.

وَهِيَ تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ وَتَفْسِيرُ الشَّهَادَةِ.

وَبَيْنَهُمَا بِأُمُورٍ وَأَصِحَّةٌ.

وَمِنْهَا آيَةُ الْإِسْرَاءِ: بَيْنَ فِيهَا الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الصَّالِحِينَ؛
فَفيهَا بَيَانٌ أَنَّ هَذَا هُوَ الشَّرْكُ الْأَكْبَرُ.

وَمِنْهَا آيَةُ (بِرَاءة) بَيْنَ فِيهَا أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا
مِن دُونِ اللَّهِ.

وَبَيْنَ بَأْنَهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا إِلَّا بِأَنْ يَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا، مَعَ أَنَّ تَفْسِيرَهَا الَّذِي لَا
إِشْكَالَ فِيهِ طَاعَةُ الْعُلَمَاءِ وَالْعِبَادَةِ فِي الْمَعْصِيَةِ، لِأَدْعَاؤِهِمْ بِإِيَّاهُمْ.

وَمِنْهَا قَوْلُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْكَفَّارِ ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٦) إِلَّا الَّذِي
فَطَرَنِي ﴿الآيَةُ. [الزخرف: ٢٦].

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذِهِ الْبِرَاءَةَ وَهَذِهِ الْمُوَالَاةُ هِيَ تَفْسِيرُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،
فَقَالَ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

وَمِنْهَا آيَةُ الْبَقَرَةِ فِي الْكَفَّارِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾
[البقرة: ١٦٧]. ذَكَرَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْدَادَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ
حُبًّا عَظِيمًا، وَلَمْ يُدْخِلُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَكَيْفَ بِيَمَنِ أَحَبَّ النَّدَّ أَكْبَرَ مِنْ حُبِّ
اللَّهِ؟! وَكَيْفَ بِيَمَنِ لَمْ يُحِبَّ إِلَّا النَّدَّ وَحْدَهُ وَلَمْ يُحِبَّ اللَّهَ؟!!

وَمِنْهَا قَوْلُهُ (ﷺ) «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ حَرَّمَ مَالَهُ
وَدَمَهُ وَحِسَابَهُ عَلَى اللَّهِ».

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ التَّلْفُظَ بِهَا عَاصِمًا
لِلدَّمِ وَالْمَالِ، بَلْ وَلَا مَعْرِفَةَ مَعْنَاهَا مَعَ لَفْظِهَا، بَلْ وَلَا الْإِثْرَارَ بِذَلِكَ، بَلْ وَلَا كَوْنَهُ

لَا يَدْعُو إِلَّا اللَّهَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بَلْ لَا يَحْرُمُ مَالَهُ وَدَمَهُ حَتَّى يُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ
 الْكُفْرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ. فَإِنْ شَكَ أَوْ تَوَقَّفَ؛ لَمْ يَحْرُمِ مَالَهُ وَلَا دَمَهُ. فَيَا لَهَا
 مِنْ مَسْأَلَةٍ مَا أَعْظَمَهَا وَأَجَلَّهَا! وَيَا لَهُ مِنْ بَيَانٍ مَا أَوْضَحَهُ! وَحُجَّةٍ مَا أَقْطَعَهَا
 لِلْمُنَازِعِ!

٦. بَابُ

مِنَ الشَّرْهِكِ لِبَسِّ الْحَلَقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبِلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ
 كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ الآية [الزمر: ٣٨].

عَنْ عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ
 حَلَقَةً مِنْ صُفْرِ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ. فَقَالَ انزَعِهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ
 إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوَمِتَ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ.
 وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَلَا أْتَمَّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ
 وَدَعَةً؛ فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ».

وَلابن أبي حاتم عن حذيفة: «أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى، فقطعه
 وتلا قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].»

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: التَّغْلِيظُ فِي لِبَسِّ الْحَلَقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِمِثْلِ ذَلِكَ.

الثانية: أَنَّ الصَّحَابِيَّ لَو مَاتَ وَهِيَ عَلَيْهِ؛ مَا أَفْلَحَ. فِيهِ شَاهِدٌ لِكَلَامِ
الصَّحَابَةِ: أَنَّ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ أَكْبَرُ مِنَ الْكِبَائِرِ.

الثالثة: أَنَّهُ لَمْ يُعْذَرَ بِالْجَهَالَةِ.

الرابعة: أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ فِي الْعَاجِلَةِ؛ بَلْ تَضُرُّ، لِقَوْلِهِ: «لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا».

الخامسة: الْإِنْكَارُ بِالتَّغْلِيظِ عَلَى مَنْ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ.

السادسة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وَكُلَّ إِلَيْهِ.

السابعة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ.

الثامنة: أَنَّ تَعْلِيْقَ الحَيْطِ مِنَ الحُمَّى مِنْ ذَلِكَ.

التاسعة: تِلَاوَةُ حُدَيْفَةَ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّحَابَةَ يَسْتَدْلُونَ بِالآيَاتِ الَّتِي فِي
الشَّرْكِ الْأَكْبَرِ عَلَى الْأَصْغَرِ؛ كَمَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ.

العاشرة: أَنَّ تَعْلِيْقَ الْوَدَعِ مِنَ الْعَيْنِ مِنْ ذَلِكَ.

الحادية عشرة: الدُّعَاءُ عَلَى مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً أَنَّ اللَّهَ لَا يُتِمُّ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً
فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ؛ أَيْ: تَرَكَ اللَّهُ لَهُ.

٧. بَابُ

مَا جَاءَ فِي الرِّقَى وَالتَّمَائِمِ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ
(ﷺ) فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «أَنْ لَا يَبْقَيْنَ فِي رِقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ
وَتَرَأَوْ قِلَادَةً إِلَّا قَطَعْتُمْ».

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقْيَ وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَةَ شُرْكَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَ أَبُو دَاوُدَ.

«التَّمَائِمُ» شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الْأَوْلَادِ يَتَّقُونَ بِهِ الْعَيْنَ. لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يَرْخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. «وَالرُّقْيُ»: هِيَ الَّتِي تَسْمَى الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشُّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مِنَ الْعَيْنِ وَالْحَمَةِ.

وَ«التَّوَلَةٌ»: هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يَجِبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَى أَمْرَأَتِهِ.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ؛ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «يَا رُوَيْفِعُ لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مِنْ عَقْدِ لِحْيَتِهِ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرَأَ، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيٌّ مِنْهُ».

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعَدَلِ رَقَبَةٍ» رَوَاهُ وَكَيْعٌ وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ؛ قَالَ:

«كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الرُّقْيِ وَالتَّمَائِمِ.

الثانية: تَفْسِيرُ التَّوَلَةِ.

الثالثة: أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ كُلُّهَا مِنَ الشُّرْكِ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءِ.

الرابعة: أَنَّ الرُّقْيَةَ بِالْكَلامِ الْحَقِّ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحَمَةِ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ التَّمِيمَةَ إِذَا كَانَتْ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَقَدْ اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ؛ هَلْ هِيَ مِنْ ذَلِكَ أَمْ لَا؟

السادسة: أَنَّ تَعْلِيْقَ الْأَوْتَارِ عَلَى الدَّوَابِّ مِنَ الْعَيْنِ مِنْ ذَلِكَ.

السابعة: الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى مَنْ تَعَلَّقَ وَتَرَأَ.

الثامنة: فَضْلُ ثَوَابٍ مِنْ قَطْعِ تَمِيمَةٍ مِنْ إِنْسَانٍ.

التاسعة: أَنَّ كَلَامَ إِبْرَاهِيمَ لَا يُخَالِفُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْاِخْتِلَافِ؛ لِأَنَّ مُرَادَهُ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

٨. بَابُ

مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَتَحَوَّهِمَا

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ [الآيات النجم: ١٩].

عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حُدُثَاءُ عهد بكفر! وللمشركين سِدْرَةٌ يعكفون عندها ويُنُوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط! فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كمالهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! إنها السنن! قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة)، قال إنكم قوم تجهلون) لتركبن سنن من كان قبلكم». رواه الترمذي وصححه.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّجْمِ.

الثانية: مَعْرِفَةُ صُورَةِ الْأَمْرِ الَّذِي طَلَّبُوا.

الثالثة: كَوْنُهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا.

الرابعة: كَوْنُهُمْ فَصَدُوا التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ بِذَلِكَ؛ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُ يُحِبُّهُ.

الخامسة: أَنَّهُمْ إِذَا جَهَلُوا هَذَا؛ فَغَيَّرَهُمْ أَوْلَى بِالْجَهْلِ.

السادسة: أَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالْوَعْدِ بِالْمَغْفِرَةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ.

السابعة: أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) لَمْ، يَعْذُرْهُمْ بَلْ رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «اللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا

السُّنَنُ! لِتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، فَغَلَّظَ الْأَمْرَ بِهَذِهِ الثَّلَاثِ.

الثامنة: الْأَمْرُ الْكَبِيرُ - وَهُوَ الْمَقْصُودُ - أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ طَلَبَهُمْ كَطَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ

لَمَّا قَالُوا لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا.

التاسعة: أَنَّ نَفْيَ هَذَا مِنْ مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مَعَ دِقَّتِهِ وَخَفَائِهِ عَلَى أَوْلَئِكَ.

العاشر: أَنَّهُ حَلَفَ عَلَى الْفُتْيَا، وَهُوَ لَا يَحْلِفُ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ.

الحادية عشرة: أَنَّ الشَّرْكَ فِيهِ أَكْبَرُ وَأَصْغَرُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْتَدُّوا بِهَذَا.

الثانية عشرة: قَوْلُهُمْ (وَنَحْنُ حُدَنَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ)؛ فِيهِ أَنَّ غَيْرَهُمْ لَا يَجْهَلُ

ذَلِكَ.

الثالثة عشرة: التَّكْبِيرُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ؛ خِلَافًا لِمَنْ كَرِهَهُ.

الرابعة عشرة: سَدُّ الذَّرَائِعِ.

الخامسة عشرة: التَّنْهِيُّ عَنِ التَّشْبِيهِ بِأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

السادسة عشرة: الْغَضَبُ عِنْدَ التَّعْلِيمِ.

السابعة عشرة: الْقَاعِدَةُ الْكَلِمَةُ. لِقَوْلِهِ: «إِنَّهَا السُّنَنُ».

الثامنة عشرة : أَنْ هَذَا عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ لِكَوْنِهِ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ .

التاسعة عشرة : أَنْ كُلَّ مَا ذَمَّ اللَّهُ بِهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فِي الْقُرْآنِ ؛ أَنَّهُ لَنَا .

العشرون : أَنَّهُ مُتَقَرَّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْعِبَادَاتِ مَبْنَاهَا عَلَى الْأَمْرِ ، فَصَارَ فِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَى مَسَائِلِ الْقَبْرِ : أَمَّا (مَنْ رَبُّكَ ؟) فَوَاضِحٌ وَأَمَّا (مَنْ نَبِيُّكَ ؟) ؛ فَمِنْ إِخْبَارِهِ بِأَنْبَاءِ الْغَيْبِ ، وَأَمَّا (مَا دِينُكَ) فَمِنْ قَوْلِهِمْ : (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا الْخ) إِلَى آخِرِهِ .

الحادية والعشرون : أَنْ سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَذْمُومَةٌ كَسَنَةِ الْمُشْرِكِينَ .

الثانية والعشرون : أَنْ الْمُتَّقِلَ مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي اعْتَادَهُ قَلْبُهُ لَا يُؤْمِنُ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ تِلْكَ الْعَادَةِ ؛ لِقَوْلِهِ : « وَنَحْنُ حُدْنَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ » .

٩ . بَابُ

مَا جَاءَ فِيهِ الذَّبْحُ لِخَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦٦) لَا

شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣] .

وقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ [الكوثر : ٢] .

عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ قَالَ : « حَدَّثَنِي (رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أُوِيَ مُحَدِّثًا ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ » . رواه مسلم .

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ : « دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ » قَالُوا : وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : مَرَّ رَجُلَانِ

عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يَقْرَبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ.
 قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أَقْرَبُهُ. قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا. فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ،
 فَدَخَلَ النَّارَ. وَقَالُوا لِلْآخَرَ: قَرِّبْ. فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَقْرَبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ عَزَّ
 وَجَلَّ. «فَضْرِبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنَسِيَّتِي﴾ [الأنعام: ١٦٢].

الثانية: تَفْسِيرُ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ﴾ [الكوثر: ٢].

الثالثة: الْبِدَاءُ بِلَعْنَةِ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ.

الرابعة: لَعْنُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَمِنْهُ أَنْ تَلْعَنَ وَالِدَيْ الرَّجُلِ فَيَلْعَنَ وَالِدَيْكَ.

الخامسة: لَعْنُ مَنْ أَوَى مُحَدَّثًا، وَهُوَ الرَّجُلُ يُحَدِّثُ شَيْئًا يَجِبُ فِيهِ حَقُّ اللَّهِ؛
 فَيَلْتَجِئُ إِلَى مَنْ يُجِيرُهُ مِنْ ذَلِكَ.

السادسة: لَعْنُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْمَرَامِيسُ الَّتِي تَفَرِّقُ بَيْنَ حَقِّكَ
 وَحَقِّ جَارِكَ مِنَ الْأَرْضِ، فَتَغْيِيرُهَا بِتَقْدِيمِ أَوْ تَأْخِيرِ.

السابعة: الْفَرْقُ بَيْنَ لَعْنِ الْمُعَيَّنِ وَلَعْنِ أَهْلِ الْمَعَاصِي عَلَى سَبِيلِ الْعُمومِ.

الثامنة: هَذِهِ الْقِصَّةُ الْعَظِيمَةُ، وَهِيَ قِصَّةُ الذُّبَابِ.

التاسعة: كَوْنُهُ دَخَلَ النَّارَ بِسَبَبِ ذَلِكَ الذُّبَابِ الَّذِي لَمْ يَقْصِدْهُ، بَلْ فَعَلَهُ
 تَخَلُّصًا مِنْ شَرِّهِمْ.

العاشرة: مَعْرِفَةُ قَدْرِ الشَّرِّكَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَيْفَ صَبَرَ ذَلِكَ عَلَى الْقَتْلِ
 وَلَمْ يُوَافِقْهُمْ عَلَى طَلَبِهِمْ مَعَ كَوْنِهِمْ لَمْ يَطْلُبُوا إِلَّا الْعَمَلَ الظَّاهِرَ؟!.

الحادية عشرة : أَنَّ الَّذِي دَخَلَ النَّارَ مُسْلِمًا؛ لَأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَافِرًا؛ لَمْ يَقُلْ :
«دَخَلَ النَّارَ فِي ذُبَابٍ».

الثانية عشرة : فِيهِ شَاهِدٌ لِلْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ
شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ».

الثالثة عشرة : مَعْرِفَةٌ أَنَّ عَمَلَ الْقَلْبِ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ، حَتَّى عِنْدَ عِبْدَةِ
الْأَصْنَامِ.

١٠ . بَابُ

لَا يُذْبَحُ لِلَّهِ بِمَكَائٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِخَيْرِ اللَّهِ

وقول الله تعالى ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ
تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [التوبة ١٠٨].

وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِوَانِهِ،
فَسَأَلَ النَّبِيَّ (ﷺ)؟ فَقَالَ: (هَلْ كَانَ فِيهَا وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟) قَالُوا: لَا
قَالَ: (فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أعيَادِهِمْ؟) قَالُوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) (أَوْفِ
بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وِفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِي مَالٍ لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ).
رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرَطِهِمَا.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : تَفْسِيرُ ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾.

الثانية : أَنَّ الْمَعْصِيَةَ قَدْ تَوَثَّرَتْ فِي الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ الطَّاعَةُ.

الثالثة : رَدُّ الْمَسْأَلَةِ الْمُشْكَلَةِ إِلَى الْمَسْأَلَةِ الْبَيِّنَةِ؛ لِيَزُولَ الْإِشْكَالُ.

الرابعة: استِفْصَالُ الْمُفْتِي إِذَا احتَاجَ إِلَى ذَلِكَ.

الخامسة: أَنْ تَخْصِيصَ البُقْعَةِ بالنَّذْرِ لَا بِأَسَبِهِ إِذَا خَلَ مِنَ المَوَاقِعِ.

السادسة: المَنعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.

السابعة: المَنعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ عِيدٌ مِنْ أعيَادِهِمْ، وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.

الثامنة: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الوَفَاءُ بِمَا نَذَرَ فِي تِلْكَ البُقْعَةِ لِأَنَّهُ نَذْرٌ مَعْصِيَةٌ.

التاسعة: الحَذْرُ مِنْ مُشَابَهَةِ المُشْرِكِينَ فِي أعيَادِهِمْ، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ.

العاشرة: لَا نَذَرَ فِي مَعْصِيَةٍ.

الحادية عشرة: لَا نَذَرَ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ.

١١. بَابُ

مِنَ الشُّرْهِكِ النَّذْرَ لِخَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يُؤْفُونَ بالنَّذْرِ﴾ [الإنسان ٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة ٢٧٠].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ

يُطِيعَ اللَّهَ؛ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ، اللَّهُ فَلَا يَعْصِيهِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: وَجُوبُ الوَفَاءِ بالنَّذْرِ.

الثانية: إِذَا ثَبِتَ كَوْنُهُ عِبَادَةً لِلَّهِ، فَصَرَفَهُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ شِرْكَ.

الثالثة: أَنَّ نَذْرَ المَعْصِيَةِ لَا يَجُوزُ الوَفَاءُ بِهِ.

١٢. بَابُ

مِنَ الشِّرْكِ الْإِسْتِحْجَاجَةُ بِخَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرِحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فِيهِ مَسْأَلٌ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْجِنِّ.

الثانية: كَوْنُهُ مِنَ الشِّرْكِ.

الثالثة: الْإِسْتِدْلَالُ عَلَى ذَلِكَ بِالْحَدِيثِ، لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى أَنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، لِأَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ بِالْمَخْلُوقِ شِرْكٌ.

الرابعة: فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِهِ.

الخامسة: أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ بِحُصْلُ بِهِ مَنَفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ، مِنْ كَفِّ شَرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ، لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ.

١٣. بَابُ

مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَحْيِيَتْ بِخَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)﴾ وَإِنْ يَمْسَسُكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴿الآيَةُ [يونس: ١٠٦: ١٠٧]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ الآية : [العنكبوت: ١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

[الأحقاف: ٥]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]

رَوَى الطَّبْرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْمُوا بِنَا نَسْتَعِيثُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: النَّبِيُّ ﷺ إِنَّهُ لَا يَسْتَعَاثُ بِي وَإِنَّمَا يَسْتَعَاثُ بِاللَّهِ).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنْ عَطَفَ الدُّعَاءَ عَلَى الْإِسْتِغَاثَةِ مِنْ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ.

الثانية: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ).

الثالثة: أَنَّ هَذَا هُوَ الشَّرْكُ الْأَكْبَرُ.

الرابعة: أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ فَعَلَهُ إِرْضَاءً لِغَيْرِهِ، صَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

الخامسة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا.

السادسة: كَوْنُ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا مَعَ كَوْنِهِ كُفْرًا.

السابعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ.

الثامنة: أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ لَا يَنْبَغِي إِلَّا مِنَ اللَّهِ، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تُطَلَّبُ إِلَّا مِنْهُ.

التاسعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الرَّابِعَةِ.

العاشرة: أَنَّهُ لَا أَضَلَّ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ.

الحادية عشرة: أَنَّهُ غَافِلٌ عَنِ دُعَاءِ الدَّاعِي لَا يَدْرِي عَنْهُ.

الثانية عشرة : أَنْ تَلِكَ الدَّعْوَةَ سَبَبٌ لِبُغْضِ الْمَدْعُوِّ لِلدَّاعِي وَعَدَاوَتِهِ لَهُ.

الثالثة عشرة : تَسْمِيَةُ تَلِكَ الدَّعْوَةَ عِبَادَةً لِلْمَدْعُوِّ.

الرابعة عشرة : كُفْرُ الْمَدْعُوِّ بِتَلِكِ الْعِبَادَةِ.

الخامسة عشرة : هِيَ سَبَبُ كَوْنِهِ أَضَلَّ النَّاسِ.

السادسة عشرة : تَفْسِيرُ الْآيَةِ الْخَامِسَةِ.

السابعة عشرة : الْأَمْرُ الْعَجِيبُ ، وَهُوَ إِفْرَارُ عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ أَنَّهُ لَا يُجِيبُ الْمَضْطَّرَّ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا أَجَلَ هَذَا يَدْعُوْنُهُ فِي الشَّدَائِدِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .

الثامنة عشرة : حِمَايَةُ الْمُصْطَفَى ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَالتَّأْدِبِ مَعَ اللَّهِ.

١٤ - بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿أَيُّشْرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ الْآيَةَ

[الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

وَقَوْلُهُ : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ الْآيَةَ : [فاطر: ١٣].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : «شَجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أَحُدٍ وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ ، فَقَالَ: كَيْفَ يَفْلِحُ قَوْمٌ شَجَّوْا نَبِيَّهُمْ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:

[١٥٢].

وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْفَجْرِ «اللَّهُمَّ الْعَنَّا وَفُلَانًا وَفُلَانًا» بَعْدَمَا يَقُولُ : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ .

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قام فينا رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فقال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ (أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا) - اشترُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أُغْنِيكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِّبِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتَ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ.

الثانية: قِصَّةُ أَحَدٍ.

الثالثة: قُنُوتُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَخَلْفَهُ سَادَاتُ الْأَوْلِيَاءِ يُؤْمِنُونَ فِي الصَّلَاةِ.

الرابعة: أَنَّ الْمَدْعُوَّ عَلَيْهِمْ كُفَّارٌ.

الخامسة: أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الْكُفَّارِ، مِنْهَا: شَجَّهُمْ نَبِيَّهُمْ، وَحَرَّصَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، وَمِنْهَا التَّمَثِيلُ بِالْقَتْلِ مَعَ أَنَّهُمْ بَنُو عَمَّتِهِمْ.

السادسة: أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ .

السابعة: قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فَتَابَ عَلَيْهِمْ، فَأَمَّنُوا .

الثامنة: الْقُنُوتُ فِي النَّوَازِلِ.

التاسعة: تَسْمِيَةُ الْمَدْعُوِّ عَلَيْهِمْ فِي الصَّلَاةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ.

العاشرة: لَعْنُ الْمُعِينِ فِي الْقُنُوتِ.

الحادية عشرة: قِصَّةُ ﷺ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ..

الثانية عشرة: جِدُّهُ ﷺ فِي هَذَا الْأَمْرِ، بِحَيْثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبِّهِ إِلَى الْجُنُونِ، وَكَذَلِكَ لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ الْآنَ.

الثالثة عشرة: قَوْلُهُ لِلْأَبْعَدِ وَالْأَقْرَبِ: «لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» حَتَّى قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا». فَإِذَا صَرَخَ - وَهُوَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ - بِأَنَّهُ لَا يُغْنِي شَيْئًا عَنِ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَأَمَّنَ الْإِنْسَانَ بِأَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ، ثُمَّ نَظَرَ فِيمَا وَقَعَ فِي قُلُوبِ خَوَاصِّ النَّاسِ الْيَوْمَ، تَبَيَّنَ لَهُ تَرْكُ التَّوْحِيدِ وَغُرْبَةُ الدِّينِ.

١٥ - بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ

الْكَبِيرُ﴾ [سَبَأُ: ٢٣]

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ؛ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفِذُهُمْ ذَلِكَ. ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سَبَأُ: ٢٣] فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانٌ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخِرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرَبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرَبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ

يُذْرِكُهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِثَّةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ؛ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ؛ أَخَذَتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً. (أَوْ قَالَ: رَعْدَةٌ شَدِيدَةٌ) خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ. فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ؛ صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ».

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثانية: مَا فِيهَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَى إِبْطَالِ الشَّرْكِ، خُصُوصًا مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الصَّالِحِينَ، وَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ الشَّرْكِ مِنَ الْقَلْبِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: (قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

الرابعة: سَبَبُ سُؤْلِهِمْ عَنْ ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ جِبْرِيلَ يُجِيبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: (قَالَ كَذَا وَكَذَا).

السادسة: ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ.

السابعة: أَنَّهُ يَقُولُ لِأَهْلِ السَّمَوَاتِ كُلِّهِمْ لِأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ.

الثامنة: أَنَّ الْغَشْيَ يَعُمُّ أَهْلَ السَّمَوَاتِ كُلَّهُمْ.

التاسعة: ارْتَجَافُ السَّمَوَاتِ لِكَلَامِ اللَّهِ.

العاشر: أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ.

الحادية عشرة: ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ.

الثانية عشرة: صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

الثالثة عشرة: إِرْسَالُ الشُّهُبِ.

الرابعة عشرة: أَنَّهُ تَارَةٌ يُدْرِكُهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةٌ يُلْقِيهَا فِي أُذُنِ
وَلِيٍّ مِنَ الْإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ.

الخامسة عشرة: كَوْنُ الْكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ.

السادسة عشرة: كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِثَّةً كَذِبَةً.

السابعة عشرة: أَنَّهُ لَمْ يَصْدَقْ كَذِبُهُ إِلَّا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنْ

السَّمَاءِ.

الثامنة عشرة: قَبُولُ النَّفُوسِ لِلْبَاطِلِ! كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلَا يَعْتَبِرُونَ

بِمِثَّةٍ!؟

التاسعة عشرة: كَوْنُهُمْ يَتَلَقَّى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ وَيَحْفَظُونَهَا

وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا.

العشرون: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ الْمُعْطَلَّةِ.

الحادية والعشرون: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ وَالْغَشْيَ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ

عَزَّوَجَلَّ.

الثانية والعشرون: أَنَّهُمْ يَخِرُّونَ لِلَّهِ سُجَّدًا.

١٦ - بَابُ الشَّفَاعَةِ

وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

قال أبو العباس: «نَفَى اللَّهُ عَمَّ سِوَاهُ كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا، اللَّهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَدِنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَطْنُهَا الْمُشْرِكُونَ هِيَ مُتَنَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ - لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوْلًا - ثُمَّ يَقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَسَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ».

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُ ﷺ: مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ

إِلَّا اللَّهَ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ» فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ
أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ
بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَدْنَى لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِكُرْمِهِ، وَيَنَالُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شَرِكٌ، وَلِهَذَا أُثْبِتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي
مَوَاضِعَ. وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ. انْتَهَى
كَلَامُهُ.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَاتِ.

الثانية: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمُنْفِيَةِ.

الثالثة: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمُثْبِتَةِ.

الرابعة: ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ الْكُبْرَى، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ.

الخامسة: صِفَةُ مَا يَفْعَلُهُ ﷺ أَنَّهُ لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ، بَلْ يَسْجُدُ، فَإِذَا أُذِنَ لَهُ،

شَفَعَ.

السادسة: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِهَا؟

السابعة: أَنَّهَا لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

الثامنة: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

١٧ - بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الْآيَةَ

[القصص: ٥٦]

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنِ أَبِيهِ؛ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ؛ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمُّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةَ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ: أَتُرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنْهَ عَنْكَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]. وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الْآيَةَ.

الثانية: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾ الْآيَةَ.

الثالثة: وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الْكَبِيرَةُ، تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ مِنْ يَدْعِي الْعِلْمِ.

الرابعة: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا قَالَ لِلرَّجُلِ: قُلْ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ فَقَبَّحَ اللَّهُ مِنْ أَبُو جَهْلٍ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ.

الخامسة: جِدُّهُ ﷺ وَمِبَالِغَتُهُ فِي إِسْلَامِ عَمِّهِ.

السادسة: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ وَأَسْلَافِهِ.

السابعة: كَوْنُهُ ﷺ اسْتَغْفَرَ لَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِيَ عَنِ ذَلِكَ.

الثامنة: مَضْرَّةُ أَصْحَابِ السُّوءِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

التاسعة: مَضْرَّةٌ تَعْظِيمِ الْأَسْلَافِ وَالْأَكَابِرِ.

العاشرة: الشُّبْهَةُ لِلْمُبْطِلِينَ فِي ذَلِكَ؛ لِاسْتِدْلَالِ أَبِي جَهْلٍ بِذَلِكَ.

الحادية عشرة: الشَّاهِدُ لِكُونَ الْأَعْمَالِ بِالْخَوَاتِيمِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَهَا لِنَفْعَتِهِ.

الثانية عشرة: التَّأْمُلُ فِي كِبَرِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِ الضَّالِّينَ؛ لِأَنَّ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُمْ لَمْ يُجَادِلُوهُ إِلَّا بِهَا، مَعَ مُبَالَغَتِهِ ﷺ وَتَكَرُّبِهِ؛ فَلِأَجْلِ عَظَمَتِهَا وَوُضُوحِهَا عِنْدَهُمْ اقْتَصَرُوا عَلَيْهَا.

١٨. بَابُ مَا جَاءَ آجُ سَبَبِ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ

دِينَهُمْ هُوَ الْخَلْقُ فِي الصَّالِحِينَ

وَقَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنْ انْصَبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أَوْلَادُكَ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ».

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ لَمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَائِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ».

وَعَنْ عُمَرَ . أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» أَخْرَجَاهُ.

وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ».
وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا
ثَلَاثًا.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنْ مَنْ فَهِمَ هَذَا الْبَابَ وَبَيَّنَّ بَعْدَهُ، تَبَيَّنَ لَهُ غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ، وَرَأَى مِنْ
قُدْرَةِ اللَّهِ وَتَقْلِيهِ لِلْقُلُوبِ الْعَجَبَ.

الثانية: مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شَرِكٍ حَدَثَ فِي الْأَرْضِ كَانَ بِشِبْهِهِ الصَّالِحِينَ.

الثالثة: مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شَيْءٍ غَيْرَ بِهِ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَا سَبَّبَ ذَلِكَ، مَعَ مَعْرِفَةِ أَنَّ
اللَّهُ أَرْسَلَهُمْ.

الرابعة: قَبُولُ الْبِدْعِ مَعَ كَوْنِ الشَّرَائِعِ وَالْفِطْرِ تَرُدُّهَا.

الخامسة: أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلَّهُ مَزْجُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ.

فَالأَوَّلُ مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ.

والثَّانِي فِعْلُ أَنْاسٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالِدِينِ شَيْئًا أَرَادُوا بِهِ خَيْرًا فَظَنَّ مِنْ بَعْدِهِمْ
أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ.

السادسة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ نُوحٍ.

السابعة: جِبَلَةُ الْآدَمِيِّ فِي كَوْنِ الْحَقِّ يَنْقُصُ فِي قَلْبِهِ وَالْبَاطِلُ يَزِيدُ.

الثامنة: فِيهِ شَاهِدٌ لَمَا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّ الْبِدْعَ سَبَبُ الْكُفْرِ.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه.

الحادية عشرة: مصرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها.

الثالثة عشرة: عظم شأن هذه القصة وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

الرابعة عشرة: وهي أعجب العجب: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفة فهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المباح للدم والمال.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم» فصلوات الله وسلامه عليه، بلغ البلاغ المبين.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المنتطعين.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومصرة فقده.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

مَا جَاءَ فِي التَّخْلِيضِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِبَادًا

قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!

فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيْسَةَ رَأَتْهَا
بَارِضِ الْحَبْشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّورِ، فَقَالَ: أَوْلَيْتُكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ
أَوْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، أَوْلَيْتُكَ
شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ» فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةُ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةُ التَّمَاثِيلِ.

وَلَهُمَا عِنْدَهَا، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى
وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،
اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، يُحَدِّثُونَ مَا صَنَعُوا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ؛ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ
خَشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا» أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ
بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ (إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي
خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ
خَلِيلًا. أَلَا وَإِنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا
تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْتَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ).

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ،
وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَبْنِ مَسْجِدًا، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «خَشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ
مَسْجِدًا» فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَسْتَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتْ

الصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدْ اتَّخَذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا».

وَأَحْمَدُ بَسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شَرَارِ النَّاسِ مَنْ تَذَرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ» وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: مَا ذَكَرَ الرَّسُولُ فِيمَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُعْبَدُ اللَّهُ فِيهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، وَلَوْ صَحَّتْ نِيَّةُ الْفَاعِلِ.

الثانية: النَّهْيُ عَنِ التَّمَائِيلِ وَغِلْظِ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ.

الثالثة: الْعِبْرَةُ فِي مُبَالَغَتِهِ ﷺ فِي ذَلِكَ كَيْفَ بَيْنَ لَهُمْ هَذَا أَوْلًا، ثُمَّ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ قَالَ مَا قَالَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي السِّيَاقِ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا تَقَدَّمَ.

الرابعة: نَهْيُهُ عَنِ فِعْلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ الْقَبْرُ.

الخامسة: أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ.

السادسة: لَعْنُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

السابعة: أَنَّ مُرَادَهُ ﷺ تَحْذِيرُهُ إِيَّانَا عَنْ قَبْرِهِ.

الثامنة: الْعِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ.

التاسعة: فِي مَعْنَى اتِّخَاذِهَا مَسْجِدًا.

العاشرة: أَنَّهُ قَرَنَ بَيْنَ مَنْ اتَّخَذَهَا مَسْجِدًا وَبَيْنَ مَنْ تَقَوْمُ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ، فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ إِلَى الشِّرْكِ قَبْلَ وَقُوعِهِ مَعَ خَاتَمَتِهِ.

الحادية عشرة: ذَكَرَهُ فِي خُطْبَتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسِ الرَّدِّ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا أَشْرُ أَهْلِ الْبِدْعِ، بَلْ أَخْرَجَهُمْ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الثُّلُثَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً، وَهُمْ الرَّافِضَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ، وَبِسَبَبِ الرَّافِضَةِ حَدَثَ الشِّرْكَ وَعِبَادَةُ الْقُبُورِ، وَهُمْ أَوْلُ مَنْ بَنَى عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ.

الثانية عشرة: مَا بَلِيَ بِهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزْعِ.

الثالثة عشرة: مَا أَكْرَمَ بِهِ مِنَ الْخُلَّةِ.

الرابعة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا أَعْلَى مِنَ الْمَحَبَّةِ.

الخامسة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الصَّدِيقَ أَفْضَلَ الصَّحَابَةِ.

السادسة عشرة: الْإِشَارَةُ إِلَى خِلَافَتِهِ.

٢٠ . بَابُ

مَا جَاءَ أَجَّ الْخُلُوفِ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا

أَوْثَانًا تُحِبُّكَ مِنْ كَوْنِ اللَّهِ

رَوَى مَالِكٌ فِي «الموطأ» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَتَنَا يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»

وَلابنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنِ سُفْيَانَ، عَنِ مَنْصُورٍ، عَنِ مُجَاهِدٍ: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى) قَالَ: «كَانَ يَلْتُ لَهُمُ السُّوَيْقُ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ».

وَكذًا قَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلْتُ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ» وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ» رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الْأَوْثَانِ.

الثانية: تَفْسِيرُ الْعِبَادَةِ.

الثالثة: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَعِذْ إِلَّا مِمَّا يُخَافُ وَقُوعَهُ.

الرابعة: قَرْنُهُ بِهَذَا اتِّخَاذِ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ.

الخامسة: ذِكْرُ شِدَّةِ الْغَضَبِ مِنَ اللَّهِ.

السادسة: وَهِيَ مِنْ أَهْمَمِهَا: مَعْرِفَةُ صِفَةِ عِبَادَةِ اللَّاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ

الْأَوْثَانِ.

السابعة: مَعْرِفَةُ أَنَّهُ قَبْرُ رَجُلٍ صَالِحٍ.

الثامنة: أَنَّهُ اسْمُ صَاحِبِ الْقَبْرِ، وَذِكْرُ مَعْنَى التَّسْمِيَةِ.

التاسعة: لَعْنَةُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ.

العاشرة: لَعْنَةُ مَنْ أَسْرَجَهَا.

٢١ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي جِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جِنَابَ التَّوْحِيدِ

وَسَبِّهِ كُلِّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ إِلَى الشَّرِّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾. الْآيَةُ

[التوبة: ٢٨].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورِي، عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتِكُمْ، تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ وَرَوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةِ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَتَنَاهَا.

وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قُبُورِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لِي بَلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ» رَوَاهُ فِي «الْمُخْتَارَةِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (بِرَاءَةٍ).

الثانية: إِبْعَادُهُ أُمَّتَهُ عَنْ هَذَا الْحِمَى غَايَةَ الْبُعْدِ.

الثالثة: ذِكْرُ حِرْصِهِ عَلَيْنَا وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

الرابعة: نَهْيُهُ عَنْ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَيَّ وَجْهٍ مَخْصُوصٍ، مَعَ أَنَّ زِيَارَتَهُ مِنْ أَوْفَلِ

الْأَعْمَالِ.

الخامسة: نَهْيُهُ عَنِ الْإِكْتَارِ مِنَ الزِّيَارَةِ.

السادسة: حُثُّهُ عَلَى النَّافِلَةِ فِي الْبَيْتِ.

السابعة: أَنَّهُ مُقَرَّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَا يُصَلِّي فِي الْمَقْبَرَةِ.

الثامنة: تَعْلِيلُ ذَلِكَ بِأَنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ يَبْلُغُهُ وَإِنْ بَعُدَ، فَلَا حَاجَةَ

إِلَى مَا يَتَوَهَّمُهُ مَنْ أَرَادَ الْقُرْبَ.

التاسعة: كَوْنُهُ ﷺ فِي الْبَرَزَخِ تُعْرَضُ أَعْمَالُ أُمَّتِهِ فِي الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ.

٢٢ - بَابُ

مَا جَاءَ أَجْ بَعْضِ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَحِبُّ الْإِوتَانِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ ﴾ [المائدة: ٦٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمُ مَسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١]

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَتَبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ «فَمَنْ؟» أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَىٰ لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مُشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَلِّغُ مَلِكُهَا مَا زَوَىٰ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَتْرَيْنِ: الْأَحْمَرَ، وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بَسَنَةَ بَعَامَةَ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ وَإِنِّي أُعْطِيتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بَسَنَةَ بَعَامَةَ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَاقِطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأُمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ، لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِتْنَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَابُونَ، ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.»

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّسَاءِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الْمَائِدَةِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ.

الرابعة: وَهِيَ أَهْمُهَا: مَا مَعْنَى الْإِيمَانِ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ؟ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هَلْ هُوَ اعْتِقَادُ قَلْبٍ؟ أَوْ هُوَ مُوَافَقَةُ أَصْحَابِهَا مَعَ بَعْضِهَا وَمَعْرِفَةُ بَطْلَانِهَا؟

الخامسة: قَوْلُهُمْ: إِنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُفْرَهُمْ أَهْدَى سَبِيلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

السادسة: وَهِيَ الْمَقْصُودُ بِالترجمة: أَنَّ هَذَا لَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا

تَقَرَّرَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ.

السابعة: تَصْرِيحُهُ بِوُقُوعِهَا - أَعْنِي: عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ - فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي

جَمُوعٍ كَثِيرَةٍ.

الثامنة: العَجَبُ العُجَابُ : خُرُوجٌ مِّنْ يَدَعِي النُّبُوَّةِ، مِثْلُ المُخْتَارِ مَعَ تَكْلِمِهِ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَتَصْرِيحِهِ بِأَنَّهُ مِّنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَنَّ الرِّسُولَ حَقٌّ وَأَنَّ القُرْآنَ حَقٌّ وَفِيهِ أَنَّ مُحَمَّدًا خَاتَمَ النُّبِيِّينَ وَمَعَ هَذَا يُصَدَّقُ فِي هَذَا كُلِّهِ مَعَ التَّضَادِّ الوَاضِحِ، وَقَدْ خَرَجَ المُخْتَارُ فِي آخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَتَبِعَهُ فِتْنَامٌ كَثِيرَةٌ.

التاسعة: البِشَارَةُ بِأَنَّ الحَقَّ لَا يَزُولُ بِالكُلِّيَّةِ كَمَا زَالَ فِيمَا مَضَى، بَلْ لَا تَزَالُ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ.

العاشر: الآيَةُ العُظْمَى : أَنَّهُمْ مَعَ قَلَّتِهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ وَلَا مَن خَالَفَهُمْ.

الحادية عشرة: أَنَّ ذَلِكَ الشَّرْطَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

الثانية عشرة: مَا فِيهِ مِنَ الآيَاتِ العَظِيمَةِ: مِنْهَا إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اللهَ زَوَى لَهُ المَشَارِقَ وَالمَغَارِبَ، وَأَخْبَرَ بِمَعْنَى ذَلِكَ، فَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ بِخِلَافِ الجَنُوبِ وَالمَشَامِلِ، وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ أُعْطِيَ الكَنْزِينَ وَإِخْبَارُهُ بِإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ لِأُمَّتِهِ فِي الإِثْنَيْنِ وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ مَنَعَ الثَّلَاثَةَ، وَإِخْبَارُهُ بِوُقُوعِ السَّيْفِ، وَأَنَّهُ لَا يُرْفَعُ إِذْ وَقَعَ، وَإِخْبَارُهُ بِإِهْلَاكِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَسَيِّ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَخَوْفُهُ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الأُتَمَّةِ المِضْلِينَ وَإِخْبَارُهُ بِظُهُورِ المُتَنَبِّئِينَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، وَإِخْبَارُهُ بِبِقَاءِ الطَّائِفَةِ المَنْصُورَةِ، وَكُلُّ هَذَا وَقَعَ، كَمَا أَخْبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مِّنْ أَعْدَاءِ مَا يَكُونُ فِي العُقُولِ .

الثالثة عشرة: حَصَرَ الخَوْفِ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الأُتَمَّةِ المِضْلِينَ .

الرابعة عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ .

٢٣ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي السَّحْرِ

وَقَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾
[البقرة: ١٠٢] وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قَالَ عُمَرُ: «الْجِبْتُ: السَّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ».

وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَوَاحِدٌ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمَوْبِقَاتِ.
قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ
الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ».

وَعَنْ جُنْدَبِ مَرْفُوعًا: «حَدَّثَ السَّاحِرُ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ:
«الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ».

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبْدِ، قَالَ: «كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنْ أَقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ». قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ».

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، «أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا. سَحَرَتْهَا،
فَقَتَلَتْ». وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبِ.

قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقْرَةِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّسَاءِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ الْجِبْتِ وَالطَّاعُوتِ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا.

الرابعة: أَنَّ الطَّاعُوتَ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ.

الخامسة: مَعْرِفَةُ السَّعِّ الْمُوْبِقَاتِ الْمَخْصُوصَاتِ بِالنَّهْيِ.

السادسة: أَنَّ السَّاحِرَ يَكْفُرُ.

السابعة: أَنَّهُ يُقْتَلُ وَلَا يُسْتَاب.

الثامنة: وَجُودُ هَذَا فِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَكَيْفَ بَعْدَهُ؟!

٢٤ - بَابُ

بَيَانُ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السَّحْرِ

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانِ بْنِ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعِيَاةَ وَالطَّرْقَ وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجِبْتِ».

قَالَ عَوْفٌ: الْعِيَاةُ زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ بِالْأَرْضِ، وَالْجِبْتِ: قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

وَلَأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِي، وَابْنُ حَبَّانَ: فِي «صَحِيحِهِ» لَهُمُ الْمُسْنَدُ مِنْهُ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَقْبَسَ شُعْبَةً مِنَ النَّجُومِ؛ فَقَدْ أَقْبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وللنَّسَائِي من حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ «مَنْ عَقَدَ عَقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وَكَلَّ إِلَيْهِ».

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا هَلْ أُنبِئُكُمْ مَا الْعِضَةُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجِبْتِ.

الثانية: تَفْسِيرُ الْعِيَافَةِ وَالطَّرْقِ.

الثالثة: أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ نَوْعٌ مِنَ السَّحْرِ.

الرابعة: الْعَقْدُ مَعَ النَّفْثِ مِنْ ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ النَّمِيمَةَ مِنْ ذَلِكَ.

السادسة: أَنَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضُ الْفَصَاحَةِ.

٢٥- بَابُ

مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَتَحْوِهِمْ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ - وَقَالَ: «صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا» - عَنْ «أَبِي هُرَيْرَةَ»: «مَنْ
أَتَى عَرَّافًا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ
وَلَأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ مَوْفُوعًا.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مَنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تَطَيَّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ
تَكَهَّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا
أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» رَوَاهُ الْبَزَّازُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَوْلِهِ:
«وَمَنْ أَتَى...» إِلَى آخِرِهِ.

قَالَ الْبَغَوِيُّ: «الْعَرَّافُ: الَّذِي يَدْعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى
الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ».

وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُنْغِيَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.
وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالْمَنْجَمُ وَالرَّمَّالُ،
وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ.

وَقَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ) وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أَرَى مَنْ
فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ تَصَدِيقُ الْكَاهِنِ مَعَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ.

الثانية: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ كُفْرٌ.

الثالثة: ذِكْرُ مَنْ تَكَهَّنَ لَهُ.

الرابعة: ذَكَرُ مَنْ تُطِيرَ لَهُ.

الخامسة: ذَكَرُ مَنْ سُحِرَ لَهُ.

السادسة: ذَكَرُ مَنْ تَعَلَّمَ أَبَا جَادٍ.

السابعة: ذَكَرُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْكَاهِنِ وَالْعَرَّافِ.

٢٦ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ: (هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ).
رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ.

وَقَالَ: «سُئِلَ أَحْمَدٌ عَنْهَا؟ فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ».

وَفِي «الْبُخَارِيِّ» عَنْ قَتَادَةَ: «قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيَّبِ رَجُلٌ بِهِ طَبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَنْ
امْرَأَتِهِ، أَيَحْلُ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُ؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا
يَنْفَعُ، فَلَمْ يَنْفَعْ عَنْهُ».

وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحْلُ السَّحْرُ إِلَّا سَاحِرٌ».

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ: «النُّشْرَةُ: حَلُّ السَّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا حَلُّ
بِسَحْرِ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ
النَّاسُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ، بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطَلُ عَمَلُهُ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَالثَّانِي:
النُّشْرَةُ بِالرُّقِيَّةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: النَّهْيُ عَنِ النُّشْرَةِ.

الثانية: الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُنْهِيِّ عَنْهُ وَالْمُرْخَّصِ فِيهِ مِمَّا يُزِيلُ الْإِشْكَالَ.

٢٧. باب

مَا جَاءَ فِي الطَّيْرِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَنْزِكْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طَيْرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفْرًا أَخْرَجَاهُ.

زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلَا نَوْءَ وَلَا غَوْلَ».

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ». قَالُوا: وَمَا الْفَأَلُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيْبَةُ».

وَلِأَبِي دَاوُدَ بَسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: «ذُكِرَتِ الطَّيْرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الْفَأَلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدَكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «الطَّيْرَةُ شَرِّكَ، الطَّيْرَةُ شَرِّكَ، وَمَا مِنَّا إِلَّا.. وَلَكِنَّ اللَّهَ يَذْهَبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ» قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ».

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ: «إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: التَّنْبِيهُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] مَعَ قَوْلِهِ ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

الثانية: نَفْيُ الْعَدْوَى.

الثالثة: نَفْيُ الطَّيْرَةِ.

الرابعة: نَفْيُ الْهَامَةِ.

الخامسة: نَفْيُ الصَّفْرِ.

السادسة: أَنَّ الْفَالَ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مُسْتَحَبٌّ.

السابعة: تَفْسِيرُ الْفَالَ.

الثامنة: أَنَّ الْوَاقِعَ فِي الْقُلُوبِ مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لَا يَضُرُّ بَلْ يَذْهَبُهُ اللَّهُ بِالتَّوَكُّلِ.

التاسعة: ذِكْرُ مَا يَقُولُ مَنْ وَجَدَهُ.

العاشر: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الطَّيْرَةَ شِرْكٌ.

الحادية عشرة: تَفْسِيرُ الطَّيْرَةِ الْمَذْمُومَةِ.

٢٨ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً

لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ، يُهْتَدَىٰ بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ؛
أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيْبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ». انتهى.

وَكْرَهُ قِتَادَةَ تَعَلُّمِ مَنَازِلِ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنَ عِيْنَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا.
وَرَخِّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ
الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقُ بِالسَّحْرِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي
«صَحِيْحِهِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر، ولو عرف أنه باطل.

٢٩- باب

مَا جَاءَ فِي الْإِسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي
أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ، فِي الْأَنْسَابِ،
وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةِ».

وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتَّبِ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ
قَطْرَانٍَ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : « صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى أَثَرِ سَمَاءَ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ ، فَلَمَّا انصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَ : (هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟) قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ » .

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ ، وَفِيهِ : « قَالَ بَعْضُهُمْ : لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا . فَانزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ (٢٨)

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى : تَفْسِيرُ آيَةِ الْوَاقِعَةِ .
- الثانية : ذِكْرُ الْأَرْبَعِ الَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ .
- الثالثة : ذِكْرُ الْكُفْرِ فِي بَعْضِهَا .
- الرابعة : أَنَّ مِنَ الْكُفْرِ مَا لَا يُخْرِجُ عَنِ الْمِلَّةِ .
- الخامسة : قَوْلُهُ : « أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ » ، بِسَبَبِ نَزُولِ النِّعْمَةِ .
- السادسة : التَّفَطُّنُ لِلْإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ .
- السابعة : التَّفَطُّنُ لِلْكَفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ .
- الثامنة : التَّفَطُّنُ لِقَوْلِهِ : « لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا » .

التاسعة: إخراج العالم للمتعلّم المسألة بالاستفهام عنه لقوله: «أندرون ماذا قال ربكم؟».

العاشرة: وعيد النائحة.

٣٠- باب

قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه، من ولده ووالده والناس أجمعين) أخرجه.

ولهما عنه، قال: قال رسول الله ﷺ ثلاث من كن فيه، وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار).

وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى ..» إلى آخره.

وعن ابن عباس، قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال، ولأية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان - وإن كثرت صلاته وصومه - حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً» رواه ابن جرير.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قَالَ:
(المؤدَّة).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (البقرة).

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ (براءة).

الثالثة: وَجُوبُ مَحَبَّتِهِ ﷺ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ.

الرابعة: أَنَّ نَفْيَ الْإِيمَانِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ.

الخامسة: أَنَّ لِلْإِيمَانِ حَلَاوَةً قَدْ يَجِدُهَا الْإِنْسَانُ وَقَدْ لَا يَجِدُهَا.

السادسة: أَعْمَالُ الْقَلْبِ الْأَرْبَعِ الَّتِي لَا تُنَالُ وَلايَةٌ لِلَّهِ إِلَّا بِهَا، وَلَا يَجِدُ أَحَدٌ

طَعْمَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِهَا.

السابعة: فَهَمُّ الصَّحَابِيِّ لِلْوَاقِعِ، أَنَّ عَامَّةَ الْمُؤَاخَاةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا.

الثامنة: تَفْسِيرُ ﴿تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

التاسعة: أَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يَحِبُّ اللَّهَ حُبًّا شَدِيدًا.

العاشرة: الْوَعِيدُ عَلَى مَنْ كَانَ الثَّمَانِيَةَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِهِ.

الحادية عشرة: أَنَّ مَنْ اتَّخَذَ نَدًّا تُسَاوِي مَحَبَّتَهُ مَحَبَّةَ اللَّهِ، فَهُوَ الشَّرْكُ الْأَكْبَرُ.

٣١ - بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٠].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كِرَاهِيَةٌ كَارِهِ».

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي (صَحِيحِهِ).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (آلِ عِمْرَانَ).

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ (بِرَاءَةِ).

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ (الْعَنْكَبُوتِ).

الرابعة: أَنَّ الْيَقِينَ يَضْعُفُ وَيَقْوَى.

الخامسة: عَلَامَةُ ضَعْفِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ: هَذِهِ الثَّلَاثُ.

السادسة: أَنَّ إِخْلَاصَ الْخَوْفِ لِلَّهِ مِنَ الْفِرَائِضِ.

السابعة: ذِكْرُ ثَوَابٍ مِنْ فَعَلِهِ.

الثامنة: ذِكْرُ عِقَابٍ مِنْ تَرَكِهِ.

٣٢ - بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ..﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ .. الآية [الأنفال: ٦٤].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ .. الآية: [الطلاق: ٣].

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيْمَانًا﴾ الآية .. [آل عمران: ١٧٣] رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّ التَّوَكَّلَ مِنَ الْفَرَائِضِ.

الثانية: أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ الْإِيْمَانِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ (الْأَنْفَالِ).

الرابعة: تَفْسِيرُ آيَةِ فِي آخِرِهَا.

الخامسة: تَفْسِيرُ آيَةِ (الطَّلَاقِ).

السادسة: عَظْمُ شَأْنِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمُحَمَّدٍ ﷺ فِي الشَّدَائِدِ.

٣٣ - بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

[الأعراف: ٩٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَفْقَهُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ؟ فَقَالَ: «الشِّرْكَُ بِاللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ».

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ: الْإِشْرَاقُ بِاللَّهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الْحِجْرِ.

الثالثة: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي مَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللَّهِ.

الرابعة: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي الْقَنُوطِ.

٣٤- بَابُ

مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ».

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَى بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ».

وَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عَظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَاءُ، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السُّخْطُ» حَسَنَةُ التِّرْمِذِيِّ.

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ التَّعَابُنِ.
- الثانية: أَنَّ هَذَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ.
- الثالثة: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ.
- الرابعة: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِيمَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ.
- الخامسة: عِلَامَةُ إِرَادَةِ اللَّهِ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ.
- السادسة: عِلَامَةُ إِرَادَةِ اللَّهِ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ.
- السابعة: عِلَامَةُ حُبِّ اللَّهِ لِلْعَبْدِ.
- الثامنة: تَحْرِيمُ السُّخْطِ.
- التاسعة: ثَوَابِ الرِّضَا بِالْبَلَاءِ.

٣٥ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ الْآيَةَ [الكهف: ١١٠].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَنَا أَغْنِي الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «الْأَخْبَرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ «الشُّرْكَ الحَفِيُّ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزِينُ صَلَاتَهُ، لَمَّا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ). رَوَاهُ أَحْمَدُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الكَهْفِ.

الثانية: الأَمْرُ العَظِيمُ فِي رَدِّ العَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيْءٌ لغيرِ اللَّهِ.

الثالثة: ذِكْرُ السَّبَبِ المَوْجِبِ لِذَلِكَ، وَهُوَ كَمَالُ الغِنَى.

الرابعة: أَنَّ مِنَ الأَسْبَابِ أَنَّهُ تَعَالَى خَيْرُ الشُّرَكَاءِ.

الخامسة: خَوْفُ النَبِيِّ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّيَاءِ.

السادسة: أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنَّ المَرْءَ يُصَلِّي لِلَّهِ، لَكِنْ يُزِينُهَا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ.

٣٦. بَابُ

مِنَ الشُّرْهِكَ إِرَادَةَ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾

الآيَةُ [هُود: ١٥].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَعَسَّ عَبْدُ الدُّيْنَارِ، تَعَسَّ

عَبْدُ الدَّرْهِمِ، تَعَسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعَسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ، رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ؛ سَخِطَ، تَعَسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا أَنْتَقَشَ. طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بَعْنَانَ فَرَسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسَهُ، مُغْبِرَةً قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ. وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ هُودٍ.

الثالثة: تَسْمِيَةُ الْإِنْسَانِ الْمُسْلِمِ عَبْدَ الدِّينَارِ وَالِدَّرْهِمِ وَالْخَمِيصَةِ.

الرابعة: تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ.

الخامسة: قَوْلُهُ (تَعَسَ وَانْتَكَسَ).

السادسة: قَوْلُهُ «وَإِذَا شَيْكَ، فَلَا أَنْتَقَشَ».

السابعة: الثَّنَاءُ عَلَى الْمُجَاهِدِ الْمَوْصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ.

٣٧. بَابُ

مَنْ أَطْلَعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأَمْرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَجَلَ اللَّهُ

أَوْ تَحْلِيلِ مَا جَرَّمَهُ فَقَدْ أَخَذَهُمْ أَرْبَابًا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!».

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصَحَّحْتَهُ يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سَفِيَّانَ، وَاللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشَّرْكَ. لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكُ!!

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ:

﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] .. فَقُلْتُ لَهُ إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. قَالَ: أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟» فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتَلِكِ عِبَادَتُهُمْ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنُهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (النور).

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ (براءة).

الثالثة: التَّيْبِيهِ عَلَى مَعْنَى الْعِبَادَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَدِيُّ.

الرابعة: تَمَثِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَمَثِيلُ أَحْمَدَ بِسَفِيَّانَ.

الخامسة: تَغْيِيرُ الْأَحْوَالِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، حَتَّى صَارَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ عِبَادَةُ الرَّهْبَانِ هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وَتَسْمَى الْوِلَايَةِ، وَعِبَادَةُ الْأَخْبَارِ هِيَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ، ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ إِلَى أَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَعُبِدَ بِالْمَعْنَى الثَّانِي مَنْ هُوَ مِنَ الْجَاهِلِينَ.

٣٨. بَابُ

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠-٦٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وَقَوْلُهُ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». قَالَ النَّوَوِيُّ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ «الْحِجَّةِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ».

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ عَرِفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لَعَلِمَهُ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ، فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾ [النساء: ٦٠].

وَقِيلَ: «نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: تَرَأَفَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ الْآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَأَفَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكْذَلِكُ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضْرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ».

فِيهِ مَسَائِلٌ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّسَاءِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَى فَهْمِ الطَّاغُوتِ.

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

الثالثة: تفسير آية الأعراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

الرابعة: تفسير ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ﴾.

الخامسة: مَا قَالَهُ الشَّعْبِيُّ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ الْأُولَى.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

السابعة: قصة عمر مع المنافق.

الثامنة: كَوْنُ الْإِيمَانِ لَا يَحْصُلُ لِأَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ

الرَّسُولُ ﷺ.

٣٩. بَابُ

مَنْ جَعَلَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية: [الرعد: ٣٠]

وفي «صحيح البخاري»: قَالَ عَلِيٌّ: «حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!».

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ ابْنِ طَاوُوسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَقَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: مَا فَرَقَ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟!»

انتهى.

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: عَدَمُ الْإِيمَانِ بِجَحْدِ شَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الرَّعْدِ.

الثالثة: تَرْكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لَا يَفْهَمُ السَّمْعُ.

الرابعة: ذِكْرُ الْعِلَّةِ؛ أَنَّهُ يُفْضَى إِلَى تَكْذِيبِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَعَمَّدِ الْمُنْكَرُ.

الخامسة: كَلَامُ ابْنِ عَبَّاسٍ لِمَنْ اسْتَنْكَرَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُ.

٤٠ . بَابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ الْآيَةَ [النحل: ٨٣].

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثَتُهُ عَنْ آبَائِي».

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فَلَانُ؛ لَمْ يَكُنْ كَذَا».

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا».

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدِ الَّذِي فِيهِ: «وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:

«أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ». الْحَدِيثُ وَقَدْ تَقَدَّمَ: «وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذْمُ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضَيِّفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ».

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ كَانَتْ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَادِقًا... وَنَحْوِ

ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرَةٍ».

فيه مسائل

الأولى: تفسيرُ معرفةِ النعمةِ وإنكارها.

الثانية: معرفةُ أن هذا جارٍ على السنةِ كثيرة.

الثالثة: تسميةُ هذا الكلامِ إنكاراً للنعمة.

الرابعة: اجتماعُ الضدينِ في القلب.

٤١. بَابُ

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قال ابن عباس في الآية: «الأنداد هو الشرك، أخفى من ديب النمل على صفة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله، وحياتك يا فلان، وحياتي، وتقول: لولا كلبية هذا؛ لأننا اللصوص، ولولا البط في الدار، لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً، هذا كله به شرك» رواه ابن أبي حاتم.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: من حلف بغيره الله فقد كفر أو أشرك» رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم..

وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً».

وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله شاء فلان ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح.

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ «أَنَّهُ يَكْرَهُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ»، قَالَ «وَيَقُولُ لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فَلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْأُنْدَادِ.

الثانية: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُفَسِّرُونَ آيَةَ النَّازِلَةَ فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ أَنَّهَا تَعْمُ الْأَصْغَرَ.

الثالثة: أَنَّ الْحَلْفَ بغيرِ اللَّهِ شِرْكٌ.

الرابعة: أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِغيرِ اللَّهِ صَادِقًا فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْيَمِينِ الْغَمُوسِ.

الخامسة: الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَاوِ وَ(ثُمَّ) فِي اللَّفْظِ.

٤٢. بَابُ

مَا جَاءَ فِيهِمْ لَمْ يَقْتَحِ بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ

عَنْ ابْنِ عُمَرَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ، فَلْيَصِدْقٌ، وَمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ، فَلْيَرِضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ (رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: النَّهْيُ عَنِ الْحَلْفِ بِالْآبَاءِ.

الثانية: الْأَمْرُ لِلْمَحْلُوفِ لَهُ بِاللَّهِ أَنْ يَرْضَى.

الثالثة: وَعِيدُ مَنْ لَمْ يَرْضَ.

قَوْلُ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَسَيِّئَتِ

عَنْ قُتَيْبَةَ: (أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تَشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَسَيِّئَتِ، وَتَقُولُونَ. وَالْكَعْبَةَ: فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبَّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: [مَا شَاءَ اللَّهُ نُمَّ سَيِّئَتِ]. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.

وَلَهُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ وَسَيِّئَتِ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي اللَّهُ نِدَاءً؟! بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحَدُّهُ».

وَلابن ماجة عن الطفيل أخی عائشة لأمها؛ قال: رأيتُ كاتبي أتيتُ على نفرٍ من اليهود؛ قلت: إنكم لأنتم القومُ لولا أنكم تقولون: عزيرُ ابنُ الله. قالوا: وأنتم لأنتم القومُ لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررتُ بنفرٍ من النصارى فقلتُ: إنكم لأنتم القومُ لولا أنكم تقولون: المسيحُ ابنُ الله. قالوا: وإنكم لأنتم القومُ لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرتُ، ثم أتيتُ النبيَّ ﷺ فأخبرته؛ قال: «هل أخبرتُ بها أحدًا؟» قلتُ: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد؛ فإن طفيلًا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم. وأنكم قلتُم كلمةً يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها؛ فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله وحده».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولي: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية : فَهَمُ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوَىٰ .

الثالثة : قَوْلُهُ ﷺ : «أَجَعَلْتَنِي اللَّهُ نَدًا؟!» فَكَيْفُ بِمَنْ قَالَ : يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مِنْ أَلْوَدِّ بِهِ سِوَاكَ...» وَالْبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ؟

الرابعة : أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشَّرْكِ الْأَكْبَرِ ، لِقَوْلِهِ «يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا» .

الخامسة : أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الوَحْيِ .

السادسة : أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِشَرْعِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ .

٤٤. بَابُ

مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ ، فَقَدْ آذَى اللَّهَ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾
الآية [الجاثية : ٢٤] .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى يُؤَذِّنِي ابْنُ آدَمَ ، يَسُبُّ الدَّهْرَ ، وَأَنَا الدَّهْرُ ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » .
وَفِي رِوَايَةٍ « لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ » .

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ .

الثانية : تَسْمِيَتُهُ أَدَى اللَّهِ .

الثالثة : التَّأَمُّلُ فِي قَوْلِهِ : « فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ » .

الرابعة : أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَابًا ، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِهِ .

٤٥. بَابُ

التَّسْمِي بِقَارِئِي الْقِطَاةِ وَنَحْوِهِ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكَ الْأَمْلاَكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ».

قال سفيان: «مِثْلُ شَاهَانُ شَاهٌ».

وفي رواية: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ». قوله: (أَخْنَعَ) يَعْنِي: أَوْضَعُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: النَّهْيُ عَنِ التَّسْمِي بِمَلِكِ الْأَمْلاَكِ.

الثانية: أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ. كَمَا قَالَ سُفْيَانُ.

الثالثة: التَّفَطُّنُ لِلتَّغْلِيظِ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ. مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الْقَلْبَ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

الرابعة: التَّفَطُّنُ أَنَّ هَذَا لِأَجْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

٤٦. بَابُ

اجْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَخْيِيرِ الْإِسْمِ لِأَجْلِ كِتَابِكَ

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ؛ أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ». فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ، أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَالِكَ مِنَ الْوَلَدِ؟ قُلْتُ: شُرَيْحٌ،

وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ. قَالَ: فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟ قُلْتُ: شَرِيحٌ. قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شَرِيحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ. وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

الثانية: تَغْيِيرُ الْأَسْمَاءِ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

الثالثة: اخْتِيَارُ أَكْبَرِ الْأَبْنَاءِ لِلْكُنْيَةِ.

٤٧. بَابُ

مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الْآيَةَ

[التوبة: ٦٥].

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ؛ دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ: «أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ؛ أَرْغَبَ بَطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ (يَعْنِي: رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) وَأَصْحَابَهُ الْقُرَاءَ». فَقَالَ لَهُ عَوْفُ ابْنِ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ؛ لِأَخْبَرَنَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ أَرْتَحِلُ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «كَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِسَعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ الْحِجَارَةَ

تَكُوبُ رَجُلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَأَيَّاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥] مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: وهى العظيمة؛ أن من هزل بهذا فهو كافر.

الثانية: أن هذا تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمه والتصيحه لله ولرسوله.

الرابعة: الفرق بين العفو الذى يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا يتبغى أن يقبل.

٤٨. بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى

﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ الآية [فصلت: ٥٠]

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ».

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ «يُرِيدُ: مِنْ عِنْدِي».

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]

قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَّاسِبِ».

وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ».

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيْتُهُ عَلَى شَرَفٍ».

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يتليهم، فبعث إليهم ملكاً: فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لونٌ حسنٌ وجلدٌ حسنٌ ويذهب عني الذي قد قدرني الناسُ به». قال «فمسحه، فذهب عنه قدره، فأعطني لوناً حسناً وجلداً حسناً. قال: فأبي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر (شك إسحاق). فأعطني ناقةً عشراً، وقال: بارك الله لك فيها». قال: «فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال شعرٌ حسنٌ، ويذهب عني الذي قد قدرني الناسُ به. فمسحه فذهب عنه، وأعطني شعراً حسناً. فقال أي المال أحب إليك؟ قال البقر أو الإبل. فأعطني بقرةً حاملاً، قال: بارك الله لك فيها.

وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس. فمسحه فرد الله إليه بصره. قال فأبي المال أحب إليك؟ قال: الغنم. فأعطني شاةً والداً. فأنج هذاً وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم».

قال: «ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيبته، فقال: رجلٌ مسكينٌ وابنٌ سبيلٍ قد انقطعت بي الحبال في سفري؛ فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال؛ بعيراً أتبلغ به في سفري. فقال: الحقوق كثيرةٌ فقال له: كأنني أعرفك! ألم تكن أبرصاً يقدرك الناسُ فقيراً، فأعطاك الله عزُّ وجلَّ المال؟ فقال: إنما ورثتُ هذا المالَ كائناً عن كابرٍ. فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلي ما كنت». قال: «ثم إنه أتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، وردَّ عليه مثل ما ردَّ عليه هذا، فقال: إن

كُنْتُ كَاذِبًا؛ فَصَيَّرَ اللَّهُ إِلَيَّ مَا كُنْتُ قَالَ: «وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مُسْكِينٌ وَابْنٌ سَبِيلٌ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؛ شَاءَ أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ. فَوَاللَّهِ؛ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ اللَّهُ. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ؛ فَإِنَّمَا ابْتَلَيْتُمْ؛ فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخَطَ عَلَيَّ صَاحِبِيكَ». أَخْرَجَاهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثانية: مَا مَعْنَى: (لَيَقُولَنَّ . هَذَا لِي)

الثالثة: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: (أَوْ تَيْتُهُ عَلَيَّ عِلْمٍ عِنْدِي).

الرابعة: مَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ مِنَ الْعِبَرِ الْعَظِيمَةِ.

٤٩ . بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ الآية [الأعراف: ١٩٠].

قال ابن حزم: «اتَّفَقُوا عَلَيَّ تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعْبَدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدَ الْمُطَلَّبِ».

وعن ابن عباس في الآية؛ قال: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ؛ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبِكُمَا الَّذِي أَخْرَجَكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، لَتُطِيعَانِي أَوْ لِأَجْعَلَنَّ لَهُ قُرْنِي

إِبْلِ، فَيُخْرِجُ مِنْ بَطْنِكَ، فَيَشْقُهُ، وَلَا فَعْلَنَ؛ يُخَوِّفُهُمَا، سَمِيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَأَبِيَا أَنْ يُطِيعَاهُ فَنُخْرِجَ مَيْتًا. ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَالِدِ، فَسَمِيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.
 وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ؛ قَالَ: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ.
 وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَنْ آتَيْنَا صَالِحًا﴾؛ قَالَ: أَشْفَقَا أَنْ لَا يَكُونَ إِنْسَانًا.

وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الْحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَحْرِيمُ كُلِّ اسْمٍ مُعْبَدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ.

الثانية: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثالثة: أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدْ حَقِيقَتُهَا.

الرابعة: أَنَّ هِبَةَ اللَّهِ لِلرَّجُلِ الْبِنْتِ السُّوْيَةِ مِنَ النِّعَمِ.

الخامسة: ذِكْرُ السَّلَفِ الْفَرْقِ بَيْنَ الشِّرْكِ فِي الطَّاعَةِ وَالشِّرْكِ فِي الْعِبَادَةِ.

٥٠. بَابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الْآيَةَ

[الأعراف: ١٨٠]

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : (يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) : يُشْرِكُونَ وَعَنْهُ :
سَمَّوْا اللَّاتَ مِنَ الْإِلَهِ ، وَالْعَزَى مِنَ الْعَزِيرِ .

وَعَنْ الْأَعْمَشِ : «يَدْخُلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا» .

فِيهِ مَسَائِلُ

الأول : إثبات الأسماء .

الثانية : كونها حسنى .

الثالثة : الأمرُ بدعائه بها .

الرابعة : تركُ مَنْ عَارَضَ مِنَ الْجَاهِلِينَ الْمُلْحِدِينَ .

الخامسة : تفسيرُ الإلحادِ فيها .

السادسة : وعيدُ مَنْ أَلْحَدَ .

٥١ . بَابُ

لَا يُقَالُ : السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ " قَالَ : كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ [النَّبِيِّ ﷺ] فِي الصَّلَاةِ ؛ قُلْنَا : السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ [وَفُلَانٍ] . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «لَا تَقُولُوا : السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ» .

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : تفسيرُ السَّلَامِ .

الثانية : أَنَّهُ تَحِيَّةٌ .

الثالثة : أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ لِلَّهِ .

الرابعة : الْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ .

الخامسة : تَعْلِيمُهُمُ التَّحِيَّةَ الَّتِي تَصْلُحُ لِلَّهِ .

٥٢ . بَابُ

قَوْلُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَقُلُ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ . اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ . لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مَكْرَهَ لَهُ . »
وَلِمُسْلِمٍ « وَلِيُعْظَمَ الرَّغْبَةُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ أُعْطَاهُ . »

فِيهِ مَسْأَلٌ

الأولى : النَّهْيُ عَنِ الْإِسْتِثْنَاءِ فِي الدُّعَاءِ .

الثانية : بَيَانُ الْعِلَّةِ فِي ذَلِكَ .

الثالثة : قَوْلُهُ « لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ » .

الرابعة : إِعْظَامُ الرَّغْبَةِ .

الخامسة : التَّعْلِيلُ لِهَذَا الْأَمْرِ .

٥٣ . بَابُ

لَا يَقُولُ : عِبَادِي وَأُمَّتِي

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَقُلُ أَحَدُكُمْ : أَطِيعِ

رَبِّكَ، وَضِيَءَ رَبِّكَ. وَلَيَقُلُّ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ. وَلَا يَقُلُّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأُمَّتِي.
وَلَيَقُلُّ فَنَائِي وَفَنَائِي وَغَلَامِي».

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ: عَبْدِي وَأُمَّتِي.
الثانية: لَا يَقُولُ الْعَبْدُ: رَبِّي، وَلَا يُقَالُ لَهُ: أَطْعِمَ رَبِّكَ.
الثالثة: تَعْلِيمُ الْأَوَّلِ قَوْلَ: فَنَائِي وَفَنَائِي وَغَلَامِي.
الرابعة: تَعْلِيمُ الثَّانِي قَوْلَ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ.
الخامسة: التَّنْبِيهُ لِلْمُرَادِ، وَهُوَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ حَتَّى فِي الْأَلْفَاظِ.

٥٤. بَابُ

لَا يَرْكَبُ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ؛ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ؛ فَأَعِيدُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ؛ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا؛ فَكَافَتْوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافَتْوهُ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَفَّاتُمْوهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: إِعَاذَةُ مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ.
الثانية: إِعْطَاءُ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ.
الثالثة: إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ.

الرابعة: المكافأة على الصنعة.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

السادسة: قوله: حتى تروا أنكم قد كافأتموه.

٥٥. باب

لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ» رواه أبو داود.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

٥٦. باب

ما جاء في اللو

وقول الله تعالى ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ الآية [آل

عمران: ١٥٤] وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ الآية [آل

عمران: ١٦٨].

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَحْرِصْ

عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي

فَعَلْتُ كَذَا؛ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ

عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ فِي آلِ عِمْرَانَ.
الثانية: النَّهْيُ الصَّرِيحُ عَنْ قَوْلِ: «لَوْ» إِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ.
الثالثة: تَعْلِيلُ الْمَسْأَلَةِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ.
الرابعة: الْإِرْشَادُ إِلَى الْكَلَامِ الْحَسَنِ.
الخامسة: الْأَمْرُ بِالْحِرْصِ عَلَى مَا يَنْفَعُ مَعَ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ.
السادسة: النَّهْيُ عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ. وَهُوَ الْعَجْزُ.

٥٧. بَابُ

النَّهْيُ عَنِ سَبِّ الرِّيحِ

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ؛ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا. وَخَيْرِ مَا أَمَرْتُ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أَمَرْتُ بِهِ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: النَّهْيُ عَنِ سَبِّ الرِّيحِ.
الثانية: الْإِرْشَادُ إِلَى الْكَلَامِ النَّافِعِ إِذَا رَأَى الْإِنْسَانُ مَا يَكْرَهُ.
الثالثة: الْإِرْشَادُ إِلَى أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ.
الرابعة: أَنَّهَا قَدْ تُوْمَرُ بِخَيْرٍ وَقَدْ تُوْمَرُ بِشَرٍّ.

٥٨ . بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآية [الفتح: ٦].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى:

فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيُضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدْرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ.

فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ وَإِنْكَارِ الْقَدْرِ وَإِنْكَارِ أَنْ يَتِمَّ أَمْرُ رَسُولِهِ ﷺ . وَأَنَّ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ . الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ .

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنُّ السَّوْءِ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرٍ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ .

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقَرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ أَوْ أَنْكَرَ أَنْ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدْرُهُ لِحِكْمَةِ بِالْغَةِ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجْرَدَةٍ ؛ فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ .

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ

بغيرهم ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته. وموجب حكمته
وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله، وليستغفره من ظنه بربه
ظن السوء.

ولو فتشت من فتشت؛ لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له. وأنه كان
ينبغي أن يكون كذا وكذا؛ فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم؟
فإن تنج منها تنج من ذي عظمة وإلا فإني لا إخالك ناجياً

فيه مسائل

الأولى: تفسير آية آل عمران

الثانية: تفسير آية الفتح.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

٥٩. باب

ما جاء في متكري القدر

وقال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدكم مثل أحد ذهباً،
ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر» ثم استدل بقول النبي
ﷺ «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر
خيره وشره. رواه مسلم.

وَعَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ؛ أَنَّهُ. قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: أَكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ مَاتَ عَلَيَّ غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

وفي رواية لأحمد: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَاتِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وفي رواية لابن وهب: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ».

وفي «المُسْتَد» والسُّنَنِ «عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ؛ قَالَ: «أَتَيْتُ أَبِي بَنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدْرِ؛ فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ، لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي. فَقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أَحَدِ ذَهَبًا، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَيَّ غَيْرِ هَذَا لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ. وَحَدِيثَهُ بَنَ الْيَمَانَ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ؛ فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: بَيَانُ فَرَضِ الْإِيمَانِ بِالْقَدْرِ.

الثانية: بَيَانُ كَيْفِيَةِ الْإِيمَانِ بِهِ.

الثالثة : إِحْبَاطُ عَمَلٍ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ

الرابعة : الإِخْبَارُ أَنَّ أَحَدًا لَا يَجِدُ طَعْمَ الإِيمَانِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِهِ.

الخامسة : ذِكْرُ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللهُ.

السادسة : أَنَّهُ جَرَى بِالْمَقَادِيرِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

السابعة : بَرَاءَتُهُ ﷺ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنَ بِهِ.

الثامنة : عَادَةُ السَّلَفِ فِي إِزْلَةِ الشُّبْهَةِ بِسُؤَالِ العُلَمَاءِ.

التاسعة : أَنَّ العُلَمَاءَ أَجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ شُبْهَتَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا الكَلَامَ إِلَى

رَسُولِ اللهِ فَقَطُّ.

٦٠. بَابُ

مَا جَاءَ فِي المَصَوِّرِينَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ اللهُ تَعَالَى : «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛ فَلِيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً». أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهَهُونَ بِخَلْقِ اللهِ.

وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوْرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا : «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا؟ كَلَّفَ أَنْ يَنْفَخَ فِيهَا الرُّوحَ

وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ؛ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلَا أْبَعُثُكَ عَلَيَّ مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةَ إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا؛ إِلَّا سَوَيْتَهُ.»

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: التَغْلِيظُ الشَّدِيدُ فِي الْمُصَوِّرِينَ.

الثانية: التَّنْبِيهُ عَلَى الْعِلَّةِ وَهِيَ تَرْكُ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَمَا خَلَقْتُ﴾

الثالثة: التَّنْبِيهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَجْزِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلِخَلْقُوا ذَرَّةً أَوْ شَعِيرَةً﴾.

الرابعة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا.

الخامسة: أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ بَعْدَ كُلِّ صُورَةٍ نَفْسًا يُعَذِّبُ بِهَا الْمُصَوِّرَ فِي جَهَنَّمَ.

السادسة: أَنَّهُ يُكَلِّفُ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ.

السابعة: الْأَمْرُ بِطَمْسِهَا إِذَا وُجِدَتْ.

٦١. بَابُ

مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلْفِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْحَلْفُ مُنْفَقَةٌ لِلسَّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ» أَخْرَجَاهُ.

وَعَنْ سَلْمَانَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ

عَذَابُ أَلِيمٌ: أَشْمِطُ زَانَ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِبَيْمِنِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِبَيْمِنِهِ». رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ (قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَذْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟)، ثُمَّ إِنْ بَعَدَكُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُؤْفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ»
وَفِيهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ».
وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: كَانُوا يَضْرِبُونَنا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منقفة للسَّلعة، ممحقة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع إلا بيمينه ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة، وذكر ما يحدث بعدهم.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كَوْنُ السَّلَفِ يَضْرِبُونَ الصَّغَارَ عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ.

٦٢ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي خِدْمَةِ اللَّهِ وَخِدْمَةِ نَبِيِّهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾

الآية . [النحل: ٩١].

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا.

فَقَالَ: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال (أو: خلال)، فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم: ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى. ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا، فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا، فاستعين بالله وقتلهم.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حَصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ

تَخْفَرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفَرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ ، وَإِذَا حَاصَرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ ، فَلَا تُنْزِلُهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أُتْصَبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لَا .
 رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: الفرقُ بَيْنَ ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ، وَذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

الثانية: الإِرشَادُ إِلَى أَقْلِ الْأُمْرَيْنِ خَطَرًا.

الثالثة: قَوْلُهُ: «اغزوا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

الرابعة: قَوْلُهُ: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ».

الخامسة: قَوْلُهُ: «اسْتَعِينِ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ».

السادسة: الفرقُ بَيْنَ حُكْمِ اللَّهِ وَحُكْمِ الْعُلَمَاءِ.

السابعة: فِي كَوْنِ الصَّحَابِيِّ يَحْكُمُ عِنْدَ الْحَاجَةِ بِحُكْمِ لَا يَدْرِي أَيُؤَافِقُ حُكْمَ

اللَّهِ أَمْ لَا؟

٦٣- بَابُ

مَا جَاءَ فِي الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ:

وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ

لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَبْدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ،
أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: التَّحذِيرُ مِنَ التَّالِيِّ عَلَى اللَّهِ.

الثانية: كَوْنُ النَّارِ أَقْرَبَ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ.

الثالثة: أَنَّ الْجَنَّةَ مِثْلُ ذَلِكَ.

الرابعة: فِيهِ شَاهِدٌ لِقَوْلِهِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ...» إِلَى آخِرِهِ.

الخامسة: أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ بِسَبَبِ هُوَ مِنْ أَكْرَهِ الْأُمُورِ إِلَيْهِ.

٦٤ - بَابُ

لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: (جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَهَكَتِ الْأَنْفُسُ وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبِّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللَّهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّهِ!» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ أَصْحَابِهِ. ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ! أَنْتَدْرِى مَا اللَّهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ..» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: إِنْكَارُهُ عَلَى مَنْ قَالَ: «نَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ».

الثانية: تَغْيِرُهُ تَغْيِيراً عُرِفَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

الثالثة: أَنَّهُ لَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ».

الرابعة: التَّيْبِيهِ عَلَى تَفْسِيرِ «سُبْحَانَ اللَّهِ!».

الخامسة: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَسْأَلُونَهُ ﷺ الْإِسْتِسْقَاءَ.

٦٥ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي جِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ

جِمَايَةِ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ بِطَرِيقِ الشَّرْهِكِ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا. فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِبَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَحْذِيرُ النَّاسِ مِنَ الْغُلُوِّ.

الثانية: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ مَنْ قِيلَ لَهُ: «أَنْتَ سَيِّدُنَا».

الثالثة: قوله: «لَا يَسْتَجْرِبَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ» مع أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِلَّا الْحَقَّ.

الرابعة: قوله: «مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنَزَلَتِي».

٦٦ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ . الآية :

[الزمر: ٦٧].

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: (جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالْمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ، ثُمَّ قرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ . الآية : [الزمر: ٦٧].

وفي رواية لمسلم: «وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ عَلَى إِصْبَعٍ ، ثُمَّ يَهْزُهُنَّ فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَنَا اللَّهُ» .

وفي رواية للبخاري: (وَيَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ) أَخْرَجَاهُ .

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: (يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي

الأَرْضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّنَ
الْمُتَكَبِّرُونَ؟

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ
الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: «حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ:
حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كدِرَاهِمِ
سَبْعَةِ أَلْقِيَتِ فِي تَرَسٍ» قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
يَقُولُ: (مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أَلْقِيَتِ بَيْنَ ظَهْرِي فَلَاةٌ مِنَ
الْأَرْضِ).

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ
سَّمَاءٍ وَسَّمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ
الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى
عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ
زُرَّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَرَوَاهُ بَنُوهُ الْمَسْعُودِيُّ عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ،
قَالَ الْخَافِضُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: قَالَ: (وَلَهُ طُرُقٌ).

وَعَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ
تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ «قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةٌ
خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَّمَاءٍ إِلَى سَّمَاءٍ، مَسِيرَةٌ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَثْفُ كُلِّ
سَّمَاءٍ مَسِيرَةٌ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ

وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

الثانية: أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ وَأَمْثَالَهَا بَاقِيَةٌ عِنْدَ الْيَهُودِ الَّذِينَ فِي زَمَنِهِ ﷺ وَلَمْ يُنْكِرُوهَا وَلَمْ يَتَأَوَّلُوهَا.

الثالثة: أَنَّ الْحَبْرَ لَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ صَدَقَهُ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ.

الرابعة: وَقُوعُ الضَّحِكِ مِنْهُ ﷺ لَمَّا ذَكَرَ الْحَبْرَ هَذَا الْعِلْمَ الْعَظِيمَ.

الخامسة: التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ الْيَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمَوَاتِ فِي الْيَدِ الْيُمْنَى وَالْأَرْضِ فِي الْيَدِ الْآخْرَى.

السادسة: التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَّتِهَا الشَّمَالَ.

السابعة: ذِكْرُ الْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلِكَ.

الثامنة: قَوْلُهُ «كَخَرْدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ».

التاسعة: عِظْمُ الْكُرْسِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّمَوَاتِ.

العاشرة: عِظْمُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ لِلْكَرْسِيِّ.

الحادية عشرة: أَنَّ الْعَرْشَ غَيْرُ الْكَرْسِيِّ، وَالْمَاءِ.

الثانية عشرة: كَمْ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ.

الثالثة عشرة: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ.

الرابعة عشرة: كَمْ بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ.

الخامسة عشرة: أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ.

السادسة عشرة: أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ.

السابعة عشرة: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

الثامنة عشرة: كَثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ.

التاسعة عشرة: أَنَّ الْبَحْرَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ مَسِيرَةَ

خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ

أَجْمَعِينَ.

مغنى المرید
شرح كتاب التوحيد

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم

قوله - «بسم الله».

متعلقة بمحذوف قدره الكوفيون فعلاً مقدماً والتقدير ابداً بسم الله وقدره البصريون اسماً مقدماً والتقدير ابتدائي كائناً أو مستقراً بسم الله فعلى الأول فالجار والمجرور في موضع نصب وعلى الثاني فالجار والمجرور في موضع رفع وذكر ابن كثير أن القولان متقاربان وكلاً قد ورد به القرآن فعلى الأول أى تقديره بسم الله ابتدائى فلقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (١) ومن قدره بالفعل نحو أبداً بسم الله أو ابتديت بسم الله فلقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (٢) وكلاهما صحيح فإن الفعل لا بد له من مصدر فلك أن تقدر الفعل ومصدره وذلك بحسب الفعل الذى سميته قبله إن كان قياماً أو أكلاً أو صلاة فالمشروع ذكر اسم الله تعالى فى ذلك كله تبركاً وتيمناً واستعانة على الاتمام والتقبل. وذكر ابن القيم لحذف العامل فى بسم الله فوائد عدة منها انه موطن لا ينبغى ان يتقدم فيه سوى ذكر الله تعالى ومنها ان الفعل اذا حذف اصح الابتداء بالتسمية فى كل عمل قولاً وحركة وليس فعلاً أولى بها من فعل فكان الحذف أعم من الذكر فأى فعله ذكرته كان المحذوف أعم منه.

الحكمة من البدء بالبسملة

والبدء بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ ومعنى بسم الله الرحمن الرحيم أى أبداً مستعيناً ومتبركاً بكل اسم من أسماء الله تعالى الموصوف بالرحمة الواسعة.

وقد استقر عمل الأئمة المصنفين على افتتاح كتب العلم بالبسملة وكذا معظم كتب الرسائل تأسيساً بالكتاب العزيز وسنة المصطفى ﷺ كما ثبت ذلك عنه فى حديث هرقل وهو فى البخارى (٣) وفى قصة سهيل بن عمرو فى صلح الحديبية (٤) وغير ذلك من

(١) هود: ٤١.

(٢) العلق: ١.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٧)، ومسلم (٦/٣٤٦) والجهاد) وانظر «فتح المجيد» (٧ - بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٦٩٩)، ومسلم (٦/٣٧٧ - الجهاد).

الأحاديث وكان الصحابة رضى الله عنهم يفتتحون كتابة الإمام الكبير بالتسمية ويتبعوها بالحمد وتبعهم جميع من كتب المصحف بعدهم فى جميع الأمصار.

والحكمة من البدء بها غير ما تقدم هى مراعاة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(١) فلم يقدم على كلام الله ورسوله شيئاً من كلامه.

هذا وقد قال الشراح انه ابتداءً بالبسملة لبعض ما سبق وعملاً بحديث (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع)^(٢) ولأبى داود وابن ماجه (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أو بالحمد فهو أقطع)^(٣) ولأحمد (كل أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله فهو أتر أو أقطع)^(٤) وللدارقطنى عن أبى هريرة مرفوعاً (كل امر ذى بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع)^(٥).

ولكن قد يتعقب عليهم بأن الشيخ لم يقصد إلى ذلك لضعف هذه الروايات وأن ضعفها إما بسبب الاضطراب فى الفاظها أو بسبب الارسال فى بعض أسانيدها أو بسبب مقالات قيلت فى بعض رواياتها كما بين ذلك الحفاظ من السلف والخلف.

قوله: (الله).

قال ابن عثيمين: [الله] لفظ الجلالة، عَلمٌ على الذات العالية، لا يسمى بها غيره، وهو مشتق من (إله)، لكن حذفت الهمزة، وعوض عنها (بأل) فصارت (الله) وقيل: بل إنه مشتق من (الإله) وأن (أل) موجودة فى بنائه من الأصل وحذفت الهمزة للتخفيف كما حذفت من (الناس) وأصلها (الأناس) وكما حذفت الهمزة من (خير وشر) وأصلها (أخير ، وأشر) ومعنى الله مؤخوذة من الألوهية، وهو التعبد بحب وتعظيم، يقال: أله إليه، أي: اشتاق إليه وأحبه، وأنا ب إليه وعظم، فهي مشتقة من الألوهية، وهي المحبة والتعظيم، وعليه فيكون (إله) بمعنى مألوه، أي: معبود، وهو فعّال تأتي مفعول؟

(١) الحجرات: ١.

(٢) [ضعيف] ذكره السيوطى فى «الدر» (٣١ / ١) ونسبه للحافظ عبد القادر الرهاوى فى الاربعين.

وانظر «فتح المجيد» (١ - بتخریجنا).

(٣) [ضعيف] أخرجه أبو داود (٤٨٤٠)، وابن ماجه (١٨٩٤) وانظر فتح المجيد (ح ٣) بتخریجنا.

(٤) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٥٩ / ٢) وانظر فتح المجيد (ح ٤) بتخریجنا.

(٥) [ضعيف] أخرجه الدارقطنى فى «سننه» (٢٢٩ / ١).

وانظر الكلام على طرقة فى «فتح المجيد» (٥ - بتخریجنا).

نقول: نعم، مثل فراش بمعنى مفروش، وبناء، بمعنى مبنوء. اهـ (١).

قوله «الله» علم على الرب تبارك وتعالى وذكر سيبويه أنه اعرف المعارف ويقال ان الاسم الأعظم لانه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢) فأجرى الاسماء الباقية كلها صفات لهذا الاسم.

قال ابن القيم والقول الصحيح أن الله أصله: الإله كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم، وإن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الاسماء الحسنی والصفات العلی. وقال الكسائي والفراء أصله الإله حذفوا الهمزة وادغموا اللام الأولى فى الثانية، وعلى هذا فالصحيح انه مشتق من آله الرجل اذا تعبد كما قرأ ابن عباس ﴿وَيَذَرُكَ وَالْهَتَّكَ﴾ (٣) أى عبادتك وأصله الإله أى المعبود.

قوله «الرحمن الرحيم»..

قال ابن كثير: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ورحمن أشد مبالغة من رحيم.

قال ابن عباس: (٤) وهما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، أى أوسع رحمة. وقال ابن المبارك: الرحمن إذا ستل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب.

قال ابن القيم: إن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثانى للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفة والثانى، دال على أنه يرحم خلقه برحمته. وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (٥) ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٦) ولم يجىء قط رحمن بهم فعلم أن رحمن هو الموصوف، والرحيم هو الراحم برحمته، والرحمن الرحيم نعتان لله تعالى.

(٢) الحشر: ٢٣/٢٢

(١) شرح المنظومة البيقونية (١٢).

(٣) الأعراف: ١٢٧.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٩/١) ونسبه للبيهقى فى «الاسماء والصفات».

(٦) التوبة: ١١٧

(٥) النساء: ٤٣.

قوله: «الحمد لله».

معنى الحمد هو ذكر أوصاف المحمود الكاملة وأفعاله الحميدة مع المحبة والتعظيم له .
أو هو الثناء على الله بالجميل الاختياري، أو هو وصف المحمود بصفات الكمال
وتنزيهه عن كل نقص مع بذل المحبة له ومع بذل التعظيم له .

● فلماذا قيد العلماء بأنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؟

الجواب: لكي يفرقوا بين الحمد والمدح، إذ المدح قد يصاحبه تعظيم وقد لا يصاحبه،
وقد يكون في الغالب بخوف من المدوح، لا محبة له ولا تعظيماً، لكن الحمد لا يكون
غالبًا إلا مع تعظيم ومحبة للمحمود.

وهذا المعنى متقرر في أكثر من آية مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (١) فذكر العالمين ذكر لأوصافه الكاملة ومالك يوم
الدين لأفعاله الحميدة.

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابَهُ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ
عِوَجًا﴾ (٢) فأفعاله الحميدة كإنزاله الكتاب ولم يجعل له عوجاً.

وأيضاً كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا﴾ (٣).

وكقوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ (٤).

وكقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥).

ومن معاني الحمد أيضاً ذكر المحمود بمحاسنه والثناء بالكامل على الإحسان والجميل .

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الحمد لله على الإحسان والحمد بذكر المحاسن .

والحمد على الإحسان مثل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ

وَإِسْحَاقَ﴾ (٦).

(٢) الكهف ١ .

(٤) النمل ٥٩ .

(٦) إبراهيم: ٣٩ .

(١) الفاتحة ٢-٤ .

(٣) فاطر ١ .

(٥) الزمر ٢٩ .

والمحاسن: أن يرزق الله الشيخ الكبير والعقيم بالولد.

والإحسان: حيث أحسن الله على إبراهيم ووهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق. والرزق في حد ذاته إحسان كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها» فالحمد هنا على الإحسان. ومن هنا قال بعض أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية: رأس الحمد شكر الله - عز وجل - أو الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمد الله - عز وجل - لم يشكره.

الفرق بين الحمد والشكر

والأحاديث في الحمد والشكر تبين أن هناك شبه بين الحمد والشكر. وذكر شيخ المفسرين الطبري أن الحمد بمعنى الشكر والشكر بمعنى الحمد. ولكن ذكر بعض أهل العلم فروقاً بين الحمد والشكر منها أن الحمد يكون على الإحسان وعلى غير الإحسان فيكون في السراء والضراء.

ففي السراء تحمده على المحاسن والإحسان وفي الضراء تحمده على المحاسن فقط. فالله يبذل له الحمد في كل حال في المصيبة والنعمة. ولأنه له الأسماء الحسنى التي تناهت في الحسن، وله الصفات العلى في السماوات والأرض ولذلك له الحمد على أى حال، أما الشكر فيكون على الإحسان فقط يعني على السراء فقط. وفرق آخر أن الحمد باللسان والقلب والشكر باللسان والقلب والجوارح كما قال تعالى ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾^(١) فالشكر فى مقابل العمل الذى اختص به آل داود فالشكر يكون فى القلب واللسان والجوارح.

فينبغى أن تقدم بين يدي العمل بالحمد والثناء على الله بما هو أهله بأن وفقنا الله - عز وجل - لشرح هذا الكتاب ولقوله ﷺ «كل خطبة لا يبدأ فيها بالحمد فهي كاليد الجذماء»^(٢).

وجاءت أحاديث كثيرة في فضل الحمد منها ما أخرجه أحمد والنسائي «أما إن ربك يحب الحمد»^(٣) . . . وهذا لأن الله أهلاً لذلك فنحمدك ربنا كما تقول وخيراً مما نقول ولا نحصى ثناء عليك.

وأيضاً ما رواه ابن ماجه والحديث أخرجه الترمذى وحسنه عن جابر مرفوعاً أفضل

(١) سبأ ١٣.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٠٢/٢)، وأبو داود (٤٨/٤١)، والترمذى (١١٠٦) عن أبى هريرة. وانظر كتابنا «التيسير والتأصيل والسلفية في شرح البيهقيونية»، وانظر تخريجه أيضاً في كتابنا «فقه الخطابة».

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٣٥/٣)، والنسائي (٧٧٤٥) عن الأسود بن سريع.

وصلى الله على محمد وعلي آله وسلم

الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله^(١) ويشهد لصحة ذلك أنه هو دعاء أهل الجنة قال تعالى: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) ولذلك كان من المناسب ان يبدأ المصنفون بعد البسملة بالحمد.

وقال تعالى ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٣) لذلك فنحن نحتاج إلى الحمد فى بداية العمل الذى نرجو له القبول والتوفيق.



قوله: «وصلى الله على محمد وعلي آله وسلم»

[قلت]: بوب البخارى باب الصلاة على النبي ﷺ وأسند عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال «لقينى كعب بن عجرة فقال: ألا أهدى لك هدية؟ إن النبى ﷺ خرج علينا فقلنا: يارسول الله ، قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلى عليك؟ قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»^(٤).

وأسند عن أبى سعيد الخدرى قال: قلنا يارسول الله، هذا السلام عليك فكيف نصلى؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم»^(٥).

قال ابن حجر^(٦) قوله «باب الصلاة على النبي ﷺ» هذا الإطلاق يحتمل حكمها وفضلها وصفتها ومحلها والاقصار على ما أورده فى الباب يدل على إرادة الثالث، وقد يؤخذ منه الثانى. اهـ.

● حكم الصلاة على النبي ﷺ:

قال ابن حجر: أما حكمها فحاصل ما وقفت عليه من كلام العلماء فيه عشرة مذاهب اهـ.

[قلت]: وقد عقد الإمام ابن القيم فى كتابه «جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام»، باباً فى [مواطن الصلاة على النبي ﷺ] التى يتأكد طلبها إما وجوباً وإما

(١) أخرجه الترمذى (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠) - وانظر الاذكار للنووى بتخريجه).

(٢) يونس ١٠.

(٣) إبراهيم: ٧

(٤) [صحح] أخرجه البخارى (٦٣٥٧).

(٥) [صحح] أخرجه البخارى (٦٣٥٨).

(٦) «الفتح» (١٥٧/١١)

استحساناً مؤكداً]. فذكر أربعين موطناً بتفصيل مفيد، يرجع إليه لأهميته - وأما الحافظ ابن حجر فإنه استفاد من كلام ابن القيم في حكم الصلاة علي النبي ، فذكر مذاهب العلماء العشر فقال:

أولها: قول ابن جرير الطبرى إنها من المستحبات وادعى الإجماع على ذلك.
ثانيها: مقابله وهو نقل ابن القصار وغيره الإجماع على أنها تجب فى الجملة بغير حصر لكن أقل ما يحصل به الإجزاء مرة.

ثالثها: تجب فى العمر فى صلاة أو فى غيرها وهى مثل كلمة التوحيد قاله أبو بكر الرازى من الحنفية وابن حزم وغيرهما. . وقال القرطبى المفسر: لا خلاف فى وجوبها فى العمر مرة وأنها واجبة فى كل حين وجوب السنن المؤكدة، وسبقه ابن عطية.
رابعها: تجب فى القعود آخر الصلاة بين قول التشهد وسلام التحلل قاله الشافعى ومن تبعه.

خامسها: تجب فى التشهد وهو قول الشعبى وإسحق بن راهوية.
سادسها: تجب فى الصلاة من غير تعيين محل نقل ذلك عن أبى جعفر الباقر.
سابعها: يجب الإكثار منها من غير تقييد بعدد قاله أبو بكر بن بكير من المالكية.

ثامنها: كلما ذكر. قاله الطحاوي وجماعة من الحنفية والحليمى وجماعة من الشافعية، وقال ابن العربى من المالكية إنه الأحوط وكذا قال الزمخشرى.

تاسعها: فى كل مجلس مرة ولو تكرر ذكره مراراً حكاها الزمخشرى.
عاشرها: فى كل دعاء حكاها أيضاً.

وأما محلها: فيؤخذ مما أوردته من بيان الآراء فى حكمها وسأذكر ما ورد فيه عند الكلام على فضلها.

● **وأما صفتها:** فهى أصل ما يعول عليه فى حديثى الباب.

● **معنى صلاة الله وملائكته عليه ﷺ**

قال ابن حجر^(١) عن أبى العالية أن معنى صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه عند ملائكته، ومعنى صلاة الملائكة عليه الدعاء له^(٢).

(١) «الفتح» (١٦٠/١١)

(٢) [صحيح] علقه البخارى (٣٩٢/٨ - الفتح) ووصله ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٧٧٦٨) وانظر «فتح المجدد» (١٧ - بتخرىجنا)

وعند ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: صلاة الله مغفرته وصلاة الملائكة الاستغفار. وعن ابن عباس ان معنى صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار. وقال الضحاك بن مزاحم: صلاة الله رحمته، وفي رواية عنه مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء أخرجهما اسماعيل القاضي عنه، وكأنه يريد الدعاء بالمغفرة ونحوها. وقال المبرد: الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة رقة تبعث على استدعاء الرحمة. وتعقب بأن الله غاير بين الصلاة والرحمة في قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ (١) وكذلك فهم الصحابة المغايرة من قوله تعالى ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا﴾ (٢) حتى سألوا عن كيفية الصلاة مع تقدم ذكر الرحمة في تعليم السلام حيث جاء بلفظ «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» (٣) وأقرهم النبي ﷺ، فلو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقال لهم قد علمتم ذلك في السلام، وجوز الحلبي أن تكون الصلاة معنى السلام عليه، وفيه نظر وحديث الباب يرد على ذلك؛ ، وأولى الأقوال ما تقدم عن أبي العالية (٤) أن معنى صلاة الله علي نبيه ثناؤه عليه وتعظيمه، وصلاة الملائكة وغيرهم عليه طلب ذلك له من الله تعالى والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة.

● أنواع صلاة الله على خلقه.

عقد ابن القيم في الباب الثالث من «جلاء الأفهام» باباً في معنى الصلاة على النبي ﷺ، ولخص ابن حجر بعض ذلك.

فقال الحافظ (٥) وقيل صلاة الله على خلقه تكون خاصة وتكون عامة فصلاته على أنبيائه هي ما تقدم من الثناء والتعظيم، وصلاته على غيرهم الرحمة فهي التي وسعت كل شيء.

ونقل عياض عن بكر القشيري قال: الصلاة على النبي ﷺ من الله تشریف وزيادة تكرمه وعلى من دون النبي رحمة، وبهذا التقرير يظهر الفرق بين النبي ﷺ وبين سائر المؤمنين حيث قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ (٦) وقال قبل ذلك في السورة المذكورة ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ (٧) ومن المعلوم أن القدر الذي يليق

(٢) الأحزاب: ٥٦

(١) البقرة: ١٥٧

(٣) [صحيح] متفق عليه أخرجه البخاري (٦٢٢٨) ومسلم ٢٠/٣٥١- الصلاة.

(٤) تقدم قريباً.

(٦) الأحزاب: ٥٦.

(٥) الفتح ١١/١٦٠.

(٧) الأحزاب: ٤٣.

بالنبي ﷺ من ذلك أرفع مما يليق بغيره والإجماع منعقد على أن في هذه الآية من تعظيم النبي ﷺ والتتويه به مالميس في غيرها.

- معنى الصلاة على النبي ﷺ.

قال ابن القيم: لا خلاف أن لفظة (اللهم) معناها (يا الله) ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب^(١).

ثم قال: (بيان معنى الصلاة على النبي ﷺ) وأصل هذه اللفظة يرجع إلى معنيين:

[أحدهما]: الدعاء والتبريك.

[والثاني]: العباد^(٢).

ثم قال: معنى الصلاة هو الثناء على الرسول، والعناية به، وإظهار شرفه وفضله وحرمة^(٣) اهـ.

قال ابن حجر: (٤) وقال الحلبي في «الشعب» معنى الصلاة على النبي ﷺ تعظيمه، فمعنى قولنا اللهم صل على محمد عظم محمداً. والمراد تعظيمه في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دينه وإبقاء شريعته وفي الآخرة بإجزال مثوبته وتشفيعه في أمته وإبداء فضيلته بالمقام المحمود، وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ ادعوا ربكم بالصلاة عليه انتهى.

ولا يعكر عليه عطف آله وأزواجه وذريته عليه فإنه لا يمتنع أن يدعى لهم بالتعظيم، إذ تعظيم كل أحد بحسب ما يليق به، وما تقدم عن أبي العالية أظهر، فإنه يحصل به استعمال لفظ الصلاة بالنسبة إلى الله وإلى ملائكته وإلى المؤمنين المأمورين بذلك بمعنى واحد ويؤيده أنه لا خلاف في جواز الترحم على غير الأنبياء.

قوله: (آل):

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»^(٥): واختلف في الآل النبي ﷺ على أربعة أقوال:

[فقليل]: هم الذين حرمت عليهم الصدقة.

[القول الثاني]: هم ذريته، وأزواجه خاصة.

[القول الثالث]: آله ﷺ أتباعه إلى يوم القيامة.

(١) «جلاء الأفهام» (٧٢، ٨١، ٨٥).

(٢) «جلاء الأفهام» (٧٢، ٨١، ٨٥).

(٣) «الفتح»: (١٦١/١١).

(٤) «جلاء الأفهام» (١١٤-١٢٦).

[القول الرابع] هم الأتقياء من أمته .

ثم ذكر فضل [في ذكر حجج هذه الأقوال وبين ما فيها من الصحيح والضعيف ثم قال: والصحيح هو القول الأول ، ويليه القول الثاني ، وأما الثالث والرابع فضعيفان . اهـ مختصراً .

قال ابن حجر: (١) واختلف في المراد بآل محمد في هذا الحديث ، فالراجح أنهم من حرمت عليهم الصدقة منه ، وهذا نص عليه الشافعي واختاره الجمهور ، ويؤيده قول النبي ﷺ للحسن بن علي «إنا آل محمد لا نحل لنا الصدقة» (٢) ولمسلم من حديث عبد المطلب ابن ربيعة في أثناء حديث مرفوع «إن هذه الصدقة إنما هي أوساخ الناس وإنها لا نحل لمحمد ولا لآل محمد» (٣) .

وقال أحمد: المراد بآل محمد في حديث التشهد أهل بيته .

وعلى هذا فهل يجوز أن يقال أهل عوض آل؟ روايتان عندهم .

وقيل المراد بآل محمد أزواجه وذريته لأن أكثر طرق هذا الحديث جاء بلفظ «وآل محمد» وجاء في حديث أبي حميد موضعه «وأزواجه وذريته» (٤) فدل على أن المراد بالآل الأزواج والذرية وتعمق بأنه ثبت الجمع بين الثلاثة كما في حديث أبي هريرة فيحمل على أن بعض الرواة حفظ ما لم يحفظ غيره فالمراد بالآل في التشهد الأزواج ومن حرمت عليهم الصدقة ويدخل فيهم الذرية ، فبذلك يجمع بين الأحاديث وقد أطلق على أزواجه ﷺ آل محمد في حديث عائشة «ما شيع آل محمد من خبز مأدوم ثلاثاً» (٥) وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» (٦) .

وكان الأزواج أفردوا بالذكر تنويهاً بهم وكذا الذرية .

وقيل المراد بالآل ذرية فاطمة خاصة حكاه النووي في «شرح المهذب» .

وقيل هم جميع قریش حكاه ابن الرفعة في «الكفاية» .

وقيل المراد بالآل جميع الأمة أمة الإجابة وقال ابن العربي: مال إلى ذلك مالك

(١) «الفتح» (١١/١٦٤ ، ١٦٥)

(٢) [صحيح] متفق عليه أخرجه البخاري (١٤٩١) ، ومسلم (٧/٧٥ - الزكاة)

وانظر السلسيل (٥٣ - ١٠ - بتخریجنا)

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم (٤/١٩١ - الزكاة) .

(٤) [صحيح] متفق عليه أخرجه البخاري (٣٣٦٩) ، ومسلم في الصلاة (٢/٣٦٠/٦٩) .

(٥) [صحيح] أخرجه البخاري (٦٤٥٤) ، ومسلم (٩/٣٢٨ - الزهد) .

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم (٩/٣٢٧ - الزهد)

واختاره الأزهرى وحكاه أبو الطيب الطبرى عن بعض الشافعية، ورجحه النووى فى شرح مسلم وقيده القاضى حسين والراغب بالانتقاء منهم، وعليه يحمل كلام من أطلق. ويؤيده قوله تعالى ﴿إِنْ أُولِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ وقوله ﷺ «إِنْ أَوْلِيَانِي مِنْكُمْ الْمُتَّقُونَ» (١) «وفى نوادر أبى العيناء إنه غض من بعض الهاشميين فقال له أتغض منى وأنت تصلى على فى كل صلاة فى قولك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، فقال: إني أريد الطيبين الطاهرين ولست منهم ويمكن أن يحمل كلام من أطلق على أن المراد بالصلاة الرحمة المطلقة فلا تحتاج إلى تقييد.

وقد استدل لهم بحديث أنس رفعه «آل محمد كل تقى» (٢) أخرجه الطبرانى ولكن سنده واه جداً، وأخرج البيهقى عن جابر نحوه (٣) من قوله بسند ضعيف اهـ.

● مسألة: هل يصلى على غير النبى - ﷺ - .

قال البخارى باب هل يصلى على غير النبى ﷺ؟ وقوله تعالى: «وصل عليهم، إن صلاتك سكن لهم»

وأسند عن ابن أبى أوفى قال: كان إذا أتى رجل للنبي ﷺ بصدقة قال: اللهم صل عليه. فأتاه أبى بصدقة فقال: اللهم صل على آل أبى أوفى» (٤).

وأسند عن عمرو بن سليم الزرقى قال: «أخبرنى أبو حميد الساعدى أنهم قالوا: يارسول الله، كيف نصلى عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد» (٥).

قال ابن حجر (٦): قوله (باب هل يصلى على غير النبى ﷺ) أى استقلالاً أو تبعاً

(١) ذكره السيوطى فى الدرر (٣/٣٣١) ونسبه للبخارى فى «الأدب المفرد»، والطبرانى، والحاكم وصححه عن رفاعة بن رافع.

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٣٣٣٢)، والبيهقى فى «الكبرى» (١٥٢/٢).

ذكره السيوطى فى «الدرر» (٣/٣٣٢) ونسبه لابن مردويه والطبرانى والبيهقى فى «سننه».

(٣) أخرجه البيهقى فى «الكبرى» (١٥٢/٢) بنحوه.

(٤) [صحيح] متفق عليه أخرجه البخارى (٦٣٥٩)، ومسلم فى الزكاة (١٨٤/٧)، ١٨٥ - النووى

وانظر الأذكار للنووى بتخریجنا).

(٥) تقدم قريباً جداً.

(٦) الفتح (١١/١٧٤ و ١٧٥)

ويدخل فى الغير الأنبياء والملائكة والمؤمنون فأما مسألة الأنبياء فورد فيها أحاديث: أحدها حديث على فى الدعاء بحفظ القرآن ففيه «وصل على وعلى سائر النبيين» أخرجه الترمذى والحاكم^(١) وحديث بريدة رفعه «لا تترك فى التشهد الصلاة على وعلى أنبياء الله» الحديث أخرجه إسماعيل القاضى بسند ضعيف، وحديث ابن عباس رفعه «إذا صليتم على فصلوا على أنبياء الله، فإن الله بعثهم كما بعثنى» أخرجه الطبرانى ورويناه فى «فوائد العيسوى» وسنده ضعيف أيضاً وقد ثبت عن ابن عباس اختصاص ذلك بالنبي ﷺ أخرجه ابن أبى شيبة من طريق عثمان بن حكيم عن عكرمة عنه قال «ما أعلم الصلاة تنبغى على أحد من أحد إلا على النبي ﷺ» وهذا سند صحيح.

وحكى القول به عن مالك وقال: ما تعبدنا به وجاء نحوه عن عمر بن عبد العزيز، وعن مالك يكره.

وقال عياض: عامة أهل العلم على الجواز وقال سفيان يكره أن يصلى إلا على نبي، ووجدت بخط بعض شيوخى مذهب مالك لا يجوز أن يصلى إلا على محمد وهذا غير معروف عن مالك، وإنما قال أكره الصلاة على غير الأنبياء وما ينبغى لنا أن نتعدى ما أمرنا به. وخالفه يحيى بن يحيى فقال: لا بأس به، واحتج بأن الصلاة دعاء بالرحمة فلا يمنع إلا بنص أو إجماع، قال عياض: والذى أميل اليه قول مالك وسفيان وهو قول المحققين من المتكلمين والفقهاء قالوا: يذكر غير الأنبياء بالرضا والغفران والصلاة على غير الأنبياء يعنى استقلالاً لم تكن من الأمر المعروف وإنما أحدثت فى دولة بنى هاشم.

● وأما الملائكة فلا أعرف فيه حديثاً نصاً، وإنما يؤخذ ذلك من الذى قبله إن ثبت، لأن الله تعالى: سماهم رسلاً.

قلت: كذا قال ابن حجر وعند ابن ماجه قال ﷺ: «علمني جبرائيل الوضوء ﷺ...»^(٢) الحديث وفيه التصريح بالصلاة من النبي على جبريل.

● وأما المؤمنون فاختلف فيه فقيل: لا تجوز إلا على النبي ﷺ خاصة، وحكى عن مالك كما تقدم وسيأتي الراجح من قول ابن القيم.

● وقالت طائفة لا تجوز مطلقاً استقلالاً وتجوز تبعاً فيما ورد به النص أو الحق به لقوله

(١) أخرجه الترمذى (٣٥٧٠) واستغربه من حديث الوليد بن مسلم.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٦٢) وضعفه البوصيرى فى الزوائد لضعف ابن لهيعة.

تعالى ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ ولأنه لما علمهم السلام قال «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ولما علمهم الصلاة قصر ذلك عليه وعلى أهل بيته، وهذا القول اختاره القرطبي في «المفهم» وأبو المعالي من الحنابلة، هو اختيار ابن تيمية من المتأخرين.

● وقالت طائفة: تجوز تبعاً مطلقاً ولا تجوز استقلالاً، وهذا قول أبي حنيفة وجماعة.
● وقالت طائفة نكره استقلالاً لا تبعاً وهي رواية عن أحمد، وقال النووي: هو خلاف الأولى.

● وقالت طائفة: تجوز مطلقاً، وهو مقتضى صنيع البخاري فإنه صدر بالآية وهي قوله ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ثم علق الحديث الدال على الجواز مطلقاً وعقبه بالحديث الدال على الجواز تبعاً، فأما الأول وهو حديث عبد الله بن أبي أوفى^(١) ووقع مثله عن قيس بن سعد بن عبادة أن النبي ﷺ رفع يديه وهو يقول: «اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة»^(٢) أخرجه أبو داود والنسائي وسنده جيد.

وفي حديث جابر «إن امرأته قالت للنبي ﷺ صل على وعلى زوجي ففعل»^(٣) أخرجه أحمد مطولاً ومختصراً وصححه ابن حبان.

وهذا القول جاء عن الحسن ومجاهد ونص عليه أحمد في رواية أبي داود وبه قال إسحق وأبو ثور وداود والطبري. واحتجوا بقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً «أن الملائكة تقول لروح المؤمن صلى الله عليك وعلى جسدك».

● وأجاب المانعون عن ذلك كله: بأن ذلك صدر من الله ورسوله ولهما أن يخصا من شاء بما شاء وليس ذلك لأحد غيرهما.

وقال البيهقي: يحتمل قول ابن عباس بالمنع إذا كان على وجه التعظيم لا ما إذا كان على وجه الدعاء بالرحمة والبركة. اهـ.

(١) تقدم في أول المسألة.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٢١/٣)، وأبو داود (٥١٨٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٠١٥٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٥٧/٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١٣٥/٢).

وذكره السيوطي في «الدر» (٤٩٢/٣) ونسبه لابن أبي شيبة.

قال ابن القيم فى «جلاء الأفهام»: وفصل الخطاب فى هذه المسألة:

أن الصلاة على غير النبى ﷺ إما أن يكون [آله وأزواجه وذريته] أو غيرهم.

● فإن كان الأول: فالصلاة عليهم مشروعة مع الصلاة على النبى ﷺ، وجائز مفردة.

● وأما الثانى: فإن كان الملائكة وأهل الطاعة عموماً الذين يدخل فيهم الأنبياء وغيرهم جاز ذلك أيضاً، فيقال: (اللهم صلى على ملائكتك المقربين، وأهل طاعتك أجمعين).

وإن كان شخصاً معيناً أو طائفة معيناً، كره أن يتخذ الصلاة عليهم شعاراً لا يخل به. ولو قيل بتحريمه لكان له وجه، ولاسيما إذا جعلها شعاراً له، ومنع منها نظيره، أو من هو خير منه، وهذا كما تفعل الرافضة بعلى رضى الله عنه، فإنه حيث ذكروه قالوا: (عليه الصلاة والسلام) ولا يقولون ذلك فيمن هو خير منه، فهذا ممنوع، لا سيما إذا اتُخذ شعاراً لا يخل به، فتركه حينئذ متعين.

وأما إن صلى عليه أحياناً بحيث لا يجعل ذلك شعاراً، كما يصلى على دافع الزكاة، وكما قال ابن عمر للميت (صلى الله عليه)، وكما صلى النبى ﷺ على المرأة وزوجها، وكما روى عن على من صلاته على عمر - رضى الله عنهما - فهذا لا بأس به. وبهذا التفصيل تتفق الأدلة، وينكشف وجه الصواب. والله الموفق. اهـ.

(تنبيه): اختلف فى السلام على غير الأنبياء بعد الاتفاق على مشروعيته فى تحية الحي فقيل: يشرع مطلقاً، وقيل بل تبعاً، ولا يفرد لواحد لكونه صار شعاراً للرافضة، ونقله النووي عن الشيخ أبى محمد الجويني.



«كتاب التوحيد» (*)

قوله: [كتاب التوحيد]: زاد في نسخة مجموعة التوحيد قوله «الذى هو حق الله على العبيد».

وقد استقر عمل الأئمة المصنفين من الشراح على البدء بشرح معنى كلمة كتاب لغة فقالوا كتاب. مصدر يقال كتب يكتب كتابة وكتاباً ومادة كتب دالة على الجمع والضم وأصل الكتب فى اللغة الضم ومنه كتيبة الخيل لتبعتها واجتماعها فسمى كتاباً لضم حروفه ومسائلة بعضها إلى بعض والكتاب إسم للمكتوب مجازاً وهو من باب تسمية المفعول بالمصدر وهو كثير وقد استعملوا لفظ الكتاب فيما يجمع اشياء من الأبواب والفصول الجامعة للمسائل وهذا فى اصطلاح المصنفين فالكتاب عندهم هو كالجنس المستقل الجامع لأبواب تلك الأبواب أنواع فكتاب التوحيد يشمل باب الدعوة إلى التوحيد والخوف من الشرك وفضل من حقق التوحيد وغير ذلك من الأبواب المتعلقة بالتوحيد.

وقوله كتاب التوحيد خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا كتاب التوحيد.

قوله: (... التوحيد)

قال أبو القاسم: (١) فى كتاب «الحجة» والتوحيد مصدر وحد يوحّد، ومعنى وحدت الله اعتقده منفرداً بذاته وصفاته لانظير له ولا شبيهه، وقيل معنى وحدته علمته واحداً، وقيل سلبت عنه الكيفية والكمية فهو واحد فى ذاته لانقسام له، وفى صفاته لاشبية له، فى إلهيته وملكوته وتدييره لاشريك له ولأرب سواه ولا خالق غيره. (٢).

ونقل ابن حجر قول أهل السنة فى تفسيرهم بأنه نفى التشبيه والتعطيل ومن ثم قال الجنيد التوحيد «أفراد القديم من المحدث» حكاه عنه أبو القاسم القشيري (١).

أقسام التوحيد وسبب تقسيم العلماء له على هذا النحو

[قلت]: وقد قسم العلماء التوحيد إلى نوعين حتى لا يلتبس على العامة أمرهم ويخلطون بين «توحيد الألهية» «العبادة» و«توحيد الرب» فيعتقدون أن من أتى بهذا الأخير وأقر بأن لهذا الكون خالق ومدبر فقد أتى بالتوحيد كله وإن كان مشركاً فى

(١) أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي توفي ٥٣٥ من علماء القرن السادس للهجرة. ترجمة البداية والنهاية ٢١٧/١٢.

(٢) الفتح ١٣/ ص ٣٥٧.

(*) تنبيه: لم نجد من شراح كتاب التوحيد أحداً رقم أبواب الكتاب من هنا إلا الشيخ عبد الله بن جار الله، وتبعاً لغالب الشراح لم نرقم من هنا إنما رقمنا الباب الأول هو (فضل التوحيد) الآتى بعد هذا. والله الهادى للصواب.

توحيد العبادة وهذا هو عين اللبس الذى كان عليه مشركى مكة فالله عزوجل بين أنهم أقرؤا بتوحيد الرب أو الربوبية وأشركوا فى توحيد الألوهية أو العبادة فقال تعالى ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (١) ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٢) فلهذا الخلط واللبس لجأ السلف إلى هذا التقسيم للتوحيد.

قال ابن تيمية: فى تقسيمه التوحيد الذى جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يُشهد أن لا إله إلا الله. لا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يُوالى إلاهه، ولا يُعادى إلا فيه، ولا يُعمل إلا لأجله. وذلك يتضمن إثبات ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات قال تعالى ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٣) ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤) وقال تعالى عن المشركين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَأْتِيَنَّكَرُكُوا آلِهَتَنَا لَشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (٥) وفى القرآن كثير من هذا وليس المراد بالتوحيد : مجرد توحيد الربوبية وهو اعتقاد أن الله وحده خالق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد . وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا فى غاية التوحيد فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزّهه عن كل ما ينزه عنه. وأقر بأنه وحده خالق كل شىء لم يكن موحداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده . فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة ويلتزم بعبادة الله وحده لاشريك له وإن مشركى العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شىء وكانوا مع هذا مشركين. قال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (٦)

قالت طائفة من السلف تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره. فليس كل من أقر بأن الله تعالى رب كل شىء وخالقه يكون عابداً له دون ما سواه داعياً له دون ماسواه راجياً له دون ما سواه يوالى فيه ويعادى فيه ويطيع رسله ويأمر بما أمره وينهى عما نهى عنه. وعامة المشركين أقرؤا بأن الله خالق كل شىء واثبتوا الشفعاء الذين يشركون به. وجعلوا له أنداداً قال تعالى ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) الزخرف : ٨٧ . (٢) الزخرف (١٩).

(٣) البقرة : ١٦٣ . (٤) المؤمنون : ١١٧ .

(٥) الصافات : ٣٥ . (٦) يوسف : ١٠٦ .

شُفَعَاءُ قُلُوبٍ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ . اهـ .

فهم آمنوا في جانب الربوبية قال تعالى ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ .

وأيضاً ما اشتقوا العزة إلا من اسم الله «العزیز»

وما اشتقوا مائة إلا من اسم الله «المان»

وما اشتقوا اللآت إلا من اسم الله «الله» وهذا إلحاد في أسماء الله .

ولكن هذا الإلحاد متضمن للإيمان في جانب الربوبية .

ولذلك قال جد النبي ﷺ حينما غزا أبرهة الكعبة :

اللهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فافعل ما بدا لك .

وقال : أنا ربُّ الإبل وللبيت ربُّ سيمنعه .

فكان عند هؤلاء المشركين إيمان وإعتقاد وتوحيد - والله - أعظم من كثير من
السلطين والأمراء حينما تنتهك حرمت المسلمين ومقدساتهم لم نسمع أن أحدهم دعى
الله عزوجل أن يمنع هذه المقدسات من أولاد القردة والخنازير كما لجأ جد الرسول ﷺ
إلى الله في وقت الشدة .

وأما الرب في اللغة : هو المدبر أو هو المربي وهو السيد .

ومن هنا سمي الوالد : رب البيت . مدبر البيت .

وسميت الوالدة : ربة البيت .

وجاء في الأثر من علامات الساعة «أن تلد الأمة ربتها» «سيدتها» .

فلذلك ذهب أهل العلم إلى التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية لاختلاط
الحابل بالنابل في رؤوس كثير من الناس .

وحتى يعرف أنه إذا أتى بتوحيد الربوبية لا يدخل في دائرة المسلمين حتى يأتي

بتوحيد الإلهية وكما قالت امرأت العزيز ﴿وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا

رَحِمَ رَبِّي﴾ (٢) وقال صواحب يوسف ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ (٣) .

(٢) يوسف : ٥٣ .

(١) الزمر : ٤٤ .

(٣) يوسف : ٥١ .

﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾ (١) فكانوا يعرفون الملائكة ويعرفون الله .

ورغم معرفتهم بذلك وإقرارهم بنقضوا هذا الإقرار حيث صرفوا العبادة لغيره سبحانه وتعالى ولذلك جاء في الحديث القدسي

«إني والجن والإنس لفي نأبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر سواي» (٢) أو كما قال الله ، ومعناه صحيح .

فكما له الخلق له الأمر قال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣)

وقال ابن القيم: في تقسيمه للتوحيد: وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان:

توحيد في المعرفة والأثبات أى توحيد الربوبية والأسماء والصفات وتوحيد في الطلب والقصد أى توحيد الألوهية والعبادة. فالأول هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكلمه بكتبه لمن شاء من عباده؟ وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح، كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر الحشر، وأول تنزيل السجدة وأول آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك .

النوع الثانى: ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾ (٥) وغالب سور القرآن بل كل سورة فى القرآن فهى متضمنة لنوعى التوحيد، شاهدة به داعية إليه. فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله، فهو التوحيد العلمى الخبرى وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الأرادى الطلبى. وإما الأمر والنهى، والزام بطاعته وأمره ونهيه، فهو حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة، فهو جزاء توحيدهم، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال وما يحل بهم فى العقبى من العذاب. فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد فالقرآن كله فى التوحيد، وحقوقه وجزائه، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم ا. هـ.

(١) يوسف : ٣١

(٢) [ضعيف] ذكره الديلمى فى «الفردوس» (٤٥٠٦) وذكره السيوطى فى «الدر» (١٤٢/٦)

وانظر «فتح المجيد» (٥٧ - بتخریجنا)

(٥) آل عمران : ٦٤ .

(٤) الكافرون : ١ .

(٣) الأعراف : ٥٤ .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١).

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوي: (٢) حيث دلت الآية الكريمة على أن الحكمة من خلق الجن والإنس هي إفراد الله بالعبادة والكفر بما سواه.

الإعراب:

قال محمد بن حسن بن محسن (٣): ويجوز في إعراب قوله الرفع على أنه عطف على كتاب، أي هذا كتاب التوحيد، وهذا قوله تعالى، ويجوز فيه الجر على أنه عطف على التوحيد، أي كتاب في بيان التوحيد.

قال الشوكاني (٤): وجملة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مستأنفة مقررلة قبلها أن كون خلقهم لمجرد العبادة مما يُنشط رسول الله ﷺ للتذكير وينشطهم للإجابة. أهـ.

قال صاحب إعراب القرآن (٥): ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الواو عاطفة، وما نافية، وخاتمت فعل وفاعل، (والجن) مفعول به، (والإنس) عطف على الجن، وإلا أداة حصر واللام للتعليل أو للعاقبة، ويعبدون فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون، والنون المذكورة لسو قاية، والواو فاعل، وباء المتكلم المحذوفة، نصب مفعول به، ولام التعليل ومدخولها متعلقان بخلقت. وسيأتي مزيد بحث لهذه الآية التي شجر الخلاف حولها. أهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من السنة:

[أولاً]: من الأحاديث المرفوعة:

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: ابن آدم تفرغ لعبادتي أملاً صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك» (٦).

(١) الذرايات ٥٦.

(٢) الجديد ١٩.

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٤٦.

(٤) فتح القدير ٩٢/٥.

(٥) إعراب القرآن (٩/ ٣٢٣).

(٦) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وانظر «الدر» (٦/ ١٤٢) وهذا الحديث والذي بعده فيهما

نظر.

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله إني والجن والإنس في نيا عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري» (١).

[ثانياً]: من الموقوف:

عن ابن عباس قال: ليقروا بالعبودية طوعاً أو كرهاً (٢).

وعن ابن عباس أيضاً قال: على ما خلقتهم عليهم من طاعتي ومعصيتي، وشقاوتي وسعادتني (٣).

وعن علي بن أبي طالب قال: إلا لآمرهم أن يعبدوني، وأدعوهم إلى عبادتي. ويؤيده قوله عز وجل: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا» (٤).

وقرأ ابن مسعود وأبى بن كعب: وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون (٥).

وكذلك قرأ ابن عباس

[ثالثاً]: من أقوال التابعين ومن بعدهم:

عن زيد أسلم في قوله: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» قال: ما جبلوا عليه من الشقاء والسعادة (٦).

وعن أبي الجوزاء قال: أنا أرزقهم وأنا أطعمهم، وما خلقتهم إلا ليعبدون (٧).

وعن سفيان قال: من خلق للعبادة (٨).

وعن السدي قال: خلقهم للعبادة، فمن العبادة ما ينفع، ومنها ما لا ينفع (٩).

وقال الكلبي والضحاك وسفيان: هذا خاص لأهل طاعته من الفريقين (١٠).

وقال مجاهد: إلا ليعرفوني قال البغوي: وهذا حسن - ونقل القرطبي هذا التحسين عن الثعلبي -؛ لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده وسيأتي (١١).

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين والحاكم في التاريخ والبيهقي في «الشعب» والديلمي في مسند الفردوس، وانظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم، المصدر السابق.

(٣) أخرجه ابن المنذر، المصدر السابق. (٤) معالم التنزيل (٥/٢٣٠).

(٥) انظر فتح القدير (٥/٩٢) وانظر «معالم التنزيل» (٥/٢٣٠).

(٦) (٨) أخرجه ابن جرير (١١/٢٧/٨) وابن المنذر، كما في «الدر».

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة، كما في «الدر».

(٩) فتح الباري (٨/٤٤٦).

(١٠) (١١) معالم التنزيل (٥/٢٣٠).

وقال سعيد بن المسيب: ما خلقتُ من يعبدني إلا ليعبدني (١).

وقال مجاهد: إلا لأمرهم وأنهام (٢).

وعن الكلبي: إلا ليوحدون، أما المؤمن فيوحده ففى الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده فى الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء (٣).

وعن عكرمة قال: إلا ليعبدون ويطيعون، فأثبت العابد، وأعاقب الجاحد (٤).

وقال ابن جريج: إلا ليعرفون (٥).

وقال الربيع بن أنس: إلا للعبادة (٦).

وقال السدى: من العبادة ما ينفع، ومنها ما لا ينفع ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع الشرك (٧). وسيأتى مناقشة هذه الآثار لما بينها من اختلاف.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين.

قال الطبرى (٨): قال بعضهم: معنى ذلك: وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتي، والأشقياء منهم لمعصيتي. وذكر من قال بذلك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلا ليدعونا لى بالعبودة. وذكر من قال بذلك.

ثم قال: وأولى القولين فى ذلك بالصواب القول الذى ذكرنا عن ابن عباس، وهو ما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا، والتذلل لأمرنا.

● فإن قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذلل لأمره؟

قيل: أنهم قد تذللوا لقضائه الذى قضاه عليهم، لأن قضاءه جار عليهم لا يقدر من الامتناع منه إذا نزل بهم، وإنما خالفه من كفر به فى العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه. اهـ.

(١) زاد المسير (٧/٢٥٩).

(٢) ٣ - ٤) انظر تفسير القرطبي (٩/٦٢٢٦).

(٣) ٦ - ٧) تفسير ابن كثير (٤/٢٣٠).

(٤) تفسير الطبرى (١١/٢٧/٨).

قال البغوي^(١): قيل: إلا ليخضعوا لى ويتذلّلوا.

ومعنى العبادة فى اللغة: التذلّل والانقياد، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله، متذلّل للمشيئة، لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق عليه قدر ذرة من نفع ولا ضرر.

وقال قبل هذا - عن قول مجاهد المتقدم إلا ليعرفونى -: وهذا حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لم عُرف وجوده وتوحيده، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. اهـ.

قال الزمخشري^(٢): أى وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها.

● فإن قلت: لو كان مريداً للعبادة منهم لكانوا عباداً؟

قلت: إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لامضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين فاختر بعضهم ترك العبادة مع كونه مريداً لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعه. يريد شأنى مع عبادى ليس كشأن السادة مع عبيدهم، فإن ملاك العبيد إنما يملكونهم لستعينوا بهم فى تحصيل معاشهم وأرزاقهم، فإما مجهز فى تجارة ليفى ربحاً، أو مرتب فى فلاحه ليغنتل أرضاً، أو مسلم فى حرفة ليتتفع بأجرته، أو محتطب، أو محتش، أو مشتق أو طابخ أو خابز، وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التى هى تصرف فى أسباب المعيشة وأبواب الرزق، فأما مالك العبيد وقال لهم اشتغلوا بما يسعدكم فى أنفسكم، ولا أريد أن أصرفكم فى تحصيل رزقى ولا رزقكم، وأنا غنى عنكم وعن مرافقتكم، ومتفضل عليكم برزقكم، وبما يصلحكم ويعيشكم من عندى، فما هو إلا أنا وحدى. اهـ.

وقال ابن الجوزى^(٣): اختلفوا فى الآية على أربعة أقوال:

[أحدها]: إلا لأمرهم أن يعبدونى. قاله على بن أبى طالب، واختاره الزجاج.

[الثانى]: إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً. قاله ابن عباس، وبيان هذا قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

(١) معالم التنزيل (٥/ ٢٣٠).

(٢) الكشف (٤/ ٣٢).

(٣) زاد المسير (٧/ ٢٥٨، ٢٥٩).

[الثالث]: أنه خاص في حق المؤمنين. قال الضحاك والفراء وابن قتيبة: هذا خاص لأهل طاعته، وهذا اختيار القاضي أبي يعلى، فإنه قال: معنى هذا الخصوص لا العموم، لأن البُله والأطفال والمجانين لا يدخلون تحت الخطاب وإن كانوا من الإنس، فكذلك الكفار يخرجون من هذا بدليل قوله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ فمن خلق للشقاء وجهنم لم يخلق للعبادة.

[الرابع]: إلا ليخضعوا إلى ويتذللوا.

ومعنى العبادة في اللغة: الذل والانقياد، وكل الخلق خاضع ذليل لقضاء الله عزوجل، لا يملك خروجاً عما قضاه عزوجل، هذا هو مذهب جماعة من أهل المعاني اهـ.

وقال الرازي^(١): ما العبادة التي خلق الجن والإنس لها؟

قلنا: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، فإن هذين النوعين لم يخل الشرع منهما وأما خصوص العبادات، فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرائط والأركان، ولما كان التعظيم اللائق بذى الجلال والإكرام لا يعلم عقلاً لزم اتباع الشرائع فيها والأخذ بقول الرسل عليهم السلام فقد أنعم الله على عباده بإرسال الرسل، وإيضاح السبل في نوعي العبادة، وقيل: إن معناه ليعرفوني. اهـ.

قال القرطبي^(٢): وقيل: إلا لأستعبدهم. والمعنى متقارب، تقول: عبداً بين العبودة والعبودية.

وأصل العبودية: الخضوع والتذلل. والتعبيد التذليل، يقال: طريق معبد.

- قال طرفة بن العبد -: [وظيفاً وظيفاً فوق مورٍ معبداً]

والتعبد: الاستعباد، وهو أن يتخذه عبداً. وكذلك الاعتباد، والعبادة: الطاعة، والتعبد: التنسك.

فمعنى ﴿لِيَعْبُدُون﴾ ليزلوا ويخضعوا ويعبدوا. اهـ.

قال ابن كثير^(٣): ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب. اهـ.

(١) التفسير الكبير (١٤/٢٨/٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) تفسير القرطبي (٩/٦٢٢٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٢٣٠).

قال الشوكاني^(١): ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها أن كون خلقهم لمجرد العبادة مما ينشط رسول الله ﷺ للتذكير وينشطهم للإجابة. ثم عرض الشوكاني الأقوال المتقدم ذكرها وقال: وقال جماعة: إلا ليخضعوا لى ويتذلوا. اهـ.

وقال صاحب الظلال^(٢): إن هذا النص الصغير ليحتوى حقيقة ضخمة هائلة، من أضخم الحقائق الكونية التى لاتستقيم حياة البشر فى الأرض بدون إدراكها واستيقانها، سواء كانت حياة فراد أم جماعة، أم حياة الإنسانية كلها فى جميع أدوارها وأعصارها. ثم قال: هذه الوظيفة المعينة التى تربط الجن والإنس بناموس الوجود هى العبادة لله، أو هى العبودية لله. اهـ.

● خلاصة الأقوال السابقة فى تفسير الآية ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

[قلت]: (الأول): ليقروا بالعبادة طوعاً أو كرهاً.

(الثانى): إلا لأمرهم أن يعبدون وأدعوهم إلى عبادتى.

(الثالث): خاصة بالمؤمنين دون الكافرين.

(الرابع): على ما خلقتهم عليهم من طاعتى ومعصيتى، وشقوتى وسعادتى.

(الخامس): خلقهم للعبادة، فمن العبادة ما ينفع، ومنها ما لاينفع.

(السادس): إلا ليوحدون.

(السابع): إلا ليعرفونى.

(الثامن): ليخضعوا لى ويتذلوا.

(التاسع): لاستعبدهم. وسيأتى تفصيل ذلك من كلام أهل العلم والراجح من

هذه الأقوال. والله المستعان.

وقال البخارى فى تفسيره من «الصحیح»^(٣): ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: ما خلقت أهل السعادة من أهل الفريقين إلا ليوحدون.

وقال بعضهم: خلقهم ليفعلوا، ففعل بعض، وترك بعض وليس فيه حجة لأهل

القدر. اهـ.

(١) فتح القدير (٥/٩٢).

(٢) (٦/٣٣٨٦، ٣٣٨٧).

(٣) فتح البارى (٨/٤٦٣، ٤٦٤).

وقال ابن حجر: هو كلام الفراء. وحاصل التأويلين أن الأول محمول على أن اللفظ العام مراد به الخصوص، وأن المراد أهل السعادة من الجن والإنس، والثانى باق على عمومه، لكن بمعنى الاستعداد، أى خلقهم معدين لذلك، لكن منهم من أطاع، ومنهم من عصى، وهو كقولهم: الإبل مخلوقة للحرث، أى قابلة لذلك لأنه قد يكون فيها ما لا يحرث.

وأما قوله: (وليس فيه حجة لأهل القدر) فيريد المعتزلة، لأن محصل الجواب: أن المراد بالخلق خلق التكليف لا خلق الجبلة، فمن وفقه عمل لما خلق له، ومن خذله خالف والمعتزلة احتجوا بالآية المذكورة على أن إرادة الله لا تتعلق به.

والجواب: أنه لا يلزم من كون الشيء معللاً بشيء أن يكون ذلك الشيء، وألا يكون غيره مراداً.

ويحتمل أن يكون مراده بقوله: (وليس فيه حجة لأهل القدر) أنهم يحتجون بها على أن أفعال الله لا بد وأن تكون معلولة فقال: لا يلزم من وقوع التعليل فى موضع وجوب التعليل فى كل موضع.

ونحن نقول بجواز التعليل لا بوجوبه، أو لأنهم احتجوا بها على أن أفعال العباد مخلوقة لهم لإسناد العبادة إليهم فقال لا حجة لهم فى ذلك، لأن الإسناد من جهة الكسب وفى الآية تأويلات أخرى يطول ذكرها اهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن (١):

قوله تعالى: (الجن والإنس) الألف واللام فيهما للماهية، أى ما خلقت ماهية الجن والإنس إلا للعبادة، ويحتمل أن يكون لاستغراق صنوف الجن وصنوف الإنس، لأن كل نوع من نوعى الجن والإنس مشتمل على أصناف متغايرة متعددة، وهذا أليق بالمقام؛ لدلالة تعدد الأجناس والأنواع والأصناف على كمال القدرة، وكمال العلم بالجزئيات، والكليات، واللذين هما فى الدلالة على الألوهية كما قيل: كأنه علم فى رأسه نار. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٢)

واعلم أن كل مصنوع لا بد فيه من تصور أربع علل: علة الفاعلية، وعلة الصورية،

(١) فتح الله الحميد المجيد ٤٨/٤٩.

(٢) الطلاق: ١٢.

وعلة المادية ، وعلة الغائية ، فإذا عرفت ذلك أن الجن والإنس مصنوعان من مصنوعات الله ، قال تعالى ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (١) فيلزم فيهما ما يلزم في غيرهما .

فالفاعل الله وحده ، جل جلاله ، وعمّ نواله قال تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (٢) والآلة في الإنس : الطين ، قال تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ (٣) والآلة في الجن : النار ، قال تعالى : ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٤) والصورة ، هذه الصورة الحسنة المرئية في الإنس ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٥) والصورة في الجن : الجسم اللطيف المخفى عن الأعين ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (٦) والغاية من خلقهما العبادة ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ . اهـ .

قال ابن عثيمين (٧) : قوله : ﴿خَلَقْتُ﴾ ؛ أى : أوجدت ، وهذا للإجابة مسبوق بتقدير ، وأصل الخلق التقدير .

قال الشاعر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعض الناس يخلق ثم لا يفرى

● قوله ﴿الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ .

قال ابن عثيمين : قوله : ﴿الجن﴾ : هم عالمٌ غيبىٌ مخفىٌ عنّا ، ولهذا جاءت المادة من الجيم والنون ، وهما يدلّان على الخفاء والاستتار .

ومنه الجنّة ، والجنّة ، والجنّة قلت : والجنين ومنه قوله تعالى ﴿فلما جن عليه الليل﴾ .
قول : ﴿الإنس﴾ سُموا بذلك ؛ لأنّهم لا يعيشون بدون إناس ؛ فهم يأنس بعضهم ببعض ، ويتحرّك بعضهم إلى بعض . اهـ .

(١) النمل : ٨٨ .

(٢) الرحمن : ١٤ ، ١٥ .

(٣) الصافات : ١١ .

(٤) الحجر : ٢٧ .

(٥) التين : ٤ .

(٦) الأعراف : ٢٧ .

(٧) القول المفيد (١/٢٦) .

● قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾.

قال الفقير: ذكر العلماء من أهل السنة ومن غيرهم في هذه الآية تسعة أقوال ذكر الطبري منها قولين وذكر ابن الجوزي أربعة وذكر القرطبي نحو ما ذكر ابن الجوزي وجمع ابن تيمية كل هذه الأقوال وتعقبها وجاء بالدليل القاطع على الراجح - وهو ما سلكه المصنف وعليه الجمهور كما سيأتي - وسأذكر كلامه بنصه مع شيء من الترتيب وإضافة بعض الألفاظ أو العناوين للتوضيح.

[القول الأول]: قول نفاة الحكمة والرد عليهم.

قال ابن تيمية^(١): وأما «نفاة الحكمة» كالأشعري وأتباعه كالقاضي أبي بكر وأبي يعلى وغيرهم، فهؤلاء أصلهم أن الله لا يخلق شيئاً لشيء، فلم يخلق أحداً للعبادة ولا غيرها، وعندهم ليس في القرآن لام كي، لكن قد يقولون: في القرآن لام العاقبة، كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وكذلك يقولون في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ يعنون كان عاقبة هؤلاء جهنم، وعاقبة المؤمنين العبادة من غير أن يكون الخالق قصد أن يخلقهم لا لهذا ولا لهذا، ولكن أراد خلق كل ما خلقه. لالشيء آخر فهذا قولهم، وهو ضعيف لوجوه:

(أحدها) أن لام العاقبة التي لم يقصد فيها الفعل لأجل العاقبة إنما تكون من جاهل أو عاجز. فالجاهل كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لم يعلم فرعون بهذه العاقبة، والعاجز كقولهم: «لدوا للسموت، وابنوا للخراب». فإنهم يعلمون هذه العاقبة؛ لكنهم عاجزون عن دفعها، والله تعالى عليم قدير. فلا يقال: إن فعله كفعل الجاهل العاجز.

(الثاني) أن الله أراد هذه الغاية بالاتفاق. فالعبادة التي خلق الخلق لأجلها هي مرادة له بالاتفاق، وهم يسلمون أن الله أرادها، وحيث تكون اللام للعاقبة لا يكون الفاعل أراد العاقبة، وهؤلاء يقولون خلقهم وأراد أفعالهم، وأراد عقابهم عليها فكلمها وقع فهو مراد له؛ ولكنه عندهم لا يفعل مراداً أصلاً لان الفعل للعلة يستلزم الحاجة، وهذا ضعيف بين الضعف، وأهل الخصوص قالوا: مثل هذا الجواب.

(١) مجموع الفتاوى (٤٤/٨، ٤٥).

[القول الثاني]: أنه خاص في حق المؤمنين.

قال ابن تيمية^(١): قالوا: وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هو مخصوص بمن وقعت منه العبادة، وهذا قول طائفة من السلف والخلف. قالوا: والمراد بذلك من وجدت منه العبادة، فهو مخلوق لها، ومن لم توجد منه فليس مخلوقاً لها؛ وعن سعيد بن المسيب قال: ما خلقت من يعبدني إلا ليعبدني؛ وكذلك قال الضحاك والفراء وابن قتيبة - وهذا قول خاص بأهل طاعته - قال الضحاك: هي للمؤمنين؛ وهذا قول الكرامية. كما ذكره محمد بن الهيصم. قال: ويدل عليه قوله قبل ذلك: (فتول عنهم) ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي هؤلاء المؤمنين الذين تنفعهم الذكرى.

قالوا: وهي غاية مقصودة واقعة، فإن العبادة وقعت من المؤمنين، وهذا القول اختيار أبي بكر بن الطيب: والقاضى أبى يعلى وغيرهما ممن يقول: إنه لا يفعل لعله. قالوا: - واللفظ للقاضى أبى يعلى -: هذا بمعنى الخصوص لا العموم؛ لأن البله والأطفال والمجانين لا يدخلون تحت الخطاب. وإن كانوا من الإنس. وكذلك الكفار يخرجون من هذا بدليل قوله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾^(٢). فمن خلق للشقاء ولجهنم لم يخلق للعبادة.

[قلت]: - أي ابن تيمية - قول هؤلاء الكرامية ومن وافقهم. وإن كان أرجح من قول الجهمية والمعتزلة، فيما اثبتوه من حكمة الله؛ وقولهم في تفسير الآية، وإن وافقوا فيه بعض السلف فهو قول ضعيف مخالف لقول الجمهور، ولما تدل عليه الآية.

فإن قصد العموم ظاهر في الآية، وبين بياناً لا يحتمل النقيض، إذ لو كان المراد المؤمنين فقط لم يكن فرق بينهم وبين الملائكة؛ فإن الجميع قد فعلوا ما خلقوا له ولم يذكر الإنس والجن عموماً. ولم تذكر الملائكة، مع أن الطاعة والعبادة وقعت من الملائكة دون كثير من الإنس والجن.

و(أيضاً) فإن سياق الآية يقتضى أن هذا ذم وتوبيخ لمن لم يعبد الله منهم لأن الله

(١) مجموع الفتاوى ٣٩/٨

(٢) الأعراف: ١٧٩.

خلقه لشيء فلم يفعل ما خلق له، ولهذا عقبها بقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ (١) فإثبات العبادة ونفسى هذا يبين أنه خلقهم للعبادة، ولم يرد منهم ما يريد السادة من عبيدهم من الإعانة لهم بالرزق والإطعام؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ (٢) أى نصيباً ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ (٢) أى المتقدمين من الكفار. أى نصيباً من العذاب وهذا وعيد لمن لم يعبد من الإنس والجن؛ فذكر هذا الوعيد عقيب هذه الآية من أولها إلى آخرها يتضمن وعيد من لم يعبد.

وذكر عقابه لهم فى الدنيا والآخرة فقال فى أولها: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ (٣) إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٍ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ (٤) ثم ذكر قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ﴾ (٥) ثم ذكر وعيد الآخرة بقوله: ﴿قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (٦) ثم ذكر وعده للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصَرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوْعَدُونَ * فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ (٧) ثم ذكر قصص من آمن فنفعه إيمانه، ومن كفر فعذبه بكفره. فذكر قصة إبراهيم ولوط وقومه وعذابهم. ثم قال: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٨) أى فى قصة موسى آية أيضاً فهذا كله يتضمن أمر الإنس والجن بعبادته وطاعته وطاعة رسله واستحقاق منافع العقوبة فى الدنيا والآخرة فإذا قال بعد ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

(١) الذاريات : ٥٦

(٢) الذاريات : ٥٩.

(٣) الذاريات : ١

(٤) الذاريات : ٥.

(٥) الذاريات : ٨

(٦) الذاريات : ١٠.

(٧) الذاريات : ٢٣/١٥

(٨) الذاريات : ٣٧، ٣٨.

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿١﴾ كان هذا مناسباً لما تقدم مؤتلفاً معه: أى هؤلاء الذين أمرتهم، إنما خلقتهم لعبادتي ما أريد منهم غير ذلك، لارزقاً ولاطعاماً.

فإذا قيل لم يرد بذلك إلا المؤمنين، كان هذا مناقضاً لما تقدم يعنى فى السورة وصار هذا كالعذر لمن لايعبده ممن ذمه الله ووبخه، وغايته يقول : أنت لم تخلقنى لعبادتك وطاعتك، ولو خلقتنى لها لكنت عابداً، وإنما خلقت هؤلاء فقط لعبادتك، وأنا خلقتنى لأكفر بك وأشرك بك، وأكذب رسلك، وأعبد الشيطان واطيعه، وقد فعلت ماخلقتنى له كما فعل أولئك المؤمنون ماخلقتهم له، فلا ذنب لى ولا استحق العقوبة؛ فهذا وأمثاله ممايلزم أصحاب هذا القول، وكلام الله منزه عن هذا، وهم إنما قالوا هذا؛ لأن الله تعالى فعال لما يريد، قالوا فلو كان أراد منهم ان يطيعوه لجعلهم مطيعين ، كما جعل المؤمنين.

ثم يبين السبب الذى جعلهم يسلكون هذا المسلك فى تفسير الآية إلى الخصوص فقال: والقدرية يقولون : لم يرد من هؤلاء ولا هؤلاء إلا الطاعة؛ لكن هو لم يجعل لا هؤلاء ولاهؤلاء مطيعين؛ بل الإرادة بمعنى الأمر يأمر بها الطائفتين، فهؤلاء عبده بأن أحدثوا إرادتهم وطاعتهم، وهؤلاء عصوه بأن أحدثوا إرادتهم، ومعصيتهم وأولئك الكرامية وغيرهم علموا فساد قول القدرية من جهة أن الله خالق كل شىء وربهم ومليكه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون فى ملكه إلا ماشاء، ولا يكون فى ملكه شىء إلا بقدرته وخلقته ومشيئته. كما دل على ذلك السمع والعقل، وهذا مذهب الصحابة قاطبة، وأئمة المسلمين وجمهورهم، وهو مذهب أهل السنة؛ فلأجل هذا عدل أولئك فى تفسيره الآية إلى الخصوص، فإنهم لم يمكنهم الجمع بين الإيمان بالقدر وبين أن يكون خلقهم لعبادته، فلم تقع منهم العبادة له، وقالوا : من ذراه لجهنم لم يخلقه لعبادته، فمن قال: خلق الخلق ليعبده المؤمنون منهم سلك هذا المسلك وسيأتى وجه الجمع [القول الثالث]: هى على العموم واختلفوا على خمسة أقوال.

(الأول) إلا ليخضعوا إلىَّ ويتذللوا.

(١) الذاريات ٥٦، ٥٧

قال ابن تيمية: (١) وطائفة أخرى قالوا: هي على العموم لكن المراد بالعبادة تعبيده لهم. وقهره لهم، ونفوذ قدرته ومشيتته فيهم. وأنه أصرهم الى ما خلقهم له، من السعادة والشقاوة، هذا جواب زيد بن أسلم وطائفة، وهذا القول الثاني في تفسير الآية. اهـ.

قلت: وهو أحد القولين الذين ذكرهما ابن جرير.

ثم قال: وروى ابن أبي حاتم عن ابن جريج، عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: جبلهم على الشقاوة والسعادة (٢) وقال وهب بن منبه: جبلهم على الطاعة، وجبلهم على المعصية، وهذا يشبه قول من قال في تفسير قول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» (٣) أى: على ما كتب له من سعادة وشقاوة، كما قال ذلك طائفة منهم ابن المبارك وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه، وقد قيل لمالك: أهل القدر يحتجون علينا بهذا الحديث، فقال احتجوا عليهم بآخره، وهو قوله: «الله أعلم بما كانوا عاملين» (٤) وهذا الجواب يصلح أن يجاب به على من انكر العلم كما كان على ذلك طائفة من القدماء وهم المعروفون بالقدرية في لغة مالك.

إلى أن قال: ومن فسر هذه الآية بأن المراد بـ(يعبدون) هو ما جبلهم عليه، وما قدره عليهم من السعادة والشقاوة وأن ذلك هو معنى الحديث، فإن هؤلاء جعلوا معنى يعبدون بمعنى يستسلمون لمشيئتي وقدرتي، فيكونون معبدين مذللين كى يجرى عليهم حكمى ومشيتى لا يخرجون عن قضائى وقدرى، فهذا معنى صحيح فى نفسه، وإن كانت القدرية تنكره فيإنكارهم لذلك صاروا من أهل البدع، بل الله خالق كل شىء وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وفى استعاذة النبي ﷺ (أعوذ بكلمات الله التامة التى لا يجاوزها برولا فاجر من شر ما ذرأ وبرأ وأعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده» (٥) فكللماته التامة هى التى كون بها الأشياء كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ

(١) مجموع الفتاوى ٤٥/٨ : ٤٨.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (١٤٢/٦) ونسبه لابن جرير وابن المنذر.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (ح ٤٧٧٥) ومسلم (٢٠٧/١٦) ، ٢٠٨ - القدر، وأبوداود (ح

٤٧١٤) والترمذى (ح ٢١٣٨) من حديث أبى هريرة

وانظر فتح ذى الجلال: (ح ٤٠٨) بتخریجنا.

(٤) تقدم فيما قبل.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٨٩٣) ، والترمذى (٣٥٢٨).

شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١﴾ لا يجاوزها بر ولا فاجر ولا يخرج أحد عن القدر المقدر ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المسطور وهذا المعنى قد دل عليه القرآن في غير موضع كقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴿٢﴾ الآيَةَ وَقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ﴿٣﴾. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٤﴾ وقوله في السحر: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿٥﴾ ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ ﴿٦﴾ ونحو ذلك.

ولكن قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لم يرد به هذا المعنى الذى ذهبوا اليه وحاموا حوله - من أن المخلوقات كلها تحت مشيئته وقهره وحكمه. فالمخلوقات كلها داخلة فى هذا لا يشذ منها شيء عن هذا. وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي﴾ ﴿٧﴾ الآية. وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ﴿٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ ﴿٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ﴿١٠﴾ وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ ﴿١١﴾.

فهذا ونحوه كثير فى القرآن. لم يرد بعبادة الله إلا العبادة التى أمرت بها الرسل،

= قال الترمذى: حسن غريب

وانظر الأذكار للنووى (٢٧٢) - بتخريجنا

(١) يس الآية (٨٢)

(٢) الأعراف الآية (١٧٩)

(٣) الأنعام الآية (١١١)

(٤) الحج الآية (٧٠)

(٥) البقرة الآية (٢ - ١)

(٦) الأنعام: الآية (١٢٥)

(٧) يس: الآية (٦٠ ، ٦١)

(٨) النساء: الآية (٣٦)

(٩) الزمر: الآية (١٧)

(١٠) الزمر: الآية (٣)

(١١) يونس: الآية (١٨)

وهي عبادته وحده لا شريك له، والمشركون لا يعبدون الله، بل يعبدون الشيطان وما يدعونه من دون الله. سواء عبدوا الملائكة أو الأنبياء والصالحين، أو التماثيل والأصنام المصنوعة فهؤلاء المشركون قد عبدوا غير الله تعالى، كما أخبر الله بذلك. فكيف يقال: إن جميع الإنس والجن عبدوا الله؟ لكون قدر الله جارياً عليهم، والفرق ظاهر بين عبادتهم إياه التي تحصل بإرادتهم واختيارهم وإخلاصهم الدين له وطاعة رسوله. وبين أن يعبدهم هو وينفذ فيهم مشيئته، وتكون عبادتهم لغيره: للشيطان وللأصنام، من المقدور.

وهذا يشبه قول من يقول من المتأخرين: أنا كافر برب يعصى، فيجعل كلما يقع طاعة، كما جعله هؤلاء عبادة لله تعالى، لكونهم تحت المشيئة، وكان بعض شيوخهم يقول عن إبليس: إن كان عصى الأمر، فقد أطاع المشيئة، لكن هؤلاء مباحية، يسقطون الأمر.

وأما زيد بن أسلم، ووهب بن منبه، ونحوهم، فحاشاهم من مثل هذا: فإنهم كانوا من أعظم الناس تعظيماً للأمر والنهي، والوعد والوعيد، ولكن قصدوا الرد على المكذبين بالقدر. القائلين: بأنه يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء وهؤلاء حقيقة قولهم: إنه لا يقدر على تعبيدهم، وتصريفهم تحت مشيئته، فأرادوا إبطال قول هؤلاء ونعم ما أرادوا! لكن الكلام فيما أريد بالآية.

وقول أولئك؛ الإباحية يشبه قول من قال: إن العارف إذا شهد المشيئة سقط عنه الملام، وإنه إذا شهد الحكم - يعنى المشيئة - لم يستحسن ولم يستقبح سببه، ونحو هذا من أقوال هؤلاء الذين تشبه أقوالهم أقوال المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ (١) كما قد بسط الكلام عليه. وبين أن إثبات القدر السابق حق، لكن ذلك هو الذى يصير العبد إليه، ليس هو الذى فطر عليه، كما قال النبى ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» (٢). فقد بين النبى ﷺ بمثل ضربته أن البهيمة تولد سليمة ثم تجدع، والجدع كان مقدراً عليها. كذلك العبد يولد على الفطرة سليماً، ثم يفسد بالتهود والتنصير، وذلك كان مكتوباً أن يكون. وصاحب هذا القول إنما قاله ليبين ما خلقوا له.

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(١) الأنعام: الآية (١٤٨)

(الثاني) إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً ورجحه الطبرى.

قال ابن تيمية^(١): وصاحب هذا القول إنما قاله ليبين ما خلقوا له وقد قصد هذا طائفة.

فسروا العبادة بأمر واقع عام، وليست هى العبادة المأمور بها على ألسن الرسل. ففى تفسير ابن أبى طلحة المضاف الى ابن عباس: إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً^(٢) وهذه العبودية كقوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾^(٣) وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾^(٤) والصحيح انه انقيادهم لحكمه القدرى بغير اختيارهم. كاستسلامهم عند المصائب وانقيادهم لما يكرهون من أحكامه الشرعية، فكل أحد لا بد له من انقياده لحكمه القدرى والشرعى، فهذا معنى صحيح. قد بسط فى غير هذا الموضوع، لكن ليس هو العبادة.

ثم قال وقد ذكر أبو الفرج قول ابن عباس هذا. قال: ويان هذا قوله ﴿وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٥) وهذه الآية توافق من قال: إلا ليعرفون؛ كما سأتى. وهؤلاء الذين أفروا بأن الله خالقهم لم يقروا بذلك كرهاً، بخلاف إسلامهم وخضوعهم له فانه يكون كرهاً، وأما نفس الاقرار فهو فطرى فطروا عليه وبذلوه طوعاً.

(الثالث) قال ابن تيمية^(٦): روى ابن أبى حاتم عن زائدة عن السدى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: خلقهم للعبادة، فمن العبادة عبادة تنفع ومن العبادة عبادة لا تنفع ﴿وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع شركهم، وهذا المعنى صحيح، لكن المشرك يعبد الشيطان، وما عدل به الله لا يعبد، ولا يسمى مجرد الاقرار بالصانع عبادة لله مع الشرك بالله، ولكن يقال كما قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٧) فايما نهم بالخالق مقرون

(١) «مجموع الفتاوى» (٤٨/٨)، ٤٩

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٨٦٦٨) فانظره بتخريجنا

(٣) آل عمران: الآية (٨٣)

(٤) الرعد: الآية (١٥)

(٥) الزخرف: الآية (٨٧)

(٦) «مجموع الفتاوى» (٥٠/٨)

(٧) يوسف: الآية (١٠٦)

بشركهم به، وأما العبادة ففي الحديث «يقول الله: انا اغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء، وهو كله للذى اشرك» (١) فعبادة المشركين وإن جعلوا بعضها لله لا يقبل منها شيئاً، بل كلها لمن اشركوه. فلا يكونون قد عبدوا الله سبحانه، ومثل هذا قول من قال: إلا ليوحدون فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء، دون النعمة والرخاء، بيانه في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٢).

(الرابع): قال ابن تيمية: (٣) ذكر ابن ابي حاتم عن ابن جريج، قال: ليعرفون، قال: وروى عن قتادة، وذكره البغوى عن مجاهد. قال: وقال مجاهد إلا ليعرفون قال: وهذا قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده، ودليله قوله: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٤) فيقال: هذا المعنى صحيح؛ وكونه إنما عرف بخلقهم يقتضى أن خلقهم شرط في معرفتهم، لا يقتضى أن يكون ما حصل لهم من المعرفة هو الغاية التي خلقوا لها، وهذا من جنس قول السدى، فان هذا الاقرار العام هم مشركون فيه، كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ (٥) لكن ليس هذا هو العبادة.

ثم عقب على هذه الأقوال الأربعة بقول:

فهذه «الأقوال الأربعة»: قول من عرف أن الآية عامة فأراد أن يفسرها بعبادة تعم الإنس والجن، واعتقد أنه (إن) فسرها بالعبادة المعروفة، وهى الطاعة لله والطاعة لرسله، لزم أن تكون واقعة منهم، ولم تقع؛ فأراد أن يفسرها بعبادة واقعة، وظن أنه إذا فسرها بعبادة لم تقع لزمه قول القدرية، وأنه خلقهم لعبادته فعصوه بغير مشيئته وغير قدرته، ففروا من قول القدرية وهم معذرون في هذا القرار؟ لكن فسروها بما لم يرد بها، كما يصيب كثير من الناس فى الآيات التي يحتج أهل البدع بظاهرها، كاحتجاج الرافضة بقوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ (٦) على مسح ظهر القدمين، فترى المخالفين

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الزهد» (٢/٥٩٢ - الحلى) وانظر «رياض الصالحين» (ح) ١٦١٩ - «فتح المجيد» (ح) ٧٠٠ بتخريجنا.

(٢) العنكبوت: الآية (٦٥)

(٣) مجموع الفتاوى (٨/٥٠)

(٤) الزخرف: الآية (٨٧)

(٥) الاعراف: الآية (١٧٢)

(٦) المائدة: الآية (٦)

لهم يذكرون أقوالاً ضعيفة، هذا يقول مجروراً بالمجاورة كقولهم «جحر ضب خرب»، ونحو هذا من الأقوال الضعيفة، كذلك ما قالوه في قوله «فحج آدم موسى»^(١) وأمثال ذلك.

(الخامس) وهو قول الجمهور وعليه عامة أهل العلم وانتصر له ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب والشنقيطي وغيرهم كما سيأتي من أقوالهم وما استدلوا به.

قال ابن تيمية:^(٢) الذى عليه جمهور المسلمين، أن الله خلقهم لعبادته وهو فعل ما أمروا به، ولهذا يوجد المسلمون قديماً وحديثاً يحتجون بهذه الآية على هذا المعنى حتى فى وعظهم وتذكيرهم وحكاياتهم، كما فى حكاية إبراهيم بن أدهم؛ ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت؛ وفى حديث إسرائيلى «يا ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبنى تجدنى؛ فان وجدتنى وجدت كل شىء؛ وإن فتك فاتك كل شىء، وأنا أحب إليك من كل شىء» وهذا هو المأثور عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب؛ وغيره من السلف فذكروا عن على بن أبى طالب أنه قال: إلا لأمرهم أن يعبدون، وأدعوهم الى عبادتى.

قالوا: ويؤيده قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ دِينَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾^(٣) وهذا اختيار الزجاج وغيره. وهذا هو المعروف عن مجاهد بالاسناد الثابت.

قال ابن أبى حاتم: ثنا أبو سعيد الأشج، ثنا أبو اسامة عن شبل، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لأمرهم وأنهاهم^(٤) كذلك روى عن الربيع بن أنس قال: «وما خلقتهما إلا للعبادة»^(٥).

ويدل على هذا مثل قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٦) يعنى لا يؤمر ولا

(١) سيأتى تخريجه

(٢) مجموع الفتاوى ٥/٨ : ٥٣

(٣) البينة: الآية (٥).

(٤) التوبة: الآية (٣١)

(٥) ذكره القرطبي فى «تفسيره» (٩/٦٢٢٥) وانظر «فتح المجيد - بتخريننا» (٢١)

(٦) القيامة: الآية (٣٦).

ينهى . وقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (١) أى لولا عبادتكم وقوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ (٢) وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟﴾ إلى قوله: ﴿وَأَهْلَهَا غَافِلُونَ﴾ (٣) وقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٤) وَأَنْ عِبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤) الآيات . وما بعدها . وقالت الجن لما سمعوا القرآن: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ (٥) الآية . وما بعدها وقالت الجن: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأَوْلَتْكَ تَحْرُورًا رَشَدًا﴾ (٦) الآية . وما بعدها .

وقد قال فى القرآن فى غير موضع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ (٦) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ (٧) فقد أمرهم بما خلقهم له وأرسل الرسل إلى الانس والجن، ومحمد أرسل إلى الثقلين، وقرأ القرآن على الجن، وقد روى انه لما قرأ عليهم سورة الرحمن . وجعل يقرأ: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٨) يقولون: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد (٩) . فهذا هو المعنى الذى قصد بالآية قطعاً، وهو الذى تفهمه جماهير المسلمين، ويحتجون بالآية عليه: ويعترفون بأن الله خلقهم ليعبده . لا ليضيعوا حقه . قال الشنقيطى: (١٠) التحقيق إن شاء الله فى معنى هذه الآية الكريمة ﴿إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾

(١) الأعراف: الآية ٧٧ .

(٢) النساء: الآية ١٤٧ .

(٣) الأنعام الآية ١٣١ .

(٤) يس: الآية ٦٠ .

(٥) الأحقاف: الآية ٣٠ .

(٦) الجن: الآية ١٤ .

(٧) البقرة: الآية ٢١ .

(٨) النساء: الآية ١

(٩) [مقارب للحسن] أخرجه الترمذى (٣٢٩١)، والحاكم فى «المستدرک» (١٥٠/٢)، والبيهقى فى

«الدلائل» (٢٣٢/٢) عن جابر به .

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (١٠١٣) .

(١٠) أضواء البيان (٧/٤٤٥ و ٤٤٦) .

أي إلا لأمرهم بعبادتي وابتليهم أي اختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق في معنى الآية، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتلهم أيهم أحسن عملاً، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم.

قال تعالى في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (١) ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢) وقال تعالى في سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٣) وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٤) فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، يفسر قوله ﴿لَعَبْدُونَ﴾ وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

ومعلوم أن نتيجة العمل المقصود منه لا تتم إلا بجزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولذا صرح تعالى بأن حكمة خلقهم أولاً وبعثهم ثانياً، هو جزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وذلك في قوله تعالى في أول يونس: ﴿إِنَّهُ يُبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٥) وقوله في النجم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (٦).

وقد أنكر تعالى على الإنسان حسابانه وظنه أنه يترك سدى، أي مهملاً، لم يؤمر ولم ينه، وبين أنه ما نقله من طور إلى طور حتى أوجده إلا ليعثه بعد الموت أي

(١) هود : ٧ .

(٢) هود : ٧ .

(٣) الملك : ٢ .

(٤) الكهف : ٧ .

(٥) يونس : ٤ .

(٦) النجم : ٣١ .

ويجزيه على عمله، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكْ نُطْفِئْ مِنْ مَنِيِّ يَمِينِي﴾ - إلى قوله - ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (١).

والبراهين على البعث دالة على الجزاء وقد نزه تعالى نفسه عن هذا الظن الذي ظنه الكفار به تعالى، وهو أنه لا يبعث الخلق ولا يجزيهم منكرًا ذلك عليهم في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢).

وأيد ابن تيمية هذا القول أيضاً بحديث معاذ الذي ذكر المصنّف وغيره فقال (٣). وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال له: «يامعاذ! أتدرى ما حق الله على عباده؟ قال: الله ورسوله أعلم قال: فإن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حقهم عليه ان لا يعذبهم» (٤).

وفي المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي. وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم» (٥).
(تنبيه)

قال ابن تيمية (٦) قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إن كانت هذه اللام للضرورة في عاقبة الأمر فما صار ذلك؟ وإن كانت اللام للغرض لزم ان لا يتخلف أحد من المخلوقين عن عبادته؟ وليس الأمر كذلك فما التخلص من هذا المضيق؟!.

فيقال: هذه اللام ليست هي اللام التي يسميها النحاة لام العاقبة والضرورة ولم يقل ذلك أحد هنا. كما ذكره السائل من أن ذلك لم يصر الا على قول من يفسر (يعبدون)

(١) القيامة: ٣٦ : ٤٠.

(٢) المؤمنون: ١١٥/١١٦.

(٣) مجموع الفتاوى ٥٣/٨.

(٤) سيأتي تخرجه إن شاء الله تعالى

(٥) [إسناده صحيح] أخرجه أحمد في «مسنده» (٥٠/٢) وصححه أحمد شاكر - رحمه الله -

(٥١١٤)

(٦) مجموع الفتاوى ١٨٦/٨ : ١٩٠.

بمعنى يعرفون، يعنى المعرفة التى أمر بها المؤمن والكافر؛ لكن هذا قول ضعيف، وإنما زعم بعض الناس ذلك فى قوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ التى فى آخر سورة هود. فان بعض القدرية زعم ان تلك اللام لام العاقبة والصيرورة: أى صارت عاقبتهم الى الرحمة، والى الاختلاف، وان لم يقصد ذلك الخالق، وجعلوا ذلك كقوله: (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً)^(١) وقول الشاعر.

لدوا للموت وابنوا للخراب

وهذا أيضاً ضعيف هنا لأن لام العاقبة إنما تجيء فى حق من لا يكون عالماً بعواقب الأمور ومصايرها فيفعل الفعل الذى له عاقبة لا يعلمها كآل فرعون، فأما من يكون عالماً بعواقب الأفعال ومصايرها فلا يتصور منه أن يفعل فعلاً له عاقبة لا يعلم عاقبته، وإذا علم أن فعله له عاقبة فلا يقصد بفعله ما يعلم أنه لا يكون فإن ذلك تمن وليس بإرادة.

ثم قال^(٢) فى موطن آخر فى نفس الآية

ولكن اللام لبيان الجملة الشرعية، المتعلقة بالإرادة الشرعية، كما فى قوله

تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٣) وقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾^(٤) الآية .

وقد تكون لبيان العاقبة الكونية كما فى قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ

لِلْإِسْلَامِ﴾^(٥) الآية ؛ هذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ

خَلَقَهُمْ﴾^(٦) أى خلق قوماً للاختلاف، وقوماً للرحمة، وقال: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا

ليعبدون﴾ فاللام فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾^(٧) وإن كانت

هى اللام فى هذه الآية فإن مدلولها لام إرادة الفاعل ومقصوده، ولهذا تنقسم فى كتاب

الله إلى إرادة دينية، وإرادة كونية؛ كما تنقسم فى كتاب الله تعالى الكلمات، والأمر

والحكم والتحریم والإذن، وغير ذلك.

(١) القصص: ٨.

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٢٣٦)

(٣) البقرة: ١٨٥.

(٤) النساء: ٢٦.

(٥) الأنعام: ١٢٥.

(٦) هود: ١١٨، ١١٩.

(٧) الأعراف: ١٧٩.

وفصل هذا الكلام في موطن آخر موضحاً تفسير الإرادة في القرآن فقال (١)؟

ينبغي أن يعرف أن الإرادة في كتاب الله على نوعين:

(أحدهما): الإرادة الكونية، وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد. التي يقال فيها: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة في مثل قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتُلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (٤) وأمثال ذلك.

وهذه الإرادة هي مدلول السلام في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ (٥) قال السلف خلق فريقاً للاختلاف، وفريقاً للرحمة، ولما كانت الرحمة هنا الإرادة، وهناك كونية وقع المراد بها، فقوم اختلفوا وقوم رحموا.

أما (النوع الثاني): فهو الإرادة الدينية الشرعية، وهي محبة المراد ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاهم بالحسنى، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ (٦) وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ (٧) وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا (٨) فهذه الإرادة لاتستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة ولهذا كانت الأقسام أربعة:

(أحدها): ما تعلق به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أرادته إرادة دين وشرع؛ فأمر به واحبه ورضيه، وأرادة إرادة كون فوقه؛ ولولا ذلك لما كان.

(١) مجموع الفتاوى (١٨٧/٨ - ١٩٠)

(٢) هود: ٣٤

(٣) البقرة: ٢٥٣

(٤) الكهف: ٣٩

(٥) هود: ١١٨، ١١٩

(٦) البقرة: ١٨٥

(٧) المائدة: ٦

(٨) النساء: ٢٦، ٢٧.

(والثاني): ماتعلقت بها الإرادة الدينية فقط. وهو مأمَر الله به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولو لم تقع.

(والثالث): ماتعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهوما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها: كالمباحات والمعاصي فإنه لم يأمر بها ولم يرضها ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(والرابع): ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا مالم يكن من أنواع المباحات والمعاصي، وإذا كان كذلك فمقتضى اللام في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه الإرادة الدينية الشرعية، وهذه قد يقع مرادها وقد لا يقع، والمعنى أن الغاية التي يحب لهم ويرضى لهم والتي أمروا بفعلها هي العبادة، فهو العمل الذي خلق العباد له: أي هو الذي يحصل كمالهم وصلاحهم الذي به يكونون مرضيين محبوبين، فمن لم تحصل منه هذه الغاية كان عادماً لما يحب ويرضى ويراد له الإرادة الدينية التي فيها سعادته ونجاته، وعادماً لكماله وصلاحه العدم المستلزم فساده وعذابه، وقول من قال: العبادة هي العزيمة (أو) الفطرية: فقولان ضعيفان فاسدان يظهر فسادهما من وجوه متعددة.

ثم قال ابن تيمية: (١) ثم الناس على هذا القول أي الذي سبق ترجيحه - قولان: قول أهل السنة المثبتة للقدر، وقول نفاته فصارت الأقوال في الآية «سبعة» وفي الحكمة «خمسة».

فأما أهل السنة المثبتون للقدر فيقولون: قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لا يستلزم وقوع العبادة منهم، كما قال أصحاب هذه الأقوال المتقدمة، ولا يستلزم نفي المقدور أن يكون في ملكه مالا يشاء أو يشاء مالا يكون، كما قالت القدرية، فهؤلاء يقولون: لم يقع ما خلقهم له لكونه يشاء مالا يكون، ويكون مالا يشاء. أولئك قالوا: إذا كان ما يشاء كان، ومالم يشأ لم يكن فما لم يقع لم يشأ، فما

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٧-٥٤). وسيأتي بيان للفرق بين الإرادة الكونية والقدرية في أبواب كثيرة من

لم يقع من العبادة لم يشأها، وهذا معنى صحيح ، ثم قالوا : وما خلقهم له فلا بد أن يشاء أن يخلقه فلما لم يشأه أن يخلق هذا لم يخلقهم له .

فالطائفتان أصل غلطهم ظنهم إنما خلقهم له يشاء وقوعه، وأولئك يقولون يشاء أن يخلقه، وهؤلاء يقولون يشاء وقوعه منهم، بمعنى يأمرهم به، وما عندهم أن له مشيئة في أفعال العباد غير الأمر وهم يعصون أمره؛ فلهذا قالوا: يكون مالا يشاء، ويشاء مالا يكون، كما يقولون: يفعلون ما نهاهم عنه، ويتركون ما أمرهم به، وهذا المعنى صحيح إذا أريد الأمر الشرعي؛ لكن القدرية النفاة لا يقولون: إنه شاء إلا بمعنى أمر، فعندهم مالم يس طاعة من أفعال العباد مالا يشاءه، فإنه لا يخلقه عندهم، وإذا لم يخلقه لم يشأه فإنه ما شاء أن يخلقه خلقه باتفاق المسلمين .

والقدرية لاتنازع في هذا، لا ينازعون في أنه ما شاء أن يفعله هو فعله، وأنه قادر على أن يفعل ما يشاء أن يفعله، لكن عندهم أن أفعال العباد لا تدخل في خلقه، ولا في قدرته، ولا في مشيئته، ولا في مشيئته أن يفعل، لكن المشيئة المتعلقة بها بمعنى الأمر فقط . فيقولون: خلقهم لعبادته أن يفعلوهاهم، وقد امرهم بها، فإذا لم يفعلوها كان ذلك بمنزلة عصيان أمره .

وأما المثبتون للقدر فيقولون: أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو سبحانه خالق كل شيء ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلْتُمْ﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ وأمثال ذلك، فإذا خلقهم للعبادة المأمور بها ولم يفعلوها لم يكن قد شاء أن تكون، إذ لو شاء أن تكون لكونها ، لكن امرهم بها، وأحب أن يفعلوها، ورضى أن يفعلوها، وأراد أن يفعلوها، إرادة شرعية تضمنها بأمره بالعبادة .

ومن هنا يتبين معنى الآية، فإنه قوله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ يشبه قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ (١) وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ (٢) وقوله: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (٣) وقوله: ﴿ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٤) وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (٥) الآية . وكذلك

(١) البقرة: ١٨٥ (٢) الحج: ٣٧

(٣) الحشر: ٣٧ (٤) المائدة: ٩٧

(٥) الطلاق: ١٢

قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾^(١) فهو لم يرسله إلا ليطاع ثم قد يطاع وقد يعصى .

وكذلك ما خلقهم إلا للعبادة، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون . ومثل هذا كثير في القرآن ، يبين أنه فعل مافعل ليكبروه وليعدلوا، ولا يظلموا، وليعلموا ما هو متصف به، وغيره مما أمر الله به العباد، واحبه لهم ورضيه منهم، وفيه سعادتهم وكما لهم وصلاحهم وفلاحهم إذا فعلوه . ثم منهم من يفعل ذلك ومنهم من لا يفعله .

وهو سبحانه لم يقل أنه فعل الأول ليفعل هو الثاني، ولا ليفعل بهم الثاني فلم يذكر انه خلقهم ليجعلهم هم عابدين؛ فإن مافعله من الأسباب لما يفعله هو من الغايات يجب أن يفعله لامحالة، ويمتنع أن يفعل أمراً ليفعل أمراً ثانياً ولا يفعل الأمر الثاني، ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني؛ فيكونون هم الفاعلين له فيحصل بفعلهم سعادتهم، وما يحبه ويرضاه لهم، فيحصل ما يحبه هو وما يحبونه هم، كما تقدم أن كل ما خلقه وأمر به غايته محبوبة لله ولعباده . وفيه حكمة له، وفيه رحمة لعباده .

فهذا الذى خلقهم له لو فعلوه لكان فيه ما يحبه وما يحبونه، ولكن لم يفعلوه فاستحقوا ما يستحقه العاصى المخالف لأمره، التارك فعل ما خلق لأجله من عذاب الدنيا والآخرة، وهو سبحانه قد شاء أن تكون العبادة بمن فعلها ، فجعلهم عابدين مسلمين بمشيئته وهداه لهم، وتبببه إليهم الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾^(١) فهؤلاء (أراد) العبادة منهم خلقاً وأمراً أمرهم بها؛ وخلقاً جعلهم فاعلين .

والصنف الثانى: لم يشأ هو أن يخلقهم عابدين وإن كان قد أمرهم بالعبادة . والله سبحانه أعلم .

تعريف العبادة:

وقد تقدم كلام المفسرين فى تعريف العبادة أولاً، وتقدم تفسير على بن أبى طالب للعبادة فى الآية وأنه: إلا لأمرهم أن يعبدونى وأدعوهم إلى عبادتى^(٣) وكذلك تفسير مجاهد حيث قال: إلا لأمرهم وأنهام^(٤) .

وقال ابن تيمية أيضاً:^(٥) العبادة هى طاعة الله بامثال ما أمر به على السنة الرسل

(٢) الحجرات : ٧ .

(١) النساء: ٦٤

(٥) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٣١/٣٢ .

(٣، ٤) تقدما .

وقال أيضاً العبادة إسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة.

قال ابن القيم: ومدارها على خمس عشر قاعدة من كملها كمل مراتب العبودية، بيان ذلك أن العبادة منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح.

وقال القرطبي: أصل العبادة: التذلل والخضوع، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات، لانهم يلتزمون بها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى.

وقال ابن كثير: (١) العبادة في اللغة من الذلة. يقال: طريق معبد وغير معبد، أى مذلل. وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وهكذا ذكر غيرهم من العلماء.

ومعنى الآية: أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الإنس والجن إلا لعبادته، فهذه هي الحكمة في خلقهم، ولم يرد منهم ما تريده السادة من عبيدها من الإعانة لهم بالرزق والإطعام، بل هو الرزاق ذو القوة المتين، الذي يُطعم ولا يُطعم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَنْتَ خِذْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾

وعبادته هي طاعته بفعل المأمور، وترك المحذور، وذلك هو حقيقة دين الإسلام لأن معنى الإسلام هو الإستسلام. المتضمن غاية الانقياد، في غاية الذل والخضوع.

قال ابن حجر: المراد بالعبادة عمل الطاعات واجتناب المعاصي (٢).

قال حامد بن محمد بن حسن: (٣) والعبادة اسم لما شرعه الله تعالى في كتابه المنزل على لسان رسوله المرسل ﷺ، وماخالفه من النسك والأعمال والأقوال والنيات فبدعة يستوجب صاحبه النار. عن عائشة - رضی الله عنه - قالت: قال رسول الله ﷺ «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد» (٤) وقال ﷺ في حديث العرياض: «فإن من يعيش

(١) تفسير القرآن العظيم.

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٤٩

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم في الأفضية (١٦/١٢ - النووي).

وانظر تخرجه في كتابنا «فتح ذى الجلال في تخريج أحاديث الظلال» (١٣٥)، وانظر «جامع العلوم والحكم» (١٠/١) - بتخريجنا.

منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بستی وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» (١). أهـ.

قال ابن عثيمين: (٢) فهذه هي الحكمة من خلق الجن والإنس. ولهذا أعطى الله البشر عقولاً، وأرسل إليهم رسلاً، وأنزل عليهم كتباً، ولو كان الغرض من خلقهم كالغرض من خلق البهائم؛ لضاعت الحكمة من إرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ لأنه فى النهاية يكون كشجرة نبتت، ونمت، وتحطمت.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ فلا بد أن يردك إلى معاد تجازى على عملك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وليست الحكمة من خلقهم نفع الله، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾.

فهذا ليس إقراضاً لله سبحانه، بل هو غنى عنه، لكنه سبحانه شبة معاملته عبده له بالقرض؛ لأنه لا بد من وفائه، فكأنه التزام من الله سبحانه أن يوفى العامل أجر عمله كما يوفى المقرض من أقرضه أهـ.

قال الفقير: وما يؤيد إختيار ابن تيمية وغيره ممن وافقه من أهل العلم السابق ذكرهم من العبادة: هي الأمر والنهى.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾

قال الشافعى: لا يؤمر ولا ينهى. ذكره الشوكانى فى «فتح القدير» وغيره. تقدم شىء من ذلك.

● عبادة الهوى:

قال الفقير: ويتأيد هذا الإختيار بأدلة كثيرة أخرى منها قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٢٦/٤، ١٢٧) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذى (٢٦٧٨) وابن ماجه، (٤٣)

قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح». وانظر كتابنا «فقه الخطابة».

(٢) القول المفيد/١، ٢٦، ٢٧.

إِلَهه هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴿١﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢)

قال ابن كثير: أى إنما ياتر بهواه فمهما رآه حسناً فعله ومهما رآه قبيحاً تركه ونقل عن مالك رحمه الله قال: لا يهوى شيئاً إلا عبده قال فى «البحر» أى هو مطوع لهوى نفسه يتبع ما تدعوه إليه فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه.

قال ابن عباس: «وذلك الكافر اتخذ دينه ما بهواه فلا يهوى شيئاً إلا ركه» (٣).

وهذه التفسيرات للآية يؤيد اختيار ابن تيمية لتفسير على ومجاهد لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وإن العبادة هى الأمر والنهى والحكم والتشريع.

● عبادة العلماء والعباد:

ويتأيد هذا الاختيار أيضاً لقوله تعالى ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ

اللَّهِ﴾ (٤)

وقد فسرها الرسول ﷺ لعدى بن حاتم فقال عدى أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب؟ فقال يا عدى اطرح عنك هذا الوثن: قال ابن حاتم. وسمعتة يقرأ سورة براءة ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ...﴾ فقلت يا رسول الله، «والله لم يكونوا يعبدوهم، فقال ﷺ: أليسوا يحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه ويحلون ما حرم الله تعالى فيستحلونه؟ قلت بلى قال: فذلك عبادتهم إياهم» (٥).

وفى لفظ «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت بلى: قال فتلك عبادتهم» (٦) والحديث دليل على أن طاعة الأحرار والرهبان فى معصية الله عبادة لهم من دون الله و من الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ونظير ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (٧).

(٢) الجاثية : الآية ٢٣

(١) الفرقان : الآية ٤٣ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٨٥٣٨) فانظره بتخریجنا .

وانظر «فتح القدير» بتخریجنا -

(٥) (٦، ٥) سياتى تخریجه .

(٤) التوبة : الآية ٣١

(٧) الأنعام : ١٢١

● عبادة الشيطان:

ويتأيد هذا الاختيار أيضاً بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع وهو تقريع الكفرة والمجرمين أى ألم أوصيكم وأمركم يا بنى آدم على السنة الرسل ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أى لاتطيعوهم فيما دعاكم إليه من معصيتي» ولذلك قال الله تعالى بعد هذه الآية ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى اعبدوني بتوحيدي وطاعتي وامثال أمرى وهذا هو الدين الصحيح والطريق الحق المبين.

وهذا التفسير السلفى للآية يبين أن عبادة الشيطان لم تكن بصلاة أو نسك (١) يقدم له ولكن بالطاعة له فيما شرطه للناس من أحكام تغاير وتباين أحكام الله عزوجل ولذلك قال لهم لما قضى الأمر ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (٢).

● عبادة الحكام:

ويتأيد اختيار ابن تيمية لتفسير الآية أيضاً بقوله الله تعالى ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ هذا فى شأن فرعون حيث قال لأهل مصر ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وفى مقام آخر قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ فلم يراجعوه بل وافقوه وأطاعوه فيما قال، لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله فيبين الآية أن العبادة التى كانت تصرف لفرعون هى الطاعة والحكم والأمر والنهى والتشريع وليست نسك وشعائر وصلوات كما تبين أجهزة الإعلام تليساً منها على العامة والجهال، هذا وقد ذهب إلى هذا الاختيار لمعنى العبادة المستنبط من الآية موضوع الشرح جمع غفير من السلف الصالح منهم ابن كثير كما تقدم حيث قال «وعبادته وهى طاعته فعل المأمور وترك المحظور وذلك حقيقة دين الإسلام لان معنى الإسلام الاستسلام لله تعالى المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع.

وتقدم أن صرح ابن تيمية بها فقال: هى طاعة الله بامثال ما أمر به على ألسنة الرسل وتقدم ذلك فى أول تعريف العبادة .

(١) وإن كنا نسمع فى هذا العصر أن بعض الناس يصلى للشيطان وبعده عبادة ضريحة سواء مانسح عنهم فى العراق أو إسرائيل ولها بعض المريدين هنا من أبناء مصر الجديدة.

(٢) إبراهيم : ٢٢

● عبادة الدنيا والزوجة والدرهم والدينار وغيرهما:

ويزداد الاختيار تأييداً بعد هذا الفهم السلفي المجمع عليه المعنى العبادة بقوله الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ففى هذه الآية جعل الله كلمة حكم مرادفة لكلمة العبادة والعبادة مرادفة لكلمة حكم مما يؤيد اختيار ابن تيمية لتفسير الآية كما جاء عن على ومجاهد .

وكذلك من السنة لحديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ «تعس عبدالدينار، وتعس عبد الدرهم، وتعس عبد الخميصة، وتعس عبد الحميلة إن اعطى رضى؟ وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله اشعث راسه، مغبرة قدماءه إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة، وإن كان فى الساقاة كان فى الساقاة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع» (١).

قال ابن تيمية: فسماه النبى ﷺ عبدالدينار والدرهم، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر فيه ماهو دعاء وخبر وهو قوله تعس وانتكس وإذا شيك فلا أنتقش، وهذه حال من أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولاخلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال . وقد وصف ذلك بأنه إن أعطى رضى وأن منع سخط كما قال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (٢). فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة، أو نحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضى، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية فى الحقيقة هو رق القلب وعبوديته أهـ (٣) .

- ويؤيد هذا أيضاً حديث عائشة «من أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ» (٤) فهذا هو المتعوس الذى لم ينل رضا الله ولا رضا الناس وكذلك كل من جعل ولائه لغير الله أو ركن لغير الله ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (٥) الآية فهو يرضى الظلمة رجاء الأمن والنصرة - واستعبده، فهو عبده إلى أن قال: وهكذا

(١) سيأتى تخريجه .

(٢) التوبة: ٦٠ .

(٣) نقلاً عن كتابنا «فقه الخطابة» الطبعة الثانية (ص ١٨٣ - ١٨٧)

(٤) سيأتى تخريجه .

(٥) هود : ١١٣

أيضاً طالب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه. وهذه الأمور نوعان، فمنها ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشربه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه فيكون المال عنده، يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه من غير أن يستعبده فيكون هلوياً. وفيها ما لا يحتاج إليه العبد، فهذه ينبغي أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها وربما صار مستعبداً معتمداً على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ
 تعس عبدالدرهم، تعس عبدالدينار، وتعس عبدالخميصة، وتعس عبدالخميصة^(١) وهذا هو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياه رضى، وإن منعه إياها سخط. وإنما عبدالله من يرضيه ما يرضى الله، ويسخط ما يسخط الله، ويحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما يبغض الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادى أعداء الله.
 فهذا الذى استكمل الإيمان . أ. هـ ملخصاً^(٢).

وسياتى مزيد شرح للحديث أن شاء الله .

قال الفقير: والعبودية لهؤلاء لا تتصور أن تكون بتقديم شعائر لهم بل لا تتصور إلا أن تكون طاعة وإتياد.

ومن وحى هذا الفهم للآية قسم ابن القيم فى . . «إعلام الموقعين عن رب العالمين» العبادة إلى نوعين عبادة عامة وهى امتثال الأوامر التى يشترك فيها كل مكلف مثل الخوف من الله والرغبة فيه والتوكل عليه وما شاكل ذلك والعبادة الخاصة وهى الأوامر الخاصة ببعض المكلفين دون بعض مثل العبادة الخاصة بالحكام فهى تطبيق أمر الله عز وجل وإقامة حدوده وما شاكل ذلك.

وجماع هذا الفهم فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فكما أن الصلاة والنسك لا يبد وأن تكون لله على وفق ما شرع كذلك الحياة والمات يكونا لله على ما وفق ما شرع.

فهذا هو الفهم الكامل للعبادة وكمال الدين ويزداد الأمر إيضاحاً بما قرره صاحب كتاب «المفاهيم». فقال:

كان المفهوم الصحيح من قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ومن

(١) تقدم وسياتى تخريجه

(٢) تيسير العزيز الحميد (٥٤٠)

ثم لم ينحصر مفهوم للعبادة في حس الأجيال الأولى أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله كما فهموا العبادة في حسهم في نطاق الشعائر التعبدية وحدها، كما انحصر في حس الأجيال المتأخرة التي جاءت بفهم للإسلام غريب عن الإسلام. إن شعائر التعبد لا يمكن بدهاة أن تكون هي كل «العبادة» المطلوبة من الإنسان. فما دامت غاية الوجود الإنساني كما تنص الآية الكريمة محصورة في عبادة الله. فأني يستطيع الإنسان أن يوفى العبادة المطلوبة بالشعائر التعبدية فحسب؟! كم تستغرق الشعائر من اليوم واللييلة؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان، وبقية العمر؟!.

وبقية الطاقة، وبقية الوقت؟ اين تنفق وأين تذهب؟ تنفق في العبادة أم في غير العبادة؟ وإن كان في غير العبادة فكيف تتحقق غاية الوجود الإنساني التي حصرتها الآية حصراً كاملاً في عبادة الله؟ وكيف يجوز للإنسان من عند نفسه أن يجعل لوجوده - أو لجزء من وجوده - غاية لم يأذن بها الله؟ إن الإنسان لا يستطيع - مهما حاول - أن يقضى واجب العبادة المفروض عليه نحو الله من خلال الشعائر التعبدية وحدها - من صلاة وصيام وزكاة وحج.. ليس الإنسان ملكاً... ولن يكون. والملائكة - وخدمهم فيما نعلم - هم ذلك الخلق النوارنى الشفيف الذى يسبح الليل والنهار لا يفترون ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٦) ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (١) وهم - وخدمهم الذين لا يعصون الله فى أمر من الأمور ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أ. هـ..

وقد طبق السلف الصالح هذه الآية بهذا الفهم أيضاً لذا يؤثر عن بعضهم انه كان يقول إنى لا احتسب نومتى كما احتسب قومتى يعنى كما يصلى قيام الليل فيحتسب قيامه لله كذلك يجعل نومته لله لانه ما نام إلا امتثال لأمر الرسول «إن لبدنك عليك حق» (٢) وكذلك طبقوه فى جماع الزوجة وإطعامه إياها حتى صرح بذلك الرسول ﷺ فقال «إن فى بضع أحدكم صدقة قيل يارسول يأتى الرجل منا شهوته ويأخذ على ذلك اجراً قال: «أرايت إن وضعها فى حرام» (٣) أى أرايته خالف الأمر ولم يمثل أكان مأزوراً أم مأجوراً وإن كان مأزوراً بالمخالفة فلا بد أن يكون مأجوراً بالامتثال والطاعة التى هى عين العبادة.

(١) الأنبياء ١٩ - ٢٠.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٩٧٦)، ومسلم فى الصيام (٣٩/٨ - النووى) عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٢ - بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» (٢٢٨)، ومسلم (٩١/٧ - الزكاة)

انظر «رياض الصالحين» (١٢١ - بتخريجنا).

وقال صاحب الظلال: (١) ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التى هى غاية الوجود الإنسانى أو التى هى وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلية فى مدلول العبادة قطعاً.

وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن فى أمرين رئيسيين

[الأول]: هو استقرار معنى العبودية لله فى النفس. أى استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً . وعبداً يَعْبُد، ورباً يُعْبَد. وأن ليس وراء ذلك شىء ؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار، ليس فى هذا الوجود إلا عابد ومعبود؛ وإلا رب واحد والكل له عبيد.

[والثانى]: هو التوجه إلى الله بكل حركة فى الضمير، وكل حركة فى الجوارح ، وكل حركة فى الحياة التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر ؛ ومن كل معنى غير معنى التبعيد لله.

وبهذا وذلك يتحقق معنى العبادة؛ ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهد فى سبيل الله، والجهد فى سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله . . كلها عبادة؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التى خلق الله الجن والإنس لها؛ وكلها خضوع للناموس العام الذى يتمثل فى عبودية كل شىء لله دون سواه.

عندئذ يعيش الإنسان فى هذه الأرض شاعراً أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى، جاء لينهض بها فترة طاعة لله وعبادة له لا أرب له هو فيها، ولا غاية له من ورائها، إلا الطاعة، وجزاؤها الذى يجده فى نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله، ومن أنس برضى الله عنه، ورعايته له. ثم يجده فى الآخرة تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً.

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقاً. يكون قد فر من أوهاق هذه الأرض وجراذيبها المعوقة ومغرياتها الملتفة. ويكون قد تحرر بهذا الفرار. تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال. وخلص لله، واستقر فى الوضع الكونى الأصيل: عبداً لله. خلقه الله لعبادته. وقام بما خلق له. وحقق غاية وجوده. فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة فى الأرض ، وينهض بتكاليها، ويحقق أقصى ثمراتها؛ وهو فى الوقت ذاته نافض يديه

منها؛ خالص القلب من جواذبها ومغرياتها. ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها، ثم الفرار إلى الله منها! ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها. فلتكن النتائج ماتكون. فالإنسان غير معلق بهذه النتائج. إنما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال؛ ولأن جزاءه ليس في نتائجها، إنما جزاؤه في العبادة التي أداها. أ. هـ.

● احتراز:

قد يفهم مما سبق في شرح معنى العبادة وأنها الطاعة التي تصرف إلى الله عزوجل وأنها لو صرفت لغيره كان ذلك شركاً فقد يفهم مما سبق أن أى طاعة تقدم لغير الله فهي شرك مخرج عن الملة لأنها عبادة قُدمت لغير الله، نعم هذا الذى فعل هذا لاشك أن له حظ ونصيب من الآيات التي تُبين عبادة الهوى وعبادة الشيطان ذلك لأن ابن تيمية قال: إن الإيمان أصل وله شعب والكفر أصل وله شعب فكما أن الطاعات من شعب الإيمان فالمعاصي من شعب الكفر.

وقال ابن عثيمين: فالمعاصي من حيث المعنى العام أو الجنس العام يمكن أن نعتبرها من الشرك، وأما بالمعنى الأخصو فتقسم إلى أنواع:

(١) شرك أكبر. (٢) شرك أصغر.

(٣) معصية كبيرة (٤) معصية صغيرة. أهـ.

لكن متى يخرج بهذا الحظ من الدين ومتى لا يخرج؟

يخرج إذا كانت هذه الطاعة منبعا للإعراض والاستكبار على أوامر الله عزوجل

كمعصية إبليس حيث قال تعالى عنها: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١) أما إذا كانت المعصية لله عزوجل التي صارت طاعة لغيره أو عبادة له إذا كانت منبعا الشهوة فهذه لاتخرج من الملة أو من الدين وذلك كمعصية آدم حينما قبل حكم الله ولم يردده وارتضى به ولكن لغلبة الشهوة وإستدلال الشيطان له وقع فى طاعته ومعصية الله لكن هذا الحظ الذى ناله من عبادة الشيطان لايزيد على كونه معصية لله ولم يخرج من الملة به لأنه لم يرد ولم يستكبر ولم يستحل فلذلك لم يسمه الله بالكفر كما وسم إبليس به، وهذا كله فى فاعل المعصية. والله تعالى أعلم.

(١) البقرة : ٣٤.

مسألة (١):

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الجان المؤمنين: هل هم مخاطبون «بفروع الإسلام» كالصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات؟ أو هم مخاطبون بنفس التصديق لا غير؟

فأجاب:

لا ريب أنهم مأمورون بأعمال زائدة على التصديق، ومنهون عن أعمال غير التكذيب؛ فهم مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم، فإنهم ليسوا بمماثلين للإنس في الحد والحقيقة؛ فلا يكون مأموروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس في الحد؛ لكنهم مشاركون الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي والتحليل والتحريم. وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين.

وكذلك لم يتنازعو أن أهل الكفر والفسوق والعصيان منهم يستحقون لعذاب النار، كما يدخلها من الآدميين؛ لكن تنازعوا في أهل الإيمان منهم؛

● مسألة

وجه تقديم الجن على الإنس في الآية:

قال الرازي: (٢) فإن قيل تقديم الجن على الإنس لأية حكمة؟ نقول هو أن العبادة سرية وجهرية، وللسرية فضل على الجهرية لكن عبادة الجن سرية لا يدخلها الرياء العظيم، وأما عبادة الإنس فيدخلها الرياء فإنه قد يعبد الله لأبناء جنسه، وقت يعبد الله ليستخبر من الجن أو مخافة منهم ولا كذلك الجن أ.هـ.

قال الفقير: ليس هناك دليل على أن عبادة الجن سرية وليس كوننا لانراهم لا يعنى ذلك أنهم لا يرى بعضهم بعضاً، فتحقق فيهم ما تحقق في الأنس. وإن كان يقصد سرية بالنسبة لنا فهذا لا يكون عليه إنما التعويل على الواقع بينهم والله أعلم.

قال الشوكاني: (٣) ووجه تقديم الجن على الإنس ما هنا تقدم وجودهم.

قال الفقير: وهو مشهور عن كثير من المفسرين كابن عباس وغيره وهو أولى من قول الرازي.

(إشكال):

قال الرازي (٤): قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ

(٢) التفسير الكبير ١٤/٢٨/٢٣٣

(١) مجموع الفتاوى ٤/٢٣٧-٢٣٣

(٤) التفسير الكبير ١٤/٢٨/٢٣٤

(٣) فتح القدير ٥/٩٢

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا» (١) وقال (ليعبدون) فهل بينهما اختلاف؟ نقول ليس كذلك فإن الله تعالى علل جعلهم شعوباً بالتعارف، وههنا علل خلقهم بالعبادة وقوله هناك ﴿أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ﴾ دليل على ما ذكره ههنا وموافق له، لأنه إذا كان اتقى كان أعبد وأخلص عملاً، فيكون المطلوب منه أتم فى الوجود فيكون أكرم وأعز، كالشئ الذى منفعتة فائدة، وبعض أفراده يكون أنفع فى تلك الفائدة، مثاله الماء إذا كان مخلوقاً للتطهير والشرب فالصافى منه أكثر فائدة فى تلك المنفعة فيكون أشرف من ماء آخر، فكذلك العبد الذى وجد فيه ما هو المطلوب منه على وجه أبلغ أ هـ .

● إشكال قريب من الذى قبله

قال الشنقيطى: (٢) اعلم أن الآيات الدالة على حكمة خلق الله للسموات والأرض وأهلها وما بينهما قد يظن غير المتأمل أن بينهما اختلافاً، والواقع خلاف ذلك. لأن كلام الله لا يخالف بعضه بعضاً، وإيضاح ذلك أن الله تبارك وتعالى ذكر فى بعض الآيات أن حكمة خلقه للسموات والأرض هى إعلام خلقه بأنه قادر على كل شئ، وأنه محيط بكل شئ علماً، وذلك فى قوله تعالى فى آخر الطلاق: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٣).

وذكر فى مواضع كثيرة فى كتابه أنه خلق الخلق ليبين للناس كونه هو المعبود وحده، كقوله تعالى ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٤)، ثم أقام البرهان على أنه إله واحد بقوله بعده: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٥) لما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ (٦) بين أن خلقهم برهان على أنه المعبود وحده بقوله بعده: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) أضواء البيان ٧/٤٤٦، ٤٤٧ .

(٣) الطلاق : ١٢ .

(٤) البقرة : ١٦٣ .

(٥) البقرة : ١٦٤ .

(٦) البقرة : ٢١ .

وذكر في بعض الآيات أنه خلق السماوات والأرض ليبتلئ الناس، وذلك في قوله ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (١).

وذكر في بعض الآيات أنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم وذلك في قوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ (٢) وذكر في آية الذاريات هذه أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فقد يظن غير العالم أن بين هذه الآيات اختلافاً مع أنها لا اختلاف بينها، لأن الحكم المذكور فيها كلها راجع إلى شيء واحد، وهو معرفة الله وطاعته ومعرفة وعده ووعيده فقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) وقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ (٤) راجع إلى شيء واحد هو العلم بالله، لأن من عرف الله أطاعه ووحده.

وهذا العلم يعلمهم الله إياه ويرسل لهم الرسل بمقتضاه ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، فالتكليف بعد العلم، والجزاء بعد التكليف، فظهر بهذا اتفاق الآيات لأن الجزاء لا بد له من تكليف، وهو الابتلاء المذكور في الآيات والتكليف لا بد له من علم، ولذا دل بعض الآيات على أن حكمة الخلق للمخلوقات هي العلم بالخالق، ودل بعضها على أنها الابتلاء، ودل بعضها على أنها الجزاء، وكل ذلك حق لا اختلاف فيه، وبعضه مرتب على بعض أهـ.

ثم قال في موطن آخر^(٥): وإذا تقرر أن قوله تعالى ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (٦) معناه أنه خلقهم لسعادة بعض وشقاوة بعض، كما قال ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ (٧) الآية وقال ﴿هُوَ

(١) هود: ٧

(٢) يونس: ٤.

(٣) الطلاق: ١٢.

(٤) البقرة: ٢١

(٥) أضواء البيان: ١٠/١١٠ و١١١.

(٦) هود: ١١٩

(٧) الأعراف: ١٧٩.

الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴿١﴾ فلا يخفى ظهور التعارض بين هذه الآيات مع قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: ونقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان: أن معنى الآية ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى يعبدنى السعداء منهم ويعصينى الأشقياء، فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التى هى عبادة الله حاصله بفعل السعداء منهم. كما أشار له قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (٢).

وغاية ما يلزم على هذا القول أنه أطلق المجموع وأراد بعضهم، وقد بينا أمثال ذلك من الآيات التى أطلق فيها المجموع مراداً بعضه فى سورة الأنفال.

الوجه الثانى: هو ما رواه ابن جرير عن ابن عباس واختاره ابن جرير أن معنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى إلا ليقرؤا إلى بالعبودية طوعاً أو كرها (٣) لأن المؤمن يطيع باختياره، والكافر مذعن متقاد لقضاء ربه جبراً عليه.

الوجه الثالث: ويظهر لى أنه هو الحق، لدلالة القرآن عليه: أن الإرادة فى قوله ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إرادة كونية قدرية والإرادة فى قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إرادة شرعية دينية، فبين فى قوله ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، وقوله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ أنه أراد بإرادته الكونية القدرية صيرورة قوم إلى السعادة، وآخرين إلى الشقاوة.

وبين بقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أنه يريد العبادة بإرادته الشرعية الدينية من الجن والإنس، فيوفق من شاء بإرادته الكونية فيعبده ويخذل من شاء فيمتنع من العبادة.

ووجه دلالة القرآن على هذا أنه تعالى بينه بقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ

(١) التغابن: ٢.

(٢) الأنعام: ٨٩.

(٣) تقدم تخريجه. فى تفسير: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

اللَّهِ ﴿١﴾ فعمم الإرادة الشرعية بقوله ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ وبين التخصيص فى الطاعة بالإرادة الكونية بقوله ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فالدعوة عامة والتوفيق خاص .

وتحقيق النسبة بين الإرادة الكونية القدرية والإرادة الشرعية الدينية أنه بالنسبة إلى وجود المراد وعدم وجوده، فالإرادة الكونية أعم مطلقاً . لأن كل مراد شرعاً يتحقق وجوده فى الخارج إذا أريد كوناً وقدرأً، كإيمان أبى بكر، وليس يوجد ما لم يرد كوناً وقدرأً ولو أريد شرعاً كإيمان أبى لهب، فكل مراد شرعى حصل فبالإرادة الكونية وليس كل مراد كونى حصل مرادأً فى الشرع .

وأما بالنسبة إلى تعلق الإرادتين بعبادة الإنس والجن لله تعالى، فالإرادة الشرعية أعم مطلقاً والإرادة الكونية أخص مطلقاً، لأن كل فرد من أفراد الجن والإنس أراد الله منه العبادة شرعاً ولم يردها من كلهم كوناً وقدرأً، فتعم الإرادة الشرعية عبادة جميع الثقلين، وتختص الإرادة الكونية بعبادة السعداء منهم كما قدمنا من أن الدعوة عامة والتوفيق خاص . كما بينه تعالى بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢) فصرح بأنه يدعوا الكل ويهدى من شاء منهم .

وليست النسبة بين الإرادة الشرعية والقدرية العموم، لخصوص من وجه بل هى العموم والخصوص المطلق، كما بينا إلا أن إحداهما أعم مطلقاً من الأخرى باعتبار، والثانية أعم مطلقاً باعتبار آخر، كما بينا . والعلم عند الله تعالى .

مسئلة:

والآية تدل على أن الله تعالى منفرد بخلق كل شىء .

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن: (٣) فيه أعظم دليل على أنه المنفرد للخلق، لأنه - تعالى - ذكر . بصيغة الأفراد وهو كذلك، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (٥) ففيه ردٌ شاف على المجوس، حيث

(٢) يونس : ٢٥

(١) النساء : ٦٤ .

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٤٦/٤٨ .

(٤) الزمر : ٦٢

(٥) الأعراف : ٥٤ .

ذهبت إلى تقديس البارى عن تخليق الشر على زعمهم، كالجابرة، والظلمة، والأشياء
المفسدة، والسباع، والحيات، وأشباهها، مما هو مضر على الإطلاق، وصاروا كالمستعبد من
الرمضاء إلى النار، أرادوا تقديس البارى عن تخليق الشر، ووقعوا فى شرك الربوبية،
فجعلوا منها للبارى تعالى، وجعلوا منها لإبليس عدو الله فأفضى ذلك إلى الشرك
والتعجيز، والقول بأن من شاء منهم فتنفذ مشيئته، والبارى لم تنفذ مشيئته. ومعلوم
عند كل عاقل بالضرورة أن أخص صفات الربوبية القدرة، وتبعهم على ذلك جماعة
من ينتسب إلى الإسلام، وهم المعتزلة، فقالوا: تقديس الله عن تخليق المعاصى،
وتكوين الزنا، واللواط، وإثبات الكفر والشرك، وإرادة قتل الأنبياء. فلزمهم ما لزم
المجوس من الشرك، وأهل الحق يقولون: هو الله وحده فى ربوبيته، وعبادته، وأفعاله،
لاشريك له فى تخليقه، ولانظير له فى تكوينه، ولا راد لإرادته، ولا مضاد لمشيئته،
ولا يعجز عن شىء، ولا ينفذ عليه أمر حى.

وأما تخليق هذه الأشياء، فالنظر فيه من وجوه:

أحدها: إن قصرت عقولنا عن إدراك الحكمة فيها لاتعجز عن إدراك أن الإله
لايوصف بالعجز، فعلينا أن نعمل بالقضية المدلول علماً، ولانتركها لمأخذ لانقف عليه.

الثانى: أن فيها ضرراً وفساداً إضافياً لذاتياً فالحية لااضرر فى ذاتها بل فى ريقها، كما
يضرها ريقنا وريق الصائم يميت الله العقر ببه فكان ريقنا سبباً لضرر الحيات
والعقارب.

والثالث: فيها منافع من وجوه كثيرة، كالترىاق المتخذ من لحوم الأفاعى دافع ضرر
السموم، وغير ذلك من الفوائد، إن أردتها انظر إلى كتب الطب.

الرابع: إظهار القهر تذكرة للعذاب والنار، كما جعل الصورة الحسنة، والبساتين
المزهرة، تذكرة من الجنة، استدعاء إلى الطاعة، وزجراً عن المعصية.

الخامس: تبغيض الدنيا وتكدير عيشها والتشويق إلى مفارقتها.

السادس: إظهار الاستغناء عن الخلق وعدم الالتفات إليهم أهـ.

وسياتى مزيد شرح هذا الكلام فى أبواب الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

مناسبة الآية للتوحيد.

قال الشنقيطي (٢): ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه بعث في كل أمة رسولا بعبادة الله وحده، واجتناب عبادة ماسواه. وهذا هو معنى «لا إله إلا الله» لأنها مركبة من نفى وإثبات، فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، وإثباتها هو إفراده جل وعلا بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على السنة رسله عليهم صلوات الله وسلامه.

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٣) ودلت هذه الآية على الحكمة في إرسال الرسل: دعوتهم أمهم إلى عبادة الله وحده والنهي عن عبادة ما سواه، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين، وإن اختلفت شريعتهم، كما قال تعالى ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (٤) وأنه لا بد في الإيمان من عمل القلب والجوارح أهد.

قال ابن عثيمين (٥) ودلالة الآية على التوحيد: أن الأصنام من الطواغيت التي تُعبَد من دون الله.

وقال أيضاً ووجه الاستشهاد بهذه الآية لكتاب التوحيد: أنها دالة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أرسلوا به؛ لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

قال القرعاوي (٦) حيث دلت الآية الكريمة على أن عبادة الله لا تصلح إلا إذا كفر بما سواه.

قال الفقير: وقول القرعاوي هو ما قصده المصنف فعلاً ويتضح ذلك من كلامه كما سيأتي في كتابه.

(١) النحل: ٣٦.

(٢) أضواء البيان» ٣/ ٢٠٢.

(٣) فتح المجيد ٢٦.

(٤) المائدة ٤٨.

(٥) «القول المفيد» ١/ ٣١ و ٣٢.

(٦) «الجديد» ٢٢.

الإعراب:

قال محيي الدين درويش: (١) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ الواو عاطفة و اللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وبعثنا فعل وفاعل وفي كل أمة متعلقان ببعثنا ورسولاً مفعول به .

﴿أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أن يجوز أن تكون مصدرية وهي مع مدخولها نصب بترغ الخافض والجار والمجرور متعلقان ببعثنا ويجوز أن تكون مفسرة لأن البعث فيه معنى القول وأعبدوا فعل أمر وفاعل ولفظ الجلالة مفعول به واجتنبوا الطاغوت فعل أمر وفاعل ومفعول به أهـ.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (٢) معنى الآية أن الله تعالى يخبر أنه بعث في كل أمة، أى فى كل طائفة وقرن من الناس رسولاً بهذه الكلمة ﴿أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أى اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه، فلماذا خلقت الخليقة وأرسلت الرسل، وانزلت الكتب. كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَثَابٌ﴾ (٤) وهذه الآية معنى قول لا إله إلا الله، فإنها تضمنت النفى والإثبات كما تضمنته لا إله إلا الله، ففى قوله ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الإثبات، وفى قوله ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النفى فدللت الآية على أنه لا بد فى الإسلام من النفى والإثبات، فثبت لله وحده وينفى عبادة ما سواه وهو التوحيد الذى تضمنته ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (٥) وهذا مؤدى قول الطبرى وابن الجوزى والرازى وغيرهم من أهل التفسير كالشقيطى.

تنبيه: سيأتى فى باب أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان، وباب: ما جاء فى السحر، وباب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾، من هذا الكتاب، سيأتى تفسير الطاغوت من القرآن والسنة، وأقوال المفسرين، فستبع هذه المواضع مع هذه المواضع إن شاء الله تعالى.

(٣) الأنبياء : ٢٥ .

(٢) النحل ٣٦

(١) إعراب القرآن / ٢٩٧

(٥) الكافرون : ١ .

(٤) الرعد: ٣٦

قوله: ﴿الطَّاعُوتُ﴾.

فعلوت من طغى يطغى ويطغون: اذا جاوز الحد: قال سيويوه: هو اسم يذكر مفرد: أى اسم جنس يشمل القليل والكثير وقال أبو على الفارس إنه مصدر كرهبوت وجبروت يوصف به الواحد والجمع، وقلبت لامة إلى موضع العين وعينه إلى موضع اللام كجبن وجذب، ثم تقلب الواو ألفاً لتحركها وتحرك ما قبلها، فقيل طاغوت واختار هذا القول النحاس. وقيل أصل الطاغوت فى الفقه مأخوذ من الطغيان يؤدى معناه من غير اشتقاق كما قيل لآلىء من اللؤلؤ. وقال الميرد: هو جمع قال ابن عطية: وذلك مردود.

قال الجوهري ، والطاغوت : الكاهن والشیطان وكل رأس فى الضلال وقد يكون واحداً قال الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ (١) وقد يكون جمعاً قال الله تعالى ﴿أولياؤهم الطاغوت﴾ والجمع الطواغيت: أى فمن يكفر بالشیطان أو الاصنام أو أهل الكهانة وراءوس الضلالة أو بالجميع قوله ﴿ويؤمن بالله﴾ عزوجل بعد ما تبين له الرشد من الغى فقد فاز وتمسك بالحبل الوثيق أى المحكم.

وجاء فى «جامع البيان» وأرى أن أصل الطاغوت الطغوت من قول القائل طغا فلان يطغو إذا عدا قدره فتجاوز حده كالجبروت من التجبر والحلبوت من الحلب ونحو ذلك من الإسماء التى تأتى على تقدير فعلوت بزيادة الواو والتاء ثم نقلت لامة أعنى لام الطغوت فجعلت له عيناً وحولت عينه فجعلت مكان لامة كما قيل جذب وجبذ وجابذ وجاذب وصاعقة وصاقعة وما أشبه ذلك من الأسماء التى على هذا المثال (٢).

الطاغوت اصطلاحاً

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: - الجبت السحر، والطاغوت الشيطان (٣). وقال جابر كانت الطواغيت التى يتحاكمون إليها، فى جهينة واحد، وفى أسلم واحد، وفى كل حى واحد، كهان ينزل عليهم الشيطان (٤).

(١) النساء: ٦٠

(٢) جامع البيان (١٣/٣)

(٣) علقه البخارى فى التفسير (٨/١٠٠ - الفتح) أخرجه ابن جرير (٥/٨٣)، وابن ابى حاتم (٥٤٤٩) وانظر فتح المجيد (ح ٤٨١) بتخریجنا وأيضاً انظر «فتح القدير» (٣٥٠٠ بتخریجنا)

(٤) [صحیح] علقه البخارى فى التفسير (٨/١٠٠ - الفتح) أخرجه ابن ابى حاتم (٥٤٥٢) بتخریجنا انظر فتح المجيد (ح ٢٥٥) بتخریجنا.

وقال ابن عباس الجبت الاصنام، والطواغيت الذين كانوا يعبرون عن الاصنام بالكذب^(١).

قال : وزعم رجال أن الجبت الكاهن، والطاغوت رجل من اليهود يدعى كعب بن الأشرف ومن طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف^(٢).

قال عكرمة: الجبت بلسان الحبشة شيطان، والطاغوت الكاهن^(٣).

وروى الطبرى عن مجاهد مثل قول عمر وزاد والطاغوت شيطان فى صورة إنسان يتحاكمون إليه^(٤).

وروى الطبرى من طريق سعيد بن جبير وأبى العالية قال: الجبت الساحر والطاغوت الكاهن^(٥).

وقال مالك: كل ماعبد من دون الله تعالى^(٦).

قال ابن تيمية: والجبت السحر، والطاغوت الشيطان والوثن^(٧).

واختار الطبرى أن المراد بالجبت والطاغوت جنس من كان يعبد من دون الله سواء كان صنماً أو شيطاناً جنيّاً أو إنسياً فيدخل فيه الساحر و الكاهن والله أعلم^(٨).

قال ابن جرير: والصواب من القول عندى فى الطاغوت أنه كل ذى طغيان على الله فعبد من دونه إما بقهر منه لمن عبده وإما بطاعة ممن عبده له إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كان ماكان من شىء^(٩).

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٨٣/٤) من طريق العوفى عن ابن عباس، ذكره الحافظ فى «الفتح» (١٠١/٨).

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس، ذكره الحافظ فى الموضوع السابق.

(٣) علقه البخارى فى التفسير (٨/١٠٠ - الفتح)، أخرجه عبد بن حميد بإسناده وصححه ابن حجر فى «الفتح» (٨/١٠٠).

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٨٣٠/٤) عن مجاهد به وذكره السيوطى فى «الدر» (١/٥٨٤) ونسبه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

(٥) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٨٤/٤).

(٦) [صحيح] أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٣/٥٤٥٦/٩٧٦) عن مالك فأنظره بتخريجنا وانظر «الدر» (١/٥٨٤) وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٦) بتخريجنا.

(٧) مجموع الفتاوى (١٧٩/٢٧) (٨) «الفتح» (١٠١/٨).

(٩) جامع البيان ١٣/٣

قال ابن القيم رحمه الله: الطاغوت ماتجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله.

فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله ﷺ إلى الطاغوت ومتابعته (١).

قال المصنف محمد بن عبد الوهاب: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله أه.

وقد استثنى بعض العلماء كالشيخ محمد بن عبد الوهاب من هذا العموم ما عبد وهو غير راض وهذا الاستثناء محمول على استثناءهم من دخول النار؛ لأن من عبد وهو راضى مع من عبده يوم القيامة أى الاتباع والمتبوعين كما ذكر ابن كثير عن أبى إسحاق مرفوعاً «كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده» (٢) لأنهم يعبدون الشياطين. فيفهم أن الاستثناء إنما ذكر من أجل نفي العذاب وليس من أجل نفي العبادة كما هو واضح من قصة ابن الزبيرى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (٣).

قال ابن عثيمين (*): المراد من كان راضياً بعبادتهم إياه، أو يقال: هو طاغوت باعتبار عابديه، لأنهم تجاوزوا به حده، حيث نزلوه فوق منزلته التى جعلها الله له فتكون عبادتهم لهذا المعبود طغياناً؛ لمجاوزتهم الحد بذلك اهـ وسيأتى ذكر ذلك مرة أخرى فى الباب الثانى والعشرين.

فصل

فى كيفية الكفر بالطاغوت

قال الله تعالى مبيّناً الكفر بالطاغوت ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ

(١) ابن القيم فى إعلام الموقعين عن رب العالمين ١ / ٥٠

(٢) ذكره ابن كثير فى «تفسيره» (٣ / ١٩٩) عن ابن إسحاق.

(٣) انظر تفسير ابن كثير فى الموضوع السابق وسيأتى أيضاً تفسير الطاغوت فى باب ما جاء أن بعض هذه

الأمّة تعبد الأوثان.

(*) القول المفيد (١ / ٥٨٧، ٥٨٨).

وَأَجْتَنَّبُوا الطَّاعُوتَ ﴿١﴾ أى اتركوا عبادته واجتنبوها كما قال تعالى أيضاً ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَّبُوا الطَّاعُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ (١) وهذا المعنى القرآنى لكيفية الكفر بالطاغوت هو الذى أجمع عليه السلف - قال الطبري . فمن يجحد ربوبية كل معبود من دون الله فيكفر به ويؤمن بالله يقول ويصدق بالله أنه إلهه وربّه ومعبوده فقد استمسك بالعروة الوثقى .

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ . أى من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ووجد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو أمر .

وقال عبدالله بن عبدالرحمن أبو بطين: إن كان الرجل يقر بأن هذه الأمور الشركية التى تفعل عند القبور وغيرها من دعاء الأموات والغائبين وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات والتقرب إليهم بالنذور والذبايح أن هذا شرك وضلال، ومن انكره هو المحق ومن زينه ودعا إليه فهو شر من الفاعل فهذا يحكم بإسلامه لأن هذا معنى الكفر بالطاغوت والكفر بما يعبد من دون الله (٢) .

وقال سليمان بن عبدالله: بل التوحيد اسم لمعنى عظيم . وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني . وحاصله هو : البراءة من عبادة كل ما سوى الله، والإقبال بالقلب والعبادة على الله، وذلك هو معنى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله وهو معنى لا إله إلا الله (٣) .

وقال ابن عثيمين: ﴿وَأَجْتَنَّبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أى ابتعدوا عنه بأن تكونوا فى جانب وهو فى جانب (٤) .

وهذه المعانى لصفة الكفر بالطاغوت هى المتفقة مع المعنى اللغوى لمادة: كفر، فمعناها يدور حول التغطية والستر والجحود والتكران والبراءة قلت: أى بكفر العبادة التى تقدم للطاغوت وجحدها ونكرانها والبراءة منها وليس معناه - كما تقدم من كلام الشراح والمفسرين - تكفير الطاغوت نفسه فهذا ليس بلازم ولايستفاد من باب الكفر بعبادته .

(١) الزمر: ١٧

(٢) مجموعة الرسائل النجدية ٦٧٩: ٦٨٧ ج القسم الثالث عن رسالة الدر والياقوت .

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ١٣٩ . - وأنظر «فتح المجيد» (١/٢٥) .

(٤) القول المفيد (١/٣٠) .

مسألة: التابع للطاغوت ليس طاغوتاً.

قال ابن عثيمين: فهؤلاء طواغيت والفاعل تابع للطاغوت قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الآية ولم يقل إنهم طواغيت أهر^(١).

فصل

هل تكفير الطواغيت من أصل الدين أم الكفر بهم فقط؟

اعلم رحمك الله وإيأى أن أصل دين الله هو التوحيد ونفى الشريك المعبر عنه فى كتاب الله تعالى فى غير ما آية وفى غير موضع كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(١) وقوله الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٢) وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٥).

فهذه الآيات قد دلت دلالة واضحة على أصل دين الإسلام وهو التوحيد ولا إله إلا الله أو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله أو عبادة الله وحده، فهذه معانى مطردة فى كل آية من الآيات ولا نجد أن هذه الآيات إن تحتمل معنى آخر وهو تكفير الطواغيت أو تكفير من لم يكفرهم والذى يقول بهذا من هذه الآيات فقد حملها ما لا تحتمل واتى بهتان صريح ومثله فى ذلك كمثلى الذى يستدل بقوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ على قطع يد السارق أو ما شاكل ذلك ثم اعلم رحمك الله أنه لو تعددت أسماء لمسمى واحد فلا بد وحتماً أن كل اسم من هذه الأسماء يدل على مسماه دلالة واضحة مثل القمر والهلال والبدر والشهر فكلها دلت على الكوكب الذى يظهر فى السماء فى أول كل شهر وكذلك هذه الآيات برغم اختلاف ألفاظها إلا أنها عبرت تعبيراً واحداً مطرداً عن أصل الدين وهو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فكما قلنا لم نجد

(١) القول المفيد (١/ ٣٠).

(٢) الأنبياء: ٢٥.

(٣) النحل: ٣٦.

(٤) البقرة: ٢١.

(٥) البقرة: ٢٥٦.

(٦) هود: ٥٠.

الآيات عبرت عن تكفير الطواغيت أو تكفير من شك في كفرهم مما يبرهن على أن ذلك ليس من أصل الدين. ولهذا الموضوع بحث مستقل فليرجع إليه - لمن شاء - (*).

فصل

في تقرير ما قد سبق من كلام السلف

ثم اعلم رحمك الله وإياي أنه لو كان تكفير الطواغيت أو تكفير من لم يكفرهم من أصل الدين لكفر السلف بعضهم بعضاً في كثير من المواقف منها مثلاً اختلافهم في أمر الحجاج فمنهم من كفره ومنهم من لم يكفره ومع ذلك لم نسمع عنهم أنهم كفر بعضهم بعضاً من أجل هذه القضية ودليل ذلك ما جاء في كتاب الإيمان لابن أبي شيبة: أخبرنا قبيصة عن سفيان عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال: عجباً لإخواننا من أهل العراق يسمون الحجاج مؤمناً!

ثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن إبراهيم. أنه كان إذا ذكر الحجاج قال: «ألا لعنة الله على الظالمين» (١).

حدثنا أبو بكر بن عباس عن الأجلح عن الشعبي قال: اشهد أنه مؤمناً بالطاغوت كافر بالله يعني الحجاج.

حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن إبراهيم قال: «كفى بمن يشك في أمر الحجاج لحاه الله» (٢).

[قلت]: فانظر كيف يتعجب طاوس من إخوانه أهل العراق من تسميتهم الحجاج مؤمناً، وهو عنده كافر، كذلك يصرح بها الشعبي، ومع ذلك فإن طاوساً رحمه الله لم يكفر أهل العراق، وقال مخاطباً إياهم على أنهم إخوانه، فلو كان تكفير الطواغيت أو تكفير من لم يكفرهم أو شك في كفرهم من أصل الدين لم يتوان طاوس في تكفير أهل العراق والله والمستعان.

فصل من سمى من عبدة من الأصنام طواغيت

أخرج أحمد وابن ماجه عن ميمونة بنت كردم أن أباهما سأل النبي ﷺ فقال يارسول الله انى نذرت أن انحر ببوانه فقال: «أبها وثن أو طاغية قال لا قال: فأوف بنذرك» (٣).

(*) (وهو بحث رفع الالتباس في الحكم على الناس) يسر الله نشره.

(١) هود: ١٨

(٢) الإيمان لابن أبي شيبة ص ٣٢ ٩٥ ٩٨ - وضحها الشيخ الألباني حفظه الله.

(٣) سيأتي تخريجه

روى الحميدى فى «مسنده» عن عائشة . . إنما كان من أهل لمناة الطاغية التى بالمشلل لا يطفون بين الصفا والمروة فأنزل الله عزوجل ﴿أَنْ الصفا والمروة من شعائر الله﴾ (١).

وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها . . ولكنها نزلت فى الإنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون بمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها عند المشلل (٢).

وروى أبو داود عن عثمان بن أبى العاص أن النبى ﷺ أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كان طواغيتهم (٣).

روى البخارى عن سعيد بن المسيب قال البحيرة التى يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة كانوا يسيبونها لألتهم فلا يحمل عليها شيء قال وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبته فى النار كان أول من سيب السوائب» والوصيلة الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل بأنثى ثم تنثى بعد بانثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم أن وصلت إحدهما بالآخرى ليس بينهما ذكر والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامى (٤).

وقد بوب البخارى باب لا يحلف بالله ولا بالطواغيت، وأورد فيه حديث «من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله» (٥).

قال ابن حجر: وأما الطواغيت فوقع فى حديث أخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه عن عبدالله بن سمرة مرفوعاً «لا تحلفوا بالطواغيت ولا بأبائكم» (٦) وفى رواية مسلم وابن ماجه بالطواغى وهو جمع طاغية والمراد الصنم ومنه الحديث الآخر «طاغية دوس» (٧) أى صنمهم سمي باسم المصدر لطغيان الكفار بعبادته لكونه السبب فى طغيانهم وكل من جاوز الحد فى تعظيم أو غيره فقد طغى ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (٨).

(١) الحميدى فى . . مسنده (٢١٩) وانظر «فتح القدير» بتخريجنا

(٢) [صحيح] البخارى (١٦٤٣) وانظر تخريجه فى «فتح القدير» - بتخريجنا

(٣) أخرجه أبو داود (٤٥٠) وضعفه الألبانى .

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٦٢٣ / ٨) (٥) أخرجه البخارى (٦٦٥٠)

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم (١٢٠ / ٦) - إيمان، والنسائى (٧ / ٧) - الصغرى) وابن ماجه (٢٠٩٥)

(٧) سيأتى تخريجه (٨) الحاقه ١١:

ثم قال ابن حجر: واقتصر المصنف على لفظ الطواغيت لكونه الاصل وعطفه على اللات والعزى لاشتراك الكل في المعنى (١).

وفي صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لا تقوم الساعة حتى تضطرب آليات نساء دوس على ذى الخَلْصَة» (٢).

قال البخاري: طاغية دوس التى كانوا يعبدون فى الجاهلية.

قلت: وإطلاق الطواغيت على كل ما يعبد من أصنام وغيرها لاشك يدخل فيه من عبدوهم من الاولياء والأنبياء لأنهم صرحوا بعبادتهم لهم كما صرح القرآن بذلك بل صرحت السيرة بأنهم صنعوا لبعض الانبياء صنماً مثل إبراهيم وهو يستقسم بالأزلام وكذبهم الرسول ﷺ فى فتح مكة فى هذا وهؤلاء دخلوا فى عموم الطواغيت باعتبار عابديهم وتابيعهم ومطبعيهم لأنهم تجاوزوا بهم الحد حيث أنزلوهم منزلة فوق منزلتهم التى جعلها الله لهم فتكون عبادتهم لهذا المعبود واتباعهم لمتبعيهم طغياناً لمجاوزته الحد بذلك (*). وعلى هذا فلا يلزم من الكفر بعبادة من عبد من الانبياء تكفيرهم وكذلك الأولياء والله أعلم.

فصل

فى صور عبادة الطاغوت من القرآن

(١) التحاكم إليه.

لقوله الله تعالى «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا» (٣) هذا إنكار من الله عزوجل على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله كما ذكر فى سبب نزول هذه الآية أنها فى رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما فجعل اليهودى يقول بينى وبينك محمد - ﷺ وذاك يقول بينى وبينك كعب بن الأشرف، وقيل فى جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام أرادوا

(١) «الفتح» (١١/٥٤٥)

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٧١١٦) وانظر «فتح المجيد» (ح ٤٦٣) بتخریجنا.

(*) أنظر القول المنيد للشيخ ابن عثيمين (١/٣٠).

(٣) النساء : ٦٠

أن يتحاكموا إلى أحكام الجاهية والآية أعم من ذلك فإنها ذامة كل من عدل عن كتاب الله وسنة رسوله. وتحاكموا إلى سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هذا ولذلك قال الله تعالى ﴿وَأِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفَىٰ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾ (١) الآية.

وسياتي في الباب الثامن والثلاثين من هذا الكتاب تفصيل ذلك في باب قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾

(٢) القتال في سبيله.

لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ أي أن الكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان.

وفي «صفوة التفاسير» قال أما الكافرون فيقاتلون في سبيل الشيطان الداعي إلى الكفر والطغيان، فلذلك سئل ﷺ «الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل رياء» أي ذلك في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى فهو في سبيل الله» (٢).

(٣) العبادة من دون الله.

ومن أصرح الصور أنه عبء لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ وأيضاً ﴿وجعل منهم القردة والخنازير وعبداء طاغوت﴾ وأيضاً ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ففي تفسير آية الزمر نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وسلمان الفارسي (٣) والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم فمن اجتنب عبادة الطاغوت والأوثان وأتاب إلى عبادة الرحمن فهؤلاء هم الذين لهم البشرية في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ولقد وسم الله تعالى عبدة الطاغوت بأخس وأحط وسم فهم احط من القردة والخنازير فالله - عزوجل - مسخ أقواماً قردة ومسخ أقواماً خنازير ومسخ أقواماً. (عبدة الطاغوت) مسخ ثالث.

وأيضاً هذا المسخ يصدق على تارك الصلاة لأنه أحط من الحمر والبهائم والنصوص دلت على ذلك (*).

(١) النور: ٥٠

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (٤٩/١٣) - النووي

وانظر رياض الصالحين» (٩ - بتخريننا)

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٦٠٧/٥) ونسبه لابن جرير، وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم

وانظر تمام تخرجه في تفسير ابن أبي حاتم. بتخريننا.

(*) وانظر كتابي «فته الخطابة وزاد الخطيب» (خطبة المسخ الثالث وتارك الصلاة).

(٤) الموالاة والحب والنصرة والقرب.

أيضاً من صور عبادته أنه يحب ويتولى من دون الله ويخرج أوليائه من النور إلى الظلمات ﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أى أن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك .

● من فوائد الآية:

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن (١) .

فى قوله تعالى ﴿ولقد بعثنا﴾ الآية . فوائد لمن تدبرها:

الأولى : أنه تعالى بعث فى كل أمة رسولاً ، ولاخصص أمة دون أمة ، لإظهار عدله ، وإتمام حجته على الناس كلهم .

الثانية : أنه ماتركهم هملاً ، بل أرسل إليهم رسلاً يرشدونهم إلى التى هى أقوم وأصلح من أمر دينهم الذى به سعادة الأبدية .

الثالثة : أنه تعالى ماخلقهم عبثاً ، بل لعبادته خلقهم قال تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ (٢) نزه الله نفسه عن خلقهم عبثاً وتركهم هملاً لايبعث الرسل إليهم ولاينزل معهم الكتب ولايبين لهم مراده .

الرابعة : اختلاف الناس فى الألوهية أى فى أفعالهم ، ليس اختلافهم فى الربوبية ، أى أفعال الله ؛ لأنه لو كان الاختلاف فى الربوبية لذكره الله تعالى كما ذكر اختلافهم فى الألوهية كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ (٤) وقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (٥) فبين الله تعالى

(١) فتح الله الحميد المجيد ٦٢ - ٦٤ .

(٢) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦ .

(٣) النحل : ٣٦ .

(٤) هود : ١ ، ٢ .

(٥) الكهف : ١١٠ .

أن الذى أوجب إرسال الرسل شرك الألوهية، وهوشرك فى العبادة، ليس شركاً فى الربوبية، بل إن الكفار مقرون بالربوبية، كما حكى الله تعالى عنهم قال تعالى ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٣) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٥) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦) وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَبْدَأُ الْحَيَاةَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَلَا يُجَارِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (٨).

الخامسة: أن اجتناب الطواغيت فرض وحق على العباد، وكما أن عبادة الله فرض وحق على العباد، ولا يتم التوحيد إلا باجتناب الطواغيت، كما قال الله تعالى عن إمام الخنفاء ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٩) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (١٠) وقال تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ (١١) هذا بل الكفر بالطواغيت مقدم على الإيمان بالله تعالى عقلاً ونقلاً، أما النقل؛ فقد قال تعالى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ (١٢) وأما العقل؛ فمعلوم بالضرورة أن الصبغ لا يؤثر فى المتدنس والمتوسخ من كل نوع حتى ينظف، أما ترى الصفارين والصباعين أكثر جهدهم فى زوال الأعراض المانعة من الصبغ؟ وهى الأدناس والأوساخ، فكذلك

(٢) يونس: ٣١.

(١) الزخرف: ٩.

(٤) المؤمنون: ٨٤، ٨٥.

(٣) المؤمنون: ٨٦، ٨٧.

(٦) الزخرف: ٢٦، ٢٧.

(٥) المؤمنون: ٨٨، ٨٩.

(٨) البقرة: ٢٥٦.

(٧) الممتحنة: ٤.

الدين والإيمان ينبغي أن يزيل عن القلوب الأوساخ التي وقعت عليها، من عبادة الطواغيت، وحبها أولاً، ثم يصبغ بصبغة الله تعالى وهو التوحيد والإخلاص، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ (١).

قال البيضاوي في «تفسيره»: سماه صبغة لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ، وتداخل في قلوبهم الإيمان تداخل الصبغ الثوب انتهى. وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم.

والسادسة: أن دعوتهم في أصل الدين واحدة، ولا تغاير بين دعوتهم، ولا تخالف بين كلمتهم إلا في الفروع، وهي الشرائع، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ (٢) وقال ﷺ: «نحن الأنبياء أولاد علات أبونا واحد وأمهاتنا متفرقة» (٣).

قال ابن عثيمين (٤) مبيئاً فوائده آخر: -

● والحكمة من إرسال الرسل:

أ- إقامة الحجّة: قال تعالى ﴿رِسَالًا مَبْشُرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾

ب- الرحمة: لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

ج- بيان الطريق الموصل إلى الله تعالى؛ لأنَّ الإنسان لا يعرف ما يجب لله على وجه التفصيل إلا عن طريق الرُّسل.

(١) البقرة: ١٣٨.

(٢) المائدة: ٤٨.

(٣) تقدم تخريجه في أول الكتاب.

(٤) القول المفيد ١/٢٩.

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (١).

● مناسبة الآية للتوحيد (٢).

حيث دلت الآية الكريمة على وجوب إفراد الله بالعبادة

● وقوله «وقضى ربك»

إعرابها (٣).

(وقضى ربك) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان منزلة الوالدين ووجوب معاملتهما من قبل الأبناء معاملة لائقة وقضى ربك فعل وفاعل ومعنى قضى أمر أمرأ قاطعاً وقيل أوصى.

● ما جاء في تفسير الآية من الآثار:

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ قال: التزقت الواو بالصاد، وأنتم تقرؤونها ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ (٤).

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيكم ﷺ «ووصى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه» فالتصقت إحدى الواوين بالصاد، فقرأ الناس ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد (٥).

عن الأعمش قال: كان عبدالله بن مسعود رضى الله عنه يقرأ «ووصى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه» (٦).

عن حبيب بن أبى ثابت قال: أعطانى ابن عباس رضى الله عنه مصحفا فقال: هذا على قراءة أبى بن كعب رضى الله عنه، فرأيت فيه: «ووصى ربك» (٧).

(٢) القرعاوى ٢٤

(١) الإسراء : الآية ٢٣

(٣) إعراب القرآن (٥/٤١١)

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/٢٥٧) ونسبه للفريابى، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأثير فى «المصاحف»

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/٢٥٧ - ٢٥٨) ونسبه لأبى عبيد، وابن منيع، وابن المنذر، وابن

مردويه.

(٦) [منتظم] أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨٦٧٩) وضعفه الهيثمى فى «المجمع» (٧/١٥٥)

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا (ط نزار الباز).

(٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٥/٤٧) (ح ٢٩).

وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٨) بتخريجنا (ط نزار الباز).

عن قتادة قال: فى حرف ابن مسعود رضى الله عنه «ووصى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه»^(١)..

عن الضحاك بن مزاحم أنه قرأها «ووصى ربك» قال: انهم ألصقوا إحدى الواوين بالصاد فصارت قافاً^(٢).

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله «وَقَضَىٰ رَبُّكَ» قال أمر^(٣).

عن مجاهد فى قوله: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» قال: عهد ربك أن لاتعيدوا إلا إياه^(٤).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبري^(٥): وقد اختلفت ألفاظ أهل التأويل فى تأويل قوله «وَقَضَىٰ رَبُّكَ» وإن كان معنى جميعهم فى ذلك واحد.

قال ابن الجوزى^(٦):

ونقل عن الضحاك أنه قال: إنما هى «ووصى ربك» فالتصقت إحدى الواوين بـ «الصاد» وكذلك قرأ أبى بن كعب^(٧)، وأبو المتوكل، وسعيد بن جبير: «ووصى» وهذا على خلاف ما انعقد عليه الإجماع، فلا يلتفت إليه.
قال الرازى^(٨) معلقاً على قراءة «ووصى ربك».

وأعلم أن هذا القول بعيداً جداً لأنه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق إلى القرآن، ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن القرآن وذلك يخرج عن كونه حجة ولاشك أنه طعن عظيم فى الدين.

قلت: ولكن من جمع بين القراءتين أولى كما قال الطبرى وغيره من المعاصرين كالسعدى^(٩) «وقضى ربك» قضاء دينياً وأمرأً شرعياً.

(١) تقدم فى الحديث قبل السابق.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٥٨/٥) ونسبه لأبى عبيد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٣) [منقطع] أخرجه ابن جرير (٤٦/١٥)

وانظر «فتح المجيد» (حـ ٣٠) بتخريجنا

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٥٨/٥) ونسبه لابن المنذر.

(٥) «تفسير الطبرى» (٤٦/١٥) (٦) «زاد المسير» (١٧/٥)

(٧) تقدم قريباً (٨) «التفسير الكبير» (١٠٠/٢٠/١٨٦)

(٩) تيسير الكريم الرحمن (٧٣/٣)

● معنى القضاء.

قال الشنقيطي^(١): وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ معناه أمر والأمر، وأوجب ووصى الاتعبدوا إلا إياه.

وقال صاحب «ظلال التفسير»^(٢) أمر في صورة قضاء . فهو أمر حتمي حتمية القضاء.

قال ابن الجوزي^(٣).

قال ابن الأباري : هذا القضاء ليس من باب الحتم والوجوب، لكنه من باب الأمر والفرض، وأصل القضاء فى اللغة: قطع الشيء بإحكام وإتقان، قال الشاعر يرثى عمر:

قَضَيْتَ أُمُورًا تُمْ غَادِرَتَ بَعْدَهَا بَوَاتِقَ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تُفْتَقِ

قال الرازي^(٤):

القضاء معناه الحكم الجزم البت الذى لايقبل النسخ. والدليل عليه أن الواحد منا إذا أمر غيره بشيء فإنه لايقال إنه قضى عليه، أما إذا أمره أمرا جزما وحكم عليه بذلك الحكم على سبيل البت والقطع، فههنا يقال: قضى عليه ولفظ القضاء فى أصل اللغة يرجع إلى إتمام الشيء وانقطاعه أ. هـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

أقسام القضاء وأنواعه

قال ابن عثيمين^(٥):

قوله ﴿وَقَضَىٰ﴾ قضاء الله - عزوجل - ينقسم إلى قسمين:

١- قضاء شرعي.

٢- قضاء كوني.

فالقضاء الشرعي: يجوز وقوعه من المقضى عليه وعدمه، ولا يكون إلا فيما يحبه الله.

مثال ذلك: هذه الآية ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾؛ فتكون قضى بمعنى:

شرع، أو بمعنى: وصى، وما أشبههما.

(١) أضواء البيان (٣/٣٦٥)

(٢) (٤/٢٢٢١)

(٣) زاد المسير ١٧/٥

(٤) التفسير الكبير ١٠/١٠٠ / ١٨٦

(٥) القول المفيد ١/٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦.

والقضاء الكوني: لا بد من وقوعه، ويكون فيما أحبه الله، وفيما لا يحبه.
مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (١).

فالقضاء هنا كوني؛ لأن الله لا يشرع الفساد في الأرض، ولا يُحبُّه.

إشكال وجوابه

قال ابن عثيمين (٢) إذا قيل: ثبت أن الله قضى كوناً ما لا يحبه؛ فكيف يقضى الله
ما لا يحبه؟

والجواب: أن المحبوب قسمان:

١- محبوب لذاته.

٢- محبوب لغيره.

فالمحبوب لغيره قد يكون مكروهاً لذاته، ولكن يُحبُّ لما فيه من الحكمة والمصلحة؛
فيكون حينئذٍ محبوباً من وجه، مكروهاً من وجه آخر.

مثال ذلك: الفساد في الأرض من بني إسرائيل في حد ذاته مكروه إلى الله؛ لأنَّ الله
لا يُحبُّ الفساد، ولا المُفسدين، ولكن للحكمة التي يتضمنها يكون بها محبوباً إلى الله -
عز وجل - من وجه آخر.

ومن ذلك: القحط، والجذب، والمرض، والفقر؛ لأنَّ الله رحيم لا يُحبُّ أن يؤدي
عباده بشيء من ذلك، بل يريد بعباده اليسر، لكن يُقدره للحكم المُترتبة عليه؛ فيكون
محبوباً إلى الله من وجه، مكروهاً من وجه آخر.

قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ
الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٣).

فإن قيل: كيف يتصور أن يكون الشيء محبوباً من وجه مكروهاً من وجه آخر؟
فيقال: هذا الإنسان المريض يعطى جرعة من الدواء مرةً كريهة الرائحة واللون،

(١) الإسراء ٤

(٢) القول المفيد ١/٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦.

(٣) الروم: ٤١

فيشربها، وهو يكرهها لما فيها من المرارة واللون والرائحة، ويحبها لما فيها من الشفاء، وكذا الطبيب يكرى المريض بالحديدة المحمّاة على النار، ويتألم منها؛ فهذا الألم مكروه له من وجه، محبوب له من وجه آخر.

فإن قيل: لماذا لم يكن قوله: [وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه] من باب القضاء القدرى أجيب بأنه لا يمكن، إذ لو كان قضاء قدرياً لَعَبَدَ الناسُ كلهم ربهم، لكنه قضاء شرعى قد يقع وقد لا يقع. والخطاب فى الآية للنبي ﷺ. لكن قال ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، ولم يقل: «أن لاتعبد»، ونظير ذلك فى القرآن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ (١) فالخطاب الأول للرسول ﷺ والثانى عام؛ فما الفائدة من تغيير الأسلوب؟.

أجيب: إن الفائدة من ذلك.

١- التنبيه؛ إذ تنبيه المخاطب أمر مطلوب للمتكلّم، وهذا حاصل هنا بتغيير الأسلوب.

٢- أن النبي ﷺ زعيم أمته، والخطاب الموجه إليه موجه لجميع الأمة.

٣- الإشارة إلى أن ما حُوِّطَ به الرسول ﷺ فهو له ولائته؛ إلا مادلاً الدليل على أنه مختص به.

٤- وفى هذه الآية خاصة الإشارة إلى أن النبي ﷺ محبوب لارب، معابد لا معبود؛ فهو داخل فى قوله ﴿تعبدوا﴾، وكفى به شرفاً أن يكون عبداً لله - عزوجل -، ولهذا يصفه الله تعالى بالعبودية فى أعلى مقاماته؛ فقال فى مقام التحدى والدفاع عنه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (٢)، وقال فى مقام إثبات نبوته ورسالته إلى الخلق ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ (٣).

وقال فى مقام الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ (٤) ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيَّ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (٥).

(٢) البقرة: ٢٣

(١) الطلاق: ١

(٤) الإسراء: ١

(٣) الفرقان: ١

(٥) النجم: ١٠

قال الشنقيطي^(١): والواقع أن الخطاب الموجه للنبي ﷺ على ثلاثة أقسام.

الأول: قد يتوجه الخطاب إليه ﷺ ولا يكون داخلاً فيه قطعاً، وإنما يراد به الأمة بلا خلاف من ذلك قوله تعالى في بر الوالدين: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(٢)

فكل صيغ الخطاب هنا موجهة للنبي ﷺ وهو قطعاً ليس مراد بذلك لعدم وجود والدين. ولا أحدهما عند نزولها كما هو معلوم.

قلت: لكن الأمة مخاطبة في شخص رسولها.

الثاني: أن يكون خاصاً به لا يدخل معه غيره قطعاً. نحو قوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)

والثالث: هو الشامل له ﷺ ولغيره بدليل هذه الآية يقصد بها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الآية: وأول السورة التي بعدها في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبِعِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾^(٤) فهذا كله خطاب موجه له ﷺ.

وجاء بعدها مباشرة ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بخطاب الجميع ﴿تَحَلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾^(٥) فدلّت أن الآية داخلة في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ وهذا باتفاق أ. هـ. قلت وهذه الآية من هذا القسم الثالث: فتنبه.

قوله ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾

الإعراب:

قال ابن عثيمين^(٦) قوله «أن لاتعبدوا»

(٢) الإسراء: ٢٣، ٢٤.

(٤) التحريم: ١

(٦) القول المفيد ١/٣٣.

(١) أضواء البيان ٨/٢٢٠.

(٣) الأحزاب: ٥٠.

(٥) التحريم: ٢

(أن) هنا مصدرية بدليل حذف النون من تعبدوا، والاستثناء هنا مُفْرَغٌ، لأن الفعل لم يأخذ مفعوله، فمفعوله ما بعد إلا قوله ﴿إِلَّا أَيَّاهُ﴾ ضمير نصب منفصل واجب الانفصال، لأن المتصل لا يقع بعد إلا، قال ابن مالك.

وذواتصال منه ما لا يبدأ ولا يلي إلا اختياراً أبداً

قال محيي الدين درويش^(١) و«أن» يحتمل أن تكون مصدرية فلا نافية وتعبدوا منصوب بها والمصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بقضى وقيل مفسرة لأن قضى فيه معنى القول دون حروفه أو مخففة من الثقيلة فلا على الحالين ناهية وتعبدوا مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وإلا أداة حصر وإياه مفعول
أ. هـ

● من أقوال المفسرين:

قال الطبري^(٢) يعنى بذلك تعالى ذكره حكم ربك يا محمد بأمره إياكم ألا تعبدوا إلا الله فإنه لا ينبغي أن يعبد غيره. أهـ.

قال الرازي^(٣) اعلم أنه لما ذكر في الآية الأولى وهي - ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ - ماهو الركن الأعظم في الإيمان اتبعه بذكر ماهو من شعائر الإيمان وشرائطه وهي أنواع قلت: وذكر نحو ذلك السعدى وسيأتي

ثم قال: (٣) أى الرازي.

قد ذكرنا أن هذه الآية تدل على وجوب عبادة الله تعالى وتدل على المنع عن عبادة غير الله تعالى وهذا هو الحق، وذلك لأن العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لاتليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الانعام، ونهاية الانعام عبارة عن إعطاء الوجود والحياة، والقدرة والشهرة والعقل، وقد ثبت بالدلائل أن المعطى لهذه الأشياء هو الله تعالى لاغيره، وإذا كان المنعم بجميع النعم هو الله لاغيره، لاجرم كان المستحق للعبادة هو الله تعالى لاغيره، فثبت بالدليل العقلي صحة قوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا أَيَّاهُ﴾.

(١) تفسير الطبري ٤٦/١٥/٨.

(٢) التفسير الكبير ١٠/٢٠/١٨٦، ١٨٥.

(٣) التفسير الكبير ١٠/٢٠/١٨٦.

قال السعدى^(١): لما نهى تعالى عن الشرك به أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ قضاء دينياً، وأمراً شرعياً.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أحداً من أهل الأرض والسموات والأحياء والأموات.

﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى له كل صفة كمال، وله من كل صفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور.

فهو المنفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء. أهـ.

وذكره بنحوه صاحب «الظلال» فقال^(٢):

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

فهو أمر بتوحيد المعبود بعد النهى عن الشرك أمر فى صورة قضاء . فهو أمر حتمى حتمية القضاء . ولفظة «قضى» تخلع على الأمر معنى التوكيد، إلى جانب القصر الذى يفيد النفى والاستثناء «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» فتبدو فى جو التعبير كله ظلال التوكيد والتشديد.

فإذا وضعت القاعدة، وأقيم الأساس، وجاءت التكاليف الفردية والاجتماعية، ولها فى النفس ركيزة من العقيدة فى الله الواحد، توحد البواعث والأهداف من التكاليف والأعمال. أهـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

أقسام العبودية^(٣).

قال ابن عثيمين: تنقسم العبودية إلى ثلاثة أقسام:

١- عامة، وهى عبودية الربوبية، وهى لكل الخلق، قال تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، ويدخل فى ذلك الكفار.

٢- عبودية خاصة، وهى عبودية الطاعة العامة، قال تعالى ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾، وهذه تعم كل من تعبد لله بشريعة.

(٢) ٢٢٢١/٤

(١) تيسير الكريم الرحمن ٧٣/٣ .

(٣) القول المفيد ٣٧، ٣٦/١

قال الفقير: وبهذا يتأيد قول من قال أن هناك ما يسمى بتوحيد الطاعة والانقياد (١) وسيأتي مزيد من الشرح في باب طاعة العلماء والأمرء في تحريم ما أحل الله . . وفي باب قوله تعالى ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا﴾ الآية .

٣- خاصة الخاصة، وهى عبودية الرُّسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى عن نوح : ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، وقال عن محمد ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا﴾، وقال فى آخرين من الرُّسل: ﴿وأذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار﴾ .
فهذه العبودية المضافة إلى الرسل خاصة الخاصة؛ لأنه لا يبارى أحد هؤلاء الرسل فى العبودية .

قوله : «وبالوالدين إحساناً»
الإعراب (٢).

وبالوالدين جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره وأحسنوا، وإحساناً مفعول مطلق ناصبه الفعل المحذوف، وإنما علقناهما بالفعل المحذوف لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته . اهـ .

● ما جاء فى تفسير الآية السنة

قال سليمان آل الشيخ (٣) . ولم يخص تعالى نوعاً من أنواع الإحسان ليعم أنواع الإحسان . وقد تواترت النصوص عن النبى ﷺ بالأمر ببر الوالدين والحث على ذلك، وتحريم عقوقهما كما فى القرآن، فى صحيح البخارى:

عن ابن مسعود قال: سألت النبى ﷺ أى العمل أحب إلى الله عزوجل؟ قال «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أى؟ قال: «ثم برُّ الوالدين» قلت: ثم أى؟ قال «الجهاد فى سبيل الله» حدثنى بهنَّ ولو استزدته لزادنى (٤) .

(١) انظر كتاب أصول الإيمان للدكتور صلاح الصاوى .

(٢) إعراب القرآن: ٤١١/٥ .

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٦، ٣٥ .

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٢٧)، ومسلم فى الإيمان (٧٣/٢ - النووى) وانظر «رياض

الصالحين» (٣١٤ - بتخريجنا) .

وعن أبي بكره قال:

قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنبئُكُمْ بِأكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشْرَاقُ بالله، وَعُقُوقُ الوَالِدِينَ». وكان مُتَكِنًا فجلس فقال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فما زال يُكرِّرها حتى قلنا: ليتها سكت (١).
رواه البخارى ومسلم.

وعن أبي هريرة قال: قال رجلٌ يارسولَ الله! مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ» (٢) أخرجاه.

وعن عبدالله بن عمرو، قال:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَضِيَ الرَّبُّ فِي رَضَى الوَالِدِينَ، وَسَخَطَهُ فِي سَخَطِ الوَالِدِينَ» (٣) رواه الترمذى، وصححه ابن حبان والحاكم.

وعن أبي أسيد الساعدى قال:

بنا نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال يا رسول الله هل بقي من برِّ أبوي شيءٍ أبرَّهُما به بعد موتهما؟ فقال: «نعم. الصلاةُ عليهما والاستغفارُ لهما وإنفاذُ عهدهما من بعدهما وصلَّةُ الرِّحْمِ التي لا تُوصَلُ إلا بهما وإكرامُ صديقيهما» (٤).
والأحاديث فى هذا كثيرة قد افردھا العلماء بالتصنيف وذكر البخارى منها شرطاً صالحاً فى كتاب «الأدب المفرد».

وأخرج بن أبى حاتم عن الحسن فى قوله تعالى ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يقول برأ (٥).

(١) البخارى (٢٦٥٤) ومسلم فى الإيمان (٨١/٢ - النووى) وانظر «رياض الصالحين» (٣٣٨ - بتخریجنا).

(٢) [متفق عليه] البخارى (٥٩٧١) مسلم فى البر والصلة (١٠٢/١٦ - النووى) وانظر «رياض الصالحين» (٣١٨ - بتخریجنا).

(٣) الترمذى (١٨٩٩) وابن حبان (٣٢٨/١) والحاكم (١٥١/٤)

ورجح الترمذى الموقف.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٩٨/٣) أبو داود (٥١٤٢) ابن ماجه (٤٦٦٤) البخارى فى «الأدب

المفرد» (٣٥)

وانظر «رياض الصالحين» (٣٤٤ - بتخریجنا).

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسیره» (١٣٢٣) بتخریجنا)

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

● حكمة اقتران بر الوالدين بعبادة الله - عزوجل - فى الآية الكريمة

قال الرازي^(١): اعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه ، ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين وبيان المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه:

الوجه الأول: أن السبب الحقيقى لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالى وإيجاده، والسبب الظاهرى هو الأبوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيقى، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهرى.

الوجه الثانى: أن الموجود إما قديم وإما محدث، ويجب أن تكون معاملة الإنسان مع الإله القديم بالتعظيم والعبودية، ومع المحدث بإظهار الشفقة وهو المراد من قوله عليه السلام «التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله» وأحق الخلق بصرف الشفقة إليه هما الأبوان لكثرة إنعامهما على الإنسان فقوله «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» إشارة إلى التعظيم لأمر الله وقوله «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» إشارة إلى الشفقة على خلق الله.

الوجه الثالث: أن الاشتغال بشكر المنعم واجب، ثم المنعم الحقيقى هو الخالق سبحانه وتعالى. وقد يكون أحد من المخلوقين منعماً عليك، وشكره أيضاً واجب لقوله عليه السلام «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»^(٢) وليس لأحد من الخلائق نعمة على الإنسان مثل ما للوالدين وتقديره من وجوه

أحدها: أن الولد قطعة من الوالدين قال عليه السلام «فاطمة بضعة منى»^(٣) وثانيها: أن شفقة الأبوين على الولد عظيمة وجدهما فى إيصال الخير إلى الولد كالأمر الطبيعى واحترازهما عن إيصال الضرر إليه كالأمر الطبيعى، ومتى كانت الدواعى إلى إيصال الخير متوفرة، والصوارف عنه زائلة لاجرم كثير إيصال الخير، فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من إنسان إلى إنسان.

وثالثها: أن الإنسان حال ما يكون فى غاية الضعف ونهاية العجز، يكون فى إنعام الأبوين فأصناف نعمهما فى ذلك الوقت واصله إليه، وأصناف رحمة ذلك الولد واصله

(١) التفسير الكبير ١٠/٢٠/١٨٧، ١٨٨.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٢/٣)، والترمذى (١٩٥٥) عن أبى سعيد رضى الله عنه - بإسناد

ضعيف فيه عطية العوفى.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٢٣٠)، ومسلم فى الفضائل (٨/٢٣٩/٩٤).

إلى الوالدين في ذلك الوقت، ومن المعلوم أن الإنعام إذا كان واقعا على هذا الوجه كان موقعه عظيما.

ورابعها: إن إيصال الخير إلى الغير قد يكون لداعية إيصال الخير إليه وقد يمتزج بهذا الغرض سائر الأغراض، وإيصال الخير إلى الولد ليس لهذا الغرض فقط، فكان الإنعام فيه أتم وأكمل، فثبت أنه ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد، فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا يَاَهُ﴾ ثم أضافه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ والسبب فيه ما بينا أن أعظم النعم بعد إنعام الإله الخالق نعمة الوالدين.

فإن قيل: الوالدين إنما طلبا تحصيل اللذة لنفسيهما فلزم منه دخول الولد في الوجود وحصول في عالم الآفات والمخافات، فأى انعام للأبوين على الولد؟ حكى أن واحد من المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول: هو الذي أدخلني في عالم الكون والفساد وعرضني للموت والفقير والعمى والزمانة، وقيل لأبي العلاء المعري: ماذا نكتب على قبرك؟ قال اكتبوا عليه؛

هذا ماجناه ابي على وما جنيت على أحد

وقال في ترك الزوج والولد:

وتركت أولادى وهم فى نعمة العدم التى سبقت نعيم العاجل
ولو أنهم ولدوا لعانوا شدة ترمى بهم فى موبقات الآجل

وقيل للأسكندر: أستاذك أعظم منة عليك أم والدك؟ فقال: الاستاذ أعظم منة، لأنه تحمل أنواع الشدائد والمحن عند تعليمي أرتعنى فى نور العلم، وأما الوالد فإنه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه، وأخرجنى إلى آفات عالم الكون والفساد. ومن الكلمات المشهورة المأثورة: خير الآباء من علمك.

والجواب: هب أنهما فى أول الأمر طلبا لذة الوقاع إلا أن الاهتمام بإيصال الخيرات، وفى دفع الآفات من أول دخوله فى الوجود إلى وقت بلوغه الكبر أليس أنه أعظم من جميع ما يتخيل من جهات الخيرات والمبرات، فسقطت هذه الشبهات والله أعلم.

قال الشنقيطي^(١): وجعله بر الوالدين مقروناً بعبادته وحده جل وعلا المذكور هنا ذكره فى آيات أخرى؛ كقوله تعالى فى سورة النساء ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(٢).

(٢) النساء: ٣٦.

(١) أضواء البيان ٣/٣٦٤، ٣٦٥.

وقوله فى البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(١) الآية، قوله فى سورة لقمان: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ أَلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾^(٢)، وبين فى موضوع آخر أن برهما لازم ولو كانا مشركين داعيين إلى شركهما، كقوله فى «لقمان»: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(٣)، وقوله فى «العنكبوت»: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾^(٤) الآية.

وذكره جل وعلا فى هذه الايات: بر الوالدين مقرّوناً بتوحيده جل وعلا فى عبادته، يدل على شدة تأكيد وجوب بر الوالدين، وجاءت عن النبى ﷺ فى ذلك أحاديث كثيرة(*) .

وقوله جل وعلا فى الايات المذكورة: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بينه بقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِلَىٰ آيَاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾^(٥) لأن هذا من الإحسان إليهما المذكور فى الآيات.

قال صاحب «الظلال»^(٦):

والرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة، هى رابطة الأسرة، ومن ثم يربط السياق بر الوالدين بعبادة الله، إعلناً لقيمة هذا البر عند الله:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ .

بهذه العبارات الندية، والصورة الموحية، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة فى قلوب الأبناء ذلك أن الحياة، وهى مندفعة فى طريقها بالأحياء، توجه اهتمامهم

(٢) الآية: ١٤ .

(١) الآية: ٨٣ .

(٤) الآية: ٨ .

(٣) الآية: ١٥ .

(*) تقدم بعضها وسيأتى بعض منها أيضاً .

(٦) ص/٢٢٢١ .

(٥) الاسراء ٢٣، ٢٤ .

القوى إلى الأمام، إلى الذرية، إلى الناشئة الجديدة، إلى الجيل المقبل، وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء، إلى الأبوة، إلى الحياة المولية، إلى الجيل الزاهب! ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف، وتلتفت إلى الآباء والأمهات.

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد، إلى التضحية بكل شىء حتى بالذات، وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء فى الحبة فإذا هى فتات، ويمتص الفرخ كل غذاء فى البيضة فإذا هى قشر، كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلها الأجل - وهما مع ذلك سعيدان!

فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام، إلى الزوجات والذرية.. وهكذا تندفع الحياة.

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذى أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف!

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين فى صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين (١):

وفى قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بعد قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ دليل على أن حق الوالدين بعد حق الله عز وجل -.

فإن قيل: فأين حق الرسول ﷺ؟

أجيب: بأن حق الله متضمن لحق الرسول ﷺ لأن الله لا يُعبد إلا بما شرع الرسول ﷺ.

أقوال أهل التأويل فى الآية:

قال الرازى (٢):

الآية مشتملة على قيود كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة فى الإحسان إلى الوالدين:

(٢) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠٠/ ١٨٩.

(١) القول المفيد ١٠/ ٣٧.

(أحدهما): أنه تعالى قال في الآية المتقدمة ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ثم إنه تعالى أردفه بهذه الآية المشتملة على الأعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة فذكر من جملتها البر بالوالدين، وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التي تفيد سعادة الآخرة.

(وثانيها) أنه تعالى بدأ بذكر الأمر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثلك بالبر بالوالدين وهذه درجة عاليه ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة.

(وثالثها): أنه تعالى لم يقل: وإحساناً بالوالدين، بل قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام.

(ورابعها): أنه قال ﴿إِحْسَانًا﴾ بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم، والمعنى وقضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً عظيماً كاملاً، وذلك لأنه لما كان إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك، ثم على جميع التقديرات فلا تحصل المكافأة، لأن إنعامهما عليك كان على سبيل الابتداء. وفي الأمثال المشهورة أن البادئ بالبر لا يكافأ.

قال ابن عثيمين^(١):

الوالدان : يشمل الأم، والأب، ومن فوقهما، لكنه في الأم والأب أبلغ، وكلما قربا منك كانا أولى بالإحسان، والإحسان بَدَلُ المعروف.

قوله: ﴿إِمَّا يَلِيَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾.

الإعراب^(٢):

إن شرطية زيدت عليها ما تأكيداً لها ويبلغن فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم فعل الشرط وعندك ظرف متعلق بمحذوف حال وأحدهما فاعل يبلغن والميم والألف حرفان دالان على الثنية وأو حرف عطف وكلاهما عطف على أحدهما وعلامة رفعه الألف لأنه ملحق بالثنى ومعنى عندك أى حالة كونهما في كفالتك يتولى منهما ما كانا يتوليان منه إبان الطفولة وفي ذلك منتهى التوصية باستعمال لين الجانب ودماثة الخلق معهما في هذه الحال.

(١) القول المفيد ١/٣٧.

(٢) إعراب القرآن ٥/٤١٢.

● ما جاء في الآية من أقوال المفسرين.

قال ابن الجوزي (١):

قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ على التوحيد، وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: «يبلغان» على التثنية. قال الفراء: جعلت ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ فعلاً لأحدهما وكررت عليهما ﴿كِلَاهُمَا﴾، ومن قرأ «يبلغان» فإنه ثنى، لأن الوالدين قد ذكرا قبل هذا، فصار الفعل على عددهما، ثم قال: ﴿أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ على الاستئناف، كقوله: ﴿عَمُوا وَصَمُوا﴾ (٢) ثم استأنف فقال: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾.

قال الطبري (٣): وأولى القراءتين بالصواب عندى فى ذلك قراءة من قرأه إما يبلغن على التوحيد على أنه خبر عن أحدهما لأن الخبر عن الأمر بالإحسان فى الوالدين قد تنهى عند قوله وبالوالدين إحساناً ثم ابتدأ قوله ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾.

قال الرازي (٤): قوله: ﴿يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ معناه: أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أول العمر.

قال صاحب الظلال (٥): ثم يأخذ السياق فى تظليل الجو كله بأرق الظلال، وفى استجاشة الوجدان بذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ .. والكبير له جلاله، وضعف الكبير له إبحاؤه، وكلمة «عندك» تصور معنى الالتجاء، والاحتماء فى حالة الكبير والضعف ..

قوله: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ﴾.

الإعراب (٦):

الفاء رابطة للجواب ولا ناهية وتقل فعل مضارع مجزوم بلا ولهما متعلقان بتقل وأف اسم فعل مضارع بمعنى التضجر، وفاعله مستتر تقديره أنا والجملة مقول القول.

(١) زاد المسير ١٧/٥ .

(٣) تفسير الطبري ٤٧/١٥/٨ .

(٥) ٢٢١/٤ .

(٢) المائدة: ٧١ .

(٤) التفسير الكبير ١٩٠/٢٠/١٠ .

(٦) إعراب القرآن ٥/٤٢٠، ٤٢١ .

وذكر المفسرون للفظ : أف: أكثر من قراءة أجملها محيى الدين درويش فقال(١):

وفيه أربعون لغة وحاصلها: أن الهمزة إما أن تكون مضمومة أو مكسورة أو مفتوحة فإن كانت مضمومة فائتان وعشرون لغة وحاصل ضبطها أنها إما مجردة عن اللواحق أو ملحقة بزائد والمجردة إما أن يكون آخرها ساكناً أو متحركاً والمتحركة إما أن تكون مشددة أو مخففة وكل منها مثلث الآخر مع التنوين وعدمه فهذه اثنتا عشرة والساكنة إما مشددة أو مخففة فهذه أربع عشرة واللواحق لها من الزوائد إما هاء السكت أو حرف المد فإن كان هاء السكت فالفاء مثلثة مشددة فهذه سبع عشرة وإن كان حرف مد فهو إما واو أو ياء أو ألف والفاء فيهن مشددة والألف إما مفخمة أو بالإمالة المحضة أو بين بين فهذه خمس أخرى مع السبع عشرة وإن كانت مكسورة فإحدى عشرة مثلثة الفاء مخففة مع التنوين وعدمه فهذه ست، وفتح الفاء وكسرها بالتشديد فيها مع التنوين وعدمه، فهذه أربع لغات والحادية عشرة أفى بالإمالة وإن كانت مفتوحة فالفاء مشددة مع الفتح والكسر والتنوين وعدمه والخامسة أف بالسكون والسادسة أفى بالإمالة والسابعة أفاء بهاء السكت فهذه السبع مكملة للأربعين وقد قرىء من هذه اللغات بسبع: ثلاث فى المتواتر وأربع فى الشواذ وقراءة حفص وهى قراءتا أف بالكسر والتنوين مع التشديد. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة:

أولاً المرفوع: عن الحسن بن على - رضى الله عنهما - مرفوعاً، «لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من ﴿أف﴾ لَحَرَّمَهُ» (٢).

عن عائشة رضى الله عنها - قالت: أتى رجل رسول الله ﷺ - ومعه شيخ فقال: «من هذا معك؟» قال: أبى. قال: «لا تمشين أمامه، ولا تقعدن قبله، ولا تدعه باسمه، ولا تستب له» (٣).

ثانياً: من الوقوف: عن عروة فى قوله ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ قال: لا تمنعهما شيئاً أراداً(٤).

(١) إعراب القرآن ٤١٢/٥.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٥٨/٥) ونسبه للدليمى عن الحسن بن على.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٥٩/٥) ونسبه لسعيد بن منصور، وابن أبى شيبة، وابن

المنذر، وابن أبى حاتم.

ثالثاً: من التابعين ومن بعدهم: عن الحسن أنه سئل ما بر الوالدين؟ قال: أن نبذل لهما ما ملكت، وأن تطيعهما فيما أمراك به، إلا أن يكون معصية^(١).

عن الحسن أنه قيل له: إلى ما ينتهي العقوق؟ قال: أن يحرمهما ويهجرهما ويحد النظر إلى وجههما^(٢).

عن الحسن في قوله: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ قال: يقول: يا أبت، يا أمه، ولا يسميهما باسمائهما^(٣).

عن زهير بن محمد في قوله: ﴿قل لهما قولاً كريماً﴾ قال: إذا دعواك فقل لبيكما وسعديكما^(٤).

عن قتادة في قوله: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ قال: قولاً لنا سهلاً^(٥).

وعن مجاهد: ﴿إما يبلغان عندك الكبر فلا تقل لهما أف﴾ حين ترى الأذى وتميط عنهما الخلاء والبول كما كانا يميطنانه عنك صغيراً ولا تؤذهما^(٦).

وعن مجاهد في قوله: ﴿فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما﴾ قال إن بلغا عندك من الكبر ما يبولان ويخران فلا تقل لهما أف تقذرهما^(٧).

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبري^(٨) وقوله: ﴿فلا تقل لهما أف﴾

يقول فلا تؤفف من شيء تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناس ولكن اصبر على ذلك منهما واحتسب الأجر في صبرك عليه منهما كما صبرا عليك في صغرك.

قال ابن الجوزي^(٩): فأمام معنى ﴿أف﴾ ففيه خمسة أقوال

(أحدهما): أنه وسخ الظفر، قاله الخليل.

(الثاني) وسخ الأذن قاله الأصمعي.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٢٥٩/٥) ونسبه لعبد الرازق.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» ونسبه لابن أبي شيبه.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» نسبه لابن أبي حاتم عن الحسن

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» ونسبه لابن أبي حاتم.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» ونسبه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٤٧/١٥)

(٧) المصدر السابق.

(٨) تفسير الطبري (٤٧/١٥).

(٩) زاد المسير ١٩، ١٨/٥.

(الثالث) قلامة الظفر، قاله ثعلب.

(الرابع) أن ﴿أف﴾ الاحتقار والاستصغار، ومن ﴿الأفف﴾، والاقف عند العرب: القله، ذكره ابن الأنباري.

(الخامس) أن «الأف» مارتعته من الأرض من عود أو قصبه، حكاه ابن فارس اللغوي. وقرأت على شيخنا أبي منصور قال: معنى «الأف» النتن والتضجر، وأصلها: نفخك الشيء يسقط عليك من تراب ورماد، وللمكان تريد إماطه الأذى عنه، فقيلت لكل مستثقل.

قال المصنف: وما قولهم: «تُف»، فقد جعلها قوم بمعنى ﴿أف﴾ فروى عن أبي عبيد أنه قال: أصل «الأف» و«التُف» الوسخ على الأصابع إذا قتلته. وحكى ابن الأنباري فرقاً، فقال: قال اللغويون: أصل (الأف) في اللغة: وسخ الأذن، و«التُف»: وسخ الأظفار فاستعملتهما العرب فيما يكره ويستقذر ويضجر منه. وحكى الزجاج فرقاً آخر، فقال: قد قيل: إن «الأف»: وسخ الأظفار، و«التف» الشيء الحقير نحو وسخ الأذن، أو الشظية تؤخذ من الأرض ومعنى (أف) النتن ومعنى الآية: لا تقل لهما كلاماً تبرم فيه بهما إذا كبرا وأسنا فينبغي أن تتولّى من خدمتهما مثل الذي توليا من القيام بشأنك وخدمتك.

قال الرازي^(١): المنع من التأفيف إنما يدل على المنع من الضرب بواسطة القياس الجلى الذى يكون من باب الاستدلال بالأدنى على الأعلى. والدليل عليه: أن التأفيف غير الضرب، فالمنع من التأفيف لا يكون منعا من الضرب، وأيضاً المنع من التأفيف لا يستلزم المنع من الضرب عقلاً، لأن الملك الكبير إذا أخذ ملكاً عظيماً كان عدواً له، فقد يقول للجلاد إياك أن تستخف به أو تشافهه بكلمة موحشة لكن أضرب رقبتك، وإذا كان هذا معقولاً فى الجملة علمنا أن المنع من التأفيف مغاير للمنع من الضرب وغير مستلزم أيضاً للمنع من الضرب عقلاً فى الجملة، إلا أننا علمنا فى هذه الصورة أن المقصود من هذا الكلام المبالغة فى تعظيم الوالدين بدليل قوله ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٣٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿ فكانت دلالة المنع من التأفيف على المنع من الضرب من باب القياس بالأدنى على الأعلى، والله أعلم.

(١) التفسير الكبير ١٠/٢٠/١٩٢.

قال السعدي (١): ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، تبه به على ماسواه.
والمعنى، لا تؤذهما أدنى أذية.

قال صاحب «الظلال» (٢): ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ وهي أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب ألا يتند من الولد ما يدل على الضجر والضييق، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب..

ما جاء في الآية كلام شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين (٣): في الآية إشارة إلى أنهما إذا بلغا الكبر صار عبئاً على وكدهما؛ فلا يتضجر من الحال، ولا ينهرهما في المقال إذا أساء في الفعل أو القول.

لمحة في العقوق

قال محيي الدين درويش (٤): وما جاء في العقوق ما يروى عن جرير فقد كان أعق الناس بأبيه وكان بلال ابنه كذلك فراجع جرير بلالاً في الكلام فقال له الكاذب بيني وبينك... أمه، فأقبلت أمه عليه وقالت: يا عود الله تقول هذا لأبيك فقال جرير: دعيه فكأنه سمعها مني وأنا أقولها لأبي.

ومن شهر عنه العقوق بوالديه الخطيئة الشاعر المخضرم قال يهجو أباه:

فنعم الشيخ أنت لدى المخازي وبئس الشيخ أنت لدى الفعال
جمعت اللؤم لحيّاك ربي وأبواب السفاهة والضلال
وقال يهجو أمه:

لحاك الله ثم لحاك أمأ ولقاك العقوق من البنينا
أغربالاً إذا استودعت سرأ وكانوناً على المتحدثينا
ومن هجا أباه على بن بسام، قال في أبيه:

هيك عمّرت عمّر عشرين نسرأ أتري أننى أموت وتبقى؟
فلئن عشت بعد موتك يوماً لأشقنّ جيب مالك شقأ

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣/٧٣.

(٢) ٢٢٢١/٤

(٣) القول المفيد ١/٣٧/٣٨.

(٤) إعراب القرآن ٥/٤٢١، ٤٢٢.

فنعوذ بالله من هؤلاء وأقوالهم.

قوله ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾

الإعراب (١): عطف على لاتقل لهما أف.. والنهر الزجر.

● ما جاء فى تفسير الآية بالمأثور:

وروى ابن جرير (٢): عن عطاء بن أبى رباح فى قوله: ﴿وَلَا تَقْل لَهَا فِى وَتَنْهَرُهُمَا﴾ قال: لاتنغض يدك على والديك يقال منه نهره ينهره نهراً وانتهره ينتهره انتهاراً.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين.

قال الطبرى: وقوله ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ يقول جل ثناؤه: ولا تزجرهما.

قال ابن الجوزى (٣): ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أى لاتكلمهما ضجراً صائحاً فى وجوههما.

قال الرازى (٤):

﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ المنع من إظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليه والتكذيب له.

قوله: ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾

الإعراب (٥): وقل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولهما متعلقان بقل وقولا

مفعول مطلق وكريما صفة.

● ما جاء فى تفسير الآية بالمأثور:

وروى ابن جرير

عن ابن جريج ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ قال: أحسن ما تجد من القول (٦).

عن عمر بن الخطاب: ﴿قولا كريما﴾ قال: لاتمتنع من شىء يريدانه (٧).

عن قتادة: ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أى: قولا لنا سهلا (٨).

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٤٨/١٥)

(٤) التفسير الكبير ١٠/٢٠/١٩٢

(١) إعراب القرآن ٥/١٢٤

(٣) زاد المسير ٥/١٩

(٥) إعراب القرآن ٥/٤١٢.

(٦) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٤٨/١٥).

(٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٤٨/١٥) وضعفه ابن جرير.

(٨) أخرجه ابن جرير فى الموضوع السابق.

عن ابى الهذاج التجيبى قال: قلت لسعيد بن المسيب: كل ما ذكر الله - عزوجل - فى القرآن من بر الوالد فقد عرفته إلا قول ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ما هذا القول الكريم؟ فقال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ^(١).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين.

قال الطبرى^(٢): ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ فإنه بقول جل ثناؤه وقل لهم قولاً جميلاً حسناً.

قال ابن الجوزى^(٣): ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أى: لينا لطيفاً أحسن ما تجد.

قال الرازى^(٤): قوله تعالى ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وأعلم أنه تعالى لما منع الإنسان بالآية المتقدمة عن ذكر القول المؤذى الموحش، والنهى عن القول المؤذى لا يكون أمراً بالقول الطيب، لاجرم أردفه بأن أمره بالقول الحسن والكلام الطيب فقال ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ والمراد منه أن يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم الاحترام.

قلت: وأوضح هذا الكلام فأقول: كما قال الأصوليون الأمر بالشيء نهى عن ضده والنهى عن الشيء أمر بضده وعلى ذلك فالمنع عن القول المؤذى أمر بشيئين. بالسكوت عن القول المؤذى وبالتلفظ بالقول الطيب فكان قوله تعالى ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ من باب عطف الخاص على العام لتأكيد أنه الكف عن إيذاءهما ليس هو المراد فقط بل المراد الكف عن الإيذاء والأمر بالقول الكريم وحتى لا يقول قائل أنا أبرهما بالكف عن إيذاءهما وهذا ما أمرت به.

قال السعدى^(٥): وقل لهما قولاً كريماً بلفظ يحبانه وتأدب وتلطف معهما، بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما وتطمئن به نفوسهما وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

قال صاحب الظلال^(٦): ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وهى مرتبة أعلى إيجابية أن يكون كلامه لهما يشى بالإكرام والاحترام.

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٢) تفسير الطبرى ٤٨/١٥/٨

(٣) زاد المسير ١٩/٣

(٤) التفسير الكبير ١٠/٢٠/١٩٣، ١٩٢.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٣/٧٣، ٧٤

(٦) ٢٢٢١/٤

وقوله ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (١)

قال سليمان آل الشيخ (٢): هكذا اثبت في نسخة بخط شيخنا ولم يذكر الآية.
مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٣): حيث دلت الآية الكريمة على وجوب إخلاص العبادة لله وحده والكفر بما سواه قلت: وهو ما أراده المصنّف فعلاً وسيظهر من كلامه إن شاء الله.

قال عبد الرحمن الشيخ (٤): وهذه الآية هي التي تُسمى آية الحقوق العشرة، وفي بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الآية على آية الانعام، ولهذا قدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود الآتى لآية الانعام، ليكون ذكره بعدها أنسب.

قال ابن عثيمين (٥):

قوله : ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أى : لِنَا حَسَنًا يَهْدُوهُ وَطَمَأْنِينَهُ ؛ كَقَوْلِكَ : أَعْظَمَ اللَّهُ أَجْرَكَ ، أَبَشْرِي يَا أُمِّي ، أَبَشْرِي يَا أَبِي ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ؛ فَالْقَوْلُ الْكَرِيمُ يَكُونُ فِي صِفَتِهِ ، وَأَدَانِهِ ، وَالخَطَابُ بِهِ ؛ فَلَا يَكُونُ مَزْعَجًا كَرَفْعِ الصَّوْتِ مَثَلًا ، بَلْ يَتَضَمَّنُ الدَّعَاءَ وَالإِنْيَاسَ لَهُمَا .

والشاهد من هذه الآية: قوله تعالى : ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ؛ فهذا هو التوحيد لتضمنه للنفي والإثبات .



قوله ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية .

الإعراب (٦): ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لبيان حقوق الأبوين والأقارب والجيران وما السى ذلك . واعبدوا فعل أمر والواو فاعله والله مفعوله ولا تشركوا عطف على ماتقدم وبه متعلقان بتشركوا وشيئاً مفعول به أى شيئاً من الأشياء أو مفعو مطلق أى شيئاً من الإشراك .

(١) النساء : ٣٦ .

(٢) تفسير العزيز الحميد ٤٣ .

(٣) الجديد : ٢٧ .

(٤) فتح المجيد (٢٩/١) مؤسسة قرطبة .

(٥) القول المفيد ١/٣٨ .

(٦) إعراب القرآن ٢/٢١٤ .

قال الطبري (١): يعنى بذلك - جَلَّ ثناؤه

وذلوا لله بالطاعة واخضعوا له بها وأفردوه بالربوبية واخلصوا له الخضوع والذلة بالإنهاء إلى أمره والانزجار عن نهيه ولا تجعلوا له فى الربوبية والعبادة شريكا تعظمونه تعظيمكم إياه.

قال ابن كثير رحمه الله (٢): فى هذه الآية يأمر الله تعالى عباده بعبادته وحده لاشريك له فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الحالات، وهو المستحق منهم أن يوحدوه، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، انتهى.

قال السعدى (٣):

يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لاشريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانتقياد لأوامره ونواهيته، محبة، وذلاً، وإخلاصاً له، فى جميع العبادات الظاهرة والباطنة.

وينهى عن الشرك به شيئاً، لاشركاً أصغر، ولا أكبر، لا ملكاً، ولا نبياً، ولا ولياً ولا غيرهم، من المخلوقين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً.

بل الواجب المتعين، إخلاص العبادة، لمن له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل، الذى لا يشركه، ولا يعينه عليه أحد.

قال صاحب «الظلال» (٤):

هذه الفقرة تبدأ بالأمر بعبادة الله وحده، والنهى عن إشراك شيء به . . تبدأ بحرف عطف يربط بين هذا الأمر، وهذا النهى، والأوامر السابقة الخاصة بتنظيم الأسرة فى أواخر الدرس الماضى يعنى الآيات التى تقدمت فى سورة النساء - فيدل هذا الربط بين الموضوعين على الوحدة الكلية الشاملة المتكاملة فى هذا الدين. فليس هو مجرد عقيدة تستكن فى الضمير؛ ولا مجرد شعائر تقام وعبادات؛ ولا مجرد تنظيم دنيوى منقطع الصلة بالعقيدة والشعائر التعبدية . . إنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله، ويربط بين جوانبه، ويشدها جميعاً إلى الأصل الأصيل. وهو توحيد الله. والتلقى منه وحده - فى هذا النشاط كله - دون سواه. توحيدها إلهاً معبوداً. وتوحيده مصدرراً للتوجيه والتشريع لكل

(١) تفسير الطبري ٥٠ / ٥ / ٤

(٢) فتح المجيد / ٢٩ مؤسس قرطبة.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ١ / ٣٣١.

(٤) (٤) ٦٥٨ / ٢، ٦٥٦، ٦٦٠.

النشاط الإنساني أيضاً . لا ينفك هذا التوحيد عن ذلك في الإسلام وفي دين الله الصحيح على الإطلاق ويلى الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك، الأمر بالإحسان إلى تلك المجموعات من الأسرة الخاصة، والأسرة الإنسانية؛ وتقبيح البخل والحيلاء والفخر وأمر الناس بالبخل، وكتمان فضل الله من أى نوع سواء كان من المال أم من العلم والدين - والتحذير من إتباع الشيطان؛ والتلويح بعذاب الآخرة، ومافيه من خزي وافتضاح . . . لربط هذا كله بالتوحيد؛ وتحديد المصدر الذى يتلقى منه من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً وهو مصدر كذلك واحد لا يستعدد ولا يشاركه أحد فى التوجيه والتشريع؛ كما لا يشاركه أحد فى الألوهية وعبادة الناس له بلا شريك .

ثم قال: «وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» . . .

الأمر الأول بعبادة الله . . . والنهى الثانى لتحريم عبادة أحد - معه سواه نهياً باتاً، شاملاً، للأنواع المعبودات التى عرفتها البشرية: «وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» . . . شيئاً كائناً ما كان، من مادة أو حيوان أو إنسان أو ملك أو شيطان . . . فكلها مما يدخل فى مدلول كلمة شىء، عند إطلاق التعبير على هذا المنوال .

قال القرطبي^(١): أجمع العلماء على أن هذه الآية من المُحَكَّم المتفق عليه، وليس منها شىء منسوخ .

وكذلك هى فى جميع الكتب . ولو لم يكن كذلك لعُرف ذلك من جهة العقل وإن لم ينزل به الكتاب وقد مضى معنى العبودية وهى التذلل والافتقار، لمن له الحكم والاختيار؛ فأمر الله تعالى عباده بالتذلل له والإخلاص فيه . فالاية أصل فى خلوص الأعمال لله تعالى وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره؛ قال الله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢) حتى لقد قال بعض علمائنا: إنه من تطهر تَبَرُّدًا أو صام مُحِمًّا لمِعدته ونَوَى مع ذلك التَقَرُّب لم يُجزئه؛ لأنه مزج فى نية التَقَرُّب نية دنياوية وليس لله، إلا العمل الخالص؛ كما لقال تعالى ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾^(٣) وقال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٤) وكذلك إذا أحس الرجل بداخل فى الركوع وهو إمام لم ينتظره؛ لأنه يُخرج ركوعه بانتظاره من كونه خالصاً لله تعالى . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل شركاً فيه معنى غيرى تركته

(٢) الكهف: ١١٠

(٤) البينة: ٥

(١) تفسير القرطبي ٣/ ١٧٥٠، ١٧٥١، ١٧٥٢ .

(٣) الزمر: ٣

وشركه»^(١) وروى الدارقطني عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «يُجاء يوم القيامة بصحف مختمة فتُنصب بين يدي الله تعالى فيقول الله تعالى للملائكة ألقوا هذا واقبلوا هذا فتقول الملائكة وعزتك مارأينا إلا خيراً فيقول الله عز وجل وهو أعلم إن هذا كان لغيري ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما ابتغى به وجهي»^(٢).

وروى أيضاً عن الضحاك بن قيس الفهري قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكاً فهو لشريكي يأبها الناس أخلصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله لا يقبل إلا ماخلص له ولا تقولوا هذا لله وللرحم فإنها للرحم وليس لله منها شيء ولا تقولوا هذا لله ولوجهكم فإنها لوجهكم وليس لله تعالى منها شيء». ثم قال:

مسألة: إذا ثبت هذا فاعلم أن علماءنا رضى الله عنهم قالوا: الشرك على ثلاث مراتب وكله مُحَرَّم . وأصله اعتقاد شريك لله في ألوهيته، وهو الشرك الأعظم وهو شرك الجاهلية، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٣). ويليهِ في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل، وهو قول من قال: إن موجوداً ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل إيجاداً وإن لم يعتقد كونه إلهاً كالتقديرية مجوس هذه الأمة، وقد تبرأ منهم ابن عمر كما في حديث جبريل عليه السلام^(٤). ويلي هذه الرتبة الإشراك في العبادة وهو الرياء؛ وهو أن يفعل شيئاً من العبادات التي أمر الله بفعلها له لغيره. وهذا هو الذي سيقت الآيات والأحاديث لبيان تحريمه، وهو مبطل للأعمال وهو خفي لا يعرفه كل جاهل غبي.

ورضى الله عن المحاسبي فلقد أوضحه في كتابه «الرعاية» وبين إفساده للأعمال. وفي سنن ابن ماجه عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري وكان من الصحابة قال قال رسول الله ﷺ و«إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى من: من كان أشرك في عمل عمله الله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»^(٥).

(١) تقدم تخريجه .

(٢) ذكره السندي في «الترغيب والترهيب» (٣١/٧٣/١) وقال: رواه البزار والطبراني بإسنادين، رواه أحدهما رواة الصحيح، والبيهقي.

(٣) النساء ١١٦: (٤) أخرجه مسلم في الإيمان (١/١٧٧/١).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٦٦/٣)، (٢١٥/٤)، والترمذي (٣١٥٤)، وابن ماجه

(٤٢٠٣) قال الترمذي: حسن غريب.

وفيه عن أبى سعيد الخدرى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال؟» قال فقلنا بلى يا رسول الله؛ فقال: «الشرك الحفى أن يقوم الرجل يصلّى فيزيّن صلاته لما يرى من نظر رجل»^(١) وفيه عن شداد بن أوس قال قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أتخوف على أمتى الإشراك بالله أما إنى لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية»^(٢) خرجه الترمذى الحكيم وفيه بيان الشهوة الخفية. وروى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال سئل رسول الله ﷺ عن الشهوة الخفية فقال: «هو الرجل يتعلم العلم يحب أن يجلس إليه».

قال سهل بن عبدالله التستريّ رضى الله عنه: الرياء على ثلاثة وجوه: أحدهما: أن يعقد فى أصل فعله لغير الله ويريد به أن يعرف أنه لله، فهذا صنف من النفاق وتشكك فى الإيمان. والآخر - ويدخل فى الشيء الله فإذا اطلع عليه غير الله نشط، فهذا إذا تاب يريد أن يعيد جميع ما عمل.

والثالث: دخل فى العمل بالإخلاص وخرج به لله فعرف بذلك ومدح عليه وسكن إلى مدحهم؛ فهذا الرياء نهى الله عنه.

قال سهل قال لقمان لابته: الرياء أن تطلب ثواب عملك فى دار الدنيا، وإنما عمل القوم للآخرة. قيل له: فما دواء الرياء؟ قال: كتمان العمل، قيل له: كيف يكتّم العمل؟ قال: ما كلفت إظهاره من العمل فلا تدخل فيه إلا بالإخلاص، وما لم تتكلف إظهاره أحبّ إلا يطلع عليه إلا الله. قال: وكل عمل اطلع عليه الخلق فلا تعدّه من العمل. وقال ايوب السخّيتيّ: ما هو بعاقل من أحب أن يعرف مكانه من عمله.

قلت: - أى القرطبي - قول سهل «والثالث دخل فى العمل بالإخلاص» إلى آخره، إن كان سكونه وسروره إليهم لتحصل منزلته فى قلوبهم فيحمدوه ويجلّوه ويبروه وينال ما يريد منهم من مال أو غيره فهذا مذموم؛ لأن قلبه مغمور فرحاً باطلاعهم عليه، وإن كانوا قد اطلعوا عليه بعد الفراغ. فأما من أطلع الله عليه خلقه وهو لا يحب أطلاعهم

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤) قال فى الزوائد: إسناده حسن.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٥) قال فى الزوائد: فى إسناده عامر بن عبد الله لم أر من تكلم

فيه وبقى رجال الإسناد ثقات.

عليه فيسر بصنع الله ويفضله عليه فسروره بفضل الله طاعة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١). وبسط هذا وتتميمه في كتاب «الرعاية للمحاسبى» فمن أراداه فليقتف عليه هناك. وقد سئل سهل عن حديث النبي ﷺ «إني أسر العمل فيطلع عليه فيعجبني» قال: يعجبه من جهة الشكر لله الذى أظهره عليه أونحو هذا. فهذه جملة كافية فى الرياء وخلص الأعمال. والحمد لله. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان الشيخ (٢):

هذا أول أمر فى القرآن، وهو الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهى عن الشرك، كما فى قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٣) وتأمل كيف أمر تعالى بعبادته أى فعلها خالصة له، ولم يخص بذلك نوعاً من أنواع العبادة لادعاء ولا صلاة ولا غيرهما، ليعم جميع أنواع العبادة، ونهى عن الشرك به ولم يخص أيضاً نوعاً من أنواع العبادة بجواز الشرك فيه، فى هذه الآية واللواتى قبلها دليل على أن العبادة هى التوحيد، لأن الخصومة فيه، وإلا فكان المشركون يعبدون الله ويعبدون غيره، فأسروا بالتوحيد، وهو عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وفيهن دليل على أن التوحيد أول واجب على المكلف، وهو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله المستلزم لعبادته وحده لا شريك له، وأن من عبد غير الله بنوع من أنواع العبادة فقد أشرك، سواء كان المعبود ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صنماً.

قال ابن عثيمين (٤): ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾

﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ فى مقابل «إله» ؛ لأنها نفى.

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا﴾ فى مقابل «إلا الله» ؛ لأنها إثبات.

وقوله: ﴿شَيْئاً﴾ نكرة فى سياق النهى؛ فتعم كل شىء: لانبيأ، ولا ملكاً، ولا ولياً، بل ولا أمراً من أمور الدنيا؛ فلا تجعل الدنيا شريكاً مع الله، والإنسان إذا كان همه الدنيا كان عابداً لها؛ كما قال ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الخَيْمَلَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الخَمِيصَةِ» (٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٣

(٤) القول المفيد ١/ ٣٨.

(١) يونس : ٥٨ .

(٣) البقرة : ٢١ .

(٥) سيأتى تخريجه .

قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (١)

مناسبة الآية التوحيد : حذرت الآية من الشرك بجميع صوره وأشكاله (٢).

الإعراب (٣):

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ كلام مستأنف مسوق لأمره ﷺ بأن يتلو عليهم ما حرم ربهم عليهم حقيقة لا ظناً، وقيناً لا حدساً. وجملة تعالوا في محل نصب مقول القول، وهو فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، وأتل فعل مضارع مجزوم لأنه جواب لطلب، وابن هشام يؤثر أن يقال: إنه جواب الشرط مقدر، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به، وجملة حرم عليكم لامحل لها لأنها صلة الموصول، والعائد محذوف، أي الذي حرّمه. ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، أي: اتل تحريم ربكم. و التحريم لايتلى، ولكنه مصدر واقع موقع المفعول به. وربكم فاعل حرم، وعليكم جار ومجرور متعلقان بحرم أو بأتل، على أن المسألة من باب التنازع. اهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من الأحاديث:

عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ «أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى ثلاث آيات، ثم قال: فمن وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فادركه الله فى الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وأن شاء عفا عنه» (٤).

وعن على أبى طالب قال: «لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج إلى منى وأنا معه وأبو بكر، وكان أبو بكر رجلاً نسابة، فوقف على منازلهم ومضاربهم مبنى، فسلم عليهم وردوا السلام، وكان فى القوم مفروق بن عمرو، وهانىء بن قبيصة، والمنثى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان أقرب القوم إلى أبى بكر مفروق، وكان مفروق قد غلب عليهم بياناً ولساناً، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال

(١) الأنعام ١٥١- ١٥٣

(٢) الجديد : ٣٠

(٣) إعراب القرآن ٤/٢٦٧، ٢٦٨

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٣٨٢) ونسبه لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وأبى

الشيخ، وابن مردويه والحاكم

له: إلام تدعو يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ فجلس وقام أبو بكر يظله بثوبه، فقال النبي ﷺ: «ادعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله، وأن تأوونى وتنصرونى وتمنعونى حتى أؤدى حق الله الذى أمرنى به، فإن قريشا قد تظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغنى الحميد. قال له: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله ﴿تَتَّقُونَ﴾ فقال له مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (١) الآية. فقال له مفروق: دعوت - والله يا قرشى إلى مكارم الإخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك؟ وقال هانىء بن قبيصة: قد سمعت مقاتلك واستحسنت قولك يا أخا قريش، ويعجبني ماتكلمت به، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: أن لم تلبثوا الا يسيرا حتى يمنحك الله بلادهم وأموالهم - يعنى أرض فارس وأنهار كسرى - ويفرشكم بناتهم، أتسبحون الله وتقصدونه؟ فقال له النعمان بن شريك: اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش - فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ الآية. ثم نهض رسول الله قابضاً على يد أبى بكر (٢).

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

وعن ابن مسعود قال: من سره أن ينظر إلى وصية محمد التى عليها خاتما فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٣).

عن كعب قال: أول ما نزل من التوراة عشر آيات، وهى العشر التى أنزلت من آخر الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخرها (٤).

عن عبيد الله بن عبد الله بن عدى بن الخيار قال: سمع كعب رجلا يقرأ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فقال كعب: والذى نفس كعب بيده أنها لأول آية

(١) النحل: ٩٠.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٣٨١) ونسبه لأبى نعيم والبيهقى فى «الدلائل».

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٣٨١، ٣٨٢) ونسبه للترمذى وحسنه، وابن المنذر، وابن

أبى حاتم، والطبرانى، وأبى الشيخ، وابن مردويه، والبيهقى فى «الشعب». وسيأتى تخريجه.

(٤) ذكره السيوطى فى المصدر السابق ونسبه لابن أبى شيبه، وابن الضريس، وابن المنذر.

في التوراة، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى آخر الآيات (١).

عن منذر الثوري قال: قال الربيع بن خيثم: أسرك أن تلقى صحيفة من محمد ﷺ بخاتم؟ قلت: نعم. فقرأ هؤلاء الآيات من آخر سورة الأنعام ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى آخر الآيات (٢).

عن مزاحم بن زفر قال: قال رجل للربيع بن خيثم: أوصني قال: اتسنى بصحيفة فكتب فيها ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ ﴾ الآيات. قال: إنما أتيتك لتوصيني؟! قال: عليك بهؤلاء (٣).

● ما جاء في الآية من أقوال المفسرين.

قوله «قل» الخطاب للنبي - ﷺ - أمره الله أن يقول لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله. قال الطبري (٤):

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان الأصنام الزاعمين أن الله حرم عليهم ما هم محرّموه من حروثهم وأنعامهم على ما ذكرت لك في تنزيلي عليك تعالوا أيها القوم اقرأ عليكم ما حرم ربكم حقا يقينالا الباطل تخرصا كخرصكم على الله الكذب والفرية ظناً ولكن وحياً من الله أوحاه إليّ وتنزيلاً أنزله على أ. هـ. قوله: «تعالوا» الإعراب (٥):

(تعال) من الخاصّ الذي صار عاماً، وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم كثر واتسع حتى عم. وهو فعل أمر مفتوح الآخر دائماً، ومن ثم لحنوا إبا فراس الحمداني بقوله:

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا
تعالى أقاسمك الهموم تعالى

● ما جاء في الآية من كلام المفسرين.

وذكر نحو كلام صاحب الإعراب المتقدم الرازي نقلاً عن صاحب الكشف والقرطبي.

وقال الأخير (٦) «تعالوا»

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ونسبه لأبي الشيخ.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٣/٣٨١) ونسبه لعبد بن حميد، وأبي عبيد، وابن المنذر،

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق ونسبه لابن سعد.

(٤) الطبري ٥/٨/٦٠ الإعراب ٣/٢٦٧

(٦) القرطبي ٤/٢٥٦٦، ٢٥٦٧.

أى تقدموا وأقروا حقاً يقينا كما أوحى إلى ربي، لاظناً ولا كذباً كما زعمتم. ثم بين ذلك فقال: ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ يقال للرجل: تعال؛ أى تقدم، وللمرأة تعال، وللأثنين والأثنتين تعالياً، ولجماعة الرجال تعالوا، ولجماعة النساء تعالين؛ قال الله تعالى ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعَنَّ﴾ (١) وجعلوا التقدم ضرباً من التعالى والارتفاع، لأن المأمور بالتقدم فى أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعداً فقيل له تعال، أى أرفع شخصك بالقيام وتقدم، واتسعا فيه حتى جعلوه للواقف والماشى؛ قاله ابن الشجرى.

قال القرطبي (٢): هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيه عليه السلام بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله. وهكذا يجب على من بعده من العلماء أن يبلغوا الناس ويبينوا لهم ما حرم عليهم مما حل. قال الله ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ (٣).

قوله «اتل ما»

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن الجوزى (٤): «ما بمعنى الذى.

قال الرازى (٥): وما فى قوله ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ منصوب وفى ناصبه وجهان الأول: أنه منصوب بقوله (اتل) والتقدير: اتل الذى حرمه عليكم، والثانى: أنه منصوب بحرّم. والتقدير: اتل الأشياء التى حرم عليكم. وذكر نحو ذلك القرطبي ولكن بأسلوب آخر أذكره للإفادة.

قوله ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين.

قال ابن الجوزى (٦) قولان:

أحدهما: أنها إغراء، كقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ (٧) فالتقدير عليكم أن لا تشركوا، ذكره ابن الأبارى.

والثانى أن يكون معنى: فُرض عليكم، ووجب عليكم أن لا تشركوا.

(٢) تفسير القرطبي ٤/٢٥٦٧، ٢٥٦٨.

(٤) زاد المسير ٣/١١٣.

(٦) زاد المسير ٣/١١٣.

(١) الأحزاب: ٢٨

(٣) آل عمران ١٨٧

(٥) التفسير الكبير ٧/١٣/٢٤٣.

(٧) المائدة: ١٠٥.

قال السعدى: (١) ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ تحريماً عاماً، شاملاً لكل

أحد، محتوياً على سائر المحرمات، من المأكل، والمشرب، والأقوال، والأفعال.

قوله «ربكم»

وقال «ربكم» ولم يقل ما حرّم الله، لأنّ الرب هنا انسب حيث إنّ الرب له مطلق التصرف في المربوب، والحكم عليه بما تقتضيه حكمته. قاله ابن عثيمين في القول المفيد.

قوله ﴿أَلَا تَشْرِكُوا﴾

الإعراب (٢): في «أن» أوجه عديدة، والمختار منها وجهان أولهما: أنها مفسرة، لأنه تقدمها ماهو معنى القول دون حروفه.

قلت: هو مارجحة ابن عثيمين.

ولانهاية، وتشركوا فعل مضارع مجزوم بها، والجملة لامحل لها لأنها مفسرة. والوجه الثاني: أنها مصدرية، وهى وما فى حيزها بدل من «ما حرم»، وبه جار ومجرور متعلقان بتشركوا، وشيناً مفعول به أوبمعنى المصدر، فهى مفعول مطلق. وقد تقدمت الإشارة إلى مثيله.

● ماجاء فى الآية من كلام المفسرين:

قال ابن الجوزى (٣) وفى «لا» قولان:

أحدهما: أنها زائدة، كقوله: ﴿أَلَا تَسْجُدُ﴾

والثاني: أنها ليست زائدة، وإنما هى نافية.

فعلى هذا القول، فى تقدير الكلام ثلاثة أقوال.

أحدها: أن يكون قوله ﴿أَلَا تَشْرِكُوا﴾، محمولاً على المعنى؛ فتقديره: أتلى عليكم أن

لا تشركوا، أى: أتلى تحريم الشرك.

والثاني: أن يكون المعنى: أوصيكم أن لا تشركوا، لأن قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

محمول على معنى: أوصيكم بالوالدين إحساناً، ذكرهما الزجاج.

والثالث: أن الكلام تم عند قوله (حرّم ربكم).

قال الفقير: وذكر نحو هذه الأقوال القرطبي وظاهر كلامه أنه مال للتقدير الأول،

ولكن صرح الشنقيطى بترجيح التقدير الثانى وهو ما ذهب إليه ابن كثير أيضاً فقال

الشنقيطى (٤):

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨.

(٤) أضواء البيان ٢/ ٢٠٩.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٥.

(٣) زاد المسير ٣/ ١١٣.

الظاهر فى قوله : ما حرم ربكم عليكم، أنه مضمن معنى ما وصاكم به فعلاً، أو تركاً؛ لأن كلا من ترك الواجب، وفعل الحرام حرام، فالمعنى وصاكم ألا تشركوا، وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً.

وقد بين تعالى أن هذا هو المراد بقوله : ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ (١) أهـ.

قال الرازى (٢): وأعلم أنه تعالى قد شرح فرق المشركين فى هذه السورة على أحسن الوجوه، وذلك لأن طائفة من المشركين يجعلون الأصنام شركاء لله تعالى، وإليهم الإشارة بقوله حكاية عن إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَأَيْتَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣).

والطائفة الثانية: من المشركين عبدة الكواكب، وهم الذين حكى الله عنهم، أن إبراهيم عليه السلام أبطل قولهم بقوله ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (٤).

والطائفة الثالثة: الذين حكى الله تعالى عنهم ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ (٥). هم القائلون بيزدان وأهرمن .

والطائفة الرابعة: الذين جعلوا لله بنين وبنات، وأقام الدلائل على فساد اقوال هؤلاء الطوائف والفرق، فلما بين بالدليل فساد قول هؤلاء الطوائف. قال ههنا ﴿أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

قال السعدى: (٦) وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق، كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية.

وإذا ترك العبد الشرك كله، صار موحدًا، مخلصاً لله فى جميع أحواله.

فهذا حق الله على عباده، أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً.

قال صاحب «الظلال»: (٧) ﴿أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ القاعدة التى يقوم عليها بناء العقيدة؛ وترجع إليها التكاليف والفرائض، وتستمد منها الحقوق والواجبات. . القاعدة التى يجب أن تقوم أولاً قبل الدخول فى الأوامر والنواهي؛ وقبل الدخول فى التكاليف

(٢) التفسير الكبير ٧/١٣/٢٤٤

(٤) الأنعام : ٧٦

(٦) تيسير الكريم الرحمن ٨٥/٢

(١) الأنعام : ١٥١ .

(٣) الأنعام : ٧٤ .

(٥) الأنعام : ١٠٠ .

(٧) فى ظلال القرآن : ٣/١٢٢٩، ١٢٣٠ .

والفرائض، وقبل الدخول فى النظام والأوضاع؛ وقيل الدخول فى الشرائع والأحكام. . .
يجب ابتداء أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم فى حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده
فى عقيدتهم؛ لا يشركون معه أحداً فى ألوهيته، ولا يشركون معه أحداً فى ربوبيته كذلك.
يعترفون له وحده بأنه المتصرف فى شؤون هذا الكون فى عالم الأسباب والأقدار؛
ويعترفون له وحده بأنه المتصرف فى حسابهم وجزائهم يوم الدين؛ ويعترفون له وحده بأنه
هو المتصرف فى شؤون العباد فى عالم الحكم والشريعة كلها سواء.

إنها تنقية الضمير من أوشاب الشرك وتنقية العقل من أوشاب الخرافة، و تنقية المجتمع
من تقاليد الجاهلية، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد. . .

إن الشرك - فى كل صوره - هو المحرم الأول لأنه يجبر إلى كل محرم. وهو المنكر
الأول الذى يجب حشد الإنكار كله له؛ حتى يعترف الناس أن لا إله لهم إلا الله، ولا رب
لهم إلا الله، ولا حاكم لهم إلا الله، ولا مشرع لهم إلا الله. كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر
لغير الله. أهـ.

قال ابن الجوزى: (١) وفى هذا الشرك قولان.

أحدهما: أنه ادعاء شريك مع الله عزوجل.

والثانى: أنه طاعة غيره فى معصيته.

قوله «شيثاً»

أى لا قليلاً ولا كثيراً. قاله السعدى وغيره.

قال الفقير: وهى أيضاً نكره فى سياق نهى تدل على العموم.

● قوله «وبالوالدين إحساناً».

الإعراب (٢): بالوالدين جار ومجرور متعلقان بفعل المصدر المحذوف، أى أحسنوا
بالوالدين وإحساناً مفعول مطلق للفعل المحذوف، .

● ماجاء فى الآية من كلام المفسرين:

قال السعدى: (٣) ثم بدأ بآكد الحقوق بعد حقه فقال: «بالوالدين إحساناً» من
الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨

(١) زاد المسير ٣/ ١١٣

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٨٥.

﴿لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (*).

فكل قول وفعل، يحصل به منفعة للوالدين، أو سرور لهما، فإن ذلك، من الإحسان، وإذا وجد الإحسان، انتفى العقوق أهـ.

● ماجاء فى الآية من كلام شرح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين: (١) أى واتل عليكم الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

قال الفقير: وقد تقدم ذكر ماورد فى بر الوالدين والإحسان إليهم عند قوله ﴿وقضى

ربك إلا تعبدوا لإيائه وبالوالدين إحساناً﴾ بما يغنى عن إعادته هنا.

قال الرازى (٢): وإنما ثنى بهذا التكليف لأن أعظم أنواع النعم على الإنسان نعمة الله تعالى، ويتلوها نعمة الوالدين لأن المؤثر الحقيقى فى وجود الإنسان هو الله سبحانه وفى الظاهر هو الأبوان، ثم نعمهما على الإنسان عظيمة وهى نعمة التربية والشفقة والحفظ عن الضياع والهلاك فى وقت الصغر. أهـ.

● قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾

الإعراب (٣).

الواو عاطفة، ولانهاية، وتقتلوا فعل مضارع مجزوم بلا، وأولادكم مفعول به، ومن إملاق جار ومجرور متعلقان بتقتلوا، أى: لأجل الإملاق، فمن سببية، ولم ينصب المفعول لأجله لاختلال شرطه، لأن الإملاق مصدر غير قلبى، ونحن مبتدأ وجملة نرزقكم خبر، وجملة نحن نرزقكم مستأنفة لتعليل النهى قبله، وإياهم عطف على الضمير فى نرزقكم. أهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:

قال الشنقيطى: (٤) نهى الله تعالى فى هذه الآية الكريمة عن قتل الأولاد من أجل الفقر الواقع بالفعل؛ ونهى فى سورة الإسراء عن قتلهم خشية الفقر المترقب المخوف منه، مع أنه غير واقع فى الحال بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ (٥) وقد أوضح ﷺ

(١) القول المفيد ٤١/١.

(٢) إعراب القرآن ٣/٢٦٨.

(٥) الإسراء: ٣١.

(*) الأنعام: ١٥١.

(٢) التفسير الكبير ٧/١٣/٢٤٤، ٢٤٥.

(٤) أضواء البيان ٢/٢٠٩.

معناه حين سأله عبدالله بن مسعود رضى الله عنه: «أى الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قال: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أى؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية (١)(٢).

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن ابن عباس: قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ الإملاق الفقر قتلوا أولادهم خشية الفقر. (٣)

وعن قتادة: فى قوله ولا تقتلوا أولادكم من إملاق أى خشية الفاقة (٤).

وعن السدى: ولا تقتلوا أولادكم من إملاق قال الإملاق الفقر (٥).

قال ابن جريج قوله من إملاق قال شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خيفة العيلة (٦).

عن الضحاك: فى قوله من إملاق يعنى من خشية فقر (٧).

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام بالمفسرين:

قال الجصاص: (٨) قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ كانت العرب تدفن أولادها أحياء البنات منهن خوف الإملاق، وهو الإفلاس؛ ومنه حديث النبى ﷺ: «أعظم الذنوب أن تجعل لله نداً وهو خلقك، وأن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك، وأن تزنى بحليلة جارك» (٩).

وهى الموءودة التى ذكرها الله تعالى فى قوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (١٠) فنهاهم الله عن ذلك مع ذكر السبب الذى كانوا من أجله يقتلونهم، وأخبر أنه رازقهم ورازق أولادهم أهـ.

(١) الفرقان: ٦٨ . (٢) تقدم تخريجه قريباً .

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٨/٦١) عن ابن عباس به .

(٤) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق عن قتادة .

(٥) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق عن السدى .

(٦) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» .

(٧) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق بإسناد منقطع . (٨) أحكام القرآن ٣/٣٦ .

(٩) [متفق عليه] البخارى (٧٥٢٠)، ومسلم فى الإيمان (١/٣٥٧/١٤٢) عن ابن مسعود .

(١٠) التكوير : ٩، ٨ .

وبنحوه قال ابن الجوزي (١).

قال الرزاي: (٢) قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فأوجب بعد رعاية حقوق الأبوين رعاية حقوق الأولاد وقوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أى من خوف الفقر وقد صرح بذكر الخوف فى قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ والمراد منه النهى عن الوأد، إذ كانوا يدفنون البنات أحياء، بعضهم للغيرة، وبعضهم خوف الفقر؛ وهو السبب الغالب، فيبين تعالى فساد هذه العلة بقوله ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنه تعالى إذا كان متكفلاً برزق الوالد والولد، فكما وجب على الوالدين تبقية النفس والاتكال فى رزقها على الله، فكذلك القول فى حال الولد. قال شمر: أملق، لازم ومتعد. يقال: أملق الرجل، فهو مملق، إذا افتقر، فهذا لازم، وأملق الدهر ماعنده، إذا أفسده، والإملاق الفساد. اهـ.

وبنحو ذلك ذكر القرطبي: (٣) قال النقاش عن مَوْجَّ أنه قال: الإملاق الجوع بلغة لحم. وذكر منذرين سعيد أن الإملاق الإنفاق؛ يقال: أملق ماله بمعنى أنفق. وذكر أن علياً قال لامرأته: أملقى من مالك ماشئت. ورجل ملق يعطى بلسانه ماليس فى قلبه. فالملق لفظ مشترك بيانه فى موضعه. اهـ.

قال القرطبي: (٤) وقد كان منهم من يفعل ذلك بالذكور والإناث كما هو ظاهر الآية. اهـ.

قلت وذكره السعدى أيضاً ثم قال (٥). وإذا كانوا منهيين عن قتلهم فى هذه الحال، وهم أولادهم، فنهيهم عن قتلهم، لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم، من باب أولى، وأحرى.

﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أى: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. اهـ.

(١) زاد المسير (١١٣/٣).

(٢) التفسير الكبير ١٣/٧، ٢٤٥.

(٣) القرطبي ٤، ٢٥٦٨.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ١٥/٢.

وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ . . .

● ماجاء فى الآيه من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين: (١) وبدأ هنا برزق الوالدين، وفى سورة الإسراء بدأ برزق الأولاد، والحكمة فى ذلك أنه قال هنا: ﴿من إِمْلَاقٍ﴾؛ فالإملاق حاصل، فبدأ بذكر الوالدين اللذين أملقا، وهناك قال: ﴿خَشِيَّةٌ إِمْلَاقٍ﴾؛ فهما غنيان، لكن يخشيان الفقر، فبدأ برزق الأولاد قبل رزق الوالدين.

وتقييد النهى عن قتل الأولاد بخشية الإملاق بناءً على واقع المشركين غالباً؛ فلا مفهوم له. أ. هـ.

● قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

الإعراب: (٢)

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الواو حرف عطف، ولانهاية، وتقربوا فعل مضارع مجزوم بلا، والواو فاعل، والفواحش مفعول به، وما إسم موصول فى محل نصب بدل من الفواحش، وهوبدل اشتمال، وجملة ظهر لامحل لها لانها صلة الموصول؛ ومنها جار ومجرور متعلقان بظهر، ومابطن عطف على ماظهر. اهـ.

● ماجاء فى تفسير الآيه من الأحاديث.

وفى الصحيحين: عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ «لأخذ أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن» (٣).

وقال - عبدالله بن عمير عن وراد عن مولاه المغيرة قال: قال سعد بن عبادة لو رأيت مع امرأتى رجلا لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال:

«أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير من سعد والله أغير منى من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن» (٤) أخرجاه.

قال كامل أبو العلاء عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قيل يارسول الله إنا نغار قال:

(١) القول المفيد: ٤١/١، ٤٢.

(٢) إعراب القرآن: (٢٦٨/٣، ٢٦٩).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٢٢٠)، ومسلم فى التوبة (٣٣/٨٩/٩).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٨٤٦)، ومسلم فى اللعان (١٧/٣٨٤/٥).

«إني لأغار والله أغير مني ومن غيرته نهى عن الفواحش» رواه ابن مردويه ولم يخرج
أحد من أصحاب الكتب الستة.

● ماجاء في تفسير الآية من الآثار.

عن ابن عباس قوله: ﴿لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قال كانوا في
الجاهلية لا يرون بالزنا بأساً في السر ويستقبحونه في العلانية فحرم الله الزنا في السر
والعلانية^(١).

عن السدي: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أما ما ظهر منها فزواني
الحوانيت وأما ما بطن فما خفي^(٢).

عن الضحاك: قوله: ﴿لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كان أهل الجاهلية
يستسرون بالزنا ويرون ذلك حلالاً ما كان سرا فحرم الله السر منه والعلانية ما ظهر منها
يعنى العلانية وما بطن ويعنى السر^(٣).

وعن قتادة: ﴿لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ سرها وعلانيتها^(٤).

وقال آخرون ما ظهر نكاح الأمهات وحلائل الآباء وما بطن الزنا.

عن مجاهد: ﴿لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قال ما ظهر مع بين الأختين
وتزويج الرجل امرأة أبيه من بعده وما بطن الزنا^(٥).

● ماجاء في تفسير الآية من كلام المفسرين.

● تعريف الفواحش، والحكمة من ذكرها بعد الوالدين والأولاد.

قال صاحب الظلال: ^(٦) والفواحش كل ما أفحش - أى تجاوز الحد - وإن كانت
أحياناً تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا. ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد

(١) أخرجه ابن جرير (٦١/٨) من طريق علي بن أبي طلحة عنه

(٢) أخرجه ابن جرير (٦١/٨) من طريق أسباط عن السدي. تفسير القرطبي (٦١/٨/٥).

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضوع السابق بإسناد منقطع.

(٤) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق عن قتادة.

(٥) أخرجه ابن جرير (٦١/٨) عن خصيف عن مجاهد.

(٦) الظلال - (١٢٣١/٣)

فى هذا الموضوع . لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها، فتكون هذه واحدة منها بعينها . وإلا فقتل النفس فاحشة، وأكل مال التيمم فاحشة، والشرك بالله فاحشة الفواحش . فتخصيص «الفواحش» هنا بفواحش الزنا أولى بطبيعة السياق . وصيغة الجمع، لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها . فالتبرج، والتهتك، والاختلاط المثير، والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة، والإغراء والتزيين والاستشارة . . . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة . وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن . منها المستسرفى الضمير ومنها البادى فى الجوارح . منها المخبوء المستور ومنها المعلن المكشوف! وكلها مما يحطم قوام الأسرة، وينخر فى جسم الجماعة، فوق ما يلطخ ضمائر الأفراد، ويحقر من اهتماماتهم، ومن ثم جاءت بعد الحديث عن الوالدين والأولاد أهـ .

قال الطبرى: (١) يقول تعالى ذكره ولاتقربوا الظاهر من الأشياء المحرمة عليكم التى هى علانية بينكم لاتتأكرون ركبوها والباطن منها الذى تأتونه سرا فى خفاء لاتجاهرون به فإن كل ذلك حرام وقد قيل إنما قيل لاتقربوا ما ظهر من الفواحش وما بطن لأنهم كانوا يستقبحون من معانى الزنا بعضا وليس ما قالوا من ذلك بمدفوع غير أن دليل الظاهر من التنزيل على النهى عن ظاهر كل فاحشة وباطنها ولاخبر يقطع العذر بأنه عنى به بعض دون جميع وغير جائز إحالة ظاهر كتاب الله إلى باطن إلا بحجة يجب التسليم لها أهـ .

وقال ابن الجوزى (٢):

فيه خمسة أقوال:

أحدها: أن الفواحش : الزنا، وماظهر منه: الإعلان به، ومابطن: الاستسار به، قاله ابن عباس، والحسن، والسدى .

والثانى: أن ماظهر: الخمر ونكاح المحرمات . ومابطن: الزنا، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد .

والثالث: أن ماظهر: الخمر، ومابطن: الزنا، قاله الضحاك .

والرابع: أنه عام فى الفواحش . وظاهرها: علانيتها، وباطنها: سرُّها قاله قتادة .

والخامس: أن ماظهر: أفعال الجوارح، وما بطن: اعتقاد القلوب، ذكره الماوردى فى تفسير هذا الموضوع، وفى تفسير قوله ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ (٣) .

(٢) زاد المسير ٣/١١٣، ١١٤ .

(١) تفسير الطبرى (٦١ / ٨) .

(٣) الأنعام : ١٢٠ .

قال الرازي: (١) والأولى أن لا يخص هذا النهى بنوع معين، بل يجرى على عمومه في جميع الفواحش ظاهرها وباطنها لأن اللفظ عام. والمعنى الموجب لهذا النهى وهو كونه فاحشة عام أيضاً ومع عموم اللفظ والمعنى يكون التخصيص على خلاف الدليل.

وفى قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ دقيقة، وهى : أن الانسان إذا احترز عن المعصية فى الظاهر ولم يحترز عنها فى الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته، ولكن لأجل الخوف من مذمة الناس، وذلك باطل، لأن من كان مذمة الناس عنده اعظم وقعاً من عقاب الله ونحوه فإنه يخشى عليه من الكفر، ومن ترك المعصية ظاهراً وباطناً، دل ذلك على أنه إنما تركها تعظيماً لأمر الله تعالى وخوفاً من عذابه ورغبة فى عبوديته.

وذكر نحو ما ذكره الرازي القرطبي فقال (٢):

قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ نظيره «وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ» (٣) فقوله: «ما ظهر» نهى عن جميع أنواع الفواحش وهى المعاصى. «وما بطن» ماعقد عليه القلب من المخالفة. وظهر وبطن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء. أهـ.

وذكر نحو ذلك السعدى فقال (٤):

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ أى: لا تقربوا الظاهر منها، والخفى، أو المتعلق منها بالظاهر، والمتعلق بالقلب والباطن.

والنهى عن قربان الفواحش، أبلغ من النهى عن مجرد فعلها، فإنه يتناول النهى عن مقدماتها، ووسائلها الموصلة إليها. أهـ.

قال صاحب «الظلال» (٥): ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية، كان التعبير: «ولا تقربوا». . . للنهى عن مجرد الاقتراب، سداً للذرائع، واتقاءً للجاذبية التى تضعف معها الإرادة. . . لذلك حرمت النظرة الثانية - بعد الأولى غير المتعمدة - ولذلك كان الإختلاط ضرورة تتاح بقدر الضرورة. ولذلك كان التبرج - حتى بالتعطر فى الطريق - حراماً، وكانت الحركات المثيرة، والضحكات المثيرة، والإشارات المثيرة، ممنوعة فى

(١) التفسير الكبير ٧/١٣/٢٤٥ . (٢) تفسير القرطبي ٤/٢٥٦٩

(٣) الأنعام : ١٥١

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٢/٨٦ . (٥) (٣/١٢٣١).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

الحياة الإسلامية النظيفة . . فهذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابها عتسا في المقاومة! فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود . . ويسوق العقوبات . وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس والجوارح . وربك أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير .

وكذلك نعلم ما الذى يريده بهذا الدين، وبحياة المجتمع كله وبحياة الأسرة، من يزينون للناس الشهوات، ومن يطلقون الغرائز من عقالها بالكلمة والصورة والقصة والفيلم وبالمعسكر المختلط وبسائر أدوات التوجيه والإعلام! أهـ.

● قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

الإعراب^(١): ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ عطف على ما تقدم، داخل فى حيزه، لاستيفاء المحرمات، وهى عشرة أشياء، ولانهاية وتقتلوا فعل مضارع مجزوم بلا، والنفس مفعول به، والتى اسم موصول فى محل نصب صفة، وجملة حرم الله لامحل لها لأنها صلة الموصول، وإلا أداة حصر، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، أى : لا تقتلونها فى حال من الأحوال إلا حال ملايستكم بالحق، فالباء للملابسة، وهى ومجرورها متعلقان بمحذوف حال من الواو فى «تقتلوا» ويجوز أن يكون الاستثناء المفرغ من الفعل نفسه، فيكون الجار والمجرور مفعولاً مطلقاً، أى : إلا القتل المتبس بالحق: كالقود وحد الردة ورجم المحصن. أ. هـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من آثار:

أخرج ابن أبى حاتم^(٢) عن سعيد بن جبير فى قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ يعنى نفس المؤمن التى حرم الله قتلها إلا بالحق .

وستأتى الأحاديث الخاصة بتفسير الآية خلال كلام الجصاص والقرطبى .

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى^(٣): يقول تعالى ذكره ﴿لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعنى بالنفس التى حرم الله قتلها نفس مؤمن أو معاهد ، وقوله ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعنى بما أباح قتلها به من أن تقتل نفساً قوداً بها أو تزنى وهى محصنه فترجم أو ترتد عن دينها الحق فتقتل فذلك الحق الذى أباح الله جل ثناؤه قتل النفس التى حرم على المؤمنين قتلها به . أهـ.

(٢) الدر ٣/٣٨٣

(١) إعراب القرآن ٣/٣٩٦ .

(٣) تفسير الطبرى ٥/٨/٦٢ .

قال ابن الجوزى^(١): والنفس التي حرم الله نفس مسلم أو معاهد، والمراد بالحق: إذن الشرع. أ. هـ.

قال الجصاص^(٢): إلا بالحق قال أبو بكر روى عن النبي ﷺ أنه قال:

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولون لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»^(٣).

ولما أراد أبو بكر قتال مانعي الزكاة قالوا له: إن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها» فقال أبو بكر: هذا من حقها، لو منعوني عقلاً مما كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه^(٤).

وقال النبي ﷺ «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: زنا بعد إحصان وكفر بعد إيمان وقتل نفس بغير نفس»^(٥) وهذا عندنا ممن يستحق القتل ويتقرر عليه حكمه. وقد يجب قتل غير هؤلاء على وجه الدفع، مثل قتل الخوارج ومن قصد قتل رجل وأخذ ماله فيجوز قتله على جهة المنع من ذلك؛ لأنه لو كلف عن ذلك لم يستحق القتل. أهـ.

قال الرازي^(٦): وأعلم أن هذا داخل في جملة الفواحش إلا أنه تعالى أفرده بالذكر لفائدتين:

إحدهما: أن الأفراد بالذكر يدل على التعظيم والتفخيم، كقوله ﴿وملائكته وجبريل وميكال﴾.

والثانية: أنه تعالى أراد أن يستثنى منه، ولا يتأتى هذا الاستثناء في جملة الفواحش. ثم قال^(٧) والحاصل أن الأصل في قتل النفس هو الحرمة وجله لا يثبت إلا بدليل منفصل.

قال القرطبي^(٨): وهذه الآية نهى عن قتل النفس المحرمة، مؤمنة كانت أو معاهدة

(١) زاد المسير ١١٤/٣.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الإيمان (ح ٢٥) ومسلم فى الإيمان (٢١١/١) وانظر تخريجنا «رياض الصالحين» حديث رقم (٣٩١).

(٤) ما قبله.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الديات (ح ٦٧٧٨) ومسلم فى القسامة (١١٦٤/١١) وانظر تمام تخريجنا «جامع العلوم والحكم» الحديث الرابع عشر.

(٦) التفسير الكبير ٢٤٥، /١٣/٧، (٧) التفسير الكبير ٢٤٩/١٣/٧.

(٨) تفسير القرطبي ٢٥٧٥، ٢٥٦٩/٤.

إلا بالحق الذى يوجب قتلها وهذا الحق أمور: منها منع الزكاة وترك الصلاة؛ وقد قاتل الصديق مانع الزكاة . وفى التنزيل ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ (١) وهذا بين . وقال عليه السلام: «إذا بويع لخليفتين فأقتلوا الآخر منهما» (٢) أخرجه مسلم .

وروى أبو داود عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فأقتلوا الفاعل والمفعول به» (٣) .

وفى التنزيل: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ (٤) وقال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ (٥) الآية: وكذلك من شق عصا المسلمين وخالف إمام جماعتهم وفرق كلمتهم وسعى فى الأرض فساداً بانتهاج الأهمل والمال والبغى على السلطان والامتناع من حكمه يقتل . فهذا معنى قوله «إلا بالحق» .

وقال عليه السلام: «المؤمنون تكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده ولا يتوارث أهل ملتين» (٦) وروى أبو داود والنسائى عن أبى بكره قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قتل معاهدا فى غير كنهه حرم الله عليه الجنة» (٧) وفى رواية أخرى لأبى داود قال: «من قتل رجلا من أهل الذمة لم يجد ربح الجنة وإن ربحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً» وفى البخارى فى هذا الحديث «وإن ربحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً» (٨) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

قال صاحب «الظلال» (٩) ويكثر فى السياق القرآنى مجيء النهى عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة: الشرك، الزنا، وقتل النفس . . ذلك أنها كلها جرائم قتل فى الحقيقة!

[الجريمة الأولى] جريمة قتل للفطرة؛

[الثانية] جريمة قتل للجماعة .

(١) التوبة : ٥

(٢) مسلم فى الإمامة (٦/٤٨٤/٦١) .

(٣) أبو داود (٤٤٦٢) وأنظر تخريجه فى «منار السبيل»، و«السلسيل» بتخريجنا .

(٤) المائدة : ٣٣ (٥) الحجرات : ٩ .

(٦) [صحيح] أخرج أحمد (١/١١٩، ١٢٢) والنسائى فى القسامة (٨/٢٠، ٢٤) من

حديث على رضى الله عنه .

(٧) أخرجه أبو داود (ح ٢٧٦٠)، والنسائى فى «الكبرى» (ح ٦٩٤٩) .

(٨) [صحيح] أخرجه البخارى (٣١١٦) و (٦٩١٤) .

(٩) ١٢٣٢/١٢٣١/٣ .

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[الثالثة] قتل للنفس المفردة. إن الفطرة التي لا تعيش على التوحيد فطرة ميتة والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتماً إلى الدمار. والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية. شواهد من التاريخ. ومقدمات الدمار والإنهيار في الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد والمجتمع الذي تشيع فيه المقاتل والثارات، مجتمع مهدد بالدمار.

ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم هي أقسى العقوبات لأنه يرى حماية مجتمعه من عوامل الدمار أهم.

● قوله ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

الإعراب (١): ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الإشارة مبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة للإشارة إلى ماتقدم، وجملة وصاكم خبر ذلكم، وبه جار ومجرور متعلقان بوصاكم، ولعلكم تعقلون لعل واسمها وخبرها، وجملة الرجاء حالية، أى: لعلكم تستعملون عقولكم التي تعقل نفوسكم، وتحبسها عن اجتراح هذه المنهيات.

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الرزاي (٢): ثم أنه تعالى لما بين أحوال هذه الأقسام الخمسة أتبعه باللفظ الذي يقرب إلى القلب القبول، فقال ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ لما في هذه اللفظة من اللطف والرأفة، وكل ذلك ليكون الكلف أقرب إلى القبول، ثم أتبعه بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى لكى تعقلوا فوائد هذه التكاليف، ومنافعها في الدين والدنيا.

قال القرطبي (٣): قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرمات «وَصَّاكُمْ» الوصية الأمر المؤكد المقدر.

روى مطر الوراق عن نافع عن ابن عمر أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أشرف على أصحابه فقال: عَلَامٌ تَقْتُلُونِي! فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَحِلُّ دَمَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثَ رَجُلٍ زَنِيٍّ بَعْدَ حَصَانَةِ فَعْلِيهِ الرَّجْمِ أَوْ قَتْلِ عَمْدٍ أَوْ فَعْلِيهِ الْقَوْدِ أَوْ ارْتِدَائِهِ بَعْدَ إِسْلَامِهِ فَعْلِيهِ الْقَتْلِ» فَوَاللَّهِ مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، وَلَا قَتَلْتُ أَحَدًا فَأَقِيدُ

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩،

(٢) التفسير الكبير ٧/ ١٣/ ٢٤٦.

(٣) تفسير القرطبي ٤/ ٢٧٥٠.

نفسى به، ولا ارتددت منذ اسلمت، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ذلكم الذى ذكرت لكم وصاكم به لعلكم تعقلون^(١).

قال السعدى^(٢) قوله: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ عن الله وصيته، ثم تحفظونها، ثم تراعونها، وتقومون بها.

ودلت الآية، على أنه بحسب عقل العبد، يكون قيامه بما أمر الله به. وذكر نحوه ابن عثيمين فقال^(٣).

العقل هنا: حسن التصرف، وأما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فمعناه: تفهمون.

وفى هذا دليل على أن هذه الأمور إذا التزم بها الإنسان؛ فهو عاقل رشيد، وإذا خالفها؛ فهو سفيه ليس بعاقل. أهد.

قال صاحب «الظلال»^(٤). ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهذا التعقيب يجيء وفق المنهج القرآنى فى ربط كل أمر وكل نهى بالله. تقريراً لوحدة السلطة التى تأمر وتنهى فى الناس، وربطاً للأوامر والنواهى بهذه السلطة التى تجعل للأمر والنهى وزنه فى ضمائر الناس!

كذلك تجيء فيه الإشارة إلى التعقل. فالعقل يقتضى أن تكون هذه السلطة وحدها هى التى تعبد الناس لشرعها. وقد سبق أنها سلطة الخالق الرازق المتصرف فى حياة الناس! وهذا وذلك فوق ما فى الطائفة الأولى من التجانس. وما بين الطائفة الثانية كذلك من التجانس. فجعل هذه فى آية، وتلك فى آية، وبينهما هذا الإيقاع.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين: ^(٥) وقد تضمنت هذه الآية خمس وصايا.

الأولى: توحيد الله.

الثانية: الإحسان بالوالدين.

الثالثة: أن لا تقتل أولادنا.

الرابعة: أن لا تقرب الفواحش.

الخامسة: أن لا تقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق.

(٤) أخرجه أبوداود (ح ٤٥٠٢) والترمذى (٢١٥٨) والنسائى (٣٤٨٢) وانظر تمام تخريجه

«جامع العلوم والحكم» (ح ١٤) بتخريجنا.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٨٦/٢ . (٣) القول المفيد ٤٣/١، ٤٤

(٤) ١٢٣٢/٣ (٥) القول المفيد ٤٤/١

● قوله : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾

الإعراب (١).

الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتقربوا فعل مضارع مجزوم بلا ، والواو فاعل ، ومال اليتيم مفعوله . أهـ .

● ما جاء في تفسير الآية من الأحاديث .

قال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ الآية فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من شرابه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ قال فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم رواه أبو داود (٢) .

● ما جاء في تفسيرها من الآثار :

أخرج ابن أبي حاتم عن عطية في قوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال طلب التجارة فيه والربح فيه (٣) .

عن الضحاك في قوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال : يتغى لليتيم في ماله (٤) .

عن ابن زيد في قوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال التى هى أحسن أن يأكل بالمعروف ، إن افتقر وإن استغنى فلا يأكل . قال الله ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٥) . فسئل عن الكسوة؟ فقال : لم يذكر الله كسوة وإنما ذكر الأكل (٦) .

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٧ .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٧١) وانظر تمام تخريجه فى «فتح القدير» بتخريجنا ، وابن أبي حاتم بتخريجنا .

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣٨٤/٣) ونسبه لابن أبى حاتم عن عطية

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣٨٤/٣) ونسبه لابن أبى حاتم عن الضحاك .

(٥) النساء : ٦ .

(٦) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم أيضاً .

عن عكرمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ قال: ليس له أن يلبس من ماله قلنسوة ولا عمامة ولكن يده مع يده (١).

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الجصاص (٢):

إنما خص اليتيم بالذكر فيما أمرنا به من ذلك لعجزه عن الانتصار لنفسه ومنع غيره عن ماله، ولما كانت الاطماع تقوى في أخذ ماله أكد النهي عن أخذ ماله بتخصيصه بالذكر. أهـ.

وذكر ذلك بنحوه ابن الجوزي.

قال الرازي: (٣) أعلم أنه تعالى ذكر في الآية الأولى خمسة أنواع من التكاليف، وهي أمور ظاهرة جلية لا حاجة فيها إلى الفكر والاجتهاد، ثم ذكر تعالى في هذه الآية أربعة أنواع من التكاليف، وهي أمور خفية يحتاج المرء العاقل في معرفته بمقدارها إلى التفكير، والتأمل والاجتهاد.

فالنوع الأول: من التكاليف المذكورة في هذه الآية قوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

وأعلم أنه تعالى قال في سورة البقرة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ (٤).

قال السعدي: (٥) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ بأكل، أو معارضة على وجه المحاباة لأنفسكم، أو أخذ من غير سبب.

قال صاحب «الظلال»: (٦) واليتيم ضعيف في الجماعة، يفقده الوالد الحامي والمربي. ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة - على أساس التكافل الاجتماعي الذي يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعي - وكان اليتيم ضائعاً في المجتمع العربي في

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ونسبه لأبي الشيخ.

(٢) أحكام القرآن ٣٧/٢.

(٣) التفسير الكبير ٧/١٣/٢٤٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٨٦/٢.

(٥) في ظلال القرآن ٣/١٢٣٢.

(٤) البقرة: ٢٢٠.

الجاهلية . وكثرة التوجيهات الواردة فى القرآن وتنوعها وعنفها أحيانا تشي بما كان فاشيا فى ذلك المجتمع من ضيعة اليتيم فيه؛ حتى انتدب الله يتيماً كريماً فيه فعهد إليه بأشرف مهمة فى الوجود. حين عهد إليه بالرسالة إلى الناس كافة، وجعل من آداب هذا الدين الذى بعثه به رعاية اليتيم وكفالاته على النحو الذى نرى منه هذا التوجيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

قوله ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

الإعراب^(١): إلا أداة حصر، وبالتى إسم الموصول نعت لمصدر محذوف، والجار والمجرور متعلقان بتقربوا . أى : إلا بالخصلة التى هى أحسن وهى مبتدأ، وأحسن خبره. والجملة الاسمية لا محل لها لانها صلة الموصول، وأتى بصيغه اسم التفضيل تنبيهاً على أن يتحرى فى ذلك غايه التحرى ويفعل الأحسن. أهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الجصاص: (٢) وقوله تعالى ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يدل على أن من له ولاية على اليتيم يجوز له دفع مال اليتيم مضاربة، وأن يعمل به هو مضاربة فيستحق ربحه إذ رأى ذلك أحسن، وأن يبضع ويستأجر من يتصرف ويتجر فى ماله، وأن يشتري ماله من نفسه إذا كان خيراً لليتيم، وهو أن يكون ما يعطى اليتيم أكثر قيمة مما يأخذه منه. وأجاز أبو حنيفة شراء مال اليتيم لنفسه إذا كان خيراً لليتيم بهذه الآية أهـ.

وفصل ابن الجوزى فقال (٣).

وفى قوله ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أربع أقوال:

أحدها: أنه أكل الوصى المصلح للمال بالمعروف وقت حاجته، قاله ابن عباس، وابن زيد.

والثانى: التجارة فيه، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، والسدى.

والثالث: أنه حفظه له إلى وقت تسلميه إليه، قاله ابن السائب.

والرابع: أنه حفظه عليه، وتثميته له، قاله الزجاج. قال: «وحتى» محمولة على

المعنى؛ فالمعنى: احتفظوه عليه حتى يبلغ أشده، فإذا بلغ أشده، فادفعوه إليه.

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٧ .

(٢) أحكام القرآن : ٣٧/٢ .

(٣) زاد المسير ٣/ ١١٤ .

ومال الرازي إلى القول الأول فقال: (١). والمعنى ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ إلا بأن يسعى في تنميته وتحصيل الربح به، ورعاية وجوه الغبطة له، ثم إن كان القيم فقيراً محتاجاً أخذ بالمعروف، وإن كان غنياً فاحترز عنه كان أولى فقوله ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ معناه كمعنى قوله ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٢).

ومال القرطبي للثاني فقال (٣):

﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى بما فيه صلاحه وثماره، وذلك بحفظ أصوله وثمار فروعه، وهذا أحسن الأقوال فى هذا؛ فإنه جامع، قال مجاهد: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالتجارة فيه، ولا تشتري منه ولا تستقرض أهـ.

ومال صاحب «الظلال» إلى الثالث فقال (٤)

فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن لليتيم. فيصونه ويطعمه، حتى يسلمه له كاملاً نامياً عند بلوغه أشده. أهـ (٥)

قال السعدى: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى: إلا بالحال التى تصلح بها أموالهم، ويتشفعون بها. فدل هذا، على أنه لا يجوز قربانها، والتصرف بها، على وجه يضر اليتامى، أو على وجه لاضرر فيه ولا مصلحة.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين: (٦) والحسن هنا يشمل: الحسن الدنيوى، والحسن الدينى، فإذا لاح تصرفان أحدهما أكثر ربحاً وفيه ربا، والآخر أقل ربحاً وهو أسلم من الربا؛ فتقدم الأخير؛ لأن الحسن الشرعى مقدم على الحسن الدنيوى المادى.

قوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

(١) التفسير الكبير (٧ / ١٣ / ٢٤٦).

(٢) النساء: (٦).

(٣) تفسير القرطبي ٢٥٧٠. (٤) ١٢٣٢ / ٣.

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٢ / ٨٦).

(٦) القول المفيد ١ / ٤٤.

الإعراب (١)

(حتى) حرف غاية وجر، (ويبلغ) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، والجار والمجرور متعلقان بتقربوا، و(أشده) مفعول به. أهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من الآثار.

عن الشعبي في قوله ﴿حَتَّى يَلْغَ أَشُدُّهُ﴾ قال: الأشد: الحلم إذا كتبت له الحسنات وكتبت عليه السيئات (٢).

وعن محمد بن قيس في قوله ﴿حَتَّى يَلْغَ أَشُدُّهُ﴾ قال خمس عشرة سنة (٣).

وعن ربيعة بن أبي عبدالرحمن. إنه كان يقول في هذه الآية: الأشد الحلم لقوله ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ (٤).

عن زيد بن أسلم قال: الأشد: الحلم (٥).

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين.

قال ابن جرير: وفي الكلام محذوف، ترك ذكره اكتفاء بدلالة ما ظهر عما حذف، لأن المعنى: يبلغ أشده؛ فإذا بلغ أشده فأنستم منه رشداً، فادفعوا إليه ماله. ثم قال: إن أراد بما ظهر ما ظهر في هذه الآية، فليس بصحيح؛ وإنما استفيد إيناس الرشد والإسلام من آية أخرى؛ وإنما أطلق في هذه الآية ما قيد في غيرها، فحمل المطلق على المقيد.

قال الرازي (٦): وأما قوله ﴿حَتَّى يَلْغَ أَشُدُّهُ﴾ فالمعنى: احفظوا ماله حتى يبلغ أشده فإذا بلغ أشده فادفعوا ماله أهـ.

قال ابن الجوزي: (٧) وللمفسرين في الأشد ثمانية أقوال:

أحدها: أنه ثلاث وثلاثون سنة، رواه ابن جبير عن ابن عباس.

(١) إعراب القرآن (٣ / ٢٧٧).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٣/٣٨٤) نسبة لابن أبي حاتم فانظره بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» في الموضوع السابق ونسبه لابن أبي حاتم عن محمد بن قيس

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» ونسبه لأبي الشيخ.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» ونسبه لأبي الشيخ عن زيد بن أسلم.

(٦) «التفسير الكبير» (٧ / ١٣ / ٢٤٧)

(٧) «زاد المسير» (٣ / ١١٥).

والثاني: ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أربعون سنة، روى عن عائشة عليها السلام.

والرابع: ثمانى عشرة سنة، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل.

والخامس: خمس وعشرون سنة، قاله عكرمة.

والسادس: أربع وثلاثون سنة، قاله سفيان الثوري.

والسابع: ثلاثون سنة، قاله السدي.

وقال: ثم جاء بعد هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾^(١) فكأنه يشير إلى النسخ.

والثامن: بلوغ الحلم، قاله زيد بن أسلم، والشعبي، ويحيى بن يعمر، وربيعه، ومالك بن أنس وهو الصحيح.

ولا أظن بالذين حكينا عنهم الأقوال التي قبله فسروا هذه الآية بما ذكر عنهم، وإنما ظن أن الذين جمعوا التفاسير، نقلوا هذه الأقوال من تفسير قوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾^(٢) إلى هذا المكان؛ وذلك نهاية الأشد، وهذا ابتداء تمامه؛ وليس هذا مثل ذلك.

قال الرازي:^(٣) بلوغ الأشد: مبلغ الرجل الحكمة والمعرفة.

قال القرطبي:^(٤) قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعنى قوته، وقد تكون فى البدن، وقد تكون فى المعرفة بالتجربة، ولا بد من حصول الوجهين؛ فإن الأشد وقعت هنا مطلقة. وقد جاء بيان حال اليتيم فى سورة «النساء» مقيدة، فقال: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد؛ فلو مكن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة لأذهبه فى شهواته وبقي صعلوكًا لامال له.

وخص اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وافتقاد الآباء لابنائهم فكان الاهتمام بفقيد الأب أولى.

قال الشنقيطى:^(٥) والتحقيق أن المراد بالأشد فى هذه الآية البلوغ، بدليل قوله

تعالى: ﴿إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾^(٦).

والبلوغ يكون بعلامات كثيرة، كالإنبات، واحتلام الغلام، وحيض الجارية،

(٢) يوسف: ٢٢، والقصص: ١٤.

(١) النساء: ٦.

(٤) تفسير القرطبي (٤/٢٥٧).

(٣) التفسير الكبير (٧/١٣/٢٤٧).

(٦) النساء: ٦.

(٥) أضواء البيان (٢/٢١٠).

وحملها، وأكثر أهل العلم على أن سن البلوغ خمسة عشرة سنة.

ومن العلماء من قال: إذا بلغت قامته خمسة أشبار، فقد بلغ، ويروى هذا القول عن علي، وبه أخذ الفرزدق في قوله يرثي يزيد بن المهلب.

مازال مذ عقدت يده إزاره فسما فأدرك خمسة الأشبار
يدنى خوافق من خوافق تلتقى فى ظل معتبط الغبار مثار

قال الشنقيطى: قال مالك وأصحابه: إن الرشد الذى يُدفع به المال إلى من بلغ النكاح، هو حفظ المال وحسن النظر فى التصرف فيه، وإن كان فاسقاً شريفاً، كما أن الصالح التقى إذا كان لا يحسن النظر فى المال لا يدفع إليه ماله، قال ابن عاصم المالكي فى «تحفته»:

وشارب الخمر إذا ماثمرا لمايلى من ماله لن يحجرا
وصالح ليس يجيد النظرا فى المال إن خيف الضياع حجرا

وقال الشافعى ومن وافقه: لا يكون الفاسق العاصى رشيداً، لأنه لاسفه أعظم من تعريضه نفسه لسخط الله وعذابه بارتكاب المعاصى، والله تعالى أعلم.

● شبهة الرد عليها

قال الشنقيطى: (١) قد يتوهم غير العارف من مفهوم مخالفة هذه الآية الكريمة، أعنى مفهوم الغاية فى قوله: ﴿حَتَّى يَلْغَ أَشُدُّهُ﴾ إنه إذا بلغ أشده، فلا مانع من قربان ماله بغير التى هى أحسن، وليس ذلك مراداً بالآية، بل الغاية ببلوغ الأشد يراد بها: أنه إن بلغ أشده يدفع إليه ماله، إن أونس منه الرشد، كما بينه تعالى بقوله: ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ (٢). وقد سبق إلى هذا المعنى القرطبى رحمه الله.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾

الإعراب: (٣) الجملة معطوفة، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والميزان: مفعول به معطوف على ﴿الْكَيْلَ﴾، و الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال من المفعول به، أى مقسطين عادلين، ويجوز أن يكون حالاً من المفعول به، أى: تآمين.

(٢) النساء: ٦.

(١) أضواء البيان ٢/ ٢١٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٧.

● ما جاء في تفسير الآية بالقرآن:

قال الشنقيطي: (١) أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بإيفاء الكيل والميزان بالعدل، وذكر أن من أحل بايقاته من غير قصد منه لذلك، لاجرح عليه لعدم قصده، ولم يذكر هنا عقاباً لمن تعمد ذلك ولكن توعد بالويل في موضع آخر، ووبخه بأنه لا يظن البعث ليوم القيامة، وذلك في قوله ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزَّنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦). وذكر في موضع آخر أن إيفاء الكيل والميزان خير لفاعله، وأحسن عاقبة، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣) أهـ.

● ما جاء في تفسير الآية بالسنة.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ يا معشر التجار أنكم قد وليتم أمر هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم (المكيال والميزان) (٤).

من أقوال التابعين: عن قتادة في قوله ﴿بالقسط﴾ قال بالعدل (٥).

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبري: (٦) يقول تعالى ذكره ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ لا تبخسوا الناس الكيل إذا كلتموهم، والوزن إذا وزنتموهم لكن أوفوهم حقوقهم. وإيفاؤهم ذلك إعطاؤهم حقوقهم تامه (بالقسط) يعني بالعدل.

قال الجصاص: (٧) فيه أمر بإيفاء الحقوق على الكمال

قال الرازي: (٨) وأعلم أن كل شيء بلغ تمام الكمال، فقد وفى وتم. يقال: درهم واف، وكيل واف، وأوفيته حقه، ووفيته إذا أتمته، وأوفى الكيل إذا أتمه ولم ينقص منه شيئاً.

(٢) المطففين: ١ - ٦.

(١) أضواء البيان (٢/٢١١، ٢١٢).

(٣) الإسراء: ٣٥.

(٤) ذكره السيوطي في الدر (٣/١٨٥) ونسبه للترمذي وضعفه، وابن عدى، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» وأخرجه الترمذي (١٢١٧) وصححه موقوفاً للترمذي (١٢١٧).

(٥) ذكره في الدر (٣/٣٨٥) ونسبه لأبي شيخ.

(٧) أحكام القرآن (٣/٣٨).

(٦) تفسير الطبري (٥/٨٦٣).

(٨) التفسير الكبير (٧/١٣٢٤٧).

وقوله ﴿وَالْمِيزَانَ﴾: أى الوزن بالميزان.

وقوله ﴿بِالْقِسْطِ﴾: أى بالعدل لا بخس ولا نقصان.

فإن قيل: إيفاء الكيل والميزان، هو عين القسط، فما الفائدة فى هذا التكرير؟

قلنا: أمر الله المعطى بإيفاء ذى الحق حقه من غير نقصان، وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة.

وأقر ذلك القرطبي فقال^(١): قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أى:

بالاعتدال فى الأخذ والعطاء عند البيع والشراء. اهـ.

وذكر نحوه ابن كثير.

قال صاحب «الظلال»^(٢): وهذه فى المبادلات التجارية بين الناس فى حدود طاقة

التحرى والإنصاف. والسياق يربطها بالعقيدة لأن المعاملات فى هذه الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة. والذى يوصى بها ويأمر هو الله. ومن هنا ترتبط بقضية الألوهية والعبودية، وتذكر فى هذا المعرض الذى يبرز فيه شأن العقيدة، وعلاقتها بكل جوانب الحياة.

ولقد كانت الجاهليات - كما هى اليوم - تفصل بين العقيدة والعبادات، وبين الشرائع

والمعاملات. من ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن قوم شعيب: «قالوا: يا شعيب

أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء»!؟

ومن ثم يربط السياق القرآنى بين قواعد التعامل فى المال والتجارة والبيع

والشراء، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة، للدلالة على طبيعة هذا الدين، وتسويته بين

العقيدة والشريعة، وبين العبادة والمعاملة، فى أنها كلها من مقومات هذا الدين، المرتبطة

كلها فى كيانه الأصيل. اهـ.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾.

أى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ إذا كلمت فيما يكال من الأطعمة والحبوب.

وأوفوا الميزان: إذا وزنتم فيما يوزن؛ كاللحوم مثلاً.

والأمر بالإيفاء شامل لجميع ما تتعامل به مع غيرك؛ فيجب عليك أن توفى بالكيل

والوزن وغيرهما فى التعامل. اهـ.

(٢) (١٢٣٣/٣).

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٥٧٢).

(٣) القول المفيد (١/٤٥).

قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

الإعراب: (١) ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

الجملة معترضه بين المتعاطفين لا محل لها، للتنبية على أن أمر الكيل والميزان ومراعاة العدل فيهما يتطلب دقة ومغالبه للسهو و(لا): نافية، (ونكلف) فعل مضارع مرفوع، ونفساً مفعول به، (وإلا) أداة حصر، و(وسعها) مفعول به ثانى، كأنه قيل: أعملوا كل ما فى وسعكم وطاقتكم أهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة:

عن سعيد بين المسيب قال. تلا رسول الله ﷺ ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (٢).

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فقال: من أوفى على يديه فى الكيل والميزان الله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما لم يؤاخذ، وذلك تأويل وسعها.

● ما جاء فى الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى: (٣) وأما قوله ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فإنه: يقول لانكلف نفساً من إيفاء الكيل والوزن إلا مايسعها، فيحل لها ولا تخرج فيه. وذلك أن الله جل ثناؤه علم من عباده أن كثيراً منهم تضيق نفسه عن أن تطيب لغيره بما لا يجب عليها له فأمر المعطى بإيفاء رب الحق حقه الذى هو له، ولم يكلفه الزيادة لما فى الزيادة عليه من ضيق نفسه بها وأمر الذى له الحق بأخذ حقه ولم يكلفه الرضا بأقل منه لما فى النقصان عنه من ضيق نفسه فلم يكلف نفساً منهما إلا ما لا حرج فيه ولا ضيق، فلذلك قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

قال الجصاص (٤): ولما كان الكيل والوزن يتعذر فيهما التحديد بأقل القليل علمنا أنه لم يكلفنا ذلك وإنما كلفنا الاجتهاد فى التحرى دون حقيقة الكيل والوزن، وهذا أصل فى جواز الاجتهاد فى الأحكام وأن كل مجتهد مصيب وإن كانت الحقيقة المطلوبة بالاجتهاد واحدة؛ لأننا قد علمنا أن للمقدار المطلوب من الكيل حقيقة معلومة عند الله تعالى قد أمرنا بتحريها والاجتهاد فيها ولم يكلفنا إصابتها، إذ لم يجعل لنا دليلاً عليها، فكان كل ما أذانا إليها اجتهادنا من ذلك فهو الحكم الذى تعبدنا به.

(١) إعراب القرآن (٣/٢٧٧). (٢) ذكره فى الدرر (٣/٣٨٤) ونسبه لابن مردويه.

(٣) تفسير الطبرى (٥/٨/٦٣). (٤) أحكام القرآن (٣/٣٨).

وقد يجوز أن يكون ذلك قاصراً عن تلك الحقيقة أو زائداً عليها؛ ولكنه لما لم يجعل لنا سبيلاً إليها أسقط حكمها عنا.

ويدلك على أن تلك الحقيقة المطلوبة غير مدركة يقينا أنه قد يكال أويوزن ثم يعاد عليه الكيل أو الوزن فيزيد أو ينقص لاسيما فيما كثر مقداره؛ ولذلك قال الله تعالى ﴿لَا نَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (١) في هذا الموضع، يعنى أنه ليس عليه أكثر مما يتحراه باجتهاده وقد استدل عيسى بن أبان بأمر الكيل والوزن على حكم المجتهدين في الأحكام وشبهه به.

قال الرازى: (٢) واعلم أنه لما كان يجوز أن يتوهم الإنسان أنه يجب على التحقيق وذلك صعب شديد في العدل أتبعه الله تعالى بما يزيل هذا التشديد فقال ﴿لَا نَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (٣) أى الواجب فى إيفاء الكيل والوزن هذا القدر الممكن فى إيفاء الكيل والوزن. أما التحقيق فغير واجب.

قال القرطبي: (٤) وهذا يقتضى أن هذه الأوامر . إنما هى فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز، ومالا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكيلين، ولا يدخل تحت قدرة البشر فمَعَفُوا عنه.

ثم قال (٥) وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه عن عبدالله بن عباس أنه قال: ماظهر الغلوس فى قوم قط إلا ألقى الله فى قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا فى قوم إلاكثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قُطِع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم، ولا حقر قوم بالعهد إلا سلط عليهم الله العدو. وقال ابن عباس أيضاً: إنكم معشر الأعاجم قد وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم (٦).

قال السعدى (٧): وبهذه الآية استدل الأصوليون، بأن الله لا يكلف أحداً، مالا يطيق، وعلى أن من اتقى الله، فيما أمر، وفعل مايمكنه من ذلك، فلا حرج عليه فيما سوى ذلك.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين: (٨) ولما كان قوله ﴿بِالْقِسْطِ﴾ قد يشق بعض الأحيان، لأن الإنسان

(١) البقرة: (٢٨٦). (٢) التفسير الكبير (٧/١٣/٢٤٧).

(٣) الأنعام: (١٥٢). (٤) تفسير القرطبي (٤/٢٥٧٣).

(٥) نفس المصدر السابق. (٦) تقدم قريباً.

(٧) تيسير الكريم الرحمن (٢/٨٧). (٨) القول المفيد (١/٤٥).

قد يفوته أن يوفى الكيل أو الوزن أحياناً، أعقب ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى طاقتها، فإذا بذل جهده وطاقته وحصل التقص، فلا يعد مخالفاً لأن ما خرج عن الطاقة معفو عنه فيه وكما أن هذه الجملة تفيد العفو من وجه، وهو ما خرج عن الوسع؛ فإنها تفيد التغليظ من وجه، وهو أن على المرء أن يبذل وسعه فى الإيفاء بالقسط، ولكن متى تبين الخطأ وجب تلافيه لأنه دال فى الوسع.

قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

الإعراب: (١)

الواو عاطفه، (وإذا) شرطية ظرفية، وجملة (قلتم) فى محل جر بالإضافة، و(الفاء) رابطة، و(اعدلوا) فعل أمر مبنى على حذف النون، والواو حالية، و(لو) شرطية غير جازمة، و(كان) فعل ماضى ناقص، واسمها ضمير مستتر، و(ذا) قرىبى خبرها.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:

قال ابن كثير: (٢) وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ الآية، وكذا التى تشبهها فى سورة النساء يأمر تعالى بالعدل فى الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد فى كل وقت وكل حال.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ يعنى ولو كان قرابتك فقل فيه الحق (٣).

وأخرج أيضاً عن ابن زيد فى قوله ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ قال قولوا الحق (٤). قال ابن عثيمين: (٥) وقد أقسم أشرف الخلق. وسيد ولد آدم. وأعدل البشر؛ محمد ﷺ وقال وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها (٦).

(١) إعراب القرآن (٣/٢٧٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/١٨٢).

(٣) ذكره فى الدر (٣/٣٨٥) ونسبه لابن أبى حاتم، فانظره بتخریجنا.

(٤) ذكره فى الدر (٣/٣٨٥) ونسبه لابن أبى حاتم. فأنظر بتخریجنا.

(٥) القول المفيد (١/٤٦).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الانبياء، ومسلم فى الحدود.

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبري: (١) يعنى تعالى ذكره بقوله ﴿قَلْتُمْ فَأَعْدِلُوا﴾ وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم فقولوا الحق بينهم واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا ولو كان الذى يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة به لكم ولا يحملنكم قرابة قريب أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه.

قال الرازى: (٢) واعلم أن هذا أيضاً من الأمور الخفية التى أوجب الله تعالى فيها أداء الأمانة.

والمفسرون حملوه على أداء الشهادة فقط، والأمر والنهى فقط.

قال القاضى: وليس الأمر كذلك بل يدخل فيه كل مايتصل بالقول.

فيدخل فيه مايقول المرء فى الدعوة إلى الدين وتقرير الدلائل عليه بأن يذكر الدليل ملخصاً عن الحشو والزيادة بألفاظ مفهومة معتادة، قريبة من الأفهام.

ويدخل فيه: أن يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واقعاً على وجه العدل من غير زيادة فى الإيذاء والإيحاء، ونقصان عن القدر الواجب، ويدخل فيه الحكايات التى يذكرها الرجل حتى لايزيد فيها ولاينقص عنها، ومن جملتها تبليغ الرسالات عن الناس، فإنه يجب أن يؤديها من غير زيادة ولانقصان ويدخل فيه: حكم الحاكم بالقول، ثم إنه تعالى بين أنه يجب أن يسوى فيه بين القريب والبعيد، لأنه لماكان المقصود منه طلب رضوان الله تعالى لم يختلف ذلك بالقريب والبعيد.

قال السعدى: (٣) ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتكلمون به على المقالات والأحوال ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فى قولكم، بمراعاة الصدق فيمن تجبون، ومن تكرهون والإنصاف وعدم كتمان مايلزم بيانه.

فإن الميل، على من تكره بالكلام فيه، أو فى مقالته، من الظلم المحرم.

بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه، أن يعطى كل ذى حق حقه، وأن يبين مافيهما، من الحق والباطل، ويعتبر قريبها من الحق، ويعدها منه.

وذكر الفقهاء أن القاضى يجب عليه العدل بين الخصمين، فى لحظه، ولفظة.

قال صاحب «الظلال» (٤): وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشرى - وقد ربطه بالله ابتداء - إلى مستوى سامق رفيع، على هدى من العقيدة فى الله ومراقبته. . . فهنا مزلة من مزلات الضعف البشرى. الضعف الذى يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر

(٢) التفسير الكبير (٧/١٣/٢٤٨).

(٤) (٣/١٢٣٣).

(١) تفسير الطبري (٥/٨/٦٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/٨٧).

والتكامل والامتداد؛ بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل؛ وفي قوة القرابة سند لضعفه وفي سعة رقعتها كمال لوجوده، وفي امتدادها جيلاً بعد جيل ضمان لامتداده! ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم، أو القضاء بينهم وبين الناس.. وهنا في هذه الميزة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشرى ليقول كلمة الحق والعدل، على هدى الإعتصام بالله وحده. أهـ.

وقوله ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ وَأَوْفُوا﴾

الإعراب: (١) و(بعهد الله) جار ومجرور متعلقان بـ(أوفوا) وأوفوا فعل أمر مبني على حذف النون.

● ما جاء في تفسير الآية بالقرآن.

قال الجصاص: (٢) قوله تعالى ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوفُوا﴾ عهد الله يشتمل على أوامره وزواجه، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ (٣) وقد يتناول المنذور وما يوجهه العبد على نفسه من القرب، الأتري إلى قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ (٤)

قال الشنقيطي: (٥) أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بالإيفاء بعهد الله، وصرح في موضع آخر أن عهد الله سيسأل عنه يوم القيامة بقوله ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٦). أى عنه.

قال ابن عثيمين: (٧) ﴿وعهد الله﴾ ما عهد به إلى عباده، وهى عبادته سبحانه وتعالى والقيام بأمره؛ كما قال عزوجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (٨).

هذا ميثاق من جانب المخلوق، وقوله تعالى: ﴿لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٩) هذا من جانب الله - عزوجل - .

- | | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| (١) إعراب القرآن (٣/٢٧٧، ٢٧٨). | (٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٩. |
| (٣) يس: (٦٠). | (٤) النحل: (٩١). |
| (٥) أضواء البيان (٢/٢١٢). | (٦) الإسراء: (٣٤). |
| (٧) القول المفيد (١/٤٦، ٤٧). | (٨) المائدة: (١٢). |
| (٩) آل عمران: (١٩٥). | |

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى: (١) ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ يقول بوصية الله التى أوصاكم بها فأوفوا وإيفاء ذلك أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم، وأن يعملوا بكتابه وسنه وسوله ﷺ وذلك هو الوفاء بعهد الله .

قال ابن الجوزى: (٢) وعهد الله يشتمل على ماعهده إلى الخلق وأوصاهم به . وعلى ما أوجبه الإنسان على نفسه من نذر وغيره .

قال الرازى: (٣) قوله تعالى ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ وهذا من خفيات الأمور لأن الرجل قد يحلف مع نفسه، فيكون ذلك الحلف خفياً، ويكون بره وحثه أيضاً خفياً، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام قال ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

قال القرطبي: (٤) ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ عام فى جميع ماعهد الله إلى عباده ويحتمل أن يراد جميع ماعقد بين إنسانين، وأضيف ذلك العهد إلى الله حيث أمر بحفظه والوفاء به .

قال الفقير: وهذا أظهر وأجمع للمعانى .

قال صاحب «الظلال»: (٥) ومراقبة الله وحده، اكتفاء به من مناصرة ذوى القربى، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه؛ وهو - سبحانه - أقرب إلى المرء من جبل الوريد . .

لذلك يعقب على هذا الأمر - وعلى الوصايا التى قبله - مذكراً بعهد الله . «وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا»

ومن عهد الله قوله الحق والعدل ولو كان ذا قربى . ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط . ومن عهد الله ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن . ومن عهد الله حرمة النفس إلا بالحق . . وقبل ذلك كله . . من عهد الله ألا يشركوا به شيئاً . فهذا هو العهد الأكبر، المأخوذ على فطرة البشر، بحكم خلقها متصلة بمبدعها، شاعرة بوجوده

(١) تفسير الطبرى (٥/٨/٦٣)، وأخرناه هنا لمصلحة المعنى .

(٢) زاد المسير (٣/١١٦) . (٣) التفسير الكبير (٧/١٣/٢٤٨) .

(٤) القرطبي (٤/٢٥٧٣) . (٥) الظلال (٣/١٢٣٣) .

في النواميس التي تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها.

● ما جاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين: (١) قوله ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قدّم المتعلق؛ للاهتمام به.

قوله ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

الإعراب: تقدم إعراب نظيرها.

قال الطبري: (٢) وأما قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ قل للعادلين بالله الأوثان والأصنام من قومك هذه الأمور التي ذكرت لكم في هاتين الآيتين هي الأشياء التي عهد إلينا ربنا، ووصاكم بها ربكم، وأمركم بالعمل بها، لا بالبحائر، والسوائب، و الوصائل، والحام، وقتل الأولاد، ووأد البنات، واتباع خطوات الشيطان ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول أمركم بهذه الأمور التي أمركم بها في هاتين الآيتين، ووصاكم بها وعهد إليكم فيها؛ لتذكروا عواقب أمركم وخطأ ما أنتم عليه مقميون. فتزجروا عنها وترتدعوا وتنبهوا إلى طاعة ربكم.

قال القرطبي: (٣) تذكرون تعظون.

وقال ابن كثير: (٤) وتنتهون مما كنتم فيه قبل هذا.

وقرأ بعضهم بتشديد الذال، وآخرون بتخفيفها.

● فائدة:

قال الرازي: (٥) فإن قيل: فما السبب في أن جعل خاتمة الآية الأولى بقوله

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وخاتمة هذه الآية الثانية ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

قلنا: لأن التكاليف الخمسة المذكورة في الأولى - أي قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ

رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية - أمور ظاهرة جلية، فوجب تعقلها وتفهمها.

(٢) تفسير الطبري (٥/٨/٦٣، ٦٤).

(١) القول المفيد (١/٤٦).

(٣) تفسير القرطبي (٤/٢٥٧٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/١٨٢).

(٥) التفسير الكبير (٧/١٣/٢٤٨).

وأما التكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية - أي قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الآية - فأمر خفية غامضة، لا بد فيها من الاجتهاد والفكر حتى يقف على موضع الاعتدال، فلهذا السبب قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف، وللباقون ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتشديد الذال في كل القرآن وهما بمعنى واحد.

قال صاحب «الظلال»: (١) ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والذكر ضد الغفلة . والقلب الذاكر غير الغافل، وهو يذكر عهد الله كله ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولا ينساها.

● ما جاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين: (٢) قوله ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

هذه الآية الكريمة فيها أربع وصايا من الخالق عزوجل:

الأولى: أن لا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

الثانية: أن نوفي الكيل والميزان بالقسط.

الثالثة: أن نعدل إذا قلنا.

الرابعة: أن نوفي بعهد الله.

والآية الأولى فيها خمس وصايا . صار الجميع تسع وصايا أهـ.

قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾

الإعراب (٣).

عطف على ماتقدم، و(أن) واسمها و(صراطى) خبرها و(مستقيماً) حال مؤكدة من (صراطى)، والعامل فيها معنى الإشارة والفاء الفصيحة، و(اتبعوه) فعل أمر وفاعل ومفعوله، والجملة لامحل لها.

والمعنى: إذا أردتم الفوز والنجاة من مهاوى البدع ومساقط الضلالات و(اتبعوه) فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة لامحل لها. أ. هـ.

(٢) القول المفيد (١/٤٧).

(١) (٣/١٢٣٣، ١٢٣٤).

(٣) إعراب القرآن (٣/٢٧٨).

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى: (١) يقول تعالى ذكره: وهذا الذى وصاكم به ربكم أيها الناس فى هاتين الآيتين من قوله ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾. وأمركم بالوفاء به هو صراطه يعنى طريقه ودينه الذى ارتضاه لعباده ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ يعنى قويمًا لا اعوجاج به عن الحق فاتبعوه، يقول فاعملوا به واجعلوه لأنفسكم منهاجًا تسلكونه فاتبعوه.

قال الجصاص: (٢) وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية.

فإن المراد بالصراط: الشريعة التى تَعَبَّدَ الله بها عباده، والصراط: هو الطريق، وإنما قيل للشرع الطريق لأنه يؤدى إلى الثواب فى الجنة فهو طريق إليها وإلى النعيم، وأما سبيل الشيطان فطريق إلى النار - أعاذنا الله منها -، وإنما جاز الأمر باتِّباع الشرع بما يشتمل عليه من الوجوب والنفل والمباح كما جاز الأمر باتِّباعه مع ما فيه من التحليل والتحریم، وذلك لأن اتِّباعه إنما هو اعتقاد صحته على ترتيبه من قُبْح المحظور ووجوب الفرض والرغبة فى النفل واستباحة المباح والعمل بكل شىء من ذلك على حسب مقتضى الشرع له من إيجاب أو نفل أو إباحت.

قال ابن الجوزى: (٣) وفى الصراط قولان: أحدهما: أنه القران، (والثانى):

الإسلام.

قال السعدى: (٤) ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ أى: هذه الأحكام وما أشبهها، مما بينه الله فى كتابه، ووضحه لعباده، صراط الله الموصل إليه، وإلى دار كرامته، المعتدل السهل المختصر.

﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ لتنالوا الفوز والفلاح، وتدرکوا الآمال والأفراح.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين (٥): والصراط يضاف إلى الله - عز وجل - ويضاف إلى سالكه، ففى قوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (٦) هنا أضيف إلى سالكه، وفى قوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٧) هنا أضيف إلى الله -

(١) تفسير الطبرى (٥/٨/٦٤).
(٢) زاد المسير (٣/١١٦).
(٣) القول المقيد (١/٤٧، ٤٨).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٢/٨٧).
(٥) القول المقيد (١/٤٧، ٤٨).
(٦) الفاتحة: (٧).
(٧) الشورى: (٥٣).

عز وجل لأنه موصل إليه، ولأنه هو الذى وضعه لعباده جلا وعلا، - فإضافته إلى الله عز وجل - وإضافته إلى سالكه لأنهم هم الذى سلكوه.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

الإعراب^(١): الواو عاطفة، و(لا) ناهية، و(تتبعوا) فعل مضارع مجزوم بلا، والواو فاعل، و(السبل) مفعول به، (فتفرق): الفاء السببية هو تفرق أصله تفرق فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء فى جواب النهى، و(بكم): جار ومجرور متعلقان بتفرق، و(عن سبيله) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أى: متناثية عن سبيله. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة والآثار.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطأ بيده ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً»، وخط عن يمينه وشماله ثم قال «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(٢).

وقال الحاكم: وشاهد هذا الحديث حديث الشعبي عن جابر من غير وجه معتمد. يشير إلى الحديث الذى قال الإمام أحمد وعبد بن حميد جميعاً، واللفظ لأحمد عن الشعبي عن جابر قال: كنا جلوساً عند النبى ﷺ فخط خطأ هكذا أمامه فقال: «هذا سبيل الله» وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال: «هذه سبل الشيطان» ثم وضع يده فى الخط الأوسط ثم تلا هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية^(٣).

ورواه أحمد وابن ماجه فى كتاب السنة من سننه والبخارى عن أبى سعيد عبد الله بن سعيد عن أبى خالد الأحمر^(٤)، قلت - يعنى ابن كثير: ورواه الحافظ ابن مردويه من طريقين عن أبى سعيد الكندى حدثنا أبو خالد عن مجاهد عن الشعبي عن جابر قال:

(١) إعراب القرآن (٣/٢٧٨).

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/٤٣٥، ٤٦٥)، والنسائى فى «تفسيره» (١٩٤، ١٩٥).

وانظر تخريجه فى «فتح القدير» (٤٨٦٧ - بتخريجتنا) وفتح المجيد (ح٤٧) بتخريجتنا.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/٣٩٧)، وابن ماجه (١١) عن ابن مسعود به.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/١٠٦) وزاد نسبه لابن مردويه.

وانظر تخريجه فى «فتح القدير» (٤٨٦٨ - بتخريجتنا).

(٤) تقدم فيما قبله.

خط رسول الله ﷺ خطأ وخط عن يمينه خطأ، وخط عن يساره خطأ، ووضع يده على الخط الأوسط، وتلا هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (١) ولكن العمدة على حديث ابن مسعود مع ما فيه من الاختلاف إن كان مؤثراً، وقد روى موقوفاً على.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن أبان بن عثمان أن رجلاً قال لابن مسعود ما الصراط المستقيم؟ قال: «تركنا محمد ﷺ في أدناه وطره في الجنة وعن يمينه جواد وعن يساره جواد، ثم رجال يدعون من مر بهم فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة. ثم قرأ ابن مسعود ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (٢) الآية.

وقال ابن مردويه: عن عبد الله بن عمر سأل عبد الله عن الصراط المستقيم فقال ابن مسعود تركنا محمد ﷺ في أدناه وطره في الجنة (٣) . . . وذكر تمام الحديث كما تقدم والله أعلم.

وقد روى من حديث النواس بن سمعان نحوه قال الإمام أحمد عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعن جنبى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تفرقوا وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحها فإنك إن تفتحها تلجه فالصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم (٤) . اهـ.

وعن قتادة في قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ قال:

(١) تقدم قبل حديث.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦٥/٨) وذكره السيوطى في «الدر» (١٠٦/٣) وزاد نسبه

لعبدالرزاق وابن مردويه.

وانظر تمام تخريجه في «فتح القدير» (٤٨٦٩ - بتخریجنا).

(٣) تقدم فيما قبله.

(٤) أخرجه؟؟؟ في «مسنده» (١٨٢/٤)، والترمذى (٢٨٥٩).

وانظر تمام تخريجه في «فتح القدير» (١١٠ - بتخریجنا).

اعلموا إنما السبيل سبيل واحد جماعه الهدى ومصيره الجنة، وأن إبليس اشترع سبلاً متفرقة جماعها الضلالة ومصيرها النار^(١).

قال القرطبي^(٢):

قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ قال: البدع^(٣).

روى الأئمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهاوا»^(٤) وروى ابن ماجه وغيره عن العرياض بن سارية قال: وَعَظَّنَا رسول الله ﷺ موعظة دَرَفَتْ مِنْهَا الْعْيُونَ، وَوَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةٌ مُوَدَّعٌ، فَمَا تَعْهَدُ لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ تَرَكْتُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كُنْهَارَهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ مِنْ يَعْشُ مِنْكُمْ فَسِيرِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ بَعْدِي عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحَدَّثَاتِ فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنْفِ حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادًا»^(٥) أخرجه الترمذى بمعناه وصححه.

وروى أبو داود قال حدثنا ابن كثير قال أخبرنا سفيان قال: كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر، فكتب: أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره واتباع سنة رسول الله ﷺ، وترك ما حدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤونته، فعليك بلزوم الجماعة فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها، فإن السنة إنما سنّها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضى به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وإنهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى. فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلت إنما حدث بعدهم فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، قد تكلموا فيه بما يكفى ووصفوا ما يشفى، فما دونهم من مقصر،

(١) ذكره السيوطى (٣/٣٨٥) ونسبه لعبد بن حميد، الشيخ.

(٢) القرطبي: (٤/٢٥٧٤/٢٥٧٦).

(٣) [صحيح] أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» وذكره السيوطى في «الدر» (٣/١٠٦) وزاد نسبة لابن

عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبى الشيخ.

وأنظر «فتح المجيد» (ح ٤٨) بتخريجنا.

(٤) أخرجه البخارى (٨٢٨٨)، ومسلم في «الفضائل» (١٥/١٠٩، ١١٠-النوى) وأنظر «جامع العلوم

والحكم» (٩- بتخريجنا).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/١٢٦)، والميو داود (٧٠٧٤٦)، والترمذى (٢٦٧٦)، وابن ماجه

(٤٣).

وما فوقهم من مجسر، وقد قصر قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فَعَلَّوْا وإنهم مع ذلك لَعَلَى هُدَى مستقيم، وذكر الحديث.

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِي: عليكم بالاعتداء بالأثر والسنة، فإنى أخاف أنه سيأتى عن قليل زمان إذا ذُكِرَ إنسانُ النبي ﷺ والاعتداء به فى جميع أحواله ذَمَّوه ونفروا عنه وتبرءوا منه وأذلَّوه وأهانوه.

قال سهل: إنما ظهرت البدعة على يدى أهل السنة لأنهم ظاهروهم وقاولوهم، فظهرت أقاويلهم وقَشَّتْ فى العامة فسمعه من لم يكن يسمعه، فلو تركوهم ولم يكلموهم لمت كل واحد منهم على ما فى صدره ولم يظهر منه شىء وحمله معه إلى قبره.

وقال سهل: لا يُحدث أحدكم بدعةً حتى يحدث له إبليس عبادة فيتعبد بها ثم يحدث له بدعة، فإذا نطق بالبدعة ودعا الناس إليها نزع منه تلك الخدمة.

قال سهل: لا أعلم حديثاً جاء فى المستدعة أشدَّ من هذا الحديث: «حجب الله الجنة عن صاحب البدعة».

قال: فاليهودى والنصرانى أرجى منهم.

قال سهل: من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان، ولا يخلون بالنسوان وليخاصمن أهل الأهواء.

وقال أيضاً: اتبعوا ولا تبندعوا، فقد كُفِيتُم.

وفى مسند الدارمى: إن أبا موسى الأشعري جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنى رأيت فى المسجد أنفاً شيئاً أنكرته ولم أر والحمد لله إلاخيراً قال: فما هو؟ قال: إن عشت فستراه، قال: رأيت فى المسجد قومًا حلَّقًا حلَّقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، فى كل حلقة رجل وفى أيديهم حصى فيقول لهم: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هَلُّوْا مائة فيهللون مائة، ويقول: سَبِّحُوا مائة فيسبحون مائة، قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئاً، انتظاراً رأيك وانتظاراً أمرى. قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم ألا يضيع من حسناتهم، ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلقة، فوقف عليهم فقال: ما هذا الذى تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصى نعدُّ به التكبير والتهليل، قال: فعُدوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألا يضيع من حسناتكم شىء، ويحكم يا أمة محمد! ما أسرع هلكتكم، أومفتحى باب ضلالة؟! قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير فقال: وكم من مرید للخير لن يصيبه.

وعن عمر بن عبد العزيز وسأله رجل عن شيء من أهل الأهواء والبدع، فقال:
عليك بدين الأعراب والغلّام في الكتاب، وآله عمّا سوى ذلك.

وقال الأوزاعي قال إبليس لأوليائه، من أى شيء تأتون بنى آدم؟ فقالوا: من كل
شيء. قال: فهل تأتونهم من قبل الاستغفار؟ قالوا: هيهات! ذلك شيء قُرِنَ بالتوحيد
قال: لأبشَ فيهم شيئاً لا يستغفرون الله منه. قال: فبش فيهم الأهواء.
وقال مجاهد: ولا أدري أى النعمتين على أعظم: إن هدانى للإسلام، أو عافانى من
هذه الأهواء.

وقال الشعبي: إنما سُموا أصحاب الأهواء: لأنهم يهونون في النار، كله عن الدارمى.
وسئل سهل بن عبد الله عن الصلاة خلف المعتزلة والنكاح منهم وتزويجهم؟ فقال:
لا، ولا كرامة! هم كفار، كيف يؤمن من يقول: القرآن مخلوق، ولا جنة مخلوقة
ولانار مخلوقة ولا لله صراط ولا شفاعة ولا أحد من المؤمنين يدخل النار ولا يخرج من
النار من مذنبى أمة محمد ﷺ، ولا عذاب القبر، ولا منكر ولا نكير، ولا رؤية لربنا
في الآخرة، ولا زيادة، وأن علم الله مخلوق، ولا يرون السلطان ولا جمعة، ويكفرون
من يؤمن بهذا.

وقال الفضيل بن عياض: من أحبّ صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور
الإسلام من قلبه.

وقد تقدم هذا من كلامه وزيادة.

وقال سفيان الثوري: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها.
والبدعة لا يتاب منها، وقال ابن عباس: النظر إلى الرجل من أهل السنة يدعو إلى
السنة وينهى عن البدعة، عبادة.

وقال أبو العالية: عليكم بالأمر الأوّل الذى كانوا عليه قبل أن يفتروا قال عاصم
الأحول: فحدثت به الحسن فقال: قد نصحك والله وصدقك.

وقد مضى فى «آل عمران» معنى قوله عليه السلام: «فترقت بنو إسرائيل على ثنتين
وسبعين ملّة وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين» الحديث.

وقد قال بعض العلماء العارفين: هذه الفرقة التى زادت فى فرق أمة محمد ﷺ هم قوم
يعادون العلماء ويغضون الفقهاء، ولم يكن ذلك قطّ فى الأمم السالفة.

وقد روى رافع بن خديج أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يكون فى أمتى قوم
يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون كما كفرت اليهود والنصارى». قال فقلت: جعلت
فداك يا رسول الله! كيف ذاك؟ قال: «يقرون ببعض ويكفرون ببعض» قال قلت:

جعلت فداك يا رسول الله! وكيف يقولون؟ قال: «يجعلون إبليس عدلاً في خلقه وقوته ورزقه ويقولون الخير من الله والشر لإبليس» قال: فيكفرون بالله ثم يقرءون على ذلك كتاب الله، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة؟ قال: «فما تلقى أمتي منهم من العداوة والبغضاء والجدال أولئك زنادقة هذه الأمة» وذكر الحديث.

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال القرطبي^(١): قال ابن شهاب: وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا﴾ الآية. فالهرب الهرب، والنجاء النجاء! والتمسك بالطريق المستقيم، والسنن القويم، الذى سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابع.

قال ابن كثير^(٢): وعن ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ وفى قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ونحو هذا فى القرآن قال أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات فى دين الله^(٣).

ونحو هذا قاله مجاهد وغير واحد. اهـ.

قال الطبرى^(٤): ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ يقول: ولا تسلكوا طريقاً سواه ولا تركبوا منهجاً غيره، ولا تبغوا ديناً خلافه من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان وغير ذلك من الملل فإنها بدع وضلالات ﴿فَتَفْرَقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ يقول فيشتت بكم إن اتبعتم السبل المحدثه التى ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان، اتباعكم إياها (عن سبيله) يعنى عن طريقه ودينه الذى شرعه لكم وارتضاه وهو الإسلام الذى وصى به الأنبياء وأمر به الأمم قبلكم.

قال الرازى^(٥): هذه الآية تدل على أن كل ما كان حقاً فهو واحد، ولا يلزم منه أن يقال: إن كل ما كان واحد فهو حق، فإذا كان الحق واحداً كان كل ما سواه باطلاً،

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٥٧٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/١٨٢-١٨٣).

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره»، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» من طريق على بن أبى طلحة عن ابن

عباس.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/١١٠) ونسبه لها.

(٤) تفسير الطبرى (٥/٨٠٤٦٠).

(٥) التفسير الكبير (٧/١٤٤).

وما سوى الحق أشياء كثيرة، فيجب الحكم بأن كل كثير باطل، ولكن لا يلزم أن يكون باطل كثيراً بعين ما قرناه في القضية الأولى.

قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ وإنما وَّحَدَّ سَبِيلَهُ؛ لأن الحق واحد ولهذا أجمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قال القرطبي^(٢): ومضى في «النساء» وهذا السورة النَّهْيُ عن مجالسة أهل البدع، والأهواء، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾^(٣) ثم بين في سورة «النساء» - وهي مدنية - عقوبة من فعل وخالف ما أمر الله به فقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾^(٤) الآية، فألحق من جالسهم بهم.

وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة وحكم بموجب هذه الآيات في مجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم: أحمد بن حنبل والأوزاعي وابن المبارك فإنهم قالوا في رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا: يُنْهَى عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا ألحق بهم، يعنون في الحكم، وقد حمل عمر بن عبد العزيز الحدَّ على مجالسة شربة الخمر، وتلا ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾، قيل لهم: «فإنه يقول إنى أجالسهم لأباينهم، وأردَّ عليهم، قالوا: يُنْهَى عن مجالستهم، فإن لم ينته ألحق بهم.

ما جاء في الآية من كلام شراح التوحيد

قال ابن عثيمين^(٥): وهنا قال: ﴿السَّبِيلُ﴾: جمع سبيل، وفي الطريق التى أضافها الله إلى نفسه قال: ﴿سَبِيلَهُ﴾ سبيل واحد، لأن سبيل الله - عز وجل - واحد، وأما ما عداه، فسبل متعددة، ولهذا قال النبي ﷺ: «وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة»^(٦) فالسبيل المنجى واحد، والباقية متشعبة متفرقة، ولا يرد على هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾^(٧) لأن «سبيل»

(٢) تفسير القرطبي (٤/٢٥٧٨).

(١) تفسير ابن كثير (٢/١٨٤).

(٥) القول المفيد (١/٤٨، ٤٩).

(٤) النساء: (١٤).

(٣) الأنعام: (٦٨).

(٦) أخرجه أحمد (٢/٣٣٢)، أبو داود (٤٥٩٦)، وابن ماجه (٣٩٩١). وانظر تخريجه في «فتح القدير»

- بتخريجنا -

(٧) المائدة: (١٦).

فى الآفة الكرفمة؁ وإن كانت مجموعة؁ لكن أصففت إلى السلام فكانت منجفة؁ وىكون المراد بها شرائع الإسلام. اهـ.

قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

• ما جاء فى الآفة من كلام المفسرفن.

قال الطبرى (١): ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ ىقول تعالى ذكره هذا الذى وصاكم به ربكم من قوله لكم ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِيكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ىقول لتتقوا الله فى أنفسكم فلا تهلكوها وتحذروا ربكم فىها فلا تسخطوه فىحل بكم نقمته وعذابه.

قال السعدى (٢): ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا قمتم بما بىنه الله لكم؁ علماً وعملاً صرتم من المتقفن؁ وعباد الله المفلحن.

قال صاحب «الظلال» (٣): هذه القواعد الأساسية الواضحة التى تكاد تلخص العقفة الإسلامية وشرعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحد الله ومختومة بعهد الله؁ وما سبقها من حدفث الحاكمة والتشرفع... هذه هى صراط الله المسفم... صراطه الذى لىس وراءه إلا السبل المنفرقة عن السبل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِيكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

وهكذا ىختم القطاع الطوفل من السورة الذى بدأ بقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ .

وانتهى هذه النهاية؁ بهذا الإفقا العرفى العمفق...

وضم بىن المطلع والختام قضاة الحاكمة والتشرفع؁ كما تبدو فى مسألة الزروع والأنعام؁ والذبائح والنذور إلى كل القضاة العقففة الأساسية؁ لىدل على أنها من هذه القضاة؁ التى أفرد لها السفا القرآنى كل هذه المساحة وربطها بكل محتوفات السورة السابقة التى تتحدث عن العقفة فى محفطها الشامل؁ وتتناول قضاة الألوهفة والعبوففة ذلك التناول الفرفد.

(٢) تسفر الكرفم الرحمن ١/٨٧.

(١) نسر الطبرى ٥/٨/٦٤.

(٣) ٣/١٢٣٤.

إنه صراط واحد - صراط الله - وسبيل واحدة تؤدي إلى الله . . أن يفرد الناس الله - سبحانه - بالربوبية ودينوا له وحده بالعبودية، وأن يعلموا أن الحاكمية لله وحده، وأن يدينوا لهذه الحاكمية فى حياتهم الواقعية . .

هذا هو صراط الله وهذا هو سبيله . . وليس وراءه إلا السبيل التى تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون .

فالتقوى هى مناط الاعتقاد أو العمل، والتقوى هى التى تفىء بالقلوب إلى السبيل أ.هـ.

ولذلك ختم بها الآية.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين^(١): وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى: ذلك: أى المذكور وصَّاكم لتتقوا به درجة التقوى، والالتزام بما أمر الله به ورسوله ﷺ.

فصل فى بيان كيفية الاستقامة على عبادة الله

والكفر بالطاغوت من خلال ههذه الآيات

كان لابد للمصنف بعد أن بين معنى العبادة وقدرها وبين الطاغوت وحمية الكفر به مراعيًا ترتيب الآية الذى ساقه الله تعالى فى قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ كان لابد أن يبين كيفية الاستقامة على عبادة الله واجتناب عبادة غيره من الطواغيت فثنى بهذه الآيات لهذا الغرض التى فيها بيان الاستقامة على عبادة الله التى هى أمره ونهيه واتباع شرعه، فكانت الآيات خير موضع لغرض المصنف - رحمه الله - .

فآيات الإسراء تبين بعد الوصية بعبادة الله وعدم الإشراك به عدة أوامر ونواهي مبدوءة بالإحسان والبر بالوالدين، وكذلك الحال فى آيات سورة الأنعام بدأت بحرمه الشرك وبالإحسان بالوالدين وأوامر ونواهي تحمل فى طياتها الاستقامة على منهج الله عز وجل الذى هو شرعه ومنهجه وحكمه والذى به لا نلجأ إلى عبادة الطواغيت واتباع شرائعهم وأحكامهم فتقع بذلك فى عبادتهم.



بَيَانُ الْإِخْلَاقِ وَمَكَانَتِهَا بِالنِّسْبَةِ لِلْحَقِيقَةِ.

وقد يمكن القول بأن الإمام «محمد بن عبد الوهاب» قصد إلى أشياء أخرى غير الذى ذكرت وهى بيان مقام الأخلاق ومكانتها فى هذا الدين، وأنها تلى فى المكانة والمرتبة مرتبة العقيدة، ولذلك بعد أن قضى وأمر ووصى، وحكم بعبادته أمر ببر الوالدين ذلك لأنه من أكرم الأخلاق وأرفعها، ذلك لأن صلاح الأبناء فى الغالب يرجع الفضل فيه بعد الله عز وجل إلى الوالدين لأنهما هما اللذان يوجهانه إلى هذه الاستقامة وإلى هذا الصلاح؛ فكان الجزاء لهما من جنس عملهما، فقال تعالى - مجازياً إياهم لأنهما جعلاً الله غاية الولد ومقصوده الأول فجزاهم من جنس عملهما بأن جعل شكرهما فى المقام الأول بعد شكره - فقال: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ وهذا الذى قررناه وضحته سورة لقمان فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١) لذا ثنى الله عز وجل بعد ذلك بالوصية بالوالدين جزاءً من جنس عملهم فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾.

والأحاديث التى تربط بين عبادة الله وعدم الإشراك به وبر الوالدين وعدم عقوقهما كثيرة منها.

عن أبى بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت» (٢).

● ومن أهمية الأخلاق وعلاقتها بالعقيدة كما بينها القرآن فى غير هذا الموضع: أن الله حين ينسب خلقاً ما قبيحاً ينسبه إلى الكفار والمنافقين، ولا ينسبه إلى المسلمين أبداً كما فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، ﴿هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾، ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾.

(١) لقمان: ١٣.

(٢) تقدم تخريجه فى قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾.

وقوله تعالى في بيان صفة اللغو: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ في حين أنه نفى هذه الصفة عن المؤمنين قال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ .

معالجة الأخلاق الجاهلية بالحقيقة الصحيحة.

ومن الفوائد التي ينبغي الإشارة إليها أيضاً في العلاقة بين العقيدة والأخلاق أن القرآن كان يعالج الأخلاق الجاهلية عند العرب بالاعتقاد كخلق قتل الأولاد فقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ .

السنة تربط بين الأخلاق والحقيقة أيضاً

وكما ربط القرآن بين مسألتى الأخلاق والعقيدة وجعلهما في مكان واحد وأهمية واحدة كذلك ربطت السنة بين العقيدة والأخلاق في غير حديث منها .

ما رواه البخارى، وغيره . . «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه»^(١) وكذلك حديث «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(٢) . وحديث أبى موسى رضى الله عنه قال: قالوا يا رسول الله: أى الإسلام أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٣)، وأيضاً حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أى الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتغشى السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(٤) وكذلك «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٤٧٥)، ومسلم فى الإيمان (١٨/٢ - النووى) .

وأنظر «رياض الصالحين» (٣١٠ بتخريجنا)

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠) ، ومسلم فى الإيمان (١٠/٢ - النووى) عن عبدالله بن عمرو بن العاص .

وأنظر «رياض الصالحين» (٢١٣ - بتخريجنا)

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١١) ، ومسلم فى الإيمان (١٢/٢ - النووى)

وأنظر «رياض الصالحين» (١٥١٥ بتخريجنا)

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٨، ١٢) ، ومسلم فى الإيمان (٩/٢ - النووى)

وأنظر «رياض الصالحين» (٥٥١ بتخريجنا)

خلقاً»^(١) وأيضاً «الحياء شعبة من الإيمان»^(٢) وأيضاً «حسن العهد من الإيمان»^(٣)، وأيضاً «الدين النصيحة»^(٤) و«أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»^(٥).

● هذا وقد وسم القرآن والسنة من تشبه وتخلق بالأخلاق القبيحة بالنفاق أو بالجاهلية أو بالكفر كقول الرسول ﷺ: «آية المنافق ثلاثة، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف؟ وإذا أؤتمن خان»^(٦) متفق عليه، وأيضاً، «ثلاثة من أمر الجاهلية» وفي رواية «في أمتي لا يدعهن الطعن في الأنساب، والنياحة والأنواء»^(٧) وقول الرسول ﷺ: «ما هو بمؤمن من بات شبعان وجاره طاو إلى جانبه»^(٨) وأيضاً . «ليس منا من شق الجيوب»^(٩).. إلخ وقوله ﷺ: «ومن أتى حائضاً أو امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٧٢/٢)، والترمذى (١١٦٢) عن أبي هريرة

وانظر «رياض الصالحين» (٢٨٠ - بتخريجنا).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩)، ومسلم في الإيمان (٣/٢ - النووى) عن أبي هريرة.

وانظر «رياض الصالحين» (١٢٧ - بتخريجنا).

(٣) أخرجه البيهقى في «الشعب» (٩/٢٢) عن عائشة رضى الله عنها.

وانظر كتابنا «فقه الخطابة» خطبة «حسن العهد من الإيمان».

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (٣٦/٢ - النووى) عن تميم بن أوس الدارى.

وانظر «رياض الصالحين» (١٨٣ - بتخريجنا).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٦/٤) عن البراء بن عازب

وانظر «فقه الخطابة» (٣٩٨/١) الطبعة الأولى.

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٣)، ومسلم في الإيمان (٤٦/٢ - النووى) عن أبي هريرة.

وانظر «رياض الصالحين» (٢٠١ - بتخريجنا).

(٧) [صحيح] أخرجه الترمذى (١٠٠١) عن أبي هريرة بلفظ «أربع في أمتي» زاد: «والعدوى»

وأخرجه مسلم في الإيمان (٥٧/٢ - النووى) بلفظ شعبتان من أمر الجاهلية بدون ذكر الأنواء.

(٨) بنحوه أخرجه البيهقى في «الشعب» (٩٥٣٦، ٩٥٣٧) عن ابن عباس.

(٩) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٨٠٩) عن ابن مسعود

وانظر «رياض الصالحين» (١٦٦١ - بتخريجنا)

على محمد ﷺ» (١).

● فهذه النصوص من السنة أيضاً توضح القاعدة التي أصلها العلماء بتلازم الظاهر بالباطن فإذا كان الظاهر طيباً نَمَّ عن باطن طيب والعكس بالعكس لذلك .

حرص الإسلام على الاهتمام بقضية الأخلاق لما فى ذلك من حماية جناب التوحيد وترغيب العامة فى دين الإسلام كما فعل الجيل الأول من الصحابة رضى الله عنهم حيث كانوا جميعاً قرآناً يمشون على الأرض، فلم يجعلوا القرآن نظريات ومبادئ وأسساً وقوانين تدرج فى المكتبات كحال أصحاب المناهج الأخرى الساقطة بل جعلوه سلوكاً عملياً، وهذا مؤدى كلام صاحب فى «ظلال التفسير» فى معنى العقيدة .

وبهذا الذى تقرر يتضح لك معنى قول الله تعالى ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ ومعناه طاعته فى أمره والانتهاء عما نهى عنه وزجر وبهذا ابتلى كل أحد من الناس ومن هنا نعرف تفسير قوله تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أى بالأوامر والنواهي .

كذلك تفسير الإمام الشافعى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ أى لا يؤمر ولا ينهى وبهذا يوفى من يوفى ويغدر من يغدر، ويخون من يخون .

ومن كلمة «أوفوا» نعرف معنى الأمانة التى حملناها ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ .

وقال أبو العالية: الأمانة: «ما أمروا به ونهوا عنه، فلا بد من الوفاء بالميثاق وكذلك الوفاء بأداء الأمانة التى ابتلانا الله بحملها» .

● هذا وقد يستفاد أمر آخر غير ما تقدم من فوائد الثنية بآيات الإسراء والأنعام وهو تعلم الإيمان قبل القرآن كما ثبت ذلك عن عائشة وغيرها من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .



والنسائي فى «الكبرى» (٩٠١٧) عن أبى هريرة .

وأنظر «منار السيل» (٢١٧٣) - بتخریجنا

(١) الأنعام (١٥١) .

قال ابن مسعود: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ (١) الآية (٢).

مناسبة الأثر للترجمة:

قال ابن عثيمين: مناسبة الحديث للترجمة: فضيلة التوحيد، وأنه مانع من عذاب الله أهـ.

قوله: قال ابن مسعود: «من أراد... إلخ».

قال ابن عثيمين (٣): اللام في قوله: «فليقرأ» للإرشاد.

وعبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن: صحابي جليل من السابقين الأولين وأهل بدر وبيعة الرضوان وأحد الخندق، ومن أفاضل الصحابة مكانة وعلماً، مات سنة اثنتين وثلاثين. رضى الله عنه.

قوله: «وصية محمد: الوصية بمعنى العهد، ولا يكون العهد وصية إلا إذا كان في أمر هام.

قوله: محمد ﷺ:

أى رسول الله محمد ﷺ بن عبد الله الهاشمي القرشي ﷺ وهذا التعبير من ابن مسعود يدل على جواز مثله، مثل: قال محمد رسول الله ﷺ ووصية محمد ﷺ... ولا ينافى قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ (٤) لأن دعاء الرسول هنا أى مناداته، فلا تقولوا عند المنادة: يا محمد! ولكن قولوا: يا رسول الله أما الخبر؟ فهو أوسع من باب الطلب، ولهذا يجوز أن تقول: أنا تابع لمحمد ﷺ أو اللهم! صلى على محمد، وما أشبه ذلك.

(٢) [حسن] أخرجه الترمذى فى التفسير/باب: ومن سورة الأنعام (٥/٢٦٤/ح ٣٠٧٠) قال: حدثنا الفضل بن الصباح البغدادي، والطبراني فى الكبير (١٠/١١٤/ح ١٠٠٦٠) قال: حدثنا جعفر بن أحمد بن سنان الواسطى ثنا أبو كريب، وابن أبى حاتم فى تفسيره (٥/١٤١٤/ح ٨٠٥٦) والبيهقى فى «الشعب» (٧٩١٨) من طريق الحسن بن عرفة العبدى.

جميعاً عن محمد بن فضيل عن داود الأودى عن عامر عن علقمة عن عبد الله بن مسعود وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/١٠٣) وزاد نسبه بن المنذر وأبى الشيخ وابن مردويه وأنظر «فتح المجيد» (ح ٤٩) بتخريننا

(٤) النور/ (٦٣).

(٣) القول المفيد ١/٤٩ و٥٠، ٥١.

قوله: «التي عليها خاتمة»

الخاتم بمعنى التوقيع:

وقوله: «وصية محمد ﷺ»: ليست وصية مكتوبة مختوماً عليها لأن النبي ﷺ لم يوص بشيء ويدل لذلك أن أبا جحيفة سأل على بن أبي طالب: هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟ فقال: لا . والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتيه الله تعالى في القرآن، وما في هذه الصحيفة . . قيل وما في هذه الصحيفة؟ قال: «العقل وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»^(١).

فلا يظن أن النبي ﷺ أوصى بهذه الآيات وصية خاصة مكتوبة، لكن ابن مسعود- رضى الله عنه- يرى أن هذه الآيات قد شملت الدين كله، فكأنها الوصية التي ختم عليها رسول الله ﷺ وأبقاها لأئمة.

وهي آيات عظيمة، إذا تدبرها الإنسان وعمل بها، حصلت له الأوصاف الثلاثة الكاملة: العقل، والتذكر، والتقوى.

وقوله: «فليقرأ قوله تعالى...» إلخ الآيات سبق الكلام عنه.

● قال الفقير: وبهذا أيضاً يتضح لك سبب إيراد الأثر الذي جاء عن ابن مسعود:

«من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ فشبّه هذه الآيات بالوصية وهي آخر ما يؤثر عن الإنسان فلا تحتل النسخ ولا يرد عليها التأويلات فكان الرسول ﷺ يوصى أمته بالاستقامة على هذا المنهج منهج التحليل والتحریم وعدم اللجوء إلى غيره فهذا هو المنهج الذي لا عوج فيه.

وغيره معوج وهذا الأمر لا يدانيه أى أمر فى أهميته وهذا مفهوم من معنى الوصية من الموصى الذى يحرص على إيصال هذا الأمر لمن خلفه فيوصى به، ويفهم منه أيضاً أنه ينبغي للموصى له أن يموت عليه كما مات عليه الموصى وكان آخر ما يؤثر عنه، كما جاء عن يعقوب عليه السلام ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ وكذلك قوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (١١١)

وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لى : «يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله لا أن يُعذَّبَ من لا يشرك به شيئاً. قلت : يا رسول الله ! أفلا أبشر الناس ؟ قال : «لا تبشرهم فيتكلوا» أخرجاه فى «الصحيحين»^(١).

اصطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿﴾ فهذه وصية الأنبياء الحنفاء وهذا هو معنى الصراط المستقيم وأنه هو الإسلام كما يستفاد من كلام العلماء لا سيما ابن القيم حيث قال : هو إفراده بالعبادة وإفراده رسله بالطاعة ، أى : تجريد العبادة لله وتجرید الطاعة للرسول ﷺ وهذا مدلول شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله وهذا معنى عبادة الله والكفر بالطاغوت ، هذا والله الموفق ولا رب سواه .



وقوله: «وعن معاذ.. قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمار..... الحديث»

● مناسبة الحديث لكتاب التوحيد:

قال الفقير: «وقد أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث لمناسبة اسم الكتاب الذى عنوانه بكتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد» فناسب أن يذكر من النصوص ما يبين بياناً صريحاً واضحاً حق الله على العبيد فذكر الحديث .

الكلام على الحديث وفى طرقه فى الصحيحين ما يؤكد ما ذهب إليه المصنف من أن التوحيد هو حق الله على العبيد فعن أنس رضى الله عنه قال: «أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على حمار قال : ... الحديث ، وفيه «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرم الله عليه النار»^(٢) وزاد البخارى «صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار..»^(٣) فقد عبر ﷺ فى هذا الحديث المروى بالمعنى عن حق الله على العبيد بأنه

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى التوحيد / باب دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله - عز وجل - (١٣/٣٥٩/٧٣٧٣) ومسلم فى الإيمان / باب : من مات على التوحيد (١/١/٢٣٢ - النووى) وأحمد فى «مسنده» (٥/٢٣٨) والنسائى فى «الكبرى» فى عمل اليوم والليلة / باب : ما يقول إذا ناداه (٦/٥٥/١٠٠١٤) وابن ماجه فى «الزهد» / باب : ما يرجى من رحمة الله تعالى (٢/١٤٣٥/٤٢٩٦) وأبو نعيم فى «الحلية» (٨/١٢٢) .

من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه وانظر «رياض الصالحين» (ح٢٧٧) بتخريجنا ، «وفتح المجيد» (ح١٥٤) بتخريجنا .

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٢٨) ، ومسلم فى الإيمان / باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (١/٢٥٤/٥٣) عن أنس به .

وانظر «فتح المجيد - بتخريجنا»

(٣) أنظر ما قبله .

كلمة التوحيد والصدق في النطق بها.

وفي الحديث الآخر الذي يروى من غير طريق أنس عبر عبر عبر عن حق الله على العبيد بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ولعل الراوى في حديث أنس رواه بالمعنى وفي الثاني باللفظ بمعنى أنه من شهد أن لا إله إلا الله صدقاً من قلبه فقد عبد الله ولم يشرك به شيئاً والعكس أن من عبد الله ولم يشرك به شيئاً فقد أقر بلا إله إلا الله صدقاً من قلبه وبهذا يكون قد وفى بحق الله عليه، فحقه على الله - كما أوجبه على نفسه - أن لا يعذبه ويدخله الجنة إذا مات على ذلك وهذا ههنا موافقة للحميدى وغيره، حيث جعلوا هذا الحديث بهذا اللفظ والحديث الآخر بلفظ حق الله على العبيد حديثاً واحداً فعلى هذا فلا وهم على الحميدى حيث ذهب هذا المذهب، لا سيما وأن البخارى قد أورد الحديثين فى باب واحد باب - من خص بالعلم قوماً دون قوم، فهذه إشارة منه إلى أنهما حديثان .

● هذا وقد ذهب ابن حجر إلى أنهما حديثان لأن الأول وهو حديث أنس متعلق بمن لقى الله لا يشرك به شيئاً، وحديث معاذ متعلق بحق الله على العبيد وهذا الجمع الذى قررناه آنفاً يرد هذه الدعوى حيث لم نفرق بين حق الله على العبيد وبين من لقيه لا يشرك به شيئاً واعتبرهما الحافظ شيئان والأول أولى والعلم عند الله .

(ذلك بأن) وجه الجمع يبين أنه لا غضاضة من أن يكون ما يلقى العبد به ربه هو هو حق الله عليه، فهو إن لقى الله لا يشرك به شيئاً فقد أتى بحق الله عليه .

فالحديثان يجوز الجمع بينهما على هذا النحو فلا داعى لتوهيم بعض الحفاظ كما وهما بن حجر الحميدى لا سيما أن الحديثين لمعاذ وأحدهما عن أنس عن معاذ، وأن الاثنين على الرحل وهو رديف للنبي ﷺ فالحديثان مخرجهما واحد .

قوله: «عن معاذ بن جبل»: هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى أبو عبد الرحمن صحابى مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدرًا وما بعدها، وكان إليه المنتهى فى العلم بالأحكام والقرآن رضى الله عنه، وقال النبى ﷺ «معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برتوة»^(١) أى بخطوة ومات معاذ سنة ثمان عشرة بالشام فى طاعون عمواس، وقد استخلفه النبى ﷺ على أهل مكة يوم الفتح يعلمهم دينهم وحديث الباب يبين فضيلة معاذ أيضاً .

(١) ابن كثير ٢ / ٥٩٠ .

(٢) [حسن بغير هذا اللفظ] أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١ / ٢٩١ / ٤٠، ٤١)، وأبو نعيم فى «الجلية»

(٢٢٩ / ١) مرسلًا

وأخرجه أبو نعيم من وجه آخر عن عمر بإسناد منقطع .

وأنظر «فتح المجيد» (٥٥) بتخريجنا

وذكر ابن كثير: (٢) من فضائل معاذ عن ابن مسعود قال: «إن معاذ كان أمة قانتا لك حنيفاً» فقال نوفل الأشجعي: فقلت في نفسي غلط أبو عبد الرحمن وقال: إنما قال الله ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ فقال تدرى ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله أعلم. فقال الأمة الذي يعلم الناس الخير والقانت المطيع لله ورسوله وكذلك كان معاذ (١).

وقد رواه ابن جرير من غير وجه عن ابن مسعود. ا. هـ.

وفي رواية أخرى قال: ما نسيت أنا كنا نشبهه بإبراهيم عليه السلام (٢). وأيضاً في فضائل ومناقب معاذ، قوله ﷺ: «أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل» (٣). وقوله: «يا معاذ والله إنني أحبك لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» (٤).

قوله: «كنت رديف النبي ﷺ»

وفي رواية «كنت ردف النبي ﷺ» والردف والرديف: الراكب خلف الراكب بإذنه، وردف كل شيء: مؤخره وردفت الرجل: إذا ركب وراءه. وأردفته: إذا ركبت وراءه.

وفي رواية - بينا أنا رديف النبي ﷺ هذا وقد أفرد ابن منده أسماء من أردفهم النبي ﷺ خلفه فبلغوا ثلاثين نفساً.

قال الفقير: فقد وقع بعض أسماءهم في الصحيحين كإردافه الفضل بن العباس (٥)،

(١) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه من مرسل أبي عون الثقفي وأورده ابن عساكر في تاريخ دمشق من طرق عن محمد بن الخطاب. وسيأتي في أول الباب الثاني.

(٢) قاله ابن التيمي في التحرير نقلاً عن ابن حجر «في الفتوح» ٣٤٧/١١.

(٣) [ضعيف موصول] أخرجه أحمد (٢٨١/٣)، والترمذي (٣٧٩١)، وابن ماجه (١٥٤) عن أنس به. قال الحافظ: وأعل بالإرسال.

وأنظر الكلام عليه في «بلوغ المرام» بتخريجنا.

وأنظر كتابنا «قفوا الأثر في شرح بلوغ المرام بكلام ابن حجر» (١١٦٣/٣).

(٤) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي في «الكبرى» (١٩٣٧)

وأنظر «الأذكار للنووي» (١٧٤) بتخريجنا

(٥) أخرجه البخاري (١٥١٣)، ومسلم في الحج (٩٨/٩) - للنووي.

نار السيل (١٠٧٦) - بتخريجنا.

(٦) أخرجه مسلم في النكاح (٨٨/٢٣٨/٥) عن أنس به.

وهو في البخاري (٥٩٦٨) بدون أنيصرح باسم المرأة.

وهذا من رواية ابن عباس نفسه، وإردافه صفية وهو قادم من خيبر^(١)، وإردافه ابن عباس، وأردف أسامة^(٢) وراه وهو في الصحيح أيضاً «باب الإرداف على الدابة» هذا وقد أردف أبا ذر الغفاري وأيضاً ما أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع قال: لقد قُدت بنبي الله ﷺ والحسن والحسين بغلته الشهباء حتى أدخلتهم حجرة النبي ﷺ هذا قدماه، وهذا خلفه^(٣) وإردافه قثم بن عباس^(٤) وكان العباس ينشد لابنه قُثم :

قُثم قُثم شبيهه بذى الأنف الأشم نبي ذى النعم برغم من زعم
وفيه جواز الإنشاد للأطفال وقد مات قُثم وهو صغير^(*).

● وفي رواية «ليس بيني وبينهم إلا آخرة الرحل» فبين صفة الإرداف والرحل كالسرج للفرس، وآخرة الرحل، هي العود الذي يجعل خلف الراكب يستند إليه. وفائدة ذكره المبالغة في شدة قربه ليكون أوقع في نفس سامعه أنه ضبط ما رواه، وفي رواية مسلم بلفظ - مؤخرة الرحل -.

ويمكن الجمع بأن المراد بآخرة الرحل موضع آخرة الرحل.

وإلى ذلك أشار السنوي، ولكن يعكس على هذا حديث أنس بلفظ «أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل^(٥) فكان معاذ والرسول ﷺ كلاهما على الرحل.

ولكن قد يجمع جمعاً آخر بأن المراد بآخرة الرحل أو مؤخرته مقدار المسافة التي تفصل بين النبي ومعاذ وليس المراد ظاهر الخبر بأن مؤخرة الرحل كانت بينهما بالفعل.

وفيه: فضل معاذ وجواز الإرداف وتواضع النبي ﷺ وفيه: جواز الإرداف على الدرجات العادية والبخارية أو غيرها فلا حرج إذا ما كان بين الراكبين مثل مؤخرة الرحل.

رغم أن هذه المسافة لا تمنع من مس الفخذ بالفخذ لهذا قال أهل العلم لا حرج في هذه الحالة لأن بينك وبينه حائل وهو اللباس والزي لذلك ذكره البخاري في كتاب

(١) أخرجه البخاري (٥٩٦٤) عن سلمة بن زيد به.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٦٠ / ٨٢٠٧).

(٣) ذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» (٣٩٢ / ٤)، وكذا ذكره الحافظ في الأصابة. (٢١٩ / ٣) ونسبه

للبخاري في التاريخ الكبير

(*) انظر في ذلك كتابي «تربية البنات في الإسلام».

(٤) تقدم تخريجه في أول شرح الحديث . (٥) (٤٠٩ / ١٠) - الفتح

اللباس فى باب الإرداف على الدابة^(٥) لأنه لولا اللباس ما جاز الإرداف لهذا قال بعض أهل العلم بجواز الإرداف على هذه الصفة.

قوله: على حمار:

جاء التصريح باسمه عند البخارى فقال: «على حمار يقال له عفير»^(١) فى باب - اسم الفرس والحمار»^(٢).

قال ابن عثيمين^(٣): (على حمار) أى أهلى، لأن الوحشى لا يُركب. أهـ.

قال ابن حجر: أى مشروعية تسميتها وكذا غيرها من الدواب بأسماء تخصصها غير أسماء أجناسها بشرط ألا تسمى بأسماء أعلام الصحابة والمسلمين مثل إطلاق اسم (سعد) على الحروف وأسماء أمهات المؤمنين على (القردة) كميمونة وقد جاءت لعفير هذا تراجم بينها ابن حجر فى «الفتح» فليرجع إليها لمن شاء.

قوله: (يا معاذ): زاد البخارى: «يا معاذ بن جبل» وزاد أيضاً لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ومعناه: لباً لك وإسعاداً لك ولكنهما تن على معنى التأكيد والتكثير.

أى: إجابة بعد إجابة وإسعاداً بعد إسعاد.

وفيه: تكرار العلم لتأكيدهِ وتفهمه، وعرضه على طريقة السؤال والجواب؛ ليكون ذلك أدعى فى التثبيت والتمكين وفيه: تنويه بشرف هذه القضية؛ لأنه لم يقلها ابتداءً وخص بها قوم دون قوم.

قوله: «أندرى ما حق الله على العباد» فى رواية: «هل تدرى ما حق الله على العباد» وفى رواية «هل تدرى حق الله على عباده».

والحق كل موجوداً متحقق وجوده أو ما سيوجد لا محالة ويقال للكلام الصدق حق لأن وقوعه متحقق لا تردد فيه، وكذا الحق المستحق على الغير إذا كان لا تردد فيه.

والمراد هنا: من حق الله على عباده ما يستحقه الله على عباده مما جعله محتملاً^(٤)

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٨٥٦)

(٢) (٦٩/٦ - الفتح)

(٣) القول المفيد (٥١/١)

(٤) تيسير العزيز الحميد (٤٦) وفتح المجيد (٤٠/١).

عليهم كما قال صاحب «المعارج» ، أول واجب على العبيد معرفة الرحمن بالتوحيد، فالجنة حق والنار حق يعنى أنها موجودة حقاً وما ليس بوجود لكن سيوجد لا محالة: كالساعة والحشر والحساب ولذلك قال النبي ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وأن الجنة حق والنار حق..» (١).

قوله: «قلت الله ورسوله أعلم».

قال سليمان آل الشيخ: فيه حسن أدب المتعلم وأنه ينبغي لمن سُئل عما لا يعلم أن يقول ذلك بخلاف أكثر المتكلمين أهـ (٢).

فيها حسن أدب في القول والعلم برد ما لم يحط بحقيقته إلى علم الله ورسوله وفيه فوائد ستأتى فى المسألة التاسعة عشر فى هذا الباب.

قوله: قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً».

قد تقدم أن المراد بالعبادة: عمل الطاعات واجتناب المعاصى وعطف عليها عدم الشرك لأنه تمام التوحيد، والحكمة فى عطفه على العبادة أن بعض الكفرة كانوا يدعون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى فاشترط نفى ذلك ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

وتقدم أن الجملة حالية والتقدير يعبدونه فى حال عدم الإشراك به.

قال ابن حبان: عبادة الله إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح، ولهذا قال فى الجواب فما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك «فعبّر بالفعل ولم يعبر بالقول وفيه رد على المرجئة الذين قالوا أن الإيمان قول بلا عمل. أما أهل السنة قصدوا بالإيمان الإسلام الحقيقى المدخل الجنة والمنجى من النار ولم يقصدوا الإسلام الحكيمى يعنى القدر الذى نحكم به على الشخص أنه مسلم أى الإسلام بالنظر لما عندنا.

قوله: «وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً».

قال ابن تيمية: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل ليس هو استحقاق مقابلة كما يستحق على المخلوق، فمن الناس من يقول: لا معنى للاستحقاق زائداً على هذا كما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولكن أهل السنة يقولون: هو الذى ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ وأوجب هذا الحق على نفسه لم يوجب عليه مخلوق، والمعتزلة: يدعون أنه واجب عليه بالقياس على

(١) الفتح ١/ ٢٧٤.

(٢) سيأتى تخرجه

الخلق، وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب، وغلطوا في ذلك، وهذا الباب غلطت فيه القدرية والجبرية أتباع جهم والقدرية النافية.

وقال ابن حجر: اقتصر على نفى الإشراك، لأنه يستدعى التوحيد بالاقتضاء، ويستدعى إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذب رسول الله ﷺ فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك، وهو مثل قول القائل: من توضعاً صحت صلاته، أى مع سائر الشروط اهـ.

قوله: «قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس»: وفي رواية «قال يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا».

وفيه: استحباب بشارة المسلم بما يسره ثبت عن أبي بكر في قصة الثلاثة الذين خلفوا كان أول من بشر كعب هو أبو بكر.

وفيه: ما كان عليه الصحابة من قبل هذا.

وفيه: جواز كتمان العلم عن بعض الناس كراهية ألا يفهموا وتخصيص بعض الناس بالعلم دون بعضهم.

وفيه: استئذان طالب العلم في أن يشيع ما يعلم به وحده وما اختص بعلمه.

وفيه: أدب معاذ رضى الله عنه في هذا الاستئذان. اهـ

قال ابن عثيمين(١): والبشارة هي الإخبار بما يسر، وقد تستعمل في الإخبار بما يضر، ومنه قوله تعالى ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لكن الأكثر الأول. اهـ
قوله: «لا تبشرهم فيتكلموا» في رواية: قال: «لا إني أخاف أن يتكلموا».
وفي رواية بلفظ: «إذا يتكلموا»

قال ابن رجب في شرحه «لأوائل البخارى»: قال العلماء، يؤخذ من منع معاذ من تبشير الناس ألا يتكلموا أن أحاديث الرخص لا تشاع في عموم الناس لئلا يقصر فهمها عن المراد بها، وقد سمعها معاذ فلم يزد إلا اجتهاد في العمل وخشية لله عز وجل فأما من لم يبلغ منزلته فلا يأمن أن يقصر اتكالا على ظاهر هذا الخبر.

ورجح ابن حجر بأن هذا النهي ليس للتحريم بل هو للمصلحة بما ثبت، عند مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ أمره أن يبشر كل ما وجده خلف هذا الحائض يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله بالجنة فلقية عمر فدفعه وقال ارجع يا أبا هريرة

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١/٢٥٣/٥٢)

(١) القول المفيد (١/٥٤)

ودخل على أثره فقال يا رسول الله لا تفعل فإنى أخشى أن يتكل الناس فخلهم يعملون فقال (فخلهم)^(١) فكأن قول النبي ﷺ لمعاذ «أخاف أن يتكلوا» كان بعد قصة أبي هريرة.

قال الفقير: بل الراجح أن النبي ﷺ قال ذلك لمعاذ بعد أن أذن له فى التبشير لحرصه ﷺ فى إيصال الخير لأمتة والمسارة فيما يدخل السرور عليهم ثم كان ما كان من عمر فرجع النبي ﷺ لقوله.

وذلك لما رواه البزار - بإسناد حسنة ابن حجر فى الفتح^(٢) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى هذه القصة أن النبي ﷺ أذن لمعاذ فى التبشير، فلقى عمر فقال: لا تعجل ثم دخل فقال: يا نبي الله أنت أفضل رأياً؟ إن الناس إذا سمعوا ذلك اتكلوا عليها، قال فرده: وهذا معدود من موافقات عمر للوحي .
وفيه: جواز الاجتهاد بحضرة ﷺ.

قال ابن عثيمين^(٣): معنى الحديث أن الله لا يعذب من لا يشرك به شيئاً وأن المعاصى تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهى ﷺ عن إخبارهم لئلا يعتمدوا على هذه البشرى دون تحقيق مقتضاها لأن تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصى، لأن المعاصى صادرة عن الهوى، وهذا نوع من الشرك قال الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أهـ قوله: «أخبر به معاذ عند موته تأثماً» وهذا ما يؤكد ما ذهب إليه الحافظ من أن النهى ليس للتحريم ولو كان للتحريم ما أخبر به معاذ ولكن معاذ رأى أن الأفضل هو نشر العلم، وكتمان العلم فرع وليس بأصل وإن كنتم فلا يكون إلا لمصلحة وهذه المصلحة انتفت فلا يجوز له أن يكتم هذا العلم.

ومعنى قوله: «وأخبر به معاذ عند موته تأثماً» أى تخرجاً من الوقوع فى إثم وإنما خشى معاذ من الإثم المترتب على كتمان العلم وهذا ما رجح به ابن حجر أن هذا النهى ليس للحرمة.
قوله: «أخرجاه» أى البخارى ومسلم.

فائدة

* روى البخارى هذا الحديث فى (باب من أجاب بلبسك وسعديك) وفى لفظه عن أنس «عن معاذ قال: بينا أنا رديف النبي ﷺ فقال: يا معاذ؟ قلت لبيك وسعديك- ثم قال مثله ثلاثاً - هل تدري ما حق الله على العباد؟ قلت: لا قال: حق الله على العباد أن

(٢) القول المقيد (١/٥٥)

(١) الفتح / ٢٧١

(٣) تقد تخريجه فى أول شرح الحديث .

يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة فقال يا معاذ، قلت: لبيك وسعديك قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم» (٣) وهذا الحديث يبين أدباً آخر وفضيلة أخرى لمعاذ حيث أجاب بلا عما لا يُشك في أنه يعلمه وهو حق الله على العبد حيث لا يتصور أن مثل معاذ يجهل حق الله على العبد وأجاب بهذا الجواب امتثالاً لقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقد ثبت من غير معاذ من الصحابة رضى الله عنهم عن مثل هذا الجواب في أمور مقطوع بعلمها كما سألهم ﷺ «أى شهر هذا؟ أى بلد هذه» (١) فكانوا يسكتون خشية أن يسميه الرسول ﷺ بغير اسمه فيكونوا قد افتاتوا عليه وقدموا بين يديه وكانوا يقولون الله ورسوله أعلم هذا وبالله التوفيق وله الحمد والمنة.

وفى الحديث من الفوائد غير ما تقدم.

- ١- جواز الإرداف على الدابة.
- ٢- جواز مس العورات مع وجود حائل (كاللباس).
- ٣- مشروعية لبس اللباس.
- ٤- تواضعه ﷺ.
- ٥- فضيلة معاذ رضى الله عنه.
- ٦- جواز تسمية الدابة.
- ٧- جواز قول الشخص لبيك يا فلان بعكس ما قد يفهم البعض أنها لا تقال إلا لله فى الحج « فى قول معاذ لبيك رسول الله».
- ٨- قوله ﷺ «حق» الله و«حق» العباد تفيد اليقين وعدم الشك فى هذا الأمر.
- ٩- فى كلام النبى ﷺ لمعاذ بصيغة السؤال: فهذا أوقع فى النفس وأدعى إلى الانتباه.
- ١٠- سؤاله ﷺ لمعاذ عن مسألة يعلمها وهى حق الله على العباد تفيد التنبيه لأهمية المسألة.
- ١١- مسألة حق العباد على الله لا يعرفها أكثر الصحابة.
- ١٢- معرفة حق الله على العباد وهو حق فرض ووجوب.
- ١٣- معرفة حق العباد وهو حق منة وفضل.
- ١٤- تقديم السؤال (بحق الله على العباد) على (حق العباد على الله) دليل على توقف الحق الثانى على أداء الحق الأول.

(١) متفق عليه أخرجه البخارى (٦٧)، ومسلم فى القسامة (١١/١٦٧) عن أبى بكره به.

وأظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٨٥٩)

- في قول معاذ (الله ورسوله أعلم) فوائد ثلاثة .
- ١٥- تأدب معاذ وعمله بقول الله ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ .
- ١٦- طلب الاستزادة بالعلم .
- ١٧- جواز قول الله ورسوله أعلم لمن كان في عهد النبي أما بعد وفاته فالقول هو الله أعلم . (وفيه تفصيل سيأتى فى المسألة التاسعة عشر).
- ١٨- معرفة أن حمد الله يستلزم أمران:
- أ- عبادة الله .
- ب- عدم الإشراف به وهذا معنى لا إله إلا الله .
- ١٩- أن السبيل للنجاة من النار وعذاب الله هو عبادته وعدم الإشراف به .
- ٢٠- استئذان معاذ النبي ﷺ تبشير الناس يفيد التأدب . مع المعلم واستئذانه قبل تبليغ شىء خاصنا بمعرفته دون غيرنا .
- ٢١- قول معاذ «أفلا أبشر الناس» ولم يقل: «أفلا أخبر الناس» أو «أفلا أقول للناس» دليل على أن العلم بهاتان المسألتان فيهما من البشرى للناس وهذه البشرى فى شيئين:
- أ- أن عبادة الله وعدم الإشراف به فقط هما المطلوبان من الناس لتحقيق التوحيد وحق الله .
- ب- أن من أتى بهما وحدهما أدخله الله الجنة ونجاه من عذاب النار .
- ٢٢- استحباب بشارة المسلم بما يسره .
- ٢٣- جواز كتمان العلم للمصلحة .
- ٢٤- جواز تخصيص العلم لبعض الناس دون البعض وقد أتى هذا التخصيص فى موضعين:
- أ- تخصيص النبي ﷺ لمعاذ .
- ب- تخصيص معاذ لبعض الناس دون البعض قبل موته «تأثماً» .
- «فقد خص بها الأكياس من الناس دون الجهال الذين قد يحملهم جهلهم على سوء الأدب بترك الخدمة فى الطاعة» من كلام الوزير بن المظفر .
- ٢٥- الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله .
- ٢٦- عظم شأن هذه المسألة .
- ٢٧- عدم عرض الرخص على عامة الناس قاله ابن رجب كما تقدم .
- ٢٨- الأصل عدم جواز كتمان العلم بدليل أن معاذ أخير بالمسألة قبل موته تأثماً .
- ٢٩- رواية «ليس بينه وبينه إلا مؤخرة الرحل» تفيد عدم جواز التصاق الرجل بالرجل ولا المرأة بالمرأة فى وسائل المواصلات ومن باب أولى الرجل بالمرأة .

قوله: « وفيه مسائل »

الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد، لأن الخصومة فيه.

قال ابن عثيمين: ومعنى الحديث: أن الله لا يعذب من لا يُشركُ به شيئاً، وأن المعاصي تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهى ﷺ عن إخبارهم، لئلاً يعتمدوا على هذه البشرية دون تحقيق مقتضاها، لأنَّ تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصي، لأنَّ المعاصي صادرة عن الهوى، وهذا نوع من الشرك، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ ﴾ (١).

المسائل:

● الأولى: الحكمة من خلق الجن والإنس.

أخذها رحمه الله من قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢) فالحكمة هي عبادة الله لا أن يتمتعوا بالآكل والمشرب والمناجح.

● الثانية: أن العبادة هي التوحيد.

أى: أن العبادة مبنية على التوحيد، فكل عبادة لا توحيد فيها ليست بعبادة، لا سيما أن بعض السلف فسروا قوله تعالى: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾: إلا ليوحدون.

وهذا مطابق تماماً لما استنبطه المؤلف رحمه الله من أن العبادة هي التوحيد، فكل عبادة لا تبني على التوحيد فهي باطلة، قال ﷺ: « قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيره، تركته وشركه. » (*)

وقوله: « لأن الخصومة فيه. »

أى: في التوحيد بين الرسول ﷺ وقريش، فقريش يعبدون الله يطوفون له ويصلون، ولكن على غير الإخلاص والوجه الشرعي، فهي كالعدم لعدم الإتيان بالتوحيد، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٣).

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) التوبة: ٥٤.

(*) سيأتي تخريجه

الثالثة: أَنْ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ، لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ، فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (١).

الرابعة: الْحِكْمَةُ فِي إِسْأَالِ الرَّسْلِ.
الخامسة: أَنَّ الرَّسَالَ عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ.
السادسة: أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ.

● وقوله في الثالثة: ففيه معنى قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

لستم عابدين عبادتي، لأنَّ عبادتكم مبنية على الشرك، فليست بعبادة الله تعالى.

● الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

أخذها رحمه الله تعالى من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (٢).

فالحكمة هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت.

● الخامسة: أَنَّ الرَّسَالَ عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ.

أخذها من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ (٣).

● السادسة: أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ.

أخذها من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّاغُوتَ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٤).

وهذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ (٥) لأن الشريعة العملية

تختلف باختلاف الأمم والأماكن والأزمنة، وأما أصل الدين، فواحد، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (٦).

(١) الكافرون: ٣. (٢) النحل: ٣٦.

(٣) النحل: ٣٦. (٤) الأنبياء: ٢٥.

(٥) المائدة: ٤٨. (٦) الشورى: ١٣.

السابعة: الْمَسْأَلَةُ الْكَبِيرَةُ أَنْ عِبَادَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْكَفْرِ بِالطَّاغُوتِ،
فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾^(١). الْآيَةُ.
الثامنة: أَنَّ الطَّاغُوتَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا عُبدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

● السابعة: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت.

ودليله قوله تعالى: ﴿وَأَجْتَبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فمن عبد الله ولم يكفر بالطاغوت، فليس بموحّد، ولهذا جعل المؤلف رحمه الله هذه المسألة كبيرة، لأن كثيراً من المسلمين جهلها في زمانه وفي زماننا الآن.

● تنبيه:

لا يجوز إطلاق الشرك أو الكفر أو اللعن على من فعل شيئاً من ذلك، لأنّ الحكم بذلك في هذه وغيرها له أسباب وله موانع، فلا نقول لمن أكل الرّبا: ملعون، لأنّه قد يوجد مانع يمنع من حلول اللعنة عليه، كالجهل مثلاً، أو الشبهة، وما أشبه ذلك، وكذا الشرك لا نطلقه على من فعل شركاً، فقد تكون الحجّة ما قامت عليه بسبب تفريط علمائهم، وكذا نقول: من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه، ولكن لا نحكم بهذا لشخص معين.

إذ إن الحكم المعلق على الأوصاف لا ينطبق على الأشخاص إلا بتحقيق شروط انطباقه وانتفاء موانعه.

فإذا رأينا شخصاً يبرز في الطريق، فهل نقول له: لعنك الله؟

الجواب: لا، إلا إذا أريد باللعن في قوله: «اتقوا الملاعن»^(٢) أن الناس أنفسهم يلعنون هذا الشخص ويكرهونه، ويرونه مخلأً بالأدب مؤذياً للمسلمين، فهذا شيء آخر. فدعاء القبر شرك، لكن لا يمكن أن نقول لشخص معين فعله: هذا مشرك، حتى نعرف قيام الحجّة عليه، أو نقول: هذا مشرك باعتبار ظاهر حاله.

● الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله.

فكل ما عبد من دون الله، فهو طاغوت، وقد عرفه ابن القيم: بأنّه كل ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع.

فالمعبود كالصنم، والمتبوع كالعالم، والمطاع كالأمير.

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) [حسن] أخرجه أبو داود (٢٦)، وابن ماجه (٣٢٨) عن معاذ بن جبل به.

وأنظر «منار السبيل» (٧٢ بتخريجنا)

التاسعة: عَظْمُ شَأْنِ الثَّلَاثِ آيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ السَّلْفِ، وَفِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ، أُولَاهَا النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ.

العاشرة: الآياتُ المُحكَماتُ في سورة الإسراء، وفيها ثمانية عشر مسألةً، بدأها الله بقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ (١) وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٢) ونبها الله سبحانه على عَظْمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ (٣).

● التاسعة: عَظْمُ شَأْنِ الثَّلَاثِ آيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

المحكَماتُ، أى: التى ليس فيها نسخ، أخذ ذلك من قول ابن مسعود رضى الله عنه.

● العاشرة: الآياتُ المُحكَماتُ في سورة الإسراء .

وهى قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (٤) وفيها ثمانى عشرة مسألة بدأها بقوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ وختمها بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ .

وقد نبها الله - سبحانه - على عَظْمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ .

فبدأها الله بالنهي عن الشرك بقوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ والقاعدُ ليس قائمًا، لأنه لا خيرَ لمن أشرك بالله (مذمومًا) عند الله وعند أوليائه، (مخذولًا) لا يتتصر فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وختمها بقوله : ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ فهذه عقوبته عندما يُلقى فى النَّارِ كُلِّ يَلُومِهِ وَيَدْحَرُهُ فَيَنْدَحِرُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ .

(١) الإسراء: ٢٢ .

(٢) الإسراء: ٢٣ .

(٣) الإسراء: ٢٢ .

(٤) الإسراء: ٢٣ .

الحادية عشرة: آية سُورَةِ النَّسَاءِ الَّتِي تُسَمَّى آيَةَ الْحُقُوقِ الْعَشْرَةِ، بِدَآهَا
اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (١).

الثانية عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ عِنْدَ مَوْتِهِ.

الثالثة عشرة: مَعْرِفَةُ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْنَا.

الرابعة عشرة: مَعْرِفَةُ حَقِّ الْعِبَادِ عَلَيْهِ إِذَا أَدَّوْا حَقَّهُ.

الخامسة عشرة: أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَا يَعْرِفُهَا أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ.

● الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة بدآها بقوله تعالى:
﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

فأحقَّ الحقوق حقَّ الله، ولا تنفع الحقوق إلا به، فَبُدِّتْ هذه الحقوق به، ولهذا لما
سأل النبي ﷺ حكيمُ بنُ حزامٍ عَمَّنْ كان يتصدق ويعتق ويصل رحمه في الجاهلية هل له
من أجر؟ فقال النبي ﷺ: «أسلمت على ما أسلفت من الخير» (٢) فدلَّ على أَنَّهُ إِذَا لم
يسلم لم يكن له أجر، فصارت الحقوق كُلُّها لا تنفع إلا بتحقيق حق الله.

● الثانية عشرة: التنبية على وصية رسول الله ﷺ عند موته.

وذلك من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ولكن النبي ﷺ لم يوص بها حقيقةً،
بل أشار إلى أننا إِذَا تمسكنا بكتاب الله، فلن نضلَّ بعده، ومن أعظم ما جاء به كتاب
الله قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (٣).

● الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا.

وذلك بأن نعبده ولا نُشْرِكْ به شيئاً.

● الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إِذَا أَدَّوْا حَقَّهُ.

وذلك بأن لا يُعَذَّبَ من لا يشركُ به شيئاً، أمَّا من أشرك، فإنه حقيقٌ أن يُعَذَّبَ.

● الخامسة عشرة: أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَا يَعْرِفُهَا أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ.

(١) النساء: ٣٦

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٩٢) ومسلم فى الإيمان (١/٤١٧/١٩٤)

(٣) الأنعام: ١٥١.

- السادسة عشرة: جَوَازُ كِتْمَانِ الْعِلْمِ لِلْمَصْلَحَةِ.
- السابعة عشرة: اسْتِحْبَابُ بَشَارَةِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَسْرُهُ.
- الثامنة عشرة: الْخَوْفُ مِنَ الْاِتِّكَالِ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ.

وذلك أن معاذًا أخبر بها تائمًا، أي خروجًا من إثم الكتمان عند موته بعد أن مات كثيرٌ من الصحابة (١).

● السادسة عشرة: جوازُ كتمان العلم للمصلحة.

هذه ليست على إطلاقها، إذ إن كتمان العلم على سبيل الإطلاق لا يجوزُ لأنه ليس بمصلحة، ولهذا أخبر النبي ﷺ معاذًا ولم يكتم ذلك مطلقًا، وأما كتمان العلم في بعض الأحوال، أو أن بعض الأشخاص لا على سبيل الإطلاق، فجائزٌ للمصلحة، كما كتّم النبي ﷺ ذلك عن بقية الصحابة خشية أن يتكلموا عليه، وقال لمعاذ: «لا تبشّرهم فيتكلوا».

ونظير هذا الحديث قوله ﷺ لأبي هريرة: «بشّر الناس أن من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة» (٢).

بل قد تقتضى المصلحة ترك العمل، وإن كان فيه مصلحة لرجحان مصلحة الترك، كما همّ النبي ﷺ أن يهدم الكعبة وبينها على قواعد إبراهيم، ولكن ترك ذلك خشية افتتان الناس، لأنهم حديثوا عهد بكفر (٣).

● السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره.

لقوله: «أفلا أبشّر الناس؟» وهذه من أحسن الفوائد.

● الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

وذلك لقوله «لاتبشّرهم فيتكلوا»؛ لأن الاتكال على رحمة الله يسبب مفسدة عظيمة هي الأمن من مكر الله.

وكذلك القنوط من رحمة الله يبعد الإنسان من التوبة، ويسبب اليأس من رحمة الله، ولهذا قال الإمام أحمد: «ينبغي أن يكون سائرًا إلى الله بين الخوف والرجاء؛ فأيهما غلب هلك صاحبه».

(١) لأن معاذًا رضى الله عنه علم أن النبي ﷺ كان يخشى أن يفتتن الناس بها ويتكلوا عليها، ولم يرد كتمها مطلقًا، لأنه لو أراد ذلك ما أخبر بها معاذًا. - القول المفيد -

(٢) تقدم تخريجه قبل سرد فوائد الحديث.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٥٨٥)، ومسلم فى الحجر (٣٩٨/٩٨/٥).

التاسعة عشرة: قَوْلُ الْمَسْئُولِ عَمَّا لَا يَعْلَمُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

فإذا غلب الرجاء أدى ذلك إلى الأمن من مكر الله، وإذا غلب الخوف أدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله . . .

وقال بعض العلماء: إن كان مريضاً غلب جانب الرجاء، وإن كان صحيحاً غلب جانب الخوف.

وقال بعض العلماء: إذا نظر إلى رحمة الله وفضله غلب جانب الرجاء، وإذا نظر إلى فعله وعمله غلب جانب الخوف لتحصل التوبة.

ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ (١)؛ أي خائفة أن لا يكون تقبل منهم لتقصير أو قصور، وهذا القول جيد.

وقيل: يغلب الرجاء عند فعل الطاعة ليحسن الظن بالله، ويغلب جانب الخوف إذا هم بالمعصية لئلا ينتهك حرمت الله.

وفى قوله «أفلا أبشر الناس؟» دليل على أن التبشير مطلوب فيما يسر من أمر الدين والدنيا، ولذلك بشرت الملائكة إبراهيم، قال تعالى ﴿وَبَشِّرُوهُ بَعْلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (٢) وهو إسحاق، والحليم إسماعيل، وبشر النبی ﷺ أهله بابنه إبراهيم، فقال: «ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم» (٣) فيؤخذ منه أنه ينبغي للإنسان إدخال السرور على إخوانه المسلمين ما أمكن بالقول أو بالفعل؛ ليحصل له بذلك خير كثير، وراحة وطمأنينة قلب وانسراح صدر.

وعليه؛ فلا ينبغي أن يدخل السوء على المسلم، ولهذا يروى عن النبي ﷺ «لا يحدثني أحد عن أحد بشيء؛ فإنني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» (٤).

وهذا الحديث فيه ضعف، لكن معناه صحيح؛ لأنه إذا ذكر عندك رجل بسوء؛ فسيكون في قلبك عليه شيء ولو أحسن معاملتك، لكن إذا كنت تعامله وأنت لاتعلم عن سيئاته، ولا محذور في أن تتعامل معه؛ كان هذا طيباً، وربما يقبل منك النصيحة أكثر، والنفوس ينفر بعضها من بعض قبل الأجسام، وهذه مسائل دقيقة تظهر للعاقل بالتأمل.

● التاسعة عشرة: قول المسؤل عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

(٢) الذاريات: ٢٨.

(١) المؤمنون: ٦٠ . . .

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في الفضائل (٦٢/٢/٨)

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٩٥/١) أبو داود (٤٨٦٠) والترمذي (٣٩٨٦)

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

قال حامد بن محمد بن حسن: [قال معاذ: قلت الله ورسوله أعلم] وهذا الجواب هو الحقيقة وهو الصواب؛ لأن الله هو عالم غيب السموات والأرض، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً، ثم رسول الله ﷺ أعلم الخلق؛ لأنه يوحى إليه من الله تعالى - هذا في زمن حياته - لتوالى الوحي عليه شيئاً فشيئاً في بيان كل شيء، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (١) وأما بعد موته فلا، بل يحرم بأنه لا علم لأحد دون الله بكليات الأمور ولا جزئياتها ولا تجاميلها ولا تفاسيلها على الحقيق إلا الله وحده، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢) إلا من ارتضى من رسول ﴿٢﴾ وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (٤). أهـ.

وقال ابن عثيمين: وذلك لإقرار النبي ﷺ معاذاً لما قالها، ولم ينكر النبي ﷺ على معاذ، حيث عطف رسول الله ﷺ على الله بالواو، وأنكر على من قال: «ما شاء الله وشئت»، وقال: «أجعلنتي لله نداً؟! بل ما شاء الله وحده» (٥).

فيقال: إن الرسول ﷺ عنده من العلوم الشرعية ما ليس عند القائل؛ ولهذا لم ينكر الرسول ﷺ على معاذ.

بخلاف العلوم الكونية القدرية؛ فالرسول ﷺ ليس عنده علم منها.

فلو قيل: هل يحرم صوم العيدين؟

جاز أن نقول: الله ورسوله أعلم، ولهذا كان الصحابة إذا أشكلت عليهم المسائل ذهبوا إلى رسول الله ﷺ فيبينها لهم.

ولو قيل: هل يتوقع نزول مطر في هذا الشهر؟ لم يجوز أن نقول: الله ورسوله أعلم؛ لأنه من العلوم الكونية.

● العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

(١) النحل / ٨٩.

(٢) الجن / ٢٦، ٢٨.

(٣) الأنعام / ٥٩. (٤) النمل / ٦٥.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢١٤) وابن ماجه (٢١١٧). والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٥) عن

ابن عباس به.

الحادية والعشرون: تَوَاضَعُهُ ﷺ لِرُكُوبِ الْحِمَارِ مَعَ الْإِرْدَافِ عَلَيْهِ.

الثانية والعشرون: جَوَازُ الْإِرْدَافِ عَلَى الدَّابَّةِ.

الثالثة والعشرون: عَظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

الرابعة والعشرون: فَضِيلَةُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ.

وذلك أن النبي ﷺ خص هذا العلم بمعاذ دون أبي بكر وعمر وعثمان وعلي .

فيجوز أن نخصص بعض الناس بالعلم دون بعض، حيث إن بعض الناس لو أخبرته بشيء من العلم افتتن، قال ابن مسعود: «إنك لن تحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»^(١) وقال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون»^(٢).

● الحادية والعشرون: تَوَاضَعُهُ ﷺ لِرُكُوبِ الْحِمَارِ مَعَ الْإِرْدَافِ عَلَيْهِ.

النبي ﷺ أشرف الخلق جاهاً، ومع ذلك هو أشد الناس تواضعاً، حيث ركب الحمار وأردف عليه، وهذا في غاية التواضع؛ إذ إن عادة الكبراء عدم الإرداف، وركب ﷺ الحمار، ولو شاء لركب ما أراد، ولا منقصة في ذلك؛ إذ أن من تواضع لله - عز وجل - رفعه.

● الثانية والعشرون: جَوَازُ الْإِرْدَافِ عَلَى الدَّابَّةِ.

وذلك أن النبي ﷺ أردف معاذاً، لكن يشترط للإرداف أن لا يشق على الدابة، فإن شق؛ لم يجز ذلك.

[قلت]: وبشروط آخر تقدم وهو عدم تماس العورات وذلك ببعد المسافة بينهما أو بالثياب.

● الثالثة والعشرون: عَظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

حيث أخبر النبي ﷺ معاذاً، وجعلها من الأمور التي يبشر بها.

● الرابعة والعشرون: فَضِيلَةُ مُعَاذِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذلك أن النبي ﷺ خصه بهذا العلم، وأردفه معه على الحمار.

(١) أخرجه مسلم في المقدمة (١/١٠٨).

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري . (١٢٧)

باب (١)

فَرَضَ التَّوْحِيدَ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذَّنُوبِ

● تنبيه (*):

قوله: (باب) فيها التنوين وتركه والإسكان، قال ابن حجر: حكى عياض ومن تبعه: فيه التنوين وتركه. وقال الكرمانى: يجوز فيه الإسكان على سبيل التعدد للأبواب فلا يكون له إعراب. اهـ.

● مناسبة هذا الباب لما قبله: -

قال سليمان آل الشيخ^(١): ولما ذكر معنى التوحيد ناسب ذكر فضله وتكفيره للذنوب ترغيباً فيه وتحذيراً من الضد. اهـ.

وقال نحوه ناصر السعدى فى «القول السديد» حيث قال^(٢): -

لَمَّا ذَكَرَ فِي التَّرْجُمَةِ السَّابِقَةِ وَجُوبَ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّهُ الْغَرَضُ الْأَعْظَمُ عَلَى جَمِيعِ الْعَبِيدِ، ذَكَرَ هُنَا فَضْلَهُ وَهُوَ: آثَارُهُ الْحَمِيدَةُ وَنَتَائِجُهُ الْجَمِيلَةُ وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَهُ مِنَ الْآثَارِ الْحَسَنَةِ وَالْفَضَائِلِ الْمُنْتَوِعَةِ مِثْلَ التَّوْحِيدِ، فَإِنَّ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا التَّوْحِيدِ وَفَضَائِلِهِ. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله^(٣): - لَمَّا ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ [وَجُوبَ التَّوْحِيدِ] ذَكَرَ هُنَا فَضْلَهُ وَأَنَّهُ يَكْفِرُ الذَّنُوبَ. اهـ.

● مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

قلت: هى واضحة من التبويب.

● ماذا أراد المصنّف بهذا الباب:

قال ابن باز^(٤): أراد المؤلف بيان شيء من فضل التوحيد وأنه أعظم الأعمال فى تكفير الذنوب؛ (لأنه أساس الأعمال وأصلها، والأعمال لاتصح إلا بعد وجوده). وذكر ذلك حتى يعرفه المؤمن ويكون أكثر إقبالا عليه وتشوقاً إليه. اهـ.

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٤٨).

(٢) «الجامع الفريد» (١٤).

(*) فتح البارى (١/١٣).

(٢) «القول السديد» (١٦).

(٤) «التعليق المفيد» (٣٣).

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (١).....

قال نحوه ابن عثيمين وزاد فقال (٢): -

وعقد هذا الباب لأمرين:

الأول: بيان فضل التوحيد.

الثاني: بيان ما يكفره من الذنوب؛ لأن من آثار فضل التوحيد تكفير الذنوب.

• شرح الترجمة والتبويب:

قال حامد بن محمد بن حسن (٣): باب في بيان فضل التوحيد عند الله وما يكفر

من الذنوب بالكتاب والسنة.

قوله: «باب» خبر مبتدأ محذوف، تقديره هذا باب بيان فضل التوحيد (٤).

والباب في اللغة هو المدخل إلى الشيء (٥).

قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾

قوله «فضل التوحيد».

قال عبد الرحمن آل الشيخ (٦): والمراد بالتوحيد. توحيد العبادة وهو إفراد الله

تعالى بانواع العبادة الباطنة والظاهرة كالدعاء والذبح والنذر (وغير ذلك) كما قال تعالى:

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٧) وقال تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ

لَهُ الدِّينَ﴾ (٨).

قوله: «وما يكفر من الذنوب».

يعنى: وبيان ما يكفر من الذنوب، و(ما) يجوز أن تكون موصولة. أى: وبيان ما

يكفره من الذنوب. ويجوز أن تكون مصدرية، أى: وبيان تكفيره الذنوب، وهذا أرجح،

لأن الأول يوهم أن ثم ذنوباً لا يكفرها التوحيد، وليس بمراد (٩) اهـ.

ومال إلى الأول ابن عثيمين.

(٢) «القول المفيد» (٧١/١).

(١) الأنعام: (٨٢).

(٤) «تيسير العزيز الحميد» (٤٨).

(٣) «فتح الله الحميد المجيد» (١٠٥).

(٦) «قرة عيون الموحدين» (٢٣).

(٥) «قرة عيون الموحدين» ٢٣.

(٨) غافر: (٦٥).

(٧) غافر: (١٤).

(٩) قاله سليمان الشيخ في «تيسير العزيز الحميد».

قال ناصر السعدى^(١): فقول المؤلف. رحمه الله (وما يكفر من الذنوب) من باب عطف الخاص على العام، فان مغفرة الذنوب وتكفير الذنوب من بعض فضائله وآثاره كما ذكر شواهد ذلك في الترجمة.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾.



● مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): -مطابقة الآية للترجمة، دلت على فضل التوحيد وتكفيره للذنوب؛ لأن من أتى به تاماً فله الأمن التام والاهتداء التام، ودخل الجنة بلا عذاب، ومن أتى به ناقصاً بالذنوب التي لم يتب منها، فإن كانت صغائر كفرت باجتناب الكبائر - كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ فليلتم صغائر الذنوب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، لآية (النساء) و(النجم) وإن كانت كبائر فهو في حكم المشيئة، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه، ومآله إلى الجنة، والله أعلم. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): أن الله أثبت الأمن لمن لم يشرك، والذي لم يشرك يكون موحدًا؛ فدل على أن من فضائل التوحيد استقرار الأمن. اهـ.

فمن أراد في الدنيا والآخرة الأمن لنفسه أو لأهله أو لبلده فعليه بالتوحيد تعلمًا وتعليمًا وعملاً.

قال عبد الله بن جار الله^(٤): ومناسبتها للباب: أن من مات على التوحيد ولم يصر على الكبائر فله الأمن من العذاب في الآخرة وهذا من فضل التوحيد. اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى^(٥): حيث دلت الآية على أن من مات على التوحيد وتاب من

(١) «القول السديد» ١٦.

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٥٠).

(٣) «القول المفيد» (٧٤/١).

(٤) «الجامع الفريد» (١٥).

(٥) «الجديد» (٣٥).

الكبائر سَلِمَ من عذاب النار. ومن مات مصراً على الكبائر مع التوحيد سلم من الخلود في النار. اهـ



قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾.
الاعراب (١):

(الذين) خبر لمبتدأ محذوف، بناء على أن الكلام مسوق من إبراهيم جواباً عن السؤال في قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ ويجوز أن تكون مبتدأ بناء على أن الكلام من الله تعالى وهو ما رجحه الطبري، وجملة (آمنوا) صلة، (ولم) الواو عاطفة، تعطف ما نفى على ما أثبت وفيه معنى لا إله إلا الله (ولم) (تجزم فعل واحد) حرف نفى وقلب وجزم، (ويلبسوا) فعل مضارع مجزوم بلم استمرار حدوث الفعل، معطوف على الصلة، وبظلم جار ومجرور متعلقان بلبسوا أ.هـ.

● ماجاء في تفسيره بالقرآن الكريم: -

قال الشنقيطي (٢): المراد بالظلم هنا: الشرك كما ثبت عن النبي ﷺ في صحيح البخارى وغيره من حديث عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - (٣) وقد بينه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٤) وقوله ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٥) وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَفْعَلُ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلَتْ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٦).

روى ابن جرير عن ابن إسحاق قال: يقول الله تعالى ذكره ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى الذين أخلصوا كإخلاص إبراهيم ﷺ لعبادة الله وتوحيده (٧).

(١) الإعراب (٣/١٦٠).

(٢) «أضواء البيان».

(٣) أخرجه البخارى (٣٢)، ومسلم فى الإيمان (٢/١٤٣ - السنوى) وانظر كتابنا «فتح أى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٣٦٩).

(٤) لقمان: (١٣).

(٥) البقرة: (٢٥٤).

(٦) يونس: (١٠٦).

(٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٦٧/٧).

وروى أيضاً عن ابن جريج ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أمن يعبد رباً واحداً أم من يعبد أرباباً كثيرة؟ يقول قومه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ عبادة الأوثان وهى حجة إبراهيم ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (١).

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين :

قال الطبرى (٢): وقال آخرون هذا جواب من قوم إبراهيم ﷺ لابراهيم حين قال لهم: أى الفريقين أحق بالأمن فقالوا له: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله فوحده أحق بالأمن إذ لم يلبسوا إيمانهم بظلم.

قال ابن جرير: وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب: قول من قال هذا خبر من الله تعالى عن أولى الفريقين بالأمن، وفصل قضاء منه بين إبراهيم ﷺ وبين قومه. وذلك أن ذلك لو كان من قول قوم إبراهيم الذين كانوا يعبدون الأوثان ويشركونها فى عبادة الله لكانوا أقروا بالتوحيد واتبعوا إبراهيم على ما كانوا يخالفونه فيه من التوحيد ولكنه كما ذكرت من تأويله بدأ. أهـ

وعلى تقدير أنه خبر لمبتدأ محذوف ففیه أن قوم إبراهيم كانوا كفاراً مع معرفتهم بتحقيق التوحيد فلا يكون الإنسان مؤمناً إلا بمعرفة حقيقة ما يؤمن به، والعمل بهذه المعرفة.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال حامد بن محمد بن محمد بن حسن بن محسن (٣): -

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله أى صدقوا وأذعنوا بأنه الرب الملك المعبود وحده لا شريك له فى ربوبيته وملكوته وعبادته ولا فى أسمائه وصفاته وأنه قيم السموات والأرضين ومن فيهن قائم بذاته فهو الغنى عن سواه، وقيوم بالخلق والخلق فقراء إليه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٤) وأيضاً وآمنوا بملائكته على ما وصفهم رسول الله ﷺ لاسيما جبريل فإنه أمين على الوحى، وميكائيل موكل على الأقطار، وعزرائيل (٥)، فإنه موكل على قبض الأرواح، وإسرافيل فإنه موكل على نفخ الصور، وآمنوا بكتبه أنها مائة صحيفة وأربع كتب: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، وكلها كلام الله منزلة غير مخلوقة.

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» فى الموضع السابق. (٢) تفسير الطبرى (٥/١٦٧، ١٦٨).

(٣) «فتح الله الحميد المجيد» (١٠٥، ١٠٦). (٤) فاطر: (١٥).

(٥) لو قال: وملك الموت، فإنه.. لكان أولى: لأن تسميته باسم: «عزرائيل» لم يثبت فيه شىء

مرفوع. وانظر: حرف العين من كتاب: «معجم المناهى اللفظية». (فتح الله الحميد المجيد).

وَأَمَنُوا بِرَسُولِهِ وَأُنبِئَهُمْ مَجْمُوعَهُمْ مَائَةَ آفٍ وَأَرْبَعٍ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، وَالرَّسُلُ ثَلَاثٌ مَائَةٌ
وِثْلَاثَةٌ عَشْرٌ رَسُولًا، وَأَوَّلُو الْعِزْمَ مِنْهُمْ خَمْسَةٌ: نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَقَدْ نَظَّمْتُ الْجَمِيعَ مَجْمَلًا.

النَّبِيَاءُ كُلَّهُمْ عَجْمٌ وَأَوْلَهُمْ	نُوحٌ وَأَخْرَهُمْ مِنْ كَانَ مِنْ مَضْرُورٍ
جَاءَ عُرْبُهُمْ سِتَّةٌ نُوحٌ وَصَالِحُهُمْ.	هُودٌ وَلُوطٌ شَعِيبٌ سَيِّدُ الْبَشَرِ
أَيْضًا أَوَّلُو عِزْمَهُمْ مُوسَى وَأَدَمُهُمْ	عِيسَى مُحَمَّدٌ إِِبْرَاهِيمُ فَادَكُرُ
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَمَّا سُمِّيَ الصَّحْفُ	عَدَتْ لَنَا مَائَةٌ بِالنَّقْلِ وَالخَبْرِ
وَمَا أَتَى كِتَابًا فِي الْعِدِّ أَرْبَعَةٌ	هَذَا التَّجَامِيلُ وَالنَّقْصَانُ وَاخْتَبِرْ

وَأَمَنُوا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ؛ لِفِصْلِ الْقَضَاءِ.

وَأَمَنُوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ: أَنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: وَمَاذَا أَكْتُبُ
قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ
نُزِّلَ بِهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (٢)
أهـ.

قَوْلُهُ: «وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ».

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ بَكْرِ بْنِ سُوَادَةَ قَالَ: حَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْعَدُوِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ
فَقَتَلَ رَجُلًا، ثُمَّ حَمَلَ فَقَتَلَ آخَرَ، ثُمَّ حَمَلَ فَقَتَلَ آخَرَ، ثُمَّ قَالَ: أَيْنَعْنِي الْإِسْلَامُ بَعْدَ
هَذَا؟ قَالُوا: مَا نَدْرِي؛ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: نَعَمْ. فَضْرَبَ فَرْسَهُ فَدَخَلَ
فِيهِمْ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَتَلَ رَجُلًا، ثُمَّ آخَرَ، ثُمَّ قَتَلَ قَالَ: فَيُرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ
نَزَلَتْ فِيهِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الْآيَةَ (٣).

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣١٧/٥) وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٣١٩) وَانظُرْ تَخْرِيجَهُ فِي «تَفْسِيرِ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ - بِتَخْرِيجِنَا
و«فَتْحِ الْقَدِيرِ» - بِتَخْرِيجِنَا أَيْضًا.

(٢) الْحَدِيدُ: ٢٢.

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» وَذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ» فِي الْمَوْضِعِ السَّابِقِ وَشَبَّهَ إِلَيْهِ،
فَانظُرْ بِتَخْرِيجِنَا.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة:

أولاً: بالمرفوع:

عن جرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا، فانتهى إلينا فسلم، فقال له النبى ﷺ «من أين أقبلت؟ فقال: من أهلى وولدى وعشيرتى أريد رسول الله. قال: قد أصبته. قال: علمنى ما الإيمان؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت. قال: قد أقررت. ثم إن بعيره دخلت يده فى شبكة جردان فهوى ووقع الرجل على هامته فمات^(١).

فقال رسول الله ﷺ: هذا من الذين عملوا قليلاً وأجروا كثيراً، هذا من الذين قال الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إني رأيت حور العين يدخلن فى فيه من ثمار الجنة، فعلمت أن الرجل مات جائعاً».

وعن ابن عباس قال: «كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير ساره، إذ عرض له أعرابى فقال: والذى بعثك بالحق لقد خرجت من بلادى وتلادى لاهتدى بهداك وأخذ من قولك فأعرض على، فعرض عليه الإسلام فقبل، فازدحمتا حوله فدخل خف بكره فى ثقب جردان، فتردى الأعرابى فانكسرت عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «أسمعتم بالذى عمل قليلاً وأجر كثيراً هذا منهم؟ أسمعتم بالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم هذا منهم»^(٢).

وعن إبراهيم التيمى «أن رجلاً سأل عنها النبى ﷺ فسكت حتى جاء رجل فأسلم، فلم يلبث إلا قليلاً حتى قاتل فاستشهد، فقال النبى ﷺ: «هذا منهم من الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم»^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا:

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده ٤٠/٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٢).

ذكره السيوطى فى «الدرر» (٣/٣٠٨) وزاد نسبه للطبرانى، وأبى الشيخ، وابن مردويه، والبيهقى فى «الشعب».

(٢ - ٣) ذكرهما السيوطى فى الدرر (٣٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠) ونسب الأول للحكيم الترمذى، وابن أبى حاتم، ونسب الثانى لعبد بن حميد.

يارسول الله وأبنا لا يظلم نفسه؟! قال: «إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعو ما قال
العبد الصالح ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك»^(١).

● ثانياً: التفسير بالاثار الموقفة

عن أبى بكر الصديق. أنه سئل عن هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ
بِظُلْمٍ﴾ قال: ما تقولون؟ قالوا: لم يظلموا. قال: حملتم الأمر على أشده، بظلم:
بشرك، ألم تسمع إلى قول الله (ان الشرك لظلم عظيم)^(٢).

وعن عمر بن الخطاب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال: بشرك^(٣).

وعن حذيفة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال: بشرك^(٤).

وعن سلمان الفارسى. أنه سئل عن هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ
بِظُلْمٍ﴾ قال: إنما عنى به الشرك، ألم تسمع الله يقول (إن الشرك لظلم عظيم)^(٥).

عن أبى بن كعب فى قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال: ذاك
الشرك^(٦).

وعن ابن عباس. أن عمر بن الخطاب كان إذا دخل بيته نشر المصحف يقرأه، فدخل
ذات يوم فقرأ سورة الأنعام، فأتى على هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾
الى آخر الآية، فانتقل وأخذ رداءه ثم أتى أبى بن كعب، فقال: يا أبا المنذر أتيت على
هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ وقد نرى أنا نظلم ونفعل ونفعل؟
فقال: يا أمير المؤمنين إن هذا ليس بذاك. يقول الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ
بِظُلْمٍ﴾ إنما ذلك الشرك^(٧).

(١) تقدم عن شرح الآية فى أول الباب.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه للفريابى، وابن أبى شيبة، والحكيم الترمذى،
وابن جرير، وابن المنذر، وأبى الشيخ، وابن مردويه، وانظر «فتح القدير» (٤٦٠٦ - بتخریجنا).

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

وانظر فتح القدير (٤٦٠٧ - بتخریجنا).

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق، ونسبه للفريابى، وعبد بن حميد، وابن أبى شيبة، وأبى
عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبى الشيخ. وانظر «فتح القدير» (٤٦٠٨ - بتخریجنا).

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣٠٩) ونسبه للفريابى، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبى الشيخ،
وانظر «فتح القدير» (٤٦٠٩ - بتخریجنا).

(٦) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وأبى الشيخ. وانظر «فتح
القدير» (٤٦١٠ - بتخریجنا).

(٧) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه وانظر «فتح القدير»
(٤٦١١ - بتخریجنا).

و عن ابن عباس ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ قال: بشرك (١).
وابن مردويه عن على بن أبي طالب فى قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ
بِظُلْمٍ﴾ قال: نزلت هذه الآية فى إبراهيم وأصحابه خاصة، ليس فى هذه الأمة (٢).

● ما جاء فى سبب النزول:

وعن مجاهد ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال: بعبادة الأوثان (٣).
وعن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ يقول: لم
يخلطوا إيمانهم بشرك (٤).



● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى (٥): اختلف أهل التأويل فى المعنى الذى عناه الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ
آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ فقال بعضهم بشرك، ثم أسند ذلك عن ابن مسعود
وعلقمة، وأبى بكر، وزيد بن صوحان، وحذيفة وابن عباس، وعمر بن الخطاب، وأبى
ميسرة وإبراهيم النخعى، وقتادة، ومجاهد، وابن زيد.

ثم قال (٦): وقال آخرون: بل معنى ذلك ولم يخلطوا إيمانهم بشىء من معانى
الظلم وذلك فعل مانهى الله عن فعله، أو ترك ما أمر الله بفعله.

وقالوا: الآية على العموم لأن الله لم يخص به معنى من معانى الظلم.

قالوا: فان قال لنا قائل أفلا آمن فى الآخرة إلا لمن لم يعص الله فى صغيرة ولا
كبيرة؟ والامن لقى الله ولا ذنب له؟

قلنا: إن الله عنى بهذه الآية خاصا من خلقه دون الجميع منهم، والذى عنى بها

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبى
الشيخ وانظر «فتح القدير» (٦٤١٢- بتخریجنا).

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه للقرائى، وعبد بن حميد، وابن أبى حاتم،
وأبى الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وأبى الشيخ.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم، فانظره بتخریجنا.

(٥- ٦) «تفسير الطبرى» (٥/٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١).

وأراد به خليله إبراهيم عليه السلام فأما غيره فإنه إذا لقي الله لا يشرك به شيئاً فهو فى مشيئته، إذا كان قد أتى بعض معاصيه التى لا تبلغ أن تكون كفراً فان شاء لم يؤمنه من عذابه. وإن شاء تفضل عليه فعفا عنه.

قالوا: وذلك قول جماعة من السلف وان كانوا مختلفين فى المعنى بالآية.

فقال بعضهم: عنى بها إبراهيم، وقال بعضهم: عنى بها المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم قال وأولى القولين بالصحة فى ذلك ما صح به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الخبر الذى رواه ابن مسعود^(١) عنه أنه قال الظلم الذى ذكره الله تعالى فى هذا الموضع هو الشرك.

قال الرازى^(٢): والمعنى: أن الذين حصل لهم الأمن المطلق هم الذين يكونون مستجمعين لهذين الوصفين:

أولهما: الإيمان وهو كمال القوة النظرية.

وثانيهما: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ وهو كمال القوة العملية.

ثم قال: أعلم أن أصحابنا يتمسكون بهذه الآية من وجه والمعتزلة يتمسكون بها من وجه آخر أما وجه تمسك أصحابنا فهو أن نقول إنه تعالى شرط فى الإيمان الموجب للأمن عدم الظلم، ولو كان ترك الظلم أحد أجزاء مسمى الإيمان لكان هذا التقييد عبثاً، فثبت أن الفاسق مؤمن وبطل به قول المعتزلة، وأما وجه تمسك المعتزلة بها فهو أنه تعالى شرط فى حصول الأمن حصول الأمرين، الإيمان وعدم الظلم، فوجب أن لا يحصل الأمن للفاسق وذلك يوجب حصول الوعيد له.

وأجاب أصحابنا عنه من وجهين:

الوجه الأول: أن قوله ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ المراد من الظلم الشرك، لقوله تعالى حكاية عن لقمان إذ قال لابنه ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فالمراد ههنا الذين آمنوا بالله ولم يشبوا الله شريكاً فى العبودية.

والدليل على أن هذا هو المراد أن هذه القصة من أولها الى آخرها إنما وردت فى نفى الشركاء والأضداد والأنداد، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات، فوجب حمل الظلم ههنا على ذلك.

(٢) «التفسير الكبير» (٧/ ١٣ / ٦٤).

(١) تقدم عن شرح الآية فى أول الباب.

الوجه الثاني: فى الجواب: أن وعيد الفاسق من أهل الصلاة يحتتمل أن يعذبه الله، ويحتتمل أن يعفو عنه، وعلى كلا التقديرين: فالأمن زائل والخوف حاصل، فلم يلزم من عدم الأمن القطع بحصول العذاب؟ والله أعلم. أهـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): والذى شق عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد لنفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبين لهم النبى ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم فى كتاب الله، وحيث فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، فمن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾^(٢) وهذا لا ينفى أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنوب إذا لم يتب، كما قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٣).

وقد سأل أبو بكر رضى الله عنه النبى ﷺ عن ذلك فقال: يارسول الله، وأينا لم يعمل سوءاً؟ فقال: «يا أبا بكر أأنتَ نَنصَبُ، أأنتَ تَحزَنُ، أليسَ تُصِيبُكَ اللأواءُ؟! فذلِكَ ما تُجزَوْنَ بِهِ»^(٤) فبين أن المؤمن الذى إذا مات دخل الجنة، قد يجزى بسيناته فى الدنيا بالمصائب التى تصيبه.

قال: فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة، يعنى: الظلم الذى هو الشرك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه بما دون الشرك، كان له الأمن التام، والاهتداء التام ومن لم يسلم من ظلم نفسه، كان له الأمن والاهتداء مطلقاً، بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة، كما وعد بذلك فى الآية الأخرى، وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء، بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه.

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٤٩ و ٥٠).

(٢) سورة فاطر آية: ٣٢.

(٣) سورة الزلزلة (٧، ٨).

(٤) [حسن] أخرجه أحمد فى «مسنده» (١١/١)، وابن جرير فى «تفسيره» (١٨٩/٥)، والحاكم فى

«المستدرک» (٧٤/٣ - ٧٥).

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٢٦٣).

قال صاحب: «فضل الغنى الحميد»^(١): وقوله: مطلق الأمن والاهتداء أى: أصله لاكماله، فالظلم التام المطلق، وهو الشرك رافع لمطلق الأمن والاهتداء، مزيل لأصلهما، ومطلق الظلم أى (مادون الشرك). رافع للأمن المطلق والاهتداء المطلق، أى: كاملين تامين. والشرك: ظلم العبد لنفسه، بوضعها فى غير موضعها، فبدلاً من عبوديتها لله، جعلها تعبد من سواه، وليس ظلماً لله، فالله أعلى وأجل وأعز من أن يقدر العباد على ظلمة أو ضره أو نفعه، بل لا يبلغون ضره فيضروه، ولا يبلغون نفعه فينتفعوه وعقائدهم الفاسدة لاتغير من الحق شيئاً، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢) وهذا الأمن والاهتداء لأهل الإيمان الخالص من الشرك يكون فى الدنيا والآخرة ﴿أَلَا يَذَكِّرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣) قال تعالى حاكياً عن إبراهيم - عليه السلام - ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تَشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً﴾^(٤) فالؤمن لا يخاف إلا الله، وهو آمن من كل ما سواه، وإذا خاف شيئاً لجأ إلى الله فدافع الله عنه، وهو مهتد فى الأقوال والأعمال، ويوم القيامة يؤمنه الله من فرع يوم القيامة، ويهديه إلى طريق الجنة، ويعرفه منازلها فيها، وأما الكافر فلا أمن له فى الدنيا ولا فى الآخرة، فهو فى الدنيا كما قال تعالى: ﴿سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾^(٥) فهم - والله مهما كثرت جنودهم وامتدت حراستهم - فى رعب، وخوف دائم، إذ القلب لا يطمئن إلا مع التوحيد فمن لم يوحد الله أخافه الله من كل شىء، ويوم القيامة هم فى فرع عظيم، نعوذ بالله منه، ولا ينتهى ولا يزول إذ لا يقف عذابهم عند حد، قال تعالى: ﴿فَدُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً﴾^(٦) وكذلك هم فى الدنيا لا يهتدون إلى صدق ولا عدل، وهم فى الآخرة أضل عن طريق الجنة، بل لا يهتدون إلا إلى صراط الجحيم - نعوذ بالله من ذلك - اهـ.

قال سليمان آل الشيخ:^(٧)

ثم قال شيخ الإسلام: ليس مراد النبى ﷺ بقوله: «إنما هو الشرك»^(٨) أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام، فان أحاديثه الكثيرة مع نصوص

(٢) البقرة/ ٥٧.

(٤) الأنعام/ ٨٠.

(٦) النبا/ ٣٠.

(١) «فضل الغنى الحميد» ١٥، ٥٢.

(٣) الرعد/ ٢٨.

(٥) آل عمران/ ١٥١.

(٧) تيسير العزيز الحميد ٥.

(٨) سبق تخريجه عند شرح الآية فى أول الباب.

القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام الذى يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم - صراط الذين أنعم الله عليهم - من غير عذاب يحصل لهم، بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ومعهم أصل نعمة الله عليهم، ولا بد لهم من دخول الجنة.

وقوله: «إنما هو الشرك» إن أراد به الأكبر فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة، وهو مهتد إلى ذلك، وإن كان مراده جنس الشرك فيقال: ظلم العبد نفسه، كبخله - حب المال - ببعض الواجب هو شرك أصغر، ووجه ما يبغض الله حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر، ونحو ذلك، فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب فى هذا الظلم بهذا الاعتبار. انتهى ملخصاً.

قال ابن القيم^(١) رحمه الله: قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ قال الصحابة: وأينا يارسول الله لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال: «ذلك الشرك. ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟»^(٢) لما أشكل عليهم المراد بالظلم فظنوا أن ظلم النفس داخل فيه، وأن من ظلم نفسه - أى ظلم كان - لم يكن آمناً ولا مهتدياً: أجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك.

وهذا والله هو الجواب الذى يشفى العليل ويروى الغليل. فإنَّ الظلم المطلق التام هو الشرك. الذى هو وضع العبادة فى غير موضعها.

والأمن والهدى المطلق: هما الأمن فى الدنيا والآخرة. والهدى إلى الصراط المستقيم.

فالظلم المطلق التام رافع للأمن وللاهتداء المطلق التام. ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانعاً من مطلق الأمن ومطلق الهدى. فتأمل. فالمطلق للمطلق، والحصنة للحصنة»^١ هـ ملخصاً.

قال حامد بن محمد بن حسن^(٣): (لم يلبسوا إيمانهم بظلم) أى لم يشوبوه ولم يخلطوه بشرك بل أخلصوا لله تعالى أعمالهم وأقوالهم وإراداتهم ونياتهم ولم يقربوا حمى الشرك بل ابتعدوا منه أشد الابتعاد حذراً من وقوعهم فيه.

(٢) سبق تخريجه.

(١) فتح المجيد ٤٨ ط مؤسسة قرطبة.

(١) «فتح الله الحميد المجيد» (١٠٦).

قال ابن عثيمين^(١): قوله: ﴿لَمْ يَلْبِسُوا﴾.

أى: يخلطوا.

قوله: ﴿يُظْلَمُ﴾

الظلم هنا ما يقابل الإيمان، وهو الشُّرك.

● والظلم أنواع:

١ - أظلم الظلم، وهو الشُّرك فى حقّ الله.

٢ - ظلم الإنسان نفسه؛ فلا يعطيها حقها، مثل أن يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

٣ - ظلم الإنسان غيره، مثل أن يتعدى على شخص بالضرب، أو القتل، أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك.

وإذا انتفى الظلم؛ حصل الأمن، لكن هل هو أمنٌ كامل؟

الجواب: إنه إن كان الإيمان كاملاً لم يخالطه معصية؛ فالأمنُ أمنٌ مطلق، أى كامل، وإذا كان الإيمانُ مطلقاً إيماناً - غير كامل-؛ فله مطلق الأمن؛ أى: أمن ناقص.

مثال ذلك: مرتكبُ الكبيرة، آمنٌ من الخلود فى النار، وغير آمنٌ من العذاب، بل هو تحت المشيئة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢).

وهذه الآية قالها الله تعالى حكماً بين إبراهيم وقومه حين قال لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ.....﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣)؛ فقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ.....﴾^(٤) الآية، على أنه قد يقول قائل: إنها من كلام إبراهيم ليبين لقومه، ولهذا قال بعدها: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾^(٥).



(٢) سورة النساء آية: ٤٨

(٤) سورة الأنعام آية: ٨٢.

(١) «القول المفيد» ٧١/١ - ٧٣.

(٣) سورة الأنعام آية: ٨١.

(٥) سورة الأنعام آية: ٨٣.

﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

● قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

الإعراب: ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ، و﴿لَهُمْ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، و﴿الْأَمْنُ﴾ مبتدأ مؤخر ثان، والجملة الإسمية خبر اسم الإشارة، وجملة الإشارة وما في حيزة في محل نصب مقول قول محذوف على الوجه الأول أو مرفوعة على أنها خبر الذين على الوجه الثاني والواو حرف عطف وهم مبتدأ و﴿مُهْتَدُونَ﴾ خبره والجملة عطف على ما تقدم اهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من الأحاديث:

وعن سخبرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من ابتلى فصيبر، وأعطى فشكراً، وظلم غفراً، وظلم فاستغفر، ثم سكت النبي ﷺ ف قيل: يارسول الله ماله؟ قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾»^(١).

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبري: أما قوله ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ فإنه يعنى هؤلاء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ يوم القيامة من عذاب الله ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يقول وهم المصيون سبيل الرشاد والساكون طريق النجاة. اهـ^(٢).

قال ناصر السعدي^(٣): قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ أى: يخلطوا: ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأمن من المخاوف، والعذاب والشقاء والهداية إلى الصراط المستقيم. فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً لا بشرك، ولا بمعاصي حصل لهم الأمن التام والهداية التامة.

وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٣١٠) ونسبه للبغوي في «معجمه»، وابن أبي حاتم، وابن قانع،

والطبرني، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب».

وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريجنا.

(٢) تفسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٩، ٤٠).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ١٧١).

ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمان، لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء. أهـ وتقدم كلام شيخ الإسلام وتلميذه في ذلك.

● ما جاء في تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن^(١): أولئك لهم الأمن في الدارين:

أما في الدنيا فيدفع عنهم بأمره الكوني وأمره الشرعي السوء، أما أمره الشرعي فيأمرهم بتوحيده وطاعته لئلا يقعوا في غضبه وناره، وأما أمره الكوني إما عاماً يعم الأسواء والشرور كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٢).

وإما خاصاً بشيء كما يدفع عنهم الذل والخذلان ويؤيدهم بالعز والنصر كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٣). ويدفع عنهم الضلال قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤) ويدفع عنهم كيد العدو والكره قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾^(٥) ويدفع عنهم الضر والأذى قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٦) فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرِّ وآتيناهُ أهله ومثلهم معهم رحمةً من عندنا وذكرى للعابدين^(٧)﴾^(٨). ويدفع عنهم الهم والغم قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٩) فاستجبنا له ونجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ^(١٠)﴾^(١١). ويدفع عنهم السوء والفحشاء قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لَنَصْرَفُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(١٢). ويدفع عنهم عند الأجل الخوف والحزن ببشارة يرسل إليهم ملائكة يبشرونهم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) «فتح الله الحميد المجيد» (١٠٦ - ١١١).

(٢) الحج: ٣٨.

(٣) غافر: ٥١.

(٤) العنكبوت: ٦٩.

(٥) الأنبياء: ٧٦.

(٦) الأنبياء: ٨٣، ٨٤.

(٧) الأنبياء: ٨٧، ٨٨.

(٨) يوسف: ٢٤.

قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١﴾ . ويدفع عنهم الضيق والكره عند نزول الروح من الجسد كما في مسند الإمام أحمد من حديث البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحَد، فجلس رسول الله ﷺ، فجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة أنزل الله ملائكته من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: اخرجي أيتها النفس الطيبة المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج كأطيب نفحة مسك وجدت في الأرض، فيصعدون فلا يمرون على ملام من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء التي تليها حتى ينتهوا إلى السماء السابعة، فيقول الله - عز وجل -: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه في الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها نخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول رسول الله ﷺ فيقولان: ما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت به، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً من الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول له: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت تُوعَد، فيقول له: من أنت، فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عمك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى» (٢).

ويدفع عنهم في الآخرة عسر الحساب، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ ويدفع عنهم

(١) فصلت: ٣٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) وانظر كتابنا «بيعة الفائز الجامع لأحكام الجنائز».

(٣) الإنشاق: ٧ - ٩.

كرب الموقف ويدخلهم الجنة، قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (١).

فبين الله أن المؤمن آمن من كل ضر وسوء ومكروه في الدنيا إلا إذا أراد الله استخباره بما هو خير له وصلاح، إما رفعا لدرجته وكفارة لسيئاته أو أنه يؤول إلى حسن العاقبة استخيره بالبلايا والمحن، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَاتًا أَن يَأْتِيَهُمُ الْكُوفَرِيُّونَ (٢) وَلَقَدْ فُتِنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِن نَّصَرَ اللَّهُ قَرِيبًا ﴾ (٣). وفي الحديث قال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله سبحانه إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فعليه السخط» (٤). رواه الترمذى.

وهذا فى الحقيقة خيرة لهم ولكن أكثر الناس لا يعلمون، كما قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٥). وأما غير المؤمن فبعكس ما هو للمؤمن، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِن لَّهُ مَعِيشَةً سَنَكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴾ (٦). فبين أنه فى سوء حال فى الدنيا والآخرة، ولو زخرت لهم الدنيا فهم فى ضنكها وشقائها وعنائها.

قال ابن القيم رحمه الله: «اعلم أن يقال تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة بالحرص على تحصيلها والتعب العظيم فى جمعها، ومقاساة أنواع المشاق.

كما قال بعض السلف: من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب، ومحبتها

(٢) العنكبوت: ٣/١.

(٤) سيأتي تخريجه فى باب «الإيمان بالله: الصبر على قدر الله».

(٦) طه: ١٢٤ / ١٢٦.

(١) الزمر: ٧٣.

(٣) البقرة: ٢١٤.

(٥) البقرة: ٢١٦.

لا ينفك من ثلاث: همّ لازم، وتعب، وحسرة لا تنقضي، وذلك أن محبتها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما هو فوقه كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً»^(١). فطالبها لا تستريح نفسه من التعب كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروهه، سرورها مشوب بالحزن، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها إلى كدور، وعيشها نكد كما قيل:

فما في الأرض أشقى من محب
تراه باكياً في كل حال
فيبكي إن نأى شوقاً إليه
فتسخن عينه عند التلاقي
وإن وجد الهوى حلو المذاق
مخافة فرقة أو اشتياق
ويبكي إن دنا حذر الفراق
وتسخن عينه عند الفراق

ولهذا قال النبي ﷺ، في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: «الدنيا معلونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه»^(٢).

الحاصل: أن مؤثر الدنيا على الآخرة في شقاء وعناء لا يكاد يوصف في الدنيا وفي الآخرة في عذاب مقيم.

قال ابن القيم - رحمه الله -: وقد دل العقل، والنقل، والفطر السليمة، وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها، وأهلها، ونحلها: أن التقرب إلى رب العباد، وطلب مرضاته، والبر، والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب لكل خير وأضدادها من أكبر الأسباب لكل شر، فما استجلبت نعم قط ولا استدفعت نقم بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه وقد رتب الله تعالى حصول الخيرات في الدنيا والآخرة على الطاعات ورتب حصول الشر والمكروهات في الدنيا والآخرة على المعاصي.

وفي بعض الآثار عن الله تبارك وتعالى: «وعزتي وجلالي لا يكون عبد من عبيدي على ما أحبه ثم ينتقل إلى ما أكره إلا انتقلت له ما يحب إلى ما يكره ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره ثم ينتقل عنه إلى ما أحب إلا انتقلت له ما يكره، إلى ما يحب» فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الأمنين من عقوبات الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه مأمناً، ومن عصاه انقلبت مأمناً مخاوف وذلك قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» أ.هـ.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم في الزكاة (٤/١٥٠/١١٦) عن أنس به، وانظر «الإيقان في علوم القرآن» - بتخریجنا -.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٧٧/١)، والترمذي (٢٣٢٨) عن ابن مسعود به وانظر «رياض الصالحين» (٤٨٠- بتخریجنا).

عن عبادة بن الصامت (رضي الله عنه)؛ قال: قال رسول الله ﷺ (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله

وقد تقدم شيئاً من كلام ابن تيمية وابن القيم في تأويل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ في معنى الأمن والهداية. فليرجع إليه.
قال ابن عثيمين^(١): قوله: ﴿الْأَمْنُ﴾.

أل فيها للجنس، ولهذا فسّرنا الأمن بأنه إما آمنٌ مطلق، وإما مطلقٌ آمن حسب الظلم الذي تلبس به.
قوله: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

أى: في الدنيا إلى شرع الله بالعلم والعمل؛ فالاهتداء بالعلم هداية الإرشاد. والاهتداء بالعمل: هداية توفيق، وهم مهتدون في الآخرة إلى الجنة. هذه هداية الآخرة، وهي للذين ظلموا إلى صراط الجحيم، فيكون مقابلها أن الذين آمنوا ولم يظلموا يهدون إلى صراط النعيم.

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾: إن الأمن في الآخرة، والهداية في الدنيا، والصواب أنها عامة بالنسبة للأمن والهداية في الدنيا والآخرة. أهد وسيأتي في الباب الثاني مسائل تتعلق بالأمن، منهم هل الأمن غاية أم وسيلة، وعلاقته بالنصر والتمكين، وغير ذلك فانظره.



هذا لفظ البخاري الذي بوب عليه باب قوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الآية.

ولفظ مسلم: «من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية. شاء».

وفي لفظ: «أدخله الله الجنة على ما كان من عمل» ولم يذكر أي أبواب الجنة الثمانية شاء».

(١) «القول المفيد» (١/٧٣).

وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ. وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ: أَدْخَلَهُ اللهُ
الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ. أَخْرَجَاهُ^(١).

● مناسبة الحديث للباب :-

قال النووي^(٢) :- هذا حديث عظيم جليل الموقع وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث
المشتملة على العقائد. فإنه - ﷺ - جمع فيه ما يخرج عن ملل الكفر على اختلاف
عقائدهم وتباعدها، فاقصر - ﷺ - في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم. أهـ.

قال عبد الله بن جار الله^(٣) : هي ان من شهد بهذه الخمس المذكورة في الحديث عن
علم ويقين تكفر ذنوبه ويدخل الجنة وهذا من فضل التوحيد.
قوله: «عن عبادة».

قال سليمان آل الشيخ^(٤) : عبادة هو ابن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أبو
الوليد، أحد النقباء، بدرى مشهور من جلة الصحابة، مات بالرملة سنة أربع وثلاثين
وله اثنتان وسبعون سنة. وقيل: عاش إلى خلافة معاوية.
قوله «من شهد أن لا إله إلا الله».

قال ابن عثيمين^(٥) : الشهادة لا تكون إلا عن علم سابق، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ
شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٦)، وهذا العلم قد يكون مكتسباً وقد يكون غريزياً.
فالعلم بأنه لا إله إلا الله غريزى، قال ﷺ: «كل مولود يُولدُ على الفطرة»^(٧).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى «أحاديث الأنبياء» باب: «يا أهل الكتاب لاتغلو فى دينكم»
(٥٤٦/٦ ح/٣٤٣٥)، ومسلم فى «الإيمان»/باب: من مات على التوحيد (٢٢٦/١ - النووي) وأحمد فى
مسنده (٣١٣/٥) والترمذى فى «الإيمان»/باب: فيمن يموت وهو بشهد أن لا إله إلا الله (٢٣/٥) ح
(٢٦٣٨)، والنسائى فى «الكبرى» فى التفسير/باب: قول الله تعالى: ﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسول
الله﴾ (٣٣٠/٦) ح (١١١٣٢)، وابن حبان فى «صحيحة» (٢١٤/١) ح (٢٠٧ - الإحسان).
من طريق جنادة بن أبى أمية عن عبادة بن الصامت.

قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وانظر «رياض الصالحين» (ح ٤١٣) «فتح المجيد» (ح ٦٤) بتخریجنا.
(٢) نقلًا عن تيسير العزيز الحميد ٥١.

(٣) الجامع الفريد ١٧. (٤) «تيسير العزيز الحميد» (٥٠).

(٥) «القول المفيد» (١/٧٤ - ٧٦). (٦) الزخرف: ٨٦.

(٧) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم فى القدر (٢٠٧/١٦ - النووي) عن أبى هريرة.
وانظر كتابنا «فتح ذي الجلال فى تخریج أحاديث الظلال» (٤٠٥).

وقد يكون مكتسباً، وذلك بتدبر آيات الله، والتفكير فيها.

ولا بد أن يوجد العلم بلا إله إلا الله ثم الشهادة بها.

قوله: ﴿أَنْ﴾.

مخففة من الثقيلة، والنطق بأن مُشددة خطأ؛ لأنَّ المشددة لا يمكن حذف اسمها، والمخففة يمكن حذفه.

قوله: ﴿لَا إِلَهَ﴾

أى: لا مألوه، وليس بمعنى لا آله، والمألوه: هو المعبود محبةً وتعظيمًا، تحبه وتعظمه لما تعلم من صفاته العظيمة وأفعاله الجليلة.

قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾.

أى: لا مألوه إلا الله، ولهذا حكى عن قريش قولهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ (١).

أما قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ فهذا الثالثة باطل؛ لأنه بغير حق، فهو منفي شرعاً، وإذا انتفى شرعاً؛ فهو كالمنتفى وقوعاً؛ فلا قرار له ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (٢).

وبهذا يحصل الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ وقوله تعالى حكاية عن قريش: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾، وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ فهذه الآلهة مجرد أسماء لا معانى لها ولا حقيقة؛ إذ هي باطلة شرعاً، لا تستحق أن تُسمى آلهة؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق؛ كما قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

ثم قال (٣): قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله».

من: شرطية، وجواب الشرط: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

والشهادة: هى الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب، والتصديق بالجوارح، ولهذا لما

(٢) إبراهيم: ٢٦٠.

(١) ص: ٥.

(٣) «القول المفيد» (١/٧٨، ٧٩).

قال المنافقون للرسول ﷺ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وهذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: الشهادة، وإن، واللام، كذبهم الله بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١) فلم ينفعهم هذا الإقرار باللسان لأنه خال من الاعتقاد بالقلب، وخال من التصديق بالعمل، فلم ينفع؛ فلا تتحقق الشهادة إلا بعقيدة في القلب، واعتراف باللسان، وتصديق بالعمل.

وقوله: «لا إله إلا الله».

أى: لا معبود على وجه يستحق أن يُعبد إلا الله، وهذه الأصنام التي تُعبد لا تستحق العبادة؛ لأنه ليس فيها من خصائص الألوهية شيء.

قال سليمان آل الشيخ (٢): «من شهد أن لا إله إلا الله» أى من تكلم بهذه الكلمة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً، كما دل عليه قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (٣). وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤).

أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع، وفي الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: ﴿مَنْ شَهِدَ﴾ إذ كيف يشهد وهو لا يعلم، ومجرد النطق بشيء لا يسمى شهادة به.

قال بعضهم: أداة الحصر لقصر الصفة على الموصوف قصر إفراد، لأن معناه: الألوهية منحصرة في الله الواحد في مقابلة من يزعم اشتراك غيره معه، وليس قصر قلب لأن أحداً من الكفار لم ينفها عن الله، وإنما أشرك معه غيره).

قال القرطبي (٥): فى «المفهم على صحيح مسلم»: (باب لا يكفى مجرد التللفظ بالشهادتين، بل لابد من استيقان القلب): «هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة، القائلين بأن التللفظ بالشهادتين كاف فى الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده، بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح، وهو باطل قطعاً» ١. هـ.

(١) سورة المنافقون آية: (١)

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٥١).

(٣) سورة محمد آية: (١٩).

(٤) الزخرف: ٨٦.

(٥) وانظر عن «فتح المجيد» (٤٩ و ٥٠) ط مؤسسة قرطبة.

قال عبدالرحمن آل الشيخ: وفي هذا الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: ﴿مَنْ

شَهِدَ﴾، فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم و يقين وإخلاص وصدق. أمه.

قال سليمان آل الشيخ^(١): ومعنى لا إله إلا الله، أى: لا معبود بحق إلا إله واحد، وهو الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢) مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٣) فصح أن معنى الاله هو المعبود، ولهذا لما قال النبي ﷺ لكفار قريش «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾^(٤) وقال قوم هود: ﴿أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذُرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾^(٥)

وهو إنما دعاهم إلى لا إله إلا الله، فهذا هو معنى لا إله إلا الله، وهو عبادة الله وترك عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت، وإيمان بالله، فتضمنت هذه الكلمة العظيمة إن ما سوى الله ليس بآله وأن ألوهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه كما لا يصلح الألوهية لغيره فتضمنت نفى الألوهية عما سواه، وإثباتها له وحده لا شريك له وذلك يستلزم الأمر باتخاذها إلهاً وحده، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهاً وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتى أو يستشهد من ليس أهلاً لذلك ويدع من هو أهل له، فتقول: هذا ليس بمفتى ولا شاهد المفتى فلان، والشاهد فلان، فإن هذا أمر منه ونهى، وقد دخل فى الألوهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن تأله القلب لله بالحب والخضوع والانقياد له وحده لا شريك له، فيجب إفراد الله تعالى بها، كالدعاء والخوف والمحبة، والتوكل والإنابة، والتوبة، والذبح، والنذر، والسجود، وجميع أنواع العبادة فيجب صرف جميع ذلك لله وحده لا شريك له، فمن صرف شيئاً مما لا يصلح إلا لله من العبادات لغير الله فهو مشرك ولو نطق بـ لا إله إلا الله، إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص.

● ذكر نصوص العلماء فى معنى الإله: قال ابن عباس رضى الله عنه: الله ذو

الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٥١، ٥٢).

(٢) الأنبياء: ٢٥.

(٣) النحل: ٣٦.

(٤) ص: ٥.

(٥) الأعراف: ٧٠.

وقال الوزير أبو المظفر في «الإفصاح» قوله: شهادة أن لا إله إلا الله، يقتضى أن يكون الشاهد عالماً بأن لا إله إلا الله.

كما قال: الله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وينبغي أن يكون الناطق بها شاهداً فيها، فقد قال الله عز وجل ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالماً بما شهد به، فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد من ذلك بما يعلمه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال: واسم الله تعالى مرتفع بعد الأمن حيث إنه الواجب له الألوية، فلا يستحقها غيره سبحانه.

قال: واقتضى الاقرار بها أن تعلم أن كل ما فيه أمانة للحدث، فإنه لا يكون إلهاً، فإذا قلت: لا إله إلا الله، فقد اشتمل نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإله فيلزمك إفراده سبحانه بذلك وحده.

قال: وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة هي مشتملة على الكُفْرِ بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه، كنت ممن كَفَرَ بالطاغوت وآمن بالله.

وقال ابن القيم^(١): في «البدائع» ردّاً لقول من قال: إن المستثنى مخرج من المستثنى

منه.

قال: «بل هو مخرج من المستثنى منه وحكمه»^(*)، فلا يكون داخلياً في المستثنى؛ إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل في الإسلام بقوله: «لا إله إلا الله» لأنه لم يثبت الإلهية لله تعالى. وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفى الإلهية عما سوى الله، وإثباتها له بوصف الاختصاص. فدلالته على إثبات إلهيته أعظم من دلالة قولنا: «الله إله» ولا يستريب أحد في هذا البتة. انتهى بمعناه.

قال سليمان آل الشيخ^(٢):- وقال أبو عبد الله القرطبي في «التفسير»: لا إله إلا هو، أى: لا معبود إلا هو.

وقال الزمخشري: الإله من أسماء الأجناس - كالرجل والفرس - اسم يقع على كل معبود بحق أو بباطل، ثم غلب على المعبود بحق.

(١) نقلاً عن «فتح المجيد» (٥١) ط مؤسسة قرطبة.

(*) هكذا في المطبوع.

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٥٢ - ٥٧).

وقال شيخ الإسلام: الإله هو المعبود المطاع. وقال أيضاً فى لا إله إلا الله إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد. فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذى يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع.

وقال ابن القيم رحمه الله: الإله هو الذى تأله القلوب محبة وإجلالاً وإناة وإكراماً وتعظيماً وذلاً وخضوعاً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً.

وقال ابن رجب رحمه الله: الإله هو الذى يطاع فلا يعصى هية له وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاءً وتوكلاً عليه وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقاً فى شىء من هذه الأمور التى هى من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً فى إخلاصه فى قوله: لا إله إلا الله، ونقصاً فى توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك.

وقال البقاعى: لا إله إلا الله، أى انتفى انتفاء عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صرف.

وقال الطيبى: الإله فعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من آله إله، أى عبد عبادة، وهذا كثير جداً فى كلام العلماء، وهو إجماع منهم أن الإله هو المعبود. خلافاً لما يعتقد عباد القبور وأشباههم فى معنى الإله أنه الخالق أو القادر على الاختراع أو نحو هذه العبارات ويظنون أنهم إذا قالوها بهذا المعنى فقد أتوا من التوحيد بالغاية القصوى، ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله، كدعاء الأموات، والاستغاثة بهم فى الكربات، وسؤالهم قضاء الحاجات، والنذر لهم فى الملمات، وسؤالهم الشفاعة عند رب الأرض والسموات، إلى غير ذلك من أنواع العبادات، وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم فى هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع، ويعبدونه بأنواع من العبادات، فليهن أبا جهل وأبا لهب ومن تبعهما الإسلام بحكم عباد القبور، وليهن أيضاً إخوانهم عباد ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، إذ جعل هؤلاء دينهم هو الإسلام المبرور، ولو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال، لم يكن بين الرسول ﷺ وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبون دعوته، إذ يقول لهم: قولوا:

لا إله إلا الله، بمعنى أنه لا قادر على الاختراع إلا الله. فكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (١) ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٢) ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ (٣) الآية، إلى غير ذلك من الآيات، لكن القوم أهل اللسان العربي علموا أنها تهدم عليهم دعاء الأموات والأصنام من الأساس، وتكب بناء سؤال الشفاعة من غير الله وصرف الإلهية لغيره لأمر الرأس، فقالوا: ﴿مَا عِبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (٤) ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ﴾ (٥) ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾.

فتباً لمن كان أبو جهل ورأس الكفر من قريش وغيرهم أعلم منه به: لا إله إلا الله. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٦) وَيَقُولُونَ أَنَّا لِتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٦﴾ فعرفوا أنها تقتضى عبادة ما سوى الله، وإفراد الله بالعبادة، وهكذا يقول عباد القبور إذا طلبت منهم إخلاص الدعوة والعبادة لله وحده: أترك سادتنا وشعفاءنا فى قضاء حوائجنا. فيقال لهم: وهذا الترك والإخلاص هو الحق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧) ف: لا إله إلا الله اشتملت على نفي وإثبات، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم فليس بإله، ولا له من عبادة شىء؛ وأثبتت الإلهية لله وحده، بمعنى أن العبد لا ياله غيره، أى لا يقصده بشىء من التأله وهو تعلق القلب الذى يوجب قصده بشىء من أنواع العبادة، كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك.

(١) الزخرف: ٨٧.

(٢) الزخرف: ٩.

(٣) يونس: ٣١.

(٤) الزمر: ٣.

(٥) يونس: ١٨.

(٦) الصافات: ٣٥، ٣٦.

(٧) الصافات: ٣٧.

وبالجملة: فلا ياله إلا الله، أى لا يعبد إلا هو، فمن قال هذه الكلمة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، من نفى الشرك وإثبات الوحدانية لله مع الإعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به، فهذا هو المسلم حقاً، فإن عمل به ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وإن عمل بخلافها من الشرك فهو الكافر ولو قالها، ألا ترى أن المنافقين يعملون بها ظاهراً وهم فى الدرك الأسفل من النار، واليهود يقولونها وهم على ما هم عليه من الشرك والكفر، فلم تنفعهم، وكذلك من ارتد عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها، فإنه لا تنفعه، ولو قالها مائة ألف، فكذلك من يقولها ممن يصرف أنواع العبادة لغير الله، كعباد القبور والأصنام فلا تنفعهم ولا يدخلون فى الحديث الذى جاء فى فضلها، وما أشبهه من الأحاديث (*).

وقد بين النبى ﷺ ذلك بقوله: «وحده لا شريك له» تنبيهاً على أن الانسان قد يقولها وهو مشرك، كاليهود والمنافقين وعباد القبور، لما رأوا أن النبى ﷺ دعا قومه إلى قول: لا إله إلا الله، ظنوا أنه إنما دعاهم إلى النطق بها فقط، وهذا جهل عظيم، وهو عليه السلام إنما دعاهم إليها ليقولوها ويعملوا بمعناها ويتركوا عبادة غير الله، ولهذا قالوا: ﴿أَتُنَّا لِتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فلهذا أبو عن النطق بها، وإلا فلو قالوها وبقوا على عبادة اللات والعزى ومناة لم يكونوا مسلمين، ولقاتلهم عليه السلام حتى يخلعوا الأنداد ويتركوا عبادتها، ويعبدوا الله وحده لا شريك له، وهذا أمر معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة والإجماع.

وأما عباد القبور فلم يعرفوا معنى هذه الكلمة، ولا عرفوا الإلهية المنفية عن غير الله الثابتة له وحده لا شريك له، بل لم يعرفوا من معناه إلا ما أقر به المؤمن والكافر واجتمع عليه الخلق كلهم من أن معناها لا قادر على الاختراع، أو أن معناها الإله، هو الغنى عما سواه، الفقير إليه كل ما عده، ونحو ذلك، فهذا حق، وهو من لوازم

(*) وسيأتى فى باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، والباب الذى قبله تقسيم الإسلام إلى نوعين (الأول) الإسلام الحقيقى أو المنجى من عذاب الله يوم القيامة والنافع عند الله. وهذا التقسيم سبيل فهم كثير من الأدلة التى تشترط للشهادتين شروط، والأدلة التى تكفى فقط بتلفظ بالشهادتين وانظر أيضاً (ص) فى الفرق بين الإسلام الحكيم والإسلام المنجى الحقيقى.

الإلهية، ولكن ليس هو المراد بمعنى لا إله إلا الله، فإن هذا القدر قد عرفه الكفار، وأقروا به ولم يدعوا في آلهتهم شيئاً من ذلك، بل يقرون بقرهم، وحاجتهم إلى الله، وإنما كانوا يعبدونهم على معنى أنهم وسائل وسائط وشفعاء عند الله في تحصيل المطالب ونجاح المآرب، وإلا فقد سلموا الخلق والملك والرزق والإحياء والإماتة، والأمر كله لله وحده لا شريك له، وقد عرفوا معنى لا إله إلا الله وأبوا عن النطق والعمل بها، فلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك في الإلهية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١).

وعباد القبور نطقوا بها وجهلوا معناها، وأبوا عن الإتيان به، فصاروا كاليهود الذين يقولونها ولا يعرفون معناها ولا يعملون بها، فتجد أحدهم يقولها وهو يؤله غير الله بالحب والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء والتوكل والدعاء عند الكرب، ويقصده بأنواع العبادة الصادرة عن تأله لغير الله مما هو أعظم مما يفعله المشركون الأولون، ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الإيمان صادقاً أو كاذباً، ولو قيل له: احلف بحياة الشيخ فلان أو بترته ونحو ذلك، لم يحلف إن كان كاذباً، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أعظم في قلبه من رب الأرباب، وما كان الأولون هكذا، بل كانوا إذا أرادوا التشديد في اليمين حلفوا بالله تعالى كما في:

قصة القسامة التي وقعت في الجاهلية، وهي في «صحيح البخارى» (٢) وكثير منهم وأكثرهم يرى أن الاستغاثة بالهه الذي يعبد عند قبره أو غيره أنفع وأنجح من الاستغاثة بالله في المسجد، ويصرحون بذلك، والحكاية عنهم بذلك فيها طول، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين، وكلهم إذا أصابتهم الشدائد أخلصوا للمدفونين في التراب، وهتفوا باسمائهم ودعواهم ليكشفوا ضر المصاب في البر والبحر والسفر والإياب.

وهذا أمر ما فعله الأولون، بل هم في هذه الحال يخلصون للكبير المتعال، فاقراً قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٣) الآية.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ * ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٤).

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٨٤٥) عن ابن عباس به.

(٣) العنكبوت: ٦٥.

(٤) النحل: ٥٣، ٥٤.

وكثير منهم قد عطلوا المساجد وعمروا القبور والمشاهد، فإذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه أخذ في دعاء صاحبه باكياً خاضعاً ذليلاً خاضعاً، بحيث لا يحصل له ذلك في الجمعة والجماعات وقيام الليل وإدبار الصلوات، فيسألونهم مغفرة الذنوب وتفريج الكرب والنجاة من النار، وأن يحطوا عنهم الأوزار، فكيف يظن عاقل فضلاً عن عالم أن التلفظ ب: لا إله إلا الله مع هذه الأمور تنفعهم؟ وهم إنما قالوها بألسنتهم وخالفوها باعتقادهم وأعمالهم، ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق أيضاً بشهادة أن محمداً رسول الله ولم يعرف معنى الإله ولا معنى الرسول وصلى وصام وحج ولا يدري ما ذلك إلا أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم ولم يفعل شيئاً من الشرك، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه، وقد أفتى بذلك فقهاء المغرب كلهم في أول القرن الحادى عشر أو قبله في شخص كان كذلك كما ذكره صاحب «الدر الثمين في شرح المرشد المعين» من المالكية، ثم قال شارحه: وهذا الذى أفتوا به جلى فى غاية الجلاء، لا يمكن أن يختلف فيه اثنان. انتهى^(١). ولا ريب أن عباد القبور أشد من هذا لأنهم اعتقدوا الإلهية فى أرباب متفرقين.

فإن قيل: قد تبين معنى الإله والإلهية، فما الجواب عن قول من قال: بأن معنى الإله القادر على الإختراع ونحو هذه العبارة؟.

قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا قول مبتدع لا يعرف أحد قاله من العلماء ولا من أئمة اللغة، وكلام العلماء وأئمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم فيكون هذا القول باطلاً.

الثانى: على تقدير تسليمه فهو تفسير باللازم للإله الحق فان اللازم له أن يكون خالقاً قادراً على الإختراع، ومتى لم يكن كذلك، فليس بإله حق وإن سمي إلهاً، وليس مراده أن من عرف أن الإله هو القادر على الإختراع، فقد دخل فى الإسلام وأتى بتحقيق المرام من مفتاح دار السلام، فإن هذا لا يقوله أحد، لأنه يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين، ولو قدر أن بعض المتأخرين أرادوا ذلك فهو مخطئ يرد عليه بالدلائل السمعية والعقلية. أ. هـ.

● التوحيد عند المتكلمين:

(١) وما قاله الشيخ رحمه الله تعالى فيه نظر، وانظر باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله وباب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله. وانظر ص ٣٨٠ (فى الفرق بين الإسلام الحكى والإسلام النجى عند الله تعالى) فى هذا الباب.

قال ابن عثيمين^(١):

يقولون: إنَّ معنى إله: آله، والآله: القادر على الإختراع؛ فيكون معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الإختراع إلا الله.

والتوحيد عندهم: أن توحيد الله، فتقول: هو واحد فى ذاته لا قسيم له، وواحد فى أفعاله لا شريك له، وواحد فى صفاته لا شبيه له، ولو كان هذا معنى لا إله إلا الله؛ لما أنكرت قريش على النبي ﷺ دعوته ولأمنت به وصدقت؛ لأنَّ قريشاً تقول: لا خالق إلا الله، و(لا خالق) أبلغ من كلمة (لا قادر)؛ لأنَّ القادر قد يفعل وقد لا يفعل، أمَّا الخالق؛ فقد فعل وحقَّق بقدرته منه، فصار فهم المشركين خيراً من فهم هؤلاء المتكلمين والمتنسبين للإسلام؛ فالتوحيد الذى جاءت به الرُّسل فى قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾^(٢)؛ أى: من إله حقيقى يستحق أن يُعبد، وهو الله.

ومن المؤسف أنه يوجد كثير من الكتاب الآن الذين يكتبون فى هذه الأبواب تجدهم عندما يتكلمون على التوحيد لا يقررون أكثر من توحيد الربوبية، وهذا غلط ونقص عظيم، ويجب أن نغرس فى قلوب المسلمين توحيد الألوهية أكثر من توحيد الربوبية؛ لأنَّ توحيد الربوبية لم يُنكره أحد إنكاراً حقيقياً، فكوننا لا نقرر إلا هذا الأمر الفطرى المعلوم بالعقل، ونسكت عن الأمر الذى يغلب فيه الهوى هو نقص عظيم؛ فعبادة غير الله هى التى يسيطر هوى الإنسان على نفسه حتى يصرفه عن عبادة الله وحده، فيعبد الأولياء ويعبد هواه، حتى جعل النبي ﷺ الذى همم الدرهم والدينار ونحوهما عابداً^(٣)، وقال الله - عز وجل -: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾^(٤).

فالمعاصى من حيث المعنى العام أو الجنس العام يمكن أن نعتبرها من الشرك.

وأما بالمعنى الأخص؛ فتنقسم إلى أنواع:

- ١ - شرك أكبر.
- ٢ - شرك أصغر.
- ٣ - معصية كبيرة.
- ٤ - معصية صغيرة.

(٢) سورة الأعراف آية: ٥٩.

(٤) سورة الجاثية آية: ٢٣.

(١) «القول المفيد» (١/٧٦ - ٧٨).

(٣) سيأتى تخريجه.

وهذه المعاصي منها ما يتعلّق بحق الله، ومنها ما يتعلّق بحق الإنسان نفسه، ومنها ما يتعلّق بحق الخلق.

وتحقيق لا إله إلا الله أمر في غاية الصعوبة، ولهذا قال بعض السلف: «كل معصية؛ فهي نوع من الشرك».

وقال بعض السلف: «ما جاهدت نفسى على شىء مجاهدتها على الإخلاص»، ولا يعرف هذا إلا المؤمن، أما غير المؤمن؛ فلا يُجاهد نفسه على الإخلاص. قلت: وهذا مؤدى كلام سفيان حين قال ما جاهدت شيئاً أشد على من نيتى.

ولهذا قيل لابن عباس: «إنَّ اليهود يقولون: نحن لا نوسوسُ فى الصلاة». قال: فما يصنع الشيطان بقلب خرب؟!؛ فالشيطان لا يأتي ليخرّب المهذوم، ولكن يأتي ليخرّب العمور، ولهذا لما شكى إلى النبي ﷺ أن الرجل يجد فى نفسه ما يستعظم أن يتكلّم به؛ قال: «وجدتم ذلك؟» قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان»^(١)؛ أى: أن ذاك هو العلامة البيّنة على أن إيمانكم صريح؛ لأنّه ورد عليه، ولا يرد إلا على قلب صحيح خالص.

● شروط لا إله إلا الله حتى تنفع صاحبها يوم القيامة^(٢).

ذكر صاحب «معارج القبول» شروطاً سبعة لهذه الكلمة حتى تنفع صاحبها فى الآخرة وهى مستنبطة من الكتاب والسنة وهى:

(الأول) - العلم بمعناها نفيًا، وإثباتًا: نفيًا للألوهية، واستحقاق العبادة عن غير الله، وهو الكفر بالطاغوت. وإثباتًا للألوهية لله وحده وهو - الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾^(٣) فبدأ بالعلم قبل العمل، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ﴾^(٤)، فسرّها غير واحد من السلف أنها: لا إله إلا الله.

الثانى - اليقين المتافى للشك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/٤٣٠/٢٠٩) عن أبى هريرة به.

(٢) فضل الغنى الحميد ٥٤ - ٦٠.

(٣) البقرة: ٢٥٦.

(٤) محمد: ١٩.

ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١﴾، وعن
أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول
الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة» (٢).

الثالث - القبول المنافى للاستكبار، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣).

الرابع - الانقياد لما دلت عليه، المنافى للإيذاء والرد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ
إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (٤)، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا
يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ
وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥)، وقال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦).

والمقصود بالانقياد - الذى هو شرط فى أصل الإيمان: انقياد القلب، وهو شىء زائد
على مجرد المعرفة والتصديق، فهو رؤية العبد أن عليه أن يطيع الله عز وجل، وإذا قصر
فى الطاعة، أو عصى؛ فهو ظالم لنفسه، وأما الانقياد بالجوارح، وترك المعاصى فهو
شرط فى كمال الإيمان الواجب، لا فى أصل الإيمان، وتأمل قصة آدم وإبليس لتعرف
الفرق: فآدم عليه السلام عصى ربه، وأكل من الشجرة، ولكنه لم يفقد من قلبه الانقياد
فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٧). وإبليس
عصى، ورد الأمر على الله فقال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ﴾ (٨). مع كونه كان مصدقاً بالأمر،
عارفاً بوجود الله، وربوبيته، فكفر بذلك الإيذاء والرد لانتفاء الانقياد الباطن، واستحلال
المعصية، وترك الواجب، فمعصية آدم لم تكن كفراً، ومعصية إبليس كانت كفراً، فتنبه
لهذا الفرق.

ولا خلاف بين أهل السنة فى ذلك: أن من انتفى عنه الانقياد الظاهر مع بقاء
الانقياد الباطن لا يكفر، إلا ما كان من اختلافهم فى تكفير تارك الصلاة تكاسلاً، وكذا
الصوم، والزكاة والحج وإن كان الراجح - وهو قول جمهور أهل السنة - ألا يكفر، لما
رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل: شفعت

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الإيمان» (١/٢٤٩/٤٤).

(٤) لقمان: ٢٢.

(٦) البقرة: ٣٤.

(٨) الحجر: ٣٣.

(١) الحجرات: ١٥.

(٣) الصفات: ٣٥.

(٥) النساء: ٦٥.

(٧) الأعراف: ٢٣.

الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط» - الحديث، وفي آخره قال رسول الله ﷺ: «هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه»^(١).

وهو من أصرح الأدلة على ذلك، ولا يصح حمله على من يكون في آخر الزمان ممن لم يبلغهم فرض الصلاة وغيره، فإن هؤلاء - إذ لم يبلغهم وجوب هذه الأشياء - لا يستحقون عذاباً، إذ من شروط التكليف العلم، أو التمكن منه، وهؤلاء عاجزون؛ لاندثار الشرائع كلها، والأحاديث الواردة إنما هي في خروج عصاة الموحدين من النار.

وكذلك لا يصح تقييدها بالأحاديث الواردة في وجوب الأعمال، وكفر تارك الصلاة؛ لأن مقتضى ذلك التقييد؛ أن يكون من يحافظ على الصلوات الخمس في مواقيتها؛ لم يعمل خيراً قط، وأي خير أكثر من الصلاة؟! وأحاديث التكفير يصح حملها على: كفر دون كفر. ويؤيد ذلك قول أبى بكر رضى الله عنه: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»^(٢)، فهو دليل واضح على عدم الفرق بينهما عند الصحابة، وهى قريبتها فى القرآن، مع ما قد ورد فى مانع الزكاة أنه يعذب يوم القيامة؛ لقوله ﷺ: «ثم يرى سبيله: إما إلى الجنة، وإما إلى النار»^(٣). والله تعالى أعلم.

هذا إذا مات تارك الصلاة على التوحيد، وإلا فما أقرب الفتنة إليه، وما أسهل تسلط الشيطان عليه خاصة عند الموت، وأبواب الكفر مفتوحة عليه، وسوء الخاتمة أقرب إليه، نعوذ بالله من ذلك.

واعلم أن هذا الخلاف فى تكفير تارك الصلاة، وبقى المباني الأربعة تكاسلاً من الخلاف السائغ عند أهل السنة؛ لا يُبدع ولا يُضلل فيه المخالف عند أحد من أهل العلم.

الخامس - الصدق المنافى للكذب، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٤)، وفى الصحيحين عن معاذ - رضى الله عنه - مرفوعاً: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار»^(٥).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٤٣٩)، ومسلم فى الإيمان (٢/٢٤/٣٠٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٤٠٢)، ومسلم فى الزكاة (٧/٦٤- النورى)، وانظر «رياض

الصالحين» (١٢١٧- بتخريجنا) ..

(٥) تقدم تخريجه تحت شرح حديث معاذ السابق ..

(٤) البقرة: ٨

السادس - الإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (١)، وقال النبي ﷺ: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» (٢).

السابع - المحبة: محبة الله، ورسوله، والمؤمنين، وبغض الكافرين والمنافقين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (٣)، وقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب إليه من والده، وولده، والناس أجمعين» (٤).

● تنبيهات هامة:

١ - اعلم: أن شروط كلمة التوحيد ليست منحصرة في الشروط السبعة السابقة، بل كل عمل من أعمال القلب الواجبة شرط في قبولها يوم القيامة كذلك، كما يدل عليه القرآن.

فالتوكل من شروطها: قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٥). والخوف من الله من شروطها: قال تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٦). والرجاء والرغبة إلى الله من شروطها، قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ (٧). ولا يتصور مؤمن ليس في قلبه ولو مثقال ذرة من التوكل، والخوف، والرجاء، وشكر نعمة الله، والصبر، والرضا، وسائر أعمال القلوب - التي سبق بيانها في عبادات القلب - وكذا النطق بالشهادتين باللسان مع القدرة؛ من شروط نفعها في الآخرة فلا يكفي الاعتقاد الباطن دون نطق.

٢ - هذه الشروط يتفاوت الناس فيها: زيادةً، ونقصاناً؛ لأنها من الإيمان، والإيمان يزيد وينقص عند أهل السنة، كما دل عليه القرآن، والسنة، وإجماع السلف، فمثلاً، العلم يتفاوت: فحقيقة العلم بمعنى لا إله إلا الله على الكمال: هو العلم بالدين كله، إذ معناها: لا معبود بحق إلا الله. والعبادة تشمل الدين كله، وكلما ازداد الإنسان علماً

(١) البينة: ٥.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) المائدة: ٥٤.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٥)، ومسلم فى الإيمان (١/٢٩٠/٧٠). عن أنس به.

(٥) المائدة: ٢٣.

(٦) آل عمران: ١٧٥.

(٧) الأنبياء: ٩٠.

بشيء من الدين؛ ازداد تحقيقاً لمعنى لا إله إلا الله، وقد يكون الإنسان جاهلاً بأن الأمر
الفلاني عبادة، ثم يعلم الآية أو الحديث؛ فيصير بهما عالماً، وكان قبل ذلك جاهلاً،
ولم يكن كافرًا، فالذي هو شرط في أهل الإيمان - أى: فى قبول لا إله إلا الله من
العبد يوم القيامة لنجاته من الخلود فى النار - أهل كل شرط من هذه الشروط.

فأصل العلم شرط، أو على الصحيح ركن من أركان الإيمان، ونعنى به العلم
الإجمالى ومعناه أن لا يُعبد إلا الله.

وأصل الانقياد شرط أو ركن من أركان الإيمان ونعنى به الانقياد القلبي والخضوع
الباطن لله سبحانه.

وأصل اليقين شرط أو ركن من شروط أو أركان الإيمان ونعنى به زوال الشك
والتكذيب. وهكذا، وإلا فاليقين أيضاً يتفاوت وليس كل نقص فيه يكون شكاً، قال
تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا
يَظُنُّنَّ قَلْبِي﴾^(١)، وكمال هذه الشروط؛ شرط فى كمال الإيمان وجوباً واستحباباً.

● الفرق بين الإسلام الحكيم والإسلام المنجى عند الله تعالى:

٣ - هذه الشروط ليست شروطاً فى قبول الإسلام الظاهر فى الدنيا بل فى نفع
صاحبه فى الآخرة وتأمل جميع الأدلة التى ذكرت فى كون هذه الأعمال شروطاً تجدها
إنما هى فى أمر الآخرة «حرمه الله على النار»، و«دخل الجنة»، ونحو ذلك، وليس فى
ثبوت عصمة الدم، والمال، بل النطق بها مع شهادة أن محمداً رسول الله، كاف فى
عصمة الدم، والمال، وثبوت حكم الإسلام ظاهراً، وجريان أحكام الإسلام على صاحبها
فى الدنيا، كما سيأتى له مزيد بيان - إن شاء الله - واحذر مما وقع فيه أهل البدع من
الخلط بين الأمرين^(٢) لكن من صرح بعد نطقه بكلامه الواضح الصريح أنه قد انتفى من
قلبه شيء من هذه الشروط، كمن سمعناه يقول بلسانه أنه يشك فى صدق هذه الكلمة،
أو فى صدق الرسول، والقرآن، فهو مرتد بهذا الكلام، وليس كافراً أصلياً، وبينهما من
الفروق ما يذكر تفصيله فى كتب الفقه، وذلك أنه ثبت له حكم الإسلام ظاهراً بالنطق
المجرد ثم لما قال ذلك صار مرتدًا، وإن كان هو عند الله، وفى الآخرة - إذا كان شكه
من أول نطقه بالشهادين - كافراً من البداية لأن اليقين وغيره من الشروط، شرط فى

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) يعنى: قبول الإسلام ظاهراً فى الدنيا ونفع صاحبه فى الآخرة.

صحة الإسلام، والإيمان، باطناً، وهذا الأمر لا علم لنا به؛ لأننا لم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس، وإنما صاحبه الذى يخبر به، فهو إن كان كذلك كان من المنافقين، وهم مسلمون فى الظاهر، فلو أن ذمياً - يهودياً أو نصرانياً - نطق الشهادتين، ودخل فى الإسلام، ثم قال بعد ذلك: أنه عند قوله لهما لم يكن صادقاً، أو لم يكن محباً لله، ولرسوله ﷺ، لم يقبل قوله ذلك حتى يجعل ذمياً يقر بالجزية كما كان، بل هو مرتد لا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف.

٤ - لا يلزم المسلم حفظ هذه الشروط وعدها، بل المقصود وجودها فى قلبه، ووجود كمالها الواجب فى قلبه، ولسانه، وجوارحه، وما أحسن ما مقاله الشيخ أحمد حكى فى «معارض القبول» حيث قال: «ومعنى استكمالها اجتماعها فى العبد والتزامه إياها بدون مناقضة لشيء منها، وليس المراد من ذلك عد ألفاظها، وحفظها فكم من عامى اجتمعت فيه، والتزمها، ولو قيل له أعددها لم يحسن ذلك، وكم حافظ لألفاظها يجرى فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها، والتوفيق بيد الله والله المستعان» اهـ. قوله: «وحده لا شريك له».

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): قوله: (وحده) تأكيد للإثبات، «لا شريك له» تأكيد للنفى. قاله الحافظ. كما قال تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٢). وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٣). وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٤). فأجابوه رداً عليه بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾^(٥)؛ وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(٦).

فتضمن ذلك نفى الإلهية عما سوى الله. وهى العبادة، وإثباتها لله وحده لا شريك له، والقرآن من أوله إلى آخره يبين هذا ويقرره ويرشد إليه.

فالعباداة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تأله القلب بالحب والخضوع والتذلل. رغباً ورهباً، وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى: كما تقدم فى أدلة هذا الباب وما قبله. فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد جعله لله نداً، فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل.

(٢) البقرة: ١٦٣.

(٤) الأعراف: ٦٥.

(٦) الحج: ٦٢.

(١) «فتح المجيد (٥٠ و ٥١)».

(٣) الأنبياء: ٢٥.

(٥) الأعراف: ٧٠.

قال ابن عثيمين^(١): ولهذا كان النبي ﷺ وغيره من المؤمنين يلجؤون إلى الله تعالى عند الشدائد؛ فقد جاء إعرابي إلى النبي ﷺ وعنده أصحابه، وقد علّق سيفه على شجرة فاخترطه الأعرابي، وقال: من يمنعك مني؟ قال: «يمنعني الله»^(٢)، ولم يقل أصحابي، وهذا هو تحقيق توحيد الربوبية؛ لأن الله هو الذي يملك النفع، والضّر، والخلق، والتدبير، والتصرف في الملك، إذ لا شريك له فيما يختص به من الربوبية والألوهية. والأسماء والصفات.

وقولنا فيما يختص به حتى نسلم من شبهات كثيرة، منها شبهات النافين للصفات؛ لأنّ النّافين للصفات زعموا أنّ إثبات الصفات إشراك بالله - عز وجل -، حيث قالوا: يلزم من ذلك التمثيل، لكننا نقول: للمخلوق صفات تختص به، وللمخلوق صفات تختص به.

قوله: «وأنّ محمداً عبده ورسوله».

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): أى: وشهد بذلك، وهو معطوف على ما قبله على نية تكرار العامل، ومعنى «العبد» هنا: المملوك العابد، أى: إنه مملوك لله تعالى. والعبودية الخاصة وصفه، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(٤) فأعلى مراتب العبد العبودية الخاصة والرسالة، فالنبي ﷺ أكمل الخلق في هاتين الصفتين الشريقتين. وأما الربوبية والإلهية، فهما حق الله تعالى، لا يشركه في شيء منهما ملكٌ مقرب، ولا نبيٌ مرسل.

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قيل: وقدم العبد هنا على الرسول ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، وجمع بينهما لدفع الإفراط والتفريط الذي وقع في شأن عيسى عليه السلام.

وقد أكد النسبى ﷺ هذا المعنى بقوله: «لَأَنْتَظِرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٦) وذلك يتضمن تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما

(١) «القول المفيد» (١/٧٩ و٨٠).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤١٣٦)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٣/٣٨٩/٣١١).

(٣) «فتح المجيد» ٥٤ ط مؤسسة قرطبة.

(٤) الزمر: ٣٦.

(٥) «تيسير العزيز الحميد» (٥٧).

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٤٥) عن عمر به.

وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ٣٤٣) بتخريجنا.

أمر، والانتهاه عما نهى عنه وزجر، فلا يكون كامل الشهادة له بالرسالة من ترك أمره وأطاع غيره، وارتكب نهيه.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): فإن كثيراً ممن يدعى أنه من أمته أفرط بالغلو قولاً وفعلاً، وفرط بترك متابعتة، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به، وتسف في تأويل أخباره وأحكامه، بصرفها عن مدلولها، والصدوف عن الانقياد لها مع إطراحها، فإن شهادة أن محمداً رسول الله تقتضى الإيمان به، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاه عما نهى عنه وزجر، وأن يعظم أمره ونهيه، ولا يُقدّم عليه قول أحد كائناً من كان. والواقع اليوم وقبله - ممن ينتسب إلى العلم من القضاة والمفتين - خلاف ذلك، والله المستعان.

وروى الدارمي في «مسنده» عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه كان يقول: «إننا لنجد صفة رسول الله ﷺ: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأُميين، أنت عبدي ورسولي، سميتهُ المتوكّل، ليس يفظ ولا غليظ، ولا صحاب بالأسواق، ولا يجزى بالسبيّة مثلها، ولكن يعفو ويتجاوز، ولن أقبضه حتى يُقيم الملة المتعوجة، بأن يشهد أن لا إله إلا الله، يفتح به أعينا عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً»^(٢) قال عطاء بن يسار: وأخبرني أبو واقد الليثي: أنه سمع كعباً يقول مثل ما قال ابن سلام.

قال ابن عثيمين^(٣): فالرسول ﷺ عبدٌ مربوب، جميع خصائص البشرية تلحقه ما عدا شيئاً واحداً، وهو ما يعود بأسافل الأخلاق؛ فهو ممنوع منه، قال تعالى: ﴿قُلْ لَأَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشْداً﴾^(٥) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلتَحِداً^(٥).

فهو بشرٌ مثلنا؛ إلا أنه يُوحى إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾^(٦).

ومن قال: إن الرسول ﷺ ليس له ظل، أو أن نوره يطفىء ظله إذا مشى في الشمس؛ فكله كذب باطل، ولهذا قالت عائشة رضى الله عنها: «كنت أمدّ رجلى بين

(١) تيسير العزيز الحميد.

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري (٢١٢٥) وأخرجه أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص. وانظر تمام تخريجه في «فتح المجيد» (٦٦) بتخريجنا.

(٣) القول المفيد ١/ ٨٠ - ٨٤. (٤) الأعراف: ١٨٨.

(٥) الجن: ٢٢/٢١. (٦) الكهف: آية ١١٠.

يديه، وتعتذر بأن البيوت ليس فيها مصابيح»^(١)، فلو كان النبي ﷺ له نور؛ لم تعتذر رضى الله عنها، ولكنه الغلو الذى أفسد الدين والدنيا، والعياذ بالله.

ومن الغلو قول البوصيرى فى «البردة» المشهورة:

يا أكرم الخلق ما لى من ألؤذبه سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن آخذاً يوم المعاد يدى فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

قال ابن رجب وغيره: إنه لم يترك الله شيئاً ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول

ﷺ.

ونشهد أن من يقول هذا؛ ما شهد أن محمداً عبد الله، بل شهد أن محمداً فوق الله! كيف يصل بهم الغلو إلى هذا الحد؟!.

وهذا الغلو فوق غلو النصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله، وقالوا: إن الله ثالث

ثلاثة.

هم قالوا فوق ذلك، قالوا: إن الله يقول: «من ذكرنى فى ملاً ذكرته فى ملاً خير منه، وأنا مع عبدى إذا ذكرنى»^(٢)، والرسول معنا إذا ذكرناه، ولهذا كان أولئك الغلاة ليلة المولد إذا تلى التالى «المُخْرَف» كلمة المصطفى قاموا جميعاً قيام رجل واحد، يقولون: لأن الرسول الله ﷺ حضر مجلسنا بنفسه، فقمنا إجلالاً له، والصحابة رضى الله عنهم أشد إجلالاً منهم ومناً، ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول ﷺ وهو حى يكلمهم لا يقومون، وهؤلاء يقومون إذا تخللوا أو جاءهم شيخ إن كانوا يشاهدون شيئاً؛ فانظر كيف بلغت بهم عقولهم إلى هذا الحد! فهؤلاء ما شهدوا أن محمداً عبد الله ورسوله، وهؤلاء المخرفون مساكين، إن نظرنا إليهم بعين القدر؛ فنرق لهم، ونسأل الله لهم السلامة والعافية، وإن نظرنا إليهم بعين الشرع؛ فإننا يجب أن ننازهم بالحجة حتى يعودوا إلى الصراط المستقيم، والرسول ﷺ أشد الناس عبودية لله، أخشاهم لله، وأتقاهم لله، قام يصلى حتى تورمت قدماه، وقيل له فى ذلك؛ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٣)، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا تحقيق العبادة العظيمة.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥١٣)، ومسلم فى الصلاة (٢/٤٦٩/٢٧٢).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٤٥)، ومسلم فى الذكر والدعاء (٢/٣١٥ - النووى).

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٤١).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٨٣٧)، ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (١٧/١٦٢ - النووى).

عن عائشة به.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٩٩).

أما الرسالة؛ فهو رسول أرسله الله - عز وجل - بأعظم شريعة إلى جميع الخلق، فبلغها غاية البلاغ، مع أنه أودى وقوتل، حتى إنهم جاؤوا بسلا الجزور وهو ساجد عند الكعبة ووضعوه على ظهره، كل ذلك كراهية له ولما جاء به، ومع ذلك صبر، يلتقون الأذى والأنتان والأقذار على عتبة بابيه، لكن هذا للنبي الكريم امتحان من الله - عز وجل -؛ لأجل أن يتبين صبره وفضله، يخرج ويقول: «أى جوار هذا يابني عبد مناف من قبل قريش؟»^(١)، فصبر ﷺ؛ حتى فتح الله عليه، وأنذر أم القرى ومن حولها، ثم إنه حمل هذه الشريعة من بعده أشد الناس أمانةً وأقواهم على الاتباع؛ الصحابة رضی الله عنهم، وأدوها إلى الأمة نقيّة سليمة، والله الحمد.

ونحبُّ الرسول ﷺ لله وفي الله؛ فحبُّ الرسول ﷺ من حبِّ الله، ونقدّمه على أنفسنا وأهلنا وأولادنا والناس أجمعين، وأحبيناه من أجل أنه رسول الله ﷺ. ونحقق شهادة أن محمداً رسول الله، وذلك بأن نعتقد ذلك بقلوبنا، ونعترف به بالسنتنا، ونطبّق ذلك في متابعتنا ﷺ بجوارحنا، فنعمل بهديه، ولا نعمل له.

أما ما ينقض تحقيق هذه الشهادة؛ فهو:

١ - فعل المعاصي؛ فالمعصية نقص في تحقيق هذه الشهادة؛ لأنك خرجت بمعصيتك من اتباع النبي ﷺ.

٢ - الابتداع في الدين ما ليس منه؛ لأنك تقربت إلى الله بما لم يشرعه الله ولا رسوله ﷺ، والابتداع في الدين في الحقيقة من الاستهزاء بالله؛ لأنك تقربت إليه بشيء لم يشرعه.

فإن قال قائل: أنا نويت التقرب إلى الله بهذا العمل الذي أبدعه.

قيل له: أنت أخطأت الطريق؛ فتعذّر على نيتك، ولا تعذر على مخالفة الطريق متى علمت الحق.

فالمبتدعون قد يقال: إنهم يثابون على حسن نيتهم إذا كانوا لا يعلمون الحق، ولكننا نُخطئهم فيما ذهبوا إليه، أما أئمتهم الذين علموا الحق، ولكن ردّوه لييقوا جاههم؛ ففيهم شبه بأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وغيرهم الذين قابلوا رسالة النبي ﷺ بالرد إبقاءً على رئاستهم وجاههم.

أما بالنسبة لأتباع هؤلاء الأئمة؛ فينقسمون إلى قسمين:

(١) ذكره ابن هشام في «السيرة» (٢/٢٥).

القسم الأول: الذين جهلوا الحق، فلم يعلموا عنه شيئاً، ولم يحصل منهم تقصير في طلبه، حيث ظنوا أن ما هم عليه هو الحق؛ فهؤلاء معذورون.

القسم الثاني: من علموا الحق، ولكنهم ردّوه تعصباً لأنتمهم؛ فهؤلاء لا يعذرون، وهم كمن قال الله فيهم: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ ﴾ (١).
قوله: «وأن عيسى عبد الله ورسوله».

قال ابن حجر^(٢): زاد ابن المديني في روايته «وابن أمته» قال القرطبي: مقصود هذا الحديث التنبيه على ما وقع للنصارى من الضلال في عيسى وأمه، ويستفاد منه ما يلقيه النصراني إذا أسلم.

قال النووي: هذا حديث عظيم الموقع، وهو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد فإنه جمع فيه ما يخرج عنه جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدهم. وقال غيره: في ذكر عيسى تعريض بالنصارى وإيذان بأن إيمانهم مع قولهم بالتثليث شرك محض، وكذا قوله «عبد» وفي ذكر «رسوله» تعريض باليهود في إنكارهم رسالته وقذفه بما هو منزّه عنه وكذا أمه، وفي قوله «وابن أمته» تشريف له، وكذا تسميته بالروح ووصفه بأنه «منه» كقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّر لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ فالمعنى أنه كائن منه كما أن معنى الآية الأخرى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه، أي أنه مكون كل ذلك وموجده بقدرته وحكمته. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): قوله: «وأن عيسى عبد الله ورسوله» أي: خلافاً لما يعتقده النصارى: أنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ (٤) فلا بد أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله على علم ويقين بأنه مملوك لله، خلقه من أنثى بلا ذكر، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٥) فليس رباً ولا إلهاً. سبحان الله عما يشركون. قال تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ

(١) الزخرف: ٢٣. (٢) فتح الباري ٦/٥٤٧.

(٣) فتح المجيد ٥٥ و٥٦ ط مؤسسة قرطبة.

(٤) آل عمران: ٥٩.

(٥) المؤمنون: ٩١.

يَجْعَلُنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١﴾ . وقال:

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (٢) ويشهد المؤمن أيضاً ببطلان قول أعدائه اليهود: إنه ولد بغى، لعنهم الله تعالى. فلا يصح إسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يبرأ من قول الطائفتين جميعاً في عيسى عليه السَّلام، ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه: أنه عبد الله ورسوله. أهـ.

قال ابن عثيمين (٣): - قوله: «وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

الكلام فيها كالكلام في شهادة أن محمداً رسول الله، إلا أننا نؤمن برسالة عيسى، ولا يلزمنا اتباعه إذا خالفت شريعته شريعتنا.

فشريعة من قبلنا لها ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون مخالفة لشريعتنا؛ فالعمل على شرعنا.

الثانية: أن تكون موافقة لشريعتنا؛ فنحن متبعون لشريعتنا.

الثالثة: أن يكون مسكوتاً عنها في شريعتنا، وفي هذه الحال اختلف علماء الأصول:

هل نعمل بها، أو ندعها؟

والصحيح أنها شرع لنا، ودليل ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ (٤).

٢ - قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٥) وقد تطرف في

عيسى طائفتان:

الأولى: اليهود كذبوه، فقالوا بأنه ولد زنى، وأن أمه من البغايا، وأنه ليس بنبي، وقتلوه شرعاً؛ أى: محكوم عليهم عند الله أنهم قتلوه في حكم الله الشرعي؛ لقول تعالى عنهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ (٦)، وأما بالنسبة لحكم الله القدرى؛

(٢) النساء: ١٧٢.

(١) مريم: ٣٦: ٢٩.

(٤) الأنعام: ٩٠.

(٣) القول المفيد ١/ ٨٥ - ٥٩.

(٦) النساء: ١٥٧.

(٥) يوسف: ١١١.

فقد كذبوا، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، ولكن شُبِّهَ لهم، فقتلوا المُشَبَّهَ لهم وصلبوه.

الثانية: النصارى قالوا: إنه ابن الله، وإنه ثالث ثلاثة، وجعلوه إلهاً مع الله، وكذبوا فيما قالوا.

أما عقيدتنا نحن فيه: فنشهد أنه عبد الله ورسوله، وأن أمه صديقة؛ كما أخبر الله تعالى بذلك، وأنها أحصنت فرجها، وأنها عذراء، ولكن مثله عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: كن؛ فيكون.

وفى قوله: «عبد الله».

رد على النصارى.

وفى قوله: «ورسوله».

رد على اليهود.

قوله: «كلمته».

قال ابن حجر^(١): إشارة إلى أنه حجة الله على عباده أبدعه من غير أب وأنطقه في غير أوانه وأحصى الموتى على يده، وقيل: سُمي كلمة الله لأنه أوجده بقوله: «كن»، فلما كان بكلامه سُمي به كما يقال: سيف الله وأسد الله، وقيل: لما قال فى صغره: إني «عبد الله».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): إنما سُمي عليه السلام كلمة الله، لصدوره بكلمة كن بلا أب قاله قتادة وغيره من السلف.

قال الإمام أحمد فيما أملاه فى الرد على الجهمية: الكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له: ﴿كن﴾ فكان عيسى بـ﴿كن﴾، وليس عيسى هو كن، ولكن بـ: «كن» كان، فـ: «كن» من الله قول، وليس: «كن»، مخلوقاً، وكذب النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالت: عيسى روح الله وكلمته، إلا أن الكلمة مخلوقة. وقالت النصارى: عيسى روح الله من ذات الله، وكلمة الله من ذات الله، كما يقال: إن هذه الخرقه من هذا الثوب. وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة انتهى. يعنى به ما قال قتادة وغيره. أهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): أطلق الله عليه كلمة؛ لأنه خلق بالكلمة عليه السلام؛

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٨.

(١) فتح البارى ٦/٥٤٧.

(٣) القول المفيد ١/٨٦ - ٨٧.

فالحديث ليس على ظاهره؛ إذ عيسى عليه السلام ليس كلمة؛ لأنه يأكل، ويشرب، ويبول، ويتغوط، وتجري عليه جميع الأحوال البشرية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١).

وعيسى عليه السلام ليس كلمة الله؛ إذ أن كلام الله وصف قائم به، لا بائن منه، أمّا عيسى؛ فهو ذات بائنة عن الله - سبحانه -، يذهب ويجيء، ويأكل الطعام ويشرب. قوله: «ألقاها إلى مريم».

قال سليمان آل الشيخ (٢): قال ابن كثير: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبرائيل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذن الله عز وجل، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها، بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه، لأنه لم يكن له أب يولد منه وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له: كن، فكان، والروح التي أرسل بها جبرائيل عليه السلام. أهـ.

قال ابن عثيمين (٣): قوله: ﴿أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾. أى: وَجَّهَهَا إِلَيْهَا بقوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

ومريم ابنة عمران ليست أخت موسى وهارون عليهما السلام كما يظنه بعض الناس، ولكن كما قال الرسول ﷺ كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم (٤)، فهارون أخو مريم، ليس هارون أخا موسى، بل هو آخر يسمى باسمه وكذلك عمران سمي باسم أبي موسى. أهـ.

قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾. قال ابن حجر (٥): وأما تسميته بالروح فلما كان أقدره عليه من إحياء الموتى، وقيل لكونه ذا روح وجسد من غير جزء من ذى روح. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٦): قال أبي بن كعب: عيسى روح من الأرواح التي خلقها

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٨.

(٤) [صحيح] رواه مسلم (٣/١٦٨٥).

(٦) تيسير العزيز الحميد ٥٨ و٥٩.

(١) آل عمران : ٥٩

(٣) القول المفيد ١/٨٧.

(٥) فتح الباري ٦/٥٤٧ و٥٤٨.

الله عز وجل واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى مَرْيَمَ فَدَخَلَ فِيهَا (١).

وقال أبو روق: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أى نفخة منه، إذ هى من جبرائيل بأمره، وسمى روحاً لأنه حدث من نفخة جبرائيل عليه السلام.

وقال الإمام أحمد: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ يقول: من أمره كان الروح فيه، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ يقول: من أمره.

قال ابن عثيمين (٢): قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أى: صار جسده عليه السلام بالكلمة، فنفخت فيه هذه الروح التى هى من الله، أى: خلق من مخلوقاته أضيفت إليه تعالى للتشريف والتكريم.

وعيسى عليه السلام ليس روحاً، بل جسد ذو روح، قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ (٣).
فبالنفخ صار جسداً، وبالروح صار جسداً وروحاً.
قوله: ﴿مِنْهُ﴾.

هذه هى التى أضلّت النصارى، فظنوا أنه جزء من الله فضلوا وأضلوا كثيراً، ولكننا نقول: إن الله قد أعمى بصائرهم، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور، فمن المعلوم أن عيسى عليه السلام كان يأكل الطعام، وهذا شئ معروف، ومن المعلوم أيضاً أن اليهود يقولون: إنهم صلبوه، وهل يمكن لمن كان جزءاً من الرب أن ينفصل عن الرب ويأكل ويشرب ويدعى أنه قُتِلَ وَصَلِبَ؟
وعلى هذا تكون «من» للابتداء، وليست للتبعيض، فهى كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾، فلا يمكن أن نقول: إن الشمس والقمر والأنهار جزء من الله، وهذا لم يقل به أحد.

(١) [صحيح] أخرجه عبد الله بن أحمد فى «زوائد السنن» (١٥٣/٥).

ذكر السيوطى فى «الدر» (٣/٢٦٠) وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن منده فى كتاب «الرد على الجهمية واللالكائى»، وابن مردويه، والبيهقى فى «الاسماء والصفات»، وابن عساکر فى «تاريخه».

وانظر «فتح القدير» (٥٣٤٩ - بتخريجنا) و«فتح المجيد». (ح ٦٨ بتخريجنا).

(٢) المائدة (٣) ٧٥.

(٣) القول المفيد ١/٨٧ و٨٨.

فقوله: ﴿مِنْهُ﴾ أى: روح صادرة من الله - عز وجل - وليست جزءاً من الله كما تزعم النصارى.

قال شيخ الإسلام^(١): المضاف إلى الله تعالى: إذا كان معنى: لا يقوم بنفسه ولا غيره من المخلوقات، وجب أن يكون صفة لله تعالى قائماً به، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب، وإن كان المضاف عيناً قائماً بنفسها، كعيسى وجبرائيل عليهما السلام وأرواح بنى آدم، امتنع أن تكون صفة لله تعالى، لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره، لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين:

أحدهما: أن تكون تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها، فهذا شامل لجميع المخلوقات، كقولهم: سماء الله، وأرض الله، ومن هذا الباب فجميع المخلوقين عبيد الله، وجميع المال مال الله، وجميع البيوت، والنوق لله.

الوجه الثانى: أن يضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون فى غيره، وكما يقال عن مال الفىء والخمس: هو مال الله ورسوله، ومن هذا الوجه، فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره، فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقته انتهى ملخصاً.

والمقصود منه أن إضافة روح إلى الله هو من الوجه الثانى، والله أعلم أهـ.

وشرح ذلك ابن عثيمين فقال^(٢): واعلم أن ما أضافه الله إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: العين القائمة بنفسها، وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق، كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾^(٤).

وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفه، كقوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾^(٥) وكقوله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾^(٦)، وهذا القسم مخلوق.

الثانى: أن يكون شيئاً مضافاً إلى عين مخلوقة يقوم بها، مثاله قوله تعالى: ﴿رُوحٌ مِنْهُ﴾، فإضافة هذه الروح إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفاً، فهى روح من الأرواح التى خلقها الله، وليست جزءاً أو روحاً من الله، إذ أن هذه الروح حلت فى عيسى عليه السلام، وهو عين منفصلة عن الله، وهذا القسم مخلوق أيضاً.

(٢) القول المفيد ١/٨٨ و٨٩ و٩٠.

(٤) العنكبوت: ٥٦.

(٦) الشمس: ١٣.

(١) نقلا عن تيسير العزيز الحميد ٥٩.

(٣) الجنائى: ١٣.

(٥) الحج: ٢٦.

الثالث: أن يكون وصفاً غير مضاف إلى عين مخلوقة.

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ (١).

فالرسالة والكلام أضيفا إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فإذا أضاف الله لنفسه صفة، فهذه الصفة غير مخلوقة، وبهذا يتبين أن هذه الأقسام الثلاثة قسما منها مخلوقان، وقسم غير مخلوق.

فالأعيان القائمة بنفسها والمتصل بهذه الأعيان مخلوقة، والوصف الذي لم يذكر له عين يقوم بها غير مخلوق، لأنه يكون من صفات الله، وصفات الله غير مخلوقة. وقد اجتمع القسمان في قوله : «كلمته، وروح منه» فكلمته هذه وصف مضاف إلى الله، وعلى هذا، فتكون كلمته صفة من صفات الله.

وروح منه: هذه أضيفت إلى عين، لأن الروح حلت في عيسى، فهي مخلوقة أهد.

قلت: وعلى هذا فالرد على النصارى سهل في الحلول والتثليث أن تسألهم هل عيسى عليه السلام ذات أم صفة؟! فإن قالوا ذات قلنا يستحيل عقلاً ونقلاً أن يتحد ذاتان في ذات واحدة فضلاً عن ثلاثة في واحد فإن قالوا بل هذا مثل الشمس لها قرص وشعاع وضياء والثلاثة واحد.

والجواب من وجهين:

(الأول) أنكم شبهتهم الخالق بالمخلوق والله ليس كمثلته شيء.

(الثاني) أن الشعاع والضياء صفات للشمس وليست ذوات قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي

جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً ﴾ فلو كان الضياء هو هو الشمس لكان تكرار بلا فائدة.

فإن قالوا بل عيسى صفة فالجواب: لا بد للصفات من ذات تقوم فيها فلا يقول عاقل أن إنساناً ما يكون في بيته مثلاً وبعض صفاته تتمشى وحدها في الطريق وعيسى انفصل عن الذات فيبعد أن يكون صفة. والله أعلم.

قوله : «والجنة حق والنار حق».

قال سليمان آل الشيخ (٢): أى وشهد أن الجنة التى أخبر الله بها فى كتابه أنه أعدها لمن آمن به وبرسوله حق، أى ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التى أخبر الله فى كتابه أنه أعدها للكافرين به وبرسله حق كذلك، كما قال تعالى: ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا عَرْضُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (٣) الآية، وقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٤)،

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٩ و ٦٠.

(٤) البقرة: ٢٤.

(١) الاعراف: ٤٤.

(٣) سورة الحديد: ٢١.

وفيهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافاً لأهل البدع الذين قالوا: لا يخلقان إلا في يوم القيامة، وفيه دليل على المعاد وحشر الأجساد. أهـ.

قوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

قال ابن حجر (١): قوله: «أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة شاء» يقتضى دخوله الجنة وتخيره فى الدخول من أبوابها، وهو بخلاف ظاهر حديث أبى هريرة فى بدء الخلق فإنه يقتضى أن لكل داخل الجنة باباً معيناً يدخل منه، قال: ويجمع بينهما بأنه فى الأصل مخير، لكنه يرى أن الذى يختص به أفضل فى حقه فيختاره فيدخله مختاراً لا مجبوراً ولا ممنوعاً من الدخول من غيره.

قلت - أى: ابن حجر - ويحتمل أن يكون فاعل شاء هو الله، والمعنى أن الله يوفقه لعمل يدخله برحمة الله من الباب المعد لعامل ذلك العمل.

ثم قال: قال البيضاوى فى قوله: «على ما كان عليه من العمل» دليل على المعتزلة من وجهين: دعواهم أن العاصى يخلد فى النار، وأن من لم يتب يجب دخوله فى النار لأن قوله: «على ما كان من العمل» حال من قوله: «أدخله الله الجنة» والعمل حينئذ غير حاصل، ولا يتصور ذلك فى حق من مات قبل التوبة إلا إذا أدخل الجنة قبل العقوبة.

وأما ما ثبت من لازم أحاديث الشفاعة أن بعض العصاة يعذب ثم يخرج فيخص به هذا العموم، وإلا فالجميع تحت الرجاء، كما أنهم تحت الخوف وهذا معنى قول أهل السنة: إنهم فى خطر المشيئة. أهـ.

قال حامد بن محمد بن محسن (٢): على ما كان من العمل بعد أداء الفرائض وذلك لأنه تاركها أو بعضها إما مستحل لتركها فكافر على الإطلاق وإما مستهين بها فكافر أيضاً. وإما متكاسل عنها فقد أوعده بالويل فى فرض الصلاة قال: ﴿فويلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٣).

فسر بثلاثة تفاسير: فُسر بتضييع الأوقات، وقد أمر الله بمحافظتها، قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٤).

وفسر بتضييع الأركان لا يطمئن فى أركانها ولا يأتى بها على المشروع، قال رسول الله ﷺ: «أسرق السرقة من يسرق من صلاته» قالوا: كيف يسرق من صلاته؟ قال: «لا

(٢) فتح الله الحميد المجد ١١٢: ١١٤.

(١) الفتح ٥٤٨/٦.

(٤) البقرة: ٢٣٨.

(٣) الماعون: ٥، ٤.

يتم ركوعها ولا سجودها» (١).

وفسر بعدم حضور القلب، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) أخرجه أى البخارى ومسلم.

ثم استدلل الشيخ رحمه الله بما يدل على أن المراد ليس من لا إله إلا الله، لقلقة اللسان، وقعقة الحروف، بل إنها لا تنفع قائلها إلا إذا قالها وهو يتغى بذلك وجه الله أى يقولها إيماناً واحتساباً وإذا فى كل عمل كما قال ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً» (٣) بمعنى أن يفعله عبادة لا عادة أى الباعث له حب الله وخوفه ورجاؤه وإلا مجرد لفظها بلا معرفة معناها والعمل بمقتضاها لا تنفع فإن المنافقين قالوها وشهدوا أن محمداً رسول الله وكذبهم الله قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤). وقالت الأعراب: آمنا، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (٥) فيبان أن القول باللسان من دون اعتراف بالجان، وعمل بالأركان لا ينفع، كما قيل:

ما احترق لسان أحد بقول نار ولا استغنى أحد بقوله ألف دينار

وكل قول له حقيقة فإن جنت بحقيقته فَصَدَّقَتْ وَصَدَّقَتْ، وقبل منك وإلا فلا.

ويزيدك وضوحاً ما ذكر أن وفد الأزدي وفدوا على رسول الله ﷺ قال ﷺ: «من الوافد ومن القوم»؟ قالوا: إنا مؤمنون، قال ﷺ: «لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانكم»؟ قالوا: إنا مؤمنون بخمسة عشر خصلة، خمس أمرتنا رسلك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا رسلك أن نفعلها، وخمس كنا عليها فى الجاهلية، قال ﷺ: «ما الخمس التى أمرتكم رسلى أن تؤمنوا بها»؟ قالوا: أمرتنا رسلك أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، قال: «وما الخمس التى أمرتكم رسلى أن تفعلوها»؟ قالوا: أمرتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن نصلى ونزكى ونصوم ونحج، قال ﷺ: «وما الخمس التى كتتم عليها فى الجاهلية»؟ قالوا: الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضاء بمر القضاء، والثبات عند اللقاء، وترك شماتة الأعداء، قال:

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٢٢٩/١) والبيهقى فى «الكبرى» (٣٨٦/٢).

(٢) المؤمنون: ١، ٢.

(٣) أخرجه البخارى (١٩٠١)، ومسلم فى صلاح المسافرين (٦/٤٠ - النووى).

(٤) الحجرات: ١٤.

(٥) المنافقون: (١).

قال: ولهما من حديث عتبان: فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجَهَ اللَّهُ» (١).

«حكماء فقهاء كادوا يكونون من فقههم أنبياء»، قال ﷺ: «أنا أزيدكم بخمس: لا
تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، وازهدوا فيما عنه راحلون، وارغبوا فيما
عليه مقبلون، وتوبوا إلى الله الذي أنتم إليه ترجعون» فتأمل.

قال ابن عثيمين (٢): قوله: «أدخله الله الجنة». إدخال الجنة ينقسم إلى قسمين:

الأول: إدخال كامل لم يسبق بعذاب من أتم العمل.

الثاني: إدخال ناقص مسبق بعذاب من نقص العمل.

فالؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاء الله عذبته بقدر عمله، وإن شاء لم يعذبه،

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٣). أهـ.

قوله: «ولهما من حديث عتبان: فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ... إلخ»

● مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جابر الله (٤): ومناسبته للباب أن من وحد الله قولاً واعتقاداً وعملاً
حرم الله عليه دخول النار وذلك من فضل التوحيد.

قال القرعاوي (٥): حيث دل الحديث على أن من مات مخلصاً لله التوحيد سلم من
النار.

قوله: «ولهما».

أى البخارى ومسلم فى «صحيحهما» وهذا الحديث طرف من حديث طويل أخرجه
الشيخان كما قال المصنف.

قلت: ولقد ذكره البخارى فى اثنى عشر موضعاً فى صحيحه ولم أذكرها هنا على

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الصلاة: /باب: المساجد فى البيوت (١/٦١٨/ح٤٢٥) ومسلم
فى المساجد ومواضع الصلاة: /باب: الرخصة فى التخلف عن الجماعة لعذر (٥/١٥٩ - النووى) وأحمد
فى «مسنده» (٤/٤٤)، (٥/٤٤٩).

من طريق ابن شهاب عن محمود بن الربيع الأنصارى، عن عتبان بن مالك
وانظر رياض الصالحين (ح٤١٨) بتخريجنا. و«فتح المجيد» (ح٧٠) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ١/ ٩٠. (٣) النساء: ٤٨.

(٤) الجامع الفريد ١٧. (٥) الجديد: ٤٠.

غير العادة لعدم الإطالة وأيضاً لأن معظم هذه التبويبات بحسب فوائد الحديث وهو طويل والشاهد منه ما ذكره المصنّف فقط.

قوله: من حديث عتبان

قال ابن عثيمين^(١): هو عتبان بن مالك الأنصاري رضى الله عنه، كان يصلى بقومه، فضعف بصره، وشقَّ عليه الذهاب إليهم، فطلب من النبي ﷺ أن يخرج إليه وأن يصلى فى مكان من بيته ليتخذة مصلىً، فخرج إليه النبي ﷺ ومعه طائفة من أصحابه، منهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، فلما دخل البيت، قال: «أين تريد أن أصلى؟» قال: صل ها هنا، وأشار إلى ناحية من البيت فصلّى بهم النبي ﷺ ركعتين، ثم جلس على طعام صنعوه له، فجعلوا يتذاكرون، فذكروا رجلاً يقال له: مالك بن الدخشم، فقال بعضهم: هو منافق، فقال رسول الله ﷺ: «لا نقل هكذا، أليس قال: لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله؟!» ثم قال: «فإن الله حرم على النار...» الحديث.

فنهاهم أن يقولوا هكذا، لأنهم لا يدرون عمّا فى قلبه، لأنّه يشهد أن لا إله إلا الله، وهنا الرسول قال هكذا، ولم يبرئ الرجل، إنّما أتى بعبارة عامة بأنّ الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يتغنى بذلك وجه الله، ونهى أن نطلق ألسنتنا فى عباد الله الذين ظاهراً الصلاح، ونقول: هذا مراء، هذا فاسق، وما أشبه ذلك، لأننا لو أخذنا بما نظرت فسدت الدنيا والآخرة، فكثير من الناس نظرت بهم سوء، ولكن لا يجوز أن نقول ذلك وظاهراً الصلاح، ولهذا قال العلماء: يحرم ظنّ السوء بمسلم ظاهراً العدالة. اهـ.

قال الفقير: وهذا الحديث يدل على ما تقدم من الفرق بين الإسلام الحكيمى، والحقيقى المنجى فالأول الإسلام الذى به يحكم للناس بإسلام فى الدنيا والثانى الذى له شروط سبعة بل وأكثر تنجيهم عند الله تعالى يوم القيامة، وعلى ذلك يتبين كثير من الإشكالات التى تآتى فى ظواهر الأحاديث.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): اعلم أنّه قد وردت أحاديث ظاهراً أنه من أتى بالشهادتين حرم على النار، كذا الحديث.

- وحديث أنس قال: كان النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرّحْلِ، فَقَالَ: «يَا مَعَاذَ قَالَ: لَيْتَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ

(١) القول المفيد ١/ ٩٠ و٩١.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٦٠: ٦٤.

إِلَّا حَرَمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ» قال: يا رسول الله أَلَا أُخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قال: «إِذَا يَتَكَلَّمُوا» فَأَخْبِرْ بِهَا مَعَاذِ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأْتِمًا» (١) أخرجه.

ولمسلم عن عبادة مرفوعاً: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ» (٢).

ووردت أحاديث فيها أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة، وليس فيها أنه يحرم علي النار.

منها حديث عبادة (٣) الذي تقدم قبل هذا.

- وحديث أبي هريرة أنهم كانوا مع النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ . . الحديث، وفيه: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ لَا يَلْقَى اللهُ بِهِمَا [عبد] غَيْرَ شَاكٍ فَيُحْجَبُ عَنِ الْجَنَّةِ» (٤) رواه مسلم.

وحديث أبي ذر في الصحيحين مرفوعاً: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ» . . الحديث (٥).

وأحسن ما قيل في معناه ما قاله شيخ الإسلام وغيره أن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيدة، وقالها خالصاً من قلبه مستيقناً بها قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين، فإن حقيقة التوحيد المنجذب الروح إلى الله جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة لأن الإخلاص هو المنجذب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك.

فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيراً ممن يقول: لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها (٦)، وتواترت بأن الله حرام على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم (٧)، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم على

(١) تقدم تخريجه في موضعه. (٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (١/٢٥١/٤٧).

(٣) تقدم تخريجه في موضعه. (٤) تقدم تخريجه في موضعه.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٨٢٧) ومسلم في الإيمان (١/٣٧١/١٥٤).

(٦) تقدم تحت شرح شروط لا إله إلا الله.

(٧) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم في الإيمان (١/٢٩٩/٢١) عن أبي هريرة. وانظر

تخريجنا أيضاً في «فتح المجيد» (ح٤٧) بتخريجنا.

النار من قال: لا إله إلا الله ، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (١).

لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه أن يفتن عنها عند الموت، فيحال بينه وبينها، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء كما في الحديث:

«سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ» (١) وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم وهم أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم

مُقْتَدُونَ ﴾ وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام، لم يكن في هذه الحال مصراً على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهية لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم من النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان، وهذه التوبة، وهذا الإخلاص، وهذه المحبة، وهذا اليقين، لا يتركون له ذنباً إلا يمحي كما يمحي الليل بالنهار، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر فهذا غير مصراً على ذنب أصلاً، فيغفر له ويحرم على النار، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات. كما في حديث البطاقة (٢) فيحرم على النار ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته على حسناته ومات مصراً على ذلك، فإنه يستوجب النار، وإن قال: لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر، ولكنه لم يمت على ذلك، بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيد، فإنه في حال قولها كان مخلصاً، لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك، بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته، ولا يكون مصراً على سيئة، فإن مات على ذلك دخل الجنة، وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئات راجحة يضعف إيمانه، فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقى معه من الأصغر فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك، فيرجح جانب السيئات، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف بذلك قوله: لا إله إلا الله فيمتنع الإخلاص في القلب، فيصير المتكلم بها

(١) تقدم تحت شرح حديث معاذ السابق.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٢) تقدم تحت شرح قوله تعالى: ﴿أولئك لهم الأمن...﴾ الآية

كالهاذى أو النائم، أو من يُحسِّن صوته بسآية من القرآن من غير ذوق طعم ولا حلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك الصدق واليقين، بل يقولونها من غير يقين وصدق، ويموتون على ذلك ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة، وإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها. وقسى القلب عن قولها، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غيره واطمأن إلى الباطل واستحلى الرفث ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس فى قلبه، وبقيه ما لا يصدق عمله، كما قال الحسن: ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى، ولكن ما قر فى القلوب وصدقته الأعمال، فمن قال خيراً وعمل خيراً قبل منه، ومن قال شراً وعمل شراً لم يقبل منه (١).

وقال بكر بن عبد الله المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صياها ولا صلاة، ولكن بشيء قر فى قلبه (٢)، فمن قال: لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها، بل اكتسب مع ذلك ذنوباً وسيئات، وكان صادقاً فى قولها موقناً بها، لكن ذنوبه أضعاف أضعاف صدقه ويقينه، وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملى، رجحت هذه الأشياء على هذه الحسنة، ومات مصراً على الذنوب، بخلاف من يقولها بيقين وصدق تام، فإنه لا يموت مصراً على الذنوب، إما أن لا يكون مصراً على سيئة أصلاً أو يكون توحيد المتضمن لصدقه ويقينه رجع حسناته، والذين يدخلون النار ممن يقولها قد فاتهم أحد هذين الشرطين: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التامين المنافيين للسيئات، أو لرجحان السيئات، أو قالوها واكتسبوا بعد تلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام، لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات بل ترجح سيئاتهم على حسناتهم، انتهى ملخصاً، وقد ذكر معناه غيره كابن القيم، وابن رجب والمنذرى، والقاضى عياض وغيرهم.

وحاصله: أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، ومقتضى لذلك، ولكن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه، وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع، ولهذا قيل للحسن: إن ناساً يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة.

(١) [جيد] أخرجه الخطيب فى «اقتضاء العلم والعمل» (٥٦) وحسنه شيخنا الفاضل «محمد عمرو بن عبداللطيف» فى تبييض الصحيفة» (١٠١/١) وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٨) بتخريجنا.

(٢) [صحيح] ذكره الغزالي فى «الإحياء» (٢٣/١) ونسبه العراقى فى تخريج الإحياء للترمذى الحكيم فى «نوادى الأصول» وانظر «تبييض الصحيفة» (١١٠/١).

وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٩) بتخريجنا.

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح، ويدل على ذلك أن الله رتب دخول الجنة على الإيمان والأعمال الصالحة، وكذلك النبي ﷺ كما في «الصحيحين».

- عن أبي أيوب، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ فَقَالَ: «تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ»^(١) وفي «المسند»

- عن بشر بن الخصاصية قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ لِأُبَايِعَهُ، فَاسْتَرَطَ عَلَيَّ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنْ أُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَأَنْ أُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَأَنْ أُحْجَّ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَصُومَ رَمَضَانَ، وَأَنْ أُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا أَتُنْتَبِئُ؟ فَوَاللَّهِ مَا أُطِيقُهُمَا الْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، فَقَبَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ ثُمَّ حَرَكَهَا وَقَالَ: «فَلَا جِهَادَ وَلَا صَدَقَةَ، فِيمَ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِذَا؟» قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُبَايِعُكَ عَلَيْهِنَ كُلَّهُنَّ^(٢) ففي الحديث أن الجهاد والصدقة شرط في دخول الجنة مع حصول التوحيد، والصلاة، والحج، والصيام، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وفي الحديث دليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد، وبالعكس، وفيه تحريم النار على أهل التوحيد الكامل، وفيه أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصاً لله تعالى: ١.١هـ.

وذكر هذا الكلام الشيخ عبد الرحمن مختصراً^(٣) فزاد

«تنبيه» قال القرطبي في «تذكرته»: قوله في الحديث «من إيمان» أي من أعمال الإيمان التي هي من أعمال الجوارح، فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من شرائع الإيمان، والدليل على أنه أراد الإيمان ما قلناه، ولم يرد مجرد الإيمان الذي هو التوحيد ونفى الشركاء والإخلاص بقول: لا إله إلا الله: ما في الحديث نفسه من قوله «أخرجوا ثم بعد ذلك يقبض سبحانه قبضة فيخرج قومًا لم يعملوا خيراً قط» يريد بذلك: التوحيد المجرد من الأعمال». أ.هـ ملخصاً من شرح سنن ابن ماجه.

قال الفقير: وفي هذا أيضاً ما تقرر في أكثر من موضع بالتفريق بين الإسلام الحكمي والإسلام المنجى عند الله تعالى يوم القيامة والذي له شروط سبعة وفيه قول ابن منبه السابق. فتنبه لذلك ولا تغفل عنه لعظم فائدته. وراجع المواضع السابقة.

(١) أخرجه البخاري في (٥٩٨٣) ومسلم في الإيمان (١/١٢/٢٠٤).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/٢٢٤).

(٣) فتح المجيد ٦٣: ٦٤.

وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله، قال: كل عبادك يقولون هذا؟ قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري، والأرضون السبع، في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله» رواه ابن حبان، والحاكم وصححه^(١).

● فائدة:

قال ابن عثيمين^(٢): وفي الحديث ردُّ على المرجئة الذين يقولون: يكفي قول: لا إله إلا الله، دون ابتغاء وجه الله.

وفيه ردُّ على الخوارج والمعتزلة، لأنَّ ظاهر الحديث أنَّ مَنْ فعل هذه المحرَّمات لا يُخلَّد في النار، لكنه مستحق للعقوبة، وهم يقولون: إن فاعل الكبيرة مخلَّد في النار. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وقال المصنف: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنى قول لا إله إلا الله، وتبين لك خطأ المغرورين وفيه أن الأنبياء يحتاجون للتبسيه على معنى قول لا إله إلا الله، وفيه التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه، وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله في حديث عتبان: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يتسقى بذلك وجه الله»^(٤) إذا ترك الشرك، ليس قولها باللسان. انتهى ملخصاً. أهـ.

قوله: (وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: قال موسى) الحديث.

● مناسبة الحديث للباب:

(١) [ضعيف] أخرجه النسائي في «الكبرى» في عمل اليوم والليلة «٢٠٨/٦/١٠٦٧٠»، وابن حبان في «صحيحه» «٦١٨٤/٣٠٤/٨» والحاكم في «المستدرک» «٥٢٤/١»، وأبو نعيم في «الحلية» «٣٢٨/٨»، والبعقوي في «شرح السنة» «١٢٧٣/٥٤/٥» من طريق ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن دراج أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد به. قال: الهيثمي في «المجمع» «٨٢/١٠»: رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا وفيهم ضعف. [قلت]: وفي إسناده دراج بن سمعان أبو السمح قال أبو داود: أحاديثه مستقيمة إلا ما كان عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، وانظر ترجمته في «تهذيب الكمال» والحديث صححه الحافظ في «الفتح» «٢١١/١١» على ما بيناه فيه.

وانظر «فتح المجيد» (ح ٨١) بتخريجنا..

(٢) تيسير العزيز الحميد: ٧٠.

(٣) القول المفيد: ٩٣/١.

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

قال عبد الله بن جابر الله^(١): ومناسبة الحديث للباب: أن من قال لا إله إلا الله عن صدق وإخلاص رجح ميزانه وحصل له الفوز والسعادة وهذا من فضل التوحيد أهـ.

قال القرعاوي^(٢): حيث دلّ الحديث على أن كلمة التوحيد لا إله إلا الله هي أفضل الأذكار وأثقلها في الميزان. أهـ.

قوله: (عن أبي سعيد):

قال سليمان آل الشيخ^(٣٢): أبو سعيد: اسمه سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل، وأبوه أيضاً كذلك، استصغر أبو سعيد بأحد، ثم شهد ما بعدها، مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين. وقيل: أربع وسبعين. أهـ.

قوله: «قال موسى يا رب علمنى شيئاً أذكرك وأدعوك به».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: «أذكرك». هو بالرفع خبر مبتدأ محذوف، أى أنا أذكرك، وقيل بل هو صفة، وأدعوك معطوف عليه، أى أثنى عليك وأحمدك به، وأدعوك، أى أتوسل به إليك إذا دعوتك. أهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: «أذكرك وأدعوك به».

صفة لشيء، وليست جواب الطلب، فموسى عليه السلام طلب شيئاً يحصل به أمران:

١- ذكر الله.

٢- دعاؤه.

فأجابه الله بقوله: «قل لا إله إلا الله». أهـ.

قوله: «قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله».

قال سليمان آل الشيخ^(٦): فيه أن الذاكر بها يقولها كلها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة كما يفعله جهال المتصوفة، ولا يقول أيضاً هو كما يقول غلاة جهالهم، فإذا أرادوا الدعاء قالوا: يا هو، فإن ذلك بدعة وضلالة، وقد صنف جهالهم فى المسألتين، وصنف ابن عربى كتاباً سماه كتاب: الهو. أهـ.

(٢) الجديد ٤٢.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٦٥.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٦٥.

(١) الجامع الفريد (١٩).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٦٥.

(٥) القول المفيد ٩٣/١.

قال ابن عثيمين^(١): «قل لا إله إلا الله» وهذه الجملة ذكر متضمن للدعاء، لأنّ
الذاكر يريد رضا الله عنه، والوصول إلى دار كرامته، إذًا، فهو ذكر متضمّن للدعاء، قال
الشاعر:

أذكر حاجتي أم قد كفاني
حباؤك إن شيمتك الحياء^(*)

يعنى: عطاؤك.

واستشهد ابن عباس على أنّ الذكر بمعنى الدعاء بقول الشاعر:

إذا أتني عليك العبد يوماً
كفاه من تعرضه الثناء

قلت: ويستدل له بقوله في الحديث القدسي من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته
أفضل ما أعطى السائلين^(٢) وبقوله ﷺ: «خير الدعاء دعاء عرفة» وأفضل ما قلت: أنا
والنبيون «لا إله إلا الله»^(٣) أخرجه الترمذى وسيأتى قال ابن حجر: الذاكر يحصل له ما
يحصل للداعى إذا شغله الذكر عن الطلب.

قوله: قال: «كل عبادك يقولون هذا».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): هكذا ثبت بخط المصنف. يقولون بالجمع مراعاة لمعنى
كل، والذي فى الأصول يقول بالإفراد مراعاة للفظها دون معناها، لكن قد روى الإمام
أحمد عن عبد الله بن عمرو هذا الحديث بهذا اللفظ الذى ذكره المصنف أطول منه.

وفى «سنن النسائى» و«الحاكم» و«شرح السنة» بعد قوله: «كل عبادك يقولون هذا،
إنما أريد أن تخصنى به»، أى بذلك الشىء من بين عموم عبادك فإن من طبع الإنسان أن
لا يفرح فرحاً شديداً إلا بشىء يختص به دون غيره، كما إذا كانت عنده جوهرة ليست
موجودة عند غيره، مع أن من رحمة الله وستته المطردة أن ما اشتدت إليه الحاجة
والضرورة، كان أكثر وجوداً، كالبر والملاح، والماء ونحو ذلك دون الياقوت واللؤلؤ، ولما
كان بالناس بل بالعالم كله من الضرورة إلى لا إله إلا الله مالا نهاية فى الضرورة فوفاً
كانت أكثر الأذكار وجوداً، وأيسرها حصولاً، وأعظمها معنى، والعوام والجهال يعدلون
عنها إلى الأسماء الغريبة والدعوات المتدعة التى لا أصل لها فى الكتاب والسنة
كالأحزاب والأوراد التى ابتدعتها جهلة المتصوفة. أهـ.

(١) القول المفيد ١/ ٩٣ و ٩٤. (*) كذا فى القول المفيد، وفى فتح البارى (حباؤك) بالياء.

(٢) ذكره الحافظ فى «الفتح» (١٣٨/١١) ونسبه للطبرانى وليه.

(٣) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٥٨٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

وانظر «الأذكار للنوى» (٤٥٦ - بتخرجنا).

(٤) تيسير العزيز الحميد ٦٥.

قال ابن عثيمين^(١): ليس المعنى أنها كلمة هيئة كلُّ يقولها، لأن موسى عليه الصلاة والسلام يعلم عظم هذه الكلمة، ولكنه أراد شيئاً يختصُّ به، لأنَّ تخصيص الإنسان بالأمر يدل على متقبه له ورفعة، فبين الله لموسى أنَّه مهما أعطى فلن يعطى أفضل من هذه الكلمة، وأنَّ لا إله إلا الله أعظم من السموات والأرض وما فيهن، لأنها تميل بهن وترجح، فدلَّ ذلك على فضل لا إله إلا الله وعظمتها لكن لا بد من الإتيان بشروطها، أمّا مجرد أن يقولها القائل بلسانه، فكم من إنسان يقولها لكنها عنده كالريشة لا تساوى شيئاً؛ لأنَّه لم يقلها على الوجه الذى تمت به الشروط وانتفت به المواع. اهـ.

قوله: قال: ياموسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «وعامرهن غيرى». هو بالنصب عطف على السموات، أى: لو أنَّ السموات السبع ومن فيهن من العمار غير الله والأرضين السبع ومن فيهن وضعوا فى كفة الميزان، ولا إله إلا الله فى الكفة الأخرى، مالت بهن لا إله إلا الله.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «أَنَّ تَوْحَاً عَلَيْهِ السَّلَامَ قَالَ لَابْنِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: أَمْرُكَ بِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلَقَةً مُبْهِمَةً قَصَمْتَهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وفيه دليل على أن الله تعالى فوق السموات»^(٣). اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «والأرضين السبع». فى بعض النسخ بالرفع، وهذا لا يصلح؛ لأنه إذا عطف على اسم أن قبل استكمال الخبر وجب النصب.

قوله: «مالت».

أى: رجحت حتى يملن.

قوله: «عامرهن».

أى: ساكنهن؛ فالعامر للشئ هو الذى عمَّر به الشئ.

قوله: «غيرى».

(١) القول المفيد ١/ ٩٤ و ٩٥. (٢) تيسير العزيز الحميد ٦٥ و ٦٦.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٧٠/ ٢) وصححه أحمد شاکر (٦٥٨٣).

وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ٨٤) بتخريجنا.

(٣) القول المفيد ١/ ٩٥.

استثنى نفسه تبارك وتعالى؛ لأنَّ قول لا إله إلا الله ثناء عليه، والمثنى عليه أعظم من الثناء، وهنا يجب أن تعرف أن كون الله تعالى فى السماء ليس ككون الملائكة فى السماء؛ فكون الملائكة فى السماء كون حاجى، فهم ساكنون فى السماء لأنهم محتاجون إلى السماء، لكن الرب تبارك وتعالى ليس محتاجاً إليها، بل إنَّ السماء وغير السماء محتاج إلى الله تعالى؛ فلا يظن ظانُّ أنَّ السماء تقل الله أو تظله أو تحيط به، وعليه؛ فالسماوات باعتبار الملائكة أمكنة مقلة للملائكة، وما فوقهم منها مظلٌّ لهم، أما بالنسبة لله؛ فهى جهة لأن الله تعالى مستوٍ على عرشه، لا يُقلُّه شيء من خلقه. قلت: أى هى الإثبات صفة العلو لله تعالى.

قوله: «والأرضون السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «فى كفة» بكسر الكاف وتشديد الفاء من كفة الميزان. قال بعضهم: ويطلق لكل مستدير. اهـ.

قوله: «مالت بهن لا إله إلا الله».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «مالت بهن لا إله إلا الله»، أى: رجحت عليهن، وذلك لما اشتملت عليه من توحيد الله الذى هو أفضل الأعمال، وأساس الملة، ورأس الدين، فمن قالها بإخلاص ويقين، وعمل بمقتضاها ولوازمها، واستقام على ذلك فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نَزُلًا مِنْ عَفْوَرٍ رَحِيمٍ﴾ (*).

والحديث يدل على أن لا إله إلا الله أفضل الذكر، كما فى:

حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» رواه أحمد والترمذى^(٣). وعنه أيضاً مرفوعاً.

(١) تيسير العزيز الحميد ٦٦.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٦٦ و ٦٧.

(*) فصلت: ٣٠ - ٣٢.

(٣) تقدم تخريجه قريباً.

«يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِنْهَا مَدَ الْبَصَرِ، ثُمَّ يُقَالُ: أَتَنْكُرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟» فيقول: لا يَا رَبُّ، فَيُقَالُ: أَلَيْكَ عَذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ، فَيُهَابُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لا، فَيُقَالُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ، فَيُخْرَجُ لَهُ بَطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: يَا رَبُّ، مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظَلِّمُ، فَيُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كَفَّةٍ؛ وَالْبَطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ» (١) رواه الترمذى وحسنه، والنسائى، وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. وقال الذهبى فى «تلخيصه»: صحيح.

قال ابن القيم: فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب، فتكون صورة العمل واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض. قال: تأمل حديث البطاقة التى توضع فى كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة، وتطيش السجلات، فلا يعذب. ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه.

وعن أبى هريرة مرفوعاً: «مَا قَالَ عَبْدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُخْلِصاً قَطَّ إِلاَّ فَتَحَتْ لَهُ أَيُّوبُ السَّمَاءِ حَتَّى تَفْضِيَ إِلَى الْعَرْشِ مَا أُجْتَنِبَتِ الْكِبَائِرُ» (٢) رواه الترمذى وحسنه والنسائى، والحاكم وقال على شرط مسلم. أه.

قلت: ويوب البخارى فى صحيحه باب فضل التهليل وأورد فيه حديث أبى هريرج وغيره (٣).

قوله: «رواه ابن حبان، والحاكم وصححه».

قال الشيخ سليمان آل الشيخ (٤): قوله: «رواه ابن حبان، والحاكم». ابن حبان إسمه محمد بن حبان - بكسر المهملة وتشديد الموحدة - ابن أحمد بن حبان أبو حاتم التميمى البستى الحافظ صاحب التصانيف «كالصحيح» و«التاريخ» و«الضعفاء» و«الثقات»

(١) [صحيح] أخرجه الترمذى (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم فى «المستدرک» (٦/١) قال الترمذى: حسن غريب.

وانظر «فتح المجيد ح ٨٦» - بتخريجنا -.

(٢) أخرجه الترمذى (٣٥٩٠)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٦٦٩) عن أبى هريرة.

قال الترمذى: حسن غريب.

(٣) البخارى مع الفتح (١١/٢٠٤ ح ٦٤٠٣، ٦٤٠٤). (٤) التيسير ٦٧ - ٦٨.

وللتِّرْمِذِيِّ وَحَسَنَهُ عَنْ أَنَسٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» (١).

وغير ذلك قال الحاكم: كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال، مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بستان بالمهملة.

وأما الحاكم فاسمه محمد بن عبد الله بن محمد الضبي النيسابوري أبو عبد الله الحافظ، ويعرف بابن البيع. ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وصنف التصانيف «كالمستدرک» و«تاريخ نيسابور» وغيرهما، ومات سنة خمس وأربعمائة. أهـ.



● مناسبة الحديث للباب:

قال ابن عثيمين (٢): مناسبة الحديث للترجمة: أن في هذا الحديث فضل التوحيد، وأنه سبب لتكفير الذنوب، فهو مطابق لقوله في الترجمة وما يكفر من الذنوب أهـ.

قال عبد الله بن جار الله (٣): ويستفاد من هذا الحديث.

(١) سعة فضل الله.

(٢) كثرة ثواب التوحيد عند الله وتكفيره للذنوب. وهذه هي مناسبة الحديث للباب.

(١) [صحيح] بغير هذا الإسناد أخرجه الترمذی فی الدعوات/ باب فضل التوبة والاستغفار (٥/٥٤٨/٥)

. (٣٥٤).

من طريق بكر بن عبد الله المزني، عن أنس به.

قال الترمذی: حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه والحديث فيه كثير بن فائد وهو مقبول كما قال عنه الحافظ في «التقريب» والحديث له شواهد من حديث أبي ذر عند مسلم والبيهقي وغيرهما من حديث ابن عباس عند الدارمی وغيره فالحديث حسن بشواهد. قال ابن رجب: وإسناده لا بأس به. وسعيد بن عبيد، هو الهنائي: ذكره ابن حبان في الثقات. وقال الدارقطني تفرد به كثير بن فائد عن سعيد بن عبيد مرفوعاً.

قال ابن رجب: وتابعه على رفعه أبو سعيد بمولى بني هاشم، فرواه عن سعيد بن عبيد مرفوعاً، وقد رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذر بمعناه، وأخرجه الطبرانی من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ٤٤٣) بتخریجنا.

وانظر «فتح المجيد» (٨٧ - بتخریجنا).

(٢) القول المفيد / ١ / ١٠٠ . (٣) الجامع الفريد ١٩ .

قال القرعاوى^(١): حيث دلّ الحديث على أن من مات خالصاً من الشرك بجميع أنواعه دخل الجنة ولو كانت ذنوبه ملء الأرض. أهـ.
قوله: «وللترمذى وحسنه».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): الترمذى اسمه محمد بن عيسى بن سورة - بفتح المهملة - ابن موسى بن الضحاك السلمى أبو عيسى صاحب «الجامع» وأحد الأئمة الحفاظ، كان ضريب البصر روى عن قتيبة وهناد والبخارى وخلق، ومات سنة تسع وسبعين وميتين. أهـ.

قوله: «عن أنس».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وأنس هو ابن مالك بن النضر الأنصارى الخزرجى، خادم رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين.

ودعا له النبى ﷺ. فقال: «اللَّهُمَّ أَكْثَرُ مَالِهِ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ»^(٤) ومات سنة اثنتين وقيل: ثلاث وتسعين. وقد جاوز المائة والحديث قطعة من حديث رواه الترمذى من طريق كثير بن فائد: حدثنا سعيد بن عبيد، سمعت بكر بن عبد الله المزنى يقول: حدثنا أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض...» الحديث^(٥).

وروى مسلم من حديث أبى ذر عن النبى ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ: مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا...» الحديث وفيه «وَمَنْ لَقِنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً، لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيْتَهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً»^(٦).

قوله: «قال الله تعالى: يا ابن آدم... إلخ».

(١) الجديد: ٤٤. (٢) تيسير العزيز الحميد ٦٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٦٨.

(٤) أخرجه البخارى (٦٣٧٨)، ومسلم الفضائل (٨/٢٧٧/١٤١).

وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ٨٩) بتخريجنا.

(٥) تقدم تخريجه قريباً.

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء (٩/١٦/٢٢). وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد»

(ح ٩٠) بتخريجنا.

قال ابن عثيمين^(١): هذا من الأحاديث القدسية، والحديث القدسي: ما رواه النبي ﷺ عن ربه، وقد أدخله المحدثون في الأحاديث النبوية، لأنه منسوب إلى النبي ﷺ تليغاً، وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحد منهما قد بلغه النبي ﷺ أمته عن الله - عز وجل -.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في لفظ الحديث القدسي: هل هو كلام الله تعالى، أو أن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ معناه واللفظ لفظ رسول الله ﷺ؟ على قولين:

القول الأول: أن الحديث القدسي من عند الله لفظه ومعناه؛ لأن النبي ﷺ أضافه إلى الله تعالى، ومن المعلوم أن الأصل في القول المضاف أن يكون بلفظ قائله لا ناقله، لاسيما والنبي ﷺ أقوى الناس أمانة وأوثقهم رواية.

القول الثاني: أن الحديث القدسي معناه من عند الله ولفظه لفظ النبي ﷺ، وذلك لوجهين:

الوجه الأول: لو كان الحديث القدسي من عند الله لفظاً ومعنى؛ لكان أعلى سنداً من القرآن؛ لأن النبي ﷺ يرويه عن ربه تعالى بدون واسطة؛ كما هو ظاهر السياق، أما القرآن؛ فنزل على النبي ﷺ بواسطة جبريل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾. وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾.

الوجه الثاني: أنه لو كان لفظ الحديث القدسي من عند الله؛ لم يكن بينه وبين القرآن فرق؛ لأن كليهما على هذا التقدير كلام الله تعالى، والحكمة تقتضى تساويهما في الحكم حين اتفقا في الأصل.

ومن المعلوم أن بين القرآن والحديث القدسي فروق كثيرة:

منها: أن الحديث القدسي لا يتعبد بتلاوته، بمعنى أن الإنسان لا يتعبد لله تعالى بمجرد قراءته؛ فلا يثاب على كل حرف منه عشر حسنات، والقرآن يتعبد بتلاوته بكل حرف منه عشر حسنات.

ومنها: أن الله تعالى تحدى أن يأتي الناس بمثل القرآن أو آية منه، ولم يرد مثل ذلك في الأحاديث القدسية.

(١) القول المفيد / ١ - ٩٦ - ٩٩.

ومنها: أن القرآن محفوظ من عند الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، والأحاديث القدسية بخلاف ذلك؛ ففيها الصحيح والحسن، بل أضيف إليها ما كان ضعيفاً أو موضوعاً، وهذا وإن لم يكن منها لكن نسب إليها وفيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص.

ومنها: أن القرآن لا يجوز قراءته بالمعنى بإجماع المسلمين، وأما الأحاديث القدسية؛ فعلى الخلاف في جواز نقل الحديث النبوي بالمعنى والأكثر على جوازه.

ومنها: أن القرآن تشرع قراءته في الصلاة ومنه ما لا تصح الصلاة بدون قراءته، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يمسح إلا طاهر على الأصح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يقرؤه الجنب حتى يغتسل على القول الراجح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن ثبت بالتواتر القطعي المفيد للعلم اليقيني، فلو أنكر منه حرفاً أجمع القراء عليه؛ لكان كافراً، بخلاف الأحاديث القدسية؛ فإنه لو أنكر شيئاً منها مدعياً أنه لم يثبت؛ لم يكفر، أما لو أنكره مع علمه أن النبي ﷺ قاله؛ لكان كافراً لتكذيبه النبي ﷺ.

وأجاب هؤلاء عن كون النبي ﷺ أضافه إلى الله، والأصل في القول المضاف أن يكون لفظ قائله بالتسليم أن هذا هو الأصل، لكن قد يضاف إلى قائله معنى لا لفظاً؛ كما في القرآن الكريم؛ فإن الله تعالى يضيف أقوالاً إلى قائليها، ونحن نعلم أنها أضيفت معنى لا لفظاً، كما في «قصص الأنبياء» وغيرهم، وكلام الهدهد والنملة؛ فإنه بغير هذا اللفظ قطعاً.

وبهذا يتبين رجحان هذا القول، وليس الخلاف في هذا كالخلاف بين الأشاعرة وأهل السنة في كلام الله تعالى؛ لأن الخلاف بين هؤلاء في أصل كلام الله تعالى؛ فأهل السنة يقولون: كلام الله تعالى كلام حقيقي مسموع يتكلم سبحانه بصوت وحرف، والأشاعرة لا يثبتون ذلك، وإنما يقولون: كلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه، وليس بحرف وصوت، ولكن الله تعالى يخلق صوتاً يعبر به عن المعنى القائم بنفسه، ولاشك في بطلان قولهم، وهو في الحقيقة قول المعتزلة؛ لأن المعتزلة يقولون: القرآن مخلوق، وهو كلام الله، وهؤلاء يقولون: القرآن مخلوق، وهو عبارة عن كلام الله؛ فقد اتفق الجميع على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق.

ثم لو قيل في مسألتنا - الكلام في الحديث القدسي - إن الأولى ترك الخوض في

هذا؛ خوفاً من أن يكون من التنطع الهالك فاعله، والاختصار على القول بأن الحديث القدسي ما رواه النبي ﷺ عن ربه وكفى؛ لكان ذلك كافياً، ولعله أسلم والله أعلم.

● (فائدة).

إذا انتهى سند الحديث إلى الله تعالى سمي (قدسياً)؛ لقدسيته وفضله، وإذا انتهى إلى الرسول ﷺ سمي مرفوعاً، وإذا انتهى إلى الصحابي سمي موقوفاً، وإذا انتهى إلى التابعي فمن بعده سمي مقطوعاً. أهـ.

قوله: «لو أتيتني بقراب الأرض».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قراب الأرض. بضم القاف. وقيل بكسرهما، والضم أشهر وهو ملؤها أو ما يقارب ملأها. اهـ.

وبنحوه - قال ابن عثيمين^(٢): قوله «خطايا»:

قال ابن عثيمين^(٣): جمع خطيئة، وهي الذنب، والخطايا الذنوب؛ ولو كانت صغيرة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾^(٤).

قوله: «ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً».

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قوله: «ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً». شرط ثقيل في الوعد بحصول المغفرة، وهو السلامة من الشرك كثيره وقليله، صغيره وكبيره، ولا يسلم من ذلك إلا من سلمه الله، وذلك هو القلب السليم. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٦). اهـ.

قال ابن رجب: من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله عز وجل، فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذته يذنوبه، ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار، بل يخرج منها ثم يدخل الجنة، فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه، أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيماً وإجلالاً ومهابة

(٢) القول المفيد ١/ ٩٩.

(٤) البقرة: ٨١.

(٦) الشعراء: ٨٨.

(١) تيسير العزيز الحميد ٦٩.

(٣) القول المفيد ١/ ٩٩ - ١٠٠.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٦٩ و ٧٠.

وخشية وتوكلاً، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياها كلها ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات، فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وضع منه ذرة على جبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات. أهـ.

وقال ابن تيمية: الشرك نوعان: أكبر، وأصغر، فمن خلص منهما وجبت له الجنة، ومن مات على الأكبر وجبت له النار، ومن خلص من الأكبر وحصل له بعض الأصغر مع حسنات راجحة على ذنوبه دخل الجنة، فإن تلك الحسنات توحيد كثير مع يسير من الشرك الأصغر، ومن خلص من الأكبر، ولكن كثر الأصغر حتى رجحت به سيئاته دخل النار، فالشرك يؤخذ به العبد إذا كان أكبر أو كان كثيراً أصغر، والأصغر القليل في جانب الإخلاص الكثير لا يؤخذ به. أهـ.

قال ابن عثيمين^(١): - قوله: «لاشرك بي شيئاً». جملة «لاشرك» في موضع نصب على الحال من التاء؛ أى: لقيتني في حال لاشرك بي شيئاً.

قوله: «شيئاً» نكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ أى: لاشركاً أصغر ولا أكبر. وهذا قيد عظيم قد يتهاون به الإنسان، ويقول: أنا غير مشرك وهو لا يدري؛ فحب المال مثلاً بحيث يلهى عن طاعة الله من الإشراك، قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الذهب، تعس عبد الحمصية، تعس عبد الحميلة...» الحديث^(٢). فسمى النبي ﷺ من كان هذا همه سماً: عبداً له.

قوله: «لأيتك بقراها مغفرة».

أى: أن حسنة التوحيد عظيمة تُكفّر الخطايا الكبيرة إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئاً، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه. أهـ.

● كلمة في خاتمة أحاديث الباب:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وفي هذه الأحاديث كثرة ثواب التوحيد، وسعة كرم الله وجوده ورحمته، حيث وعد عباده أن العبد لو أتاه بملء الأرض خطايا وقد مات على التوحيد فإنه يقابله بالمغفرة الواسعة التي تسع ذنوبه، والرد على الخوارج الذين يكفرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة الذين يقولون بالمنزلة بين المنزلتين وهي منزلة الفاسق،

(٢) سيأتي تخريجه.

(١) القول المفيد ١/ ١٠٠.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٧٠.

فيقولون: ليس بمؤمن ولا كافر ويخلد في النار والصواب في ذلك قول أهل السنة أنه لا يسلب عنه اسم الإيمان على الإطلاق، ولا يعطاه على الإطلاق، بل يقال: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن عاص أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته. وعلى هذا يدل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

قال الفقير: * وفي القرآن من فضائل التوحيد غير ما تقدم.

(١) * تكفيره للسيئات: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (١) * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

(٢) * الهداية والثبات والأمن وعدم الخوف والزيغ والحزن: ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٣)، ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ (٤)، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٥)، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (٦)، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٧)، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ (٨).

(٣) * السكينة زيادة الإيمان: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (٩).

* التمكين في الأرض: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (١٠).

(٢) المائة: ٦٦

(٤) سبأ: ٤٦

(٦) فصلت: ٣٠ - ٣٢

(٨) يونس: ٩

(١٠) التور: ٥٥

(١) المائة: ٦٥

(٣) إبراهيم: ٢٧

(٥) الأنعام: ٨٢

(٧) فصلت: ٣٣

(٩) الفتح: ٤

(٤) * النصر: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

(٥) * الولاية: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٢).

(٦) * الشفاعة: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ ﴾ (٣).

(٧) * شرح الصدر وعدم الاضطراب وصلاح الحال والبال: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ (٤). ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥).

(٨) * الرزق: ﴿ وَلَوْ أَن أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٦).

(٩) * العزة: ﴿ يَقُولُونَ لئن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٧).

(١٠) * الرفعة: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٨).



(١) الروم: ٤٧.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

(٣) الزخرف: ٨٦.

(٤) الأنعام: ١٢٥.

(٥) الزمر: ٢٩.

(٦) الاعراف: ٩٦.

(٧) المنافقون: ٨.

(٨) المجادلة: ١١.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: سَعَةٌ فَضْلِ اللَّهِ.

الثانية: كَثْرَةُ ثَوَابِ التَّوْحِيدِ عِنْدَ اللَّهِ.

الثالثة: تَكْفِيرُهُ مَعَ ذَلِكَ لِلذَّنُوبِ.

الرابعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

الخامسة: تَأْمَلُ الْخَمْسَ اللَّوَاتِي فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ.

السادسة: أَنَّكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ عَتَبَانَ وَحَدِيثِ ابْنِ سَعِيدٍ

وَحَدِيثِ أَنَسٍ تَبَيَّنَ لَكَ مَعْنَى قَوْلٍ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَتَبَيَّنَ لَكَ خَطَأُ الْمَغْرُورِينَ.

قوله: «فيه مسائل».

● الأولى: «سعة فضل الله» قال ابن عثيمين^(١): لقوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

● الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله. لقوله: «مالت بهن لا إله إلا الله».

● الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب. لقوله: «لأيتيك بقرابها مغفرة»؛ فالإنسان قد تغلبه نفسه أحياناً؛ فيقع في الخطايا، لكنه مخلص لله في عبادته وطاعته؛ فحسنة التوحيد تكفر عنه الخطايا إذا لقي الله بها.

● الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام: وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾؛ فالظلم هنا الشرك؛ لقوله ﷺ: «ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

● الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

١ - ٢ - الشهادتان.

٣ - أن عيسى عبد الله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه.

٤ - أن الجنة حق.

٥ - أن النار حق.

● السادسة: أَنَّكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ عَتَبَانَ، وَحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ، وَحَدِيثِ أَنَسٍ؛

تَبَيَّنَ لَكَ مَعْنَى قَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَتَبَيَّنَ لَكَ خَطَأُ الْمَغْرُورِينَ.

(٢) تقدم تخريجه.

(١) القول المفيد ١/١٠١ - ١٠٨.

السابعة: التَّنبِيهُ لِلشَّرْطِ الَّذِي فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ.

الثامنة: كَوْنُ الْأَنْبِيَاءِ يَحْتَاجُونَ لِلتَّنبِيهِ عَلَى فَضْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

التاسعة: التَّنبِيهِ لِرُجْحَانِهَا بِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَقُولُهَا يَخْفُ مِيزَانُهُ.

العاشرة: النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ كَالسَّمَوَاتِ.

لأنَّه لا بدَّ أن يتغى بها وجه الله، وإذا كان كذلك؛ فلا بدَّ أن تحمل المرء على العمل الصالح.

● السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.

وهو أن يتغى بقولها وجه الله، ولا يكفي مجرد القول؛ لأنَّ المنافقين كانوا يقولونها ولم تنفعهم.

● الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله. فغيرهم من باب أولى. قلت: ليس على أصل فضلها إنما على كمال فضلها.

● التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أنَّ كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه. فالبلاء من القائل لا من القول؛ لأنَّه قد يكون اختلَّ شرطٌ من الشروط أو وجد مانع من الموانع؛ فإنَّها تخف بحسب ما عنده، أمَّا القول نفسه؛ فيرجح بجميع المخلوقات.

● العاشرة: النص على أنَّ الأرضين سبع كالسماوات.

لم يرد في القرآن تصريح بذلك، بل ورد صريحاً أنَّ السماوات سبع بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾^(١)، لكن بالنسبة للأرضين لم يرد إلا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾^(٢)؛ فالثلثية بالكيفية غير مرادة لظهور الفرق بين السماء والأرض في الهيئة، والكيفية، والارتفاع، والحسن؛ فبقيت المثلثية في العدد.

أمَّا السنَّة؛ فهي صريحة جداً بأنَّها سبع؛ مثل قوله ﷺ: «من اقتطع شبراً من الأرض؛ طوقه يوم القيامة من سبع أرضين»^(٣).

وقد اختلف في قوله ﷺ: «من سبع أرضين»؛ كيف تكون سبعاً؟

(١) المؤمنون ٨٦ (٢) الطلاق: ١٢.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٤٥٢)، ومسلم فى المساقاة (١٣٧/٥٣/٦) عن سعيد بن زيد.

وانظر «كتابنا فقه الخطابة».

الحادية عشرة: أَنْ لَهْنٌ عُمَارًا.

الثانية عشرة: إِبْثَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ.

الثالثة عشرة: أَنْكَ إِذَا عَرَفْتَ حَدِيثَ أَنَسٍ، عَرَفْتَ أَنَّ قَوْلَهُ فِي حَدِيثِ عَتَبَانَ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» أَنْ تَرَكَ الشُّرْكَ، لَيْسَ قَوْلُهَا بِاللِّسَانِ.

الرابعة عشرة: تَأْمَلُ الْجَمْعَ بَيْنَ كَوْنِ عَيْسَى وَمُحَمَّدٍ عَبْدَى اللَّهِ وَرَسُولِيهِ.

فَقِيلَ: الْمُرَادُ: الْقَارَاتِ السَّبْعُ، وَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّ هَذَا يَمْتَنِعُ بِالنِّسْبَةِ لِقَوْلِهِ: «طَوْقُهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»، وَقِيلَ: الْمُرَادُ الْمَجْمُوعَةُ الشَّمْسِيَّةُ، لَكِنْ ظَاهِرُ النُّصُوصِ أَنَّهَا طَبَاقٌ كَالسَّمَاوَاتِ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَقُولَ إِلَّا مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَنْ هَذِهِ الْأَرْضِيِّينَ؛ لِأَنَّهَا لَا نَعْرِفُهَا.

● الحادية عشرة: أَنْ لَهْنٌ عُمَارًا.

أى: السَّمَاوَاتِ، وَعِمَارُهُنَّ الْمَلَائِكَةُ.

● الثانية عشرة: إِبْثَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ.

وَفِي بَعْضِ النُّسخِ خِلَافًا لِلْمُعْطَلَةِ، وَهَذِهِ أَحْسَنُ؛ لِأَنَّهَا أَعَمُّ، حَيْثُ تَشْمَلُ الْأَشْعَرِيَّةَ وَالْمُعْتَزِلَةَ الْجَهْمِيَّةَ وَغَيْرَهُمْ؛ فَفِيهِ إِبْثَاتُ الْوَجْهِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: «يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»، وَإِبْثَاتُ الْكَلَامِ بِقَوْلِهِ: «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا» وَإِبْثَاتُ الْقَوْلِ فِي قَوْلِهِ: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

● الثالثة عشرة: إِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ حَدِيثَ أَنَسٍ؛ عَرَفْتَ أَنَّ قَوْلَهُ فِي حَدِيثِ عَتَبَانَ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» أَنْ تَرَكَ الشُّرْكَ. وَفِي بَعْضِ النُّسخِ: إِذَا تَرَكَ الشُّرْكَ.

أى: أَنَّ قَوْلَهُ: «حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ» (يَعْنِي: تَرَكَ الشُّرْكَ)، وَلَيْسَ مَجْرَدُ قَوْلِهَا بِاللِّسَانِ؛ لِأَنَّ مِنْ ابْتِغَى وَجْهَ اللَّهِ فِي هَذَا الْقَوْلِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْرِكَ أَبَدًا.

● الرابعة عشرة: تَأْمَلُ الْجَمْعَ بَيْنَ كَوْنِ كُلِّ مِنْ عَيْسَى وَمُحَمَّدٍ عَبْدَى اللَّهِ وَرَسُولِيهِ.

عَبْدَى: مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ خَبِرَ كَوْنُ؛ لِأَنَّ كَوْنَ مَصْدَرٌ كَانَ وَتَعْمَلُ عَمَلُهَا.

الخامسة عشرة: مَعْرِفَةُ اخْتِصَاصِ عِيسَى بِكَوْنِهِ كَلِمَةَ اللَّهِ.

السادسة عشرة: مَعْرِفَةُ كَوْنِهِ رُوحاً مِنْهُ.

السابعة عشرة: مَعْرِفَةُ فَضْلِ الْإِيمَانِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

الثامنة عشرة: مَعْرِفَةُ قَوْلِهِ «عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»

وعيسى ومحمد: اسم كون.

وتأمل الجمع من وجهين:

الأول: أنه جمع لكل منهما بين العبودية والرسالة.

الثاني: أنه جمع بين الرجلين؛ فتبين أن عيسى مثل محمد، وأنه عبد ورسول، وليس رباً ولا ابناً للرب - سبحانه -.

وقول المؤلف: «تأمل»؛ لأنَّ هذا يحتاج إلى تأمل.

قلت: والمراد الرد على اليهود والنصارى وغلاة المبتدعة في هذه الأمة كما تقدم.

● الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.

أى: أن عيسى انفرد عن محمد في أصل الخَلْقَةِ؛ فقد كان بكلمة، أما محمد ﷺ؛ فقد خُلِقَ من ماء أبيه.

قلت: والكلمة كما تقدم هي «كن» وليس «هوكن».

● السادسة عشرة: معرفة كونه روحاً منه.

أى: أن عيسى روح من الله، و«من» هنا بيانية أو للابتداء، وليست للتبويض؛ أى: روح جاءت من قِبَلِ اللَّهِ وليست بعضاً من الله، بل هي من جملة الأرواح المخلوقة.

● السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار.

لقوله في حديث عبادة: «وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ»، والفضل أنه من أسباب دخول الجنة.

● الثامنة عشرة: معرفة قوله: «على ما كان من العمل».

أى: على ما كان من العمل الصالح ولو قل، أو على ما كان من العمل السيئ ولو

التاسعة عشرة: مَعْرِفَةُ أَنَّ الْمِيزَانَ لَهُ كِفَتَانِ.

العشرون: مَعْرِفَةُ ذِكْرِ الْوَجْهِ.

كثُرَ، بشرط أن لا يأتي بما ينافي التوحيد ويوجب الخلود في النار، لكن لا بد من العمل.

ولا يلزم استكمال العمل الصالح كما قالت المعتزلة والخوارج، ولم تُذكر أركان الإسلام هنا؛ لأنَّ منها ما يكفر الإنسان بتركه، ومنها ما لا يكفر، فإنَّ الصحيح أنَّه لا يكفر إلا بترك الشهادتين والصلاة، وإن كان روى عن الإمام أحمد أنَّ جميع أركان الإسلام يكفر بتركها؛ لكن الصحيح خلاف ذلك.

● التاسعة عشرة: معرفة أنَّ الميزان له كفتان.

أخذها المؤلف من قوله: «لو أن السماوات... إلخ، وضعت في كفة ولا إله إلا الله في كفة».

والظاهر أن الذي في الحديث تمثيل، يعني أنَّ قوله: لا إله إلا الله أرجح من كل شيء، وليس في الحديث أنَّ هذا الوزن في الآخرة، وكأنَّ المؤلف رحمه الله حصل عنده انتقال ذهني؛ فانتقل ذهنه من هذا إلى ميزان الآخرة.

● العشرون: معرفة ذكر الوجه.

يعنى: وجه الله تعالى، وهو صفة من صفاته الخبيرة الذاتية التي سماها بالنسبة لنا أبعاد وأجزاء؛ لأنَّ من صفات الله تعالى ما هو معنى محض، ومنه ما سماه بالنسبة لنا أبعاد وأجزاء، ولانقول بالنسبة لله تعالى أبعاد؛ لأننا نتحاشى كلمة التبعيض في جانب الله تعالى.

قلت: وفي الحديث من الفوائد بخلاف ما تقدم.

(١) علو همة الأنبياء واجتهادهم في العبادة حيث لم يكتف موسى بما أوحى إليه بل طلب المزيد فلهم في الآخرة الحسنَى وزيادة.

(٢) فضيلة من يطلب التميز في أمور الآخرة.

(٣) إثبات العلو والفوقية لله تعالى وأنه في السماء وذلك لقوله تعالى: ﴿وَعَامِرْهُنَّ غَيْرِي﴾ ولم يقل ذلك في الأرض.

